د/ أحمد بن نعمان

مستقبل اللغة العربية
بين محاربة الأعداء
وإرادة السماء

Dar El Oumma دار الأمة

جميع الحقوق محفوظة

شركة دار الأمة

للطباعة والنشر والتوزيع

ص. ب 109 برج الكيفان 16120 الجزائر

E-Mail: Dar-el-Oumma @ mail.com

تصفيف ومعالجة النص: ياسين أصنـام

الطبعة الأولى

2008

إيداع قانوني: 2007 / 242

ردمك: 7 203 67 9961 978

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـداء

إلى كل أبناء الأمة الأصلاء الذين يفرّقون بين الشرف والعلف، والغاية والوسيلة، والأمة والقبيلة، ويبوّئون لغة الأمة مكانتها في واقعهم الحضاري والإداري، مثلما هي مبوأّة ومرفوعة مع كتابها في اللوح المحفوظ.

المؤلف

المقدمة

إذا كان لكل كائن حي في هذا الوجود صفات وخصائص بنيوية، ومميزات في الخلق والتكوين جوهرية، ووظيفة أساسية أعد لها في هذه الحياة، ووهبت له من أجلها قدرات نوعية تختلف عما لدى غيره من المخلوقات، وتتكامل معها في دورة الحياة، فإن من خصائص هذا المخلوق الإنساني الفريد من نوعه في العالمين هو تكوينه الثنائي من المادة الترابية العضوية، والروح النورانية الأبدية...

ومن مميزاته الجوهرية ما فوق الحيوانية والنباتية، هو خاصية العقل لديه والنطق والحرية، في الاختيار بين البدائل والأغيار، في تقبل الرسالة وتحمل الأمانة والمسؤولية على ما يجترحه من أفعال وما يلفظه من أقوال!!

ومن هنا كان لخاصية النطق والعقل لديه وظيفة مزدوجة، جسدية مادية، وروحية معنوية، حياتية تعبدية دنيوية من جهة، وأخروية من جهة أخرى، متساوية معها في الجزاء على العمل قولا أو فعلا، على حد سواء!!.

وإن ارتباط القول والخطاب والمسؤولية عنهما، والحساب عليهما، بالتبليغ والتذكير والتعبير، يتجلى كله في الكلمة التي ألقاها الله في الكون بقوله: «كن»، فكان آدم الإنسان عليه السلام، وبدأ تكليفه كمستخلف برسالة الحق، بعد ضبط قواعد المهمة الاستخلافية في الأرض، بموهبة النطق والكلام، وتعليمه الأسماء كلها من الجماد والنبات والحيوان... وتحديد شروط العبادة ومنهج السماء للإنسان، بتوضيح معالمه بالأوامر والنواهي المتمثلة في «افعل

ولا تفعل»، فبدأت من ساعتئذ مهمة آدم النبي الرسول، وآدم البشر المسؤول، وبدأت العبادة والطاعة، وتواصلت منذئذ رسالة الحق والصدق والمنهج الواضح لكل عاقل ناطق بالغ مسؤول مخير أمام البدائل، من آدم وبنيه... مرورا بكل الأنبياء والمرسلين... إلى خاتمهم أجمعين (محمد) ﷺ النبي الأمي المكلف بالقراءة، المبعوث بالرسالة الجامعة المانعة، المستوعبة لكل الرسالات، الشاملة لكل العبادات، المسطرة للعقلاء من خلق الله إلى يوم الدين!!

ولهذه المهمة العبادية والتعبدية المستمرة في الحياة ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ (الذاريات / 56) خص الله الإنسان بموهبة العقل والنطق، مناط التكليف والتشريف والإدراك والفهم والتمييز بين الخطأ والصواب في الخطاب، وتحمل المسؤولية في التلقي عن السماء، ونقل منهج السماء إلى الأغيار بعد حسن التفكير والتدبير، ولهذا كان الحساب، وكان الثواب على قدر المشقة والعزيمة في التبليغ، وإجادة التفكير والتعبير، للتأثير في النفوس بطلاقة اللسان وحجة البيان...

وإذا كانت اللغة من الناحية الشعورية والوجدانية تمثل روح الأمة، ومن الناحية الثقافية والحضارية تمثل الوعاء والوسيلة الناقلة للأفكار والتقاليد والخبرات عبر الأجيال المتعاقبة على تاريخ الأمم والشعوب، وكانت اللغة من الناحية السياسية هي معالم الحدود الحقيقية للرقعة الجغرافية الوطنية والقومية، وكانت من الناحية السياسية والسيادية هي أهم أسس الهوية ومكونات الشخصية والوحدة الوطنية لأية مجموعة بشرية، تعيش في انسجام على وجه الكرة الأرضية...

إذا كانت اللغة كذلك، فلأنها تعتبر بدون منازع أفضل وسيلة للتفاهم بين الأفراد، والتعبير عن أفكارهم، وهي وإن لم تعتبر الأداة الوحيدة للاتصال بين

الأشخاص، إلا أنها أداة لا غنى عنها لبني البشر لبناء الحضارات وتشكيل الأمم وتوحيد الأوطان، كما أن للغة أهمية كبرى لكونها أداة فعالة لشحذ الذاكرة ونقل المعرفة والتعبير عن المفاهيم المعقدة، وفي ذلك يقول الباحث العربي نور الدين حاطوم: «لقد أصبحت اللغة ابتدءا من منتصف القرن التاسع عشر من أهم المقومات المحددة لجنسية أي شعب أو أمة»[1] وهوما يؤكد ما قرره الفيلسوف الألماني (فيختة): قبله منذ أكثر من قرن بقوله: «أينما توجد لغة مستقلة توجد أمة مستقلة، لها الحق في تسيير شؤونها وإدارة حكمها»[2].

ولقد تأكد ذلك خلال القرن العشرين حينما لجأت الدول المنتصرة عقب الحرب العالمية الأولى في اجتماعها «بفرساي» إلى تعيين الحدود بين الدول على أساس المناطق اللغوية وحتى عندما تتشابك الثقافات في المناطق الواقعة بين أمتين كبيرتين تكون اللغة عادة هي المعيار الذي يحدد شخصية الإقليم المتنازع عليه.

وقد استعمل (موسوليني) بالفعل هذه الفكرة (لأغراض توسعية) إذ كان يحس بأن مطالبته بضم جنوب «تيرول» لن تكون شرعية إلا إذا قطن هذه المنطقة سكان ناطقون باللغة الإيطالية، مما جعله يشجع الايطاليين على الهجرة إلى تلك المنطقة[3]، والمثال نفسه ينسحب على سكان مقاطعة الكبيك بكندا اليوم، حيث يتجاذبون، ويتميزون عن بقية المقاطعات الكندية الأخرى باللغة الفرنسية التي يعتمدونها لسانا قوميا لهم، وأساسا لهويتهم، ومبررا من ثم إلى مطالبتهم بالاستقلال والانفصال عن الوطن الكندي، كما حدث في الاستفتاء الأخير الذي نظم حول هذا الموضوع سنة 1995...

(1) نور الدين حاطوم، تاريخ القوميات في أوروبا، الجزء الثالث، من ص: 213 – 253.

(2) ساطع الحصري، ما هي القومية؟، دار الأمم للملايين، بيروت، بدون تاريخ، ص: 56 – 60.

(3) د. صلاح العقاد، دراسة مقارنة للحركات القومية في ألمانيا، إيطاليا، الولايات المتحدة الأمريكية وتركيا، معهد البحوث والدراسات العربية، 1967، ص 10.

ولما كانت اللغة على هذه الدرجة من الأهمية، فإننا نجد صفاتها الوطنية والرسمية محددة عادة في مقدمة المواد الدستورية لأية دولة مستقلة ذات سيادة في العالم، مع إدراج المواد المتعلقة باللغة (الوطنية والرسمية) في الغالب، ضمن المواد الدستورية التي لا تقبل المراجعة والتغيير، لكون المساس بكنهها يعني المساس بقداسة الوجود المرتبط بها كدولة وأمة في الوجود!.

ولما كانت اللغة- وما تزال- هي المفجر أو الصاعق الكامن وراء جل الصراعات العرقية والسياسية القائمة بين شعوب الدولة الواحدة، داخل حدود التراب الواحد، أو على الحدود الإقليمية والسيادية للأقطار المتجاورة في المكان، والمتغايرة في الولاء والشعور والوجدان، الناتج عن اختلاف استعمال اللسان، بصفته مرآة للسياسة ووعاءا للثقافة وعنوانا للسيادة في جميع البلدان...فإن ذلك هو ما شاهد العالم وقوعه في الماضي، ويشهد وقوعه اليوم بين كوريا والصين واليابان، والصرب والألبان والفرنسيين والانجليز والألمان، والباسك في اسبانيا والكتلان، والفالون في بلجيكا والفلمان، والأكراد في العراق وسوريا وتركيا وإيران، والأوزبك والباشطون والطاجيك والهزارة في أفغانستان، والبلوش والسنهال والتاميل في سيلان والهند وبنغلادش وباكستان (...).

وكانت اللغة المستضعفة والمستهدفة من هذه الوجهة وبدون منازع، هي بيت الداء الذي ينخر الكيانات القومية الضعيفة لإزالتها من الوجود ... وكانت وحدة اللغة وقوتها في مقدمة كل دواء، لوقاية كيان الدولة ووحدة الشعب والأمة من التشتت والتمزق والتفرق، إلى كيانات مجهرية لا حصر لها، داخل الرقعة الجغرافية الواحدة، كما يتجلى ذلك على خريطة العالم المعاصر، الممدودة كالحصيرة أمام كل ذي بصر وبصيرة...!

ولذلك فلا شك أن الذي يلفت نظر القارئ الكريم في عنوان هذا الكتاب هي ثلاث عبارات أساسية تتمثل في: «المستقبل» و«الأعداء» و«السماء»... وهي تستفزّه وتثير فضوله لتدفعه إلى الاطلاع على مضامينها، خاصة في ضوء الحاضر الذي لا يوحي بأي مستقبل لهذه اللغة في واقع أبنائها بين من يريدون ولا يقدرون، ومن يقدرون ولا يريدون، بل وقد يعمل بعضهم مع الأعداء على عكس ما يريده الأبناء الأصلاء من أصحاب العيون البصيرة والأيدي القصيرة...!

ونظرا لأن كل معطيات الحاضر ومؤشراته في الظاهر لا تبعث على التفاؤل، بالنسبة لما يريده الأوفياء من الأبناء، فضلا عن أن الحديث عن موضوع اللغة الذي هو بامتياز (كما أسلفنا) من صميم الظواهر الاجتماعية المتصلة بحياة الإنسان وخصائصه، يكون من المثير جدا التجرؤ على التنبؤ بمصير سفينة تخوض عباب بحر لجي ذي أمواج عاتية يقودها ربان وَسْنان من أصحابها، أو قرصان غاصب من غير أهلها، مما يجعل الحديث عن مصير السفينة ونجاتها إلى بر الأمان نوعًا من المجازفة والرهان الذي لا يعضده برهان واضح للعيان يسهل الإجابة عن السؤال المطروح حول «المستقبل» في العنوان!؟

والعبارة الثانية هي «الأعداء» التي تتطلب هي الأخرى توضيحا للقراء، لمساعدتهم على الإدراك والفهم لمطابقة العنوان على المقال في المكان والزمان..

فالأعداء المقصودون هنا هم بالدرجة الأولى الذين يحملون اسم هذه اللغة وأسماءها، وينتسبون، دينيا في غالبيتهم، وحضاريا في مجموعهم إلى الإسلام رغما عنهم وباعتراف النزهاء والأصلاء منهم، ونخص هنا بالذكر (كمثال فقط) المفكر السوري المسيحي ميشال عفلق، الذي يقول: «لا يوجد عربي غير مسلم! فالإسلام هو تاريخنا وهو بطولتنا وهو لغتنا وفلسفتنا ونظرتنا إلى الكون... إنه

الثقافة القومية الموحدة للعرب مع اختلاف أديانهم ومذاهبهم... وبهذا المعنى لا يوجد عربي غير مسلم، إذا كان هذا العربي صادق العروبة، وإذا كان مجردا من الأهواء، ومتجردا من المصالح الذاتية... ولئن كان عجبي شديدا للمسلم الذي لا يحب العربية، فعجبي أشد للعربي الذي لا يحب الإسلام»[1].

ويؤكد ذلك مفكر مسيحي آخر من لبنان هو ڤكتور سحاب بقوله: «إن النصراني لا يمكنه أن يكون عربيا إذا لم ينتم إلى حضارة الإسلام. فكيف يكون عربيا ذلك النصراني الذي لا يتكلم لغة القرآن، ولا يطرب للموسيقى العربية المتحدرة من التجويد القرآني، ولا يهتز قلبه للشعر العربي... إن النصراني العربي ابن الحضارة الإسلامية وليس أجنبيا عن التراث الإسلامي... فنحن أبناء حضارة واحدة وهي حضارة متفتحة، بل لعلها أكثر الحضارات انفتاحًا على التأثرات الخارجية في العالم...»[2]. وهو ما يدعم مقولة الزعيم المصري المعروف (مكرم عبيد)، القائل: «أنا مسيحي الديانة مسلم الوطن».

ومع ذلك فإننا نجد أن من أعدى الناس في العالم للغتهم القومية هم العرب (مسلمون وغير مسلمين)، وبصفة خاصة هم الحكام العرب (من حيث يريدون ويشعرون أو لا يريدون ولا يشعرون) باستثناء واحد منهم إلى حد الآن (كما هو موثق في الكتاب)، وإن العربية لم تهن من أعدائها الأجانب أكثر مما أهينت من بعض أبنائها الأقارب المتمثلين في هؤلاء الحكام المنتحلين «للشخصية» الذين يحملون أسماءها ولا يمثّلون شرفها وقدَرَها، ولا يدافعون عن عزّتها وكرامتها كما يفعل كل الحكّام الحقيقيين للغاتهم القومية في العالمين!!

---

(1) في سبيل البعث، ج3، طبعة بغداد، 1987، ص 68.

(2) جريدة النهار، 1982/06/06م.

ذلك أن عداء الأجانب لهذه اللغة أمر طبيعي، ولا يتوقع غيره منهم، أما العداوة من هؤلاء الحكام الضرار فهم الذين حقَّ عليهم القول ووجب التنبيه هنا إلى أن عبارة «الأعداء» في العنوان لها مدلول مزدوج، حيث تعني هؤلاء الغرماء الأغراب، كما تعني في الوقت ذاته أولئك العرب والأعراب بالأسماء والألقاب، الذين يعدون أنفسهم مستقلين وحكام دول ذات سيادة، وسياسة، وعضوية في منظمة الأمم المتحدة، وجامعة تحمل أسماء دولهم واسم لغتهم على الورق، لأن مبدأ السيادة الحضارية والقومية مفقودة، أو منقوصة على الأقل في الواقع العربي الذي هو في وضع يشذ بشكل عجيب ومريب عن وضع أي بلد في العالم، من أصغر دولة إلى أكبر إمبراطورية، ومن أضعف لغة وأقلها استعمالا إلى أقوى لغة وأوسعها انتشارا على الكرة الأرضية... فوضع اللغة العربية لا مثيل له بين الاثنين، مقارنة بما تتوفر عليه هذه اللغة الفريدة من نوعها، التي لها من الخصائص الذاتية والموضوعية والتاريخية والحضارية والجغرافية والثقافية والدينية... ما لا تضارعها فيه أية لغة أخرى في الوجود على الإطلاق، (كما هو مفصل في الكتاب).

وهذا هو مبرر وجود العبارة الثالثة في العنوان، ألا وهي «إرادة السماء»، لأن العربية في ذلك كله تمثل غاية ووسيلة في ذات الحين للعرب جميعا، حكاما ومحكومين، بوصفها عنوان السيادة ومرآة السياسة، وصلة وصل، ووسيلة نقل للمنجزات الحضارية البشرية والقومية لأبناء الأمة الناطقة بها، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، كما سبقت الإشارة... وتزيد عن ذلك كله، بل وتختصُّ به، أنها الوسيلة المثلى والفضلى التي لا غنى عنها لنقل خطاب السماء ومنهجه الكامل والشامل، النهائي والخاتم إلى أهل الأرض، ومن ثمَّ فلا

بد لهذه العبادة من منهج تكليف، ولا بد لهذا البيان من لسان وأداة تعريف ﴿ الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان ﴾ (الرحمن/ 1، 4)، و﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ (إبراهيم / 4).

وما دام نبي الإسلام وآخر المرسلين، وقد بُعث إلى الناس أجمعين، كما ورد في التنزيل الحكيم: ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ﴾ (سبأ / 28) و﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا ﴾ (الأعراف/ 158) و﴿ يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم... ﴾ (يونس / 104).. فإن في ذلك ما يوحي إلى تلك الإرادة الربانية التي لا راد لحكمها ولا حدود لطلاقة قدرتها... ولذلك كتب الله للسان خطابه وبيانه هذا الصمود رغم كل الأعداء، من الأغراب والأبناء، ومن أهل الدار وذوي القربى والجوار، بما يضمن لهذه الوسيلة حتمية البقاء ومقاومة الفناء، لتأدية وظيفتها السماوية والأرضية التي خُلقت من أجلها، وهو التلفظ بشهادة التوحيد لآخر آدمي مؤمن بالدين الظاهر على كل الأديان، وعلة نزول القرآن الذي يحمل إعجازه في ذاته، وتجدد معجزته في نصه، حيث يخاطب كل العقول والأذهان مع مسايرة التطور والتدرج في الخطاب حسب الزمان والمكان، تمشيا مع تطور عقل الإنسان في كل ميدان دون تناقض أو زيادة أو نقصان ﴿ ما فرّطنا في الكتاب من شيء ﴾ (الأنعام / 38)، مما يثبت اكتمال الرسالة الخاتمة المستوعبة في القرآن الكريم التي كانت كلها خطابا معجزا ووعدا منجزا بالحق نابضا بالصدق موضحا لمعناه، محصنا لمبناه بالحفظ المؤكد في النص ذاته القائل: ﴿ إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ (الحجر / 9)، فذلك بعض الجواب عمّا يعالجه موضوع الكتاب، أوردناه هنا كتوضيح وتمهيد للقارئ، بما قد يرفع عنه بعض اللبس وعلامات الاستفهام المشروعة التي قد يطرحها حول العنوان... ويبقى له

الحكم في النهاية على ما سيقرأه في الكتاب ليجد الجواب حول تفاصيل الموضوع برمته الذي لم نقف فيه عند ويل المصلين، لكونه حساساً وغير مألوف من ناحية الطرح وغير مطروق في علمنا بهذه الجدية والشمولية والنظرة التحليلية الشبيهة بالعملية الجراحية التي يقوم بها طبيب على أقرب الناس إليه، مما يجعله في موقف يتطلب القيام بعملية مزدوجة، تتمثل في الجانب الأخلاقي المهني من جهة، والجانب الإنساني من جهة أخرى، علما أن الشفاء المأمول للحالة يتطلب غرز المبضع في أعماق الجرح لاستئصال القرح!!

فمن أين ولماذا وكيف وإلى مَ سيأول إليه أمر هذه الحالة في المستقبل؟؟

ذلك كله ما سنتناوله في الفصول التسعة لهذا الكتاب المتكاملة موضوعيا ومنهجيا لمعالجة موضوعه من أهم الجوانب، الظاهرة والخفية، الذاتية والموضوعية، السياسية والاجتماعية والدينية والثقافية والحضارية، الثابتة منها والمتغيرة، الدائمة منها والمرحلية، الراهنة منها والمستقبلية...

والله نسأل التوفيق في الأخير، فهو اللطيف الخبير، وأعلم العالمين بنيات المجتهدين والقادر وحده على جزائهم في الدارين، وفي كلتا الحالتين!!.

الجزائر في 1 شعبان 1428 هـ

الموافق 15/08/ 2007 م

الفصل الأول
وضع اللغة العربية والتعريب في الوطن العربي

يعيش المجتمع العربي في الوقت الحاضر وضعا لغويا، يشذ به عن العديد من المجتمعات والأمم في العالم المعاصر!

ويرجع ذلك في أساسه الى عهد الانحطاط الحضاري المادي والمعنوي والتقهقر الممهد للاحتلال المدمر، الذي كرّس نتائج الانحطاط، وضاعف من وطأته، على كل الأقطار التي وقعت تحت قبضته الثقيلة في المشرق والمغرب العربيين!

وإذا خرج المحتل (كما يبدو في الظاهر) من جل الحقول العربية، فإنه لم يخرج بعد من كل العقول العربية، ونعتقد أن احتلال الأراضي أقل تأثيرا وخطورة على مستقبل الشعوب المتحررة من احتلال العقول.. لأن الاحتلال المادّي شيء مجسّد في الواقع الملموس، وخارج عن ذوات الأشخاص المحتلة أرضهم، مما يمكنهم من إدراك خطورته عليهم، فيسهل حفزهم الى القضاء عليه...

أما احتلال العقول فإنه غير ملموس، ولا ينتهي بالضرورة مع تحرير الأراضي الخصبة، ونظرا لأن احتلال الفكر يتم عادة متأخرا بعد احتلال الأرض، فإن خروجه الكامل لا يتم إلا متأخرا في الزمان، والخطورة في هذا الأمر ذات علاقة طردية بطول فترة هذا الزمان! وهذا ما عبر عنه بكل دقة ووضوح أحد أساطين العدو الفرنسي في بلاد المغرب العربي وهو (هاري) مدير التعليم بالمغرب الأقصى سنة 1920 حيث قال حرفيا: « ... منذ سنة 1912 دخل المغرب في حماية فرنسا، ويمكن القول أن الاحتلال العسكري لمجموع البلاد قد تم، ولكننا نعرف نحن الفرنسيين أن انتصار السلاح لا

يعني النصر الكامل، ذلك أن القوة المادية يمكن أن تبني الامبراطوريات، ولكنها ليست هي التي تضمن لها الاستمرار والدوام. إن الرؤوس قد تنحني أمام المدافع في حين تظل القلوب تتغذى بنار الحقد والرغبة في الانتقام، ولذلك يجب اخضاع النفوس بعد أن تم اخضاع الأبدان، فإذا كانت المرحلة الأولى صعبة، فان المهمة الثانية أصعب وتتطلب وقتا أطول»[1].

وهكذا بادرت بعض الدول العربية بعد حصولها على الاستقلال السياسي، الى العمل على استكمال شروط التحرّر، لاكساب ذلك الاستقلال مقوماته الأساسية شكلا ومضمونا، وفكرا وسلوكا، ومن ذلك استرجاع مكانة اللغة العربية وتعميم استعمالها في البلاد، كرمز للسيادة ومنهاج للسياسة وتحقيقا للأهداف الوطنية والقومية الكبرى المتمثلة في الوحدة والتحرر والتحضر، وتنفيذا في الوقت ذاته للمواد المنصوص عليها في مواثيقها الوطنية وميثاق جامعة الدول العربية ودساتير الدول الأعضاء فيها!.

وقد طرحت قضية التعريب على الصعيد العربي، كوسيلة وغاية في الآن ذاته. فهي وسيلة للتحرير والتحضير، وغاية للسيادة والاستقلال الثقافي والحضاري عن الاستعمار القديم المترصد دوما والمتجدد!

ومما يؤكد قومية القضية التعريبية هذه، أن جامعة الدول العربية قد اهتمت بها، ووضعتها ضمن أحد محاور نشاطها منذ سنوات استقلالها الأولى، حيث عقد أول مؤتمر للتعريب على الصعيد العربي في الرباط سنة 1961 انبثق عنه تأسيس مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي..

ومما جاء في توصيات المؤتمر الأول المذكور:

– يوصي المؤتمر أن تكون اللغة العربية لغة التعليم لجميع المواد في جميع المراحل والأنواع وفي كل قطر عربي.

---

(1) نقلا عن جريدة الشعب (الجزائرية) في عددها الصادر يوم 1996/07/26 والوارد ضمن مقال حول الفرنكوفونية في بلاد المغرب العربي.

ويجدر التذكير بأن التوصيات المنبثقة عن جميع الؤتمرات اللاحقة حول التعريب، لم تكن أقل تأكيدا على ضرورة التعريب في الوطن العربي من هذه التوصيات المذكورة هنا على سبيل المثال..

وتأكيداً لهذا التهاون الفظيع في هذه المسألة الوجودية والمصيرية لبقاء الأمة ننتقل من سنة 1961 بالرباط، إلى سنة 1990 بالرياض، حيث ورد على لسان أحد الباحثين العرب، ما نفضّل أن نورد نصه حرفيا هنا لدلالته الناصعة وحجته القاطعة في تأكيد ما قلناه آنفا فيقول الدكتور صادق الهلالي: «كثر الحديث في الحقبة الأخيرة عن تعريب التعليم الطبي، وعقدت حوله المؤتمرات والاجتماعات والندوات على مختلف المستويات، وظهرت العديد من القرارات والتوصيات والبحوث والنشريات حول هذا الموضوع الحيوي الهام . وأجمعت كلها على أهمية التعريب وفوائده، وضرورة تنفيذه في جميع مراحل التعليم الطبي في أقرب فرصة.

كما تميزت الاجتماعات والدراسات الأخيرة بالبحث عن خطة تنفيذية للتعريب خلال العقد القادم، على أن يستكمل في كل كليات الطب في الوطن العربي في فترة لا تتجاوز عام 1999»[1].

وبما أننا اليوم في 2007 يحق لنا أن نؤكد هنا ما قلناه قبل حين بأن المبادىء العربية شيء والواقع العربي «التعريبي» الاستقلالي شيء آخر تماماً! وقد ساعد على استفحال هذه المفارقة العجيبة في الواقع العربي غياب الوعي الحقيقي والإدراك الكامل لأبعاد التعريب المختلفة وقيمة اللغة القومية المرتبطة بالسيادة والهوية التي تتجاوز في حقيقتها المراحل والأوضاع اللغوية التعبيرية والتعريبية السائدة في الأقطار العربية الحالية في المشرق والمغرب العربيين (...).

(1) مجلة «شؤون عربية» عدد يونيو 1989.

وإن خيل لبعض الأقطار الشقيقة في المشرق أنها غير معنية بموضوع العربية والتعريب الحضاري الشامل والكامل لاعتقادها أنها مسألة محو أمية بالأحرف العربية، وليست قضية قومية وحضارية، وإنها مسألة إصلاح لسان، وليست قضية كيان، وأنها مسألة أشعار عاطفية، وليست قضية علم وابتكار وتقنية، وأصالة حضارية، تؤكد وتصرخ في وجوهنا قائلة: إن أمثال ابن سينا، والفارابي، والبيروني، وسيبويه، والغزالي وابن رشد، وابن خلدون... لم يتخرجوا قط في كامبرج أو السوربون... فإن خُيِّل إليهم ذلك أو أفهمهم أعداء الأمة بذلك فهم واهمون أو جاهلون، وإن كانوا في ريب من كلامنا هذا فليقارنوا واقع أقطارهم التابعة بأقطار أعدائهم المتبوعة حضاريا وتكنولوجيا!!

وهكذا اختلفت المفاهيم، وتباينت المواقف العربية حول القضية المصيرية من حيث البداية والنهاية، ومن حيث كونها وسيلة أم غاية؟!

ووقف كل قطر في مرحلة من مراحل التعريب واستعمال اللغة العربية في الحياة العامة الرسمية والشعبية فوق الرطانة ودون التقانة (التكنولوجيا)، ظنا منه أنها النهاية، وهي في حقيقة الأمر ليست إلا البداية، أو بداية النهاية بالنسبة لسوريا فقط ما دون كل بلاد المشرق العربي، كما سنبين ذلك لاحقا! ولا يصعب على أي عربي ذي عقل وبصيرة أن يصنف كل مجموعة من الأقطار العربية في مرحلة من مراحل التعريب والاستعمال الحضاري للغة العربية، وتظهر هذه المراحل والأوضاع التعريبية بكل وضوح في الأقطار العربية المغاربية (المغرب، تونس، الجزائر)، التي اتخذناها نموذجا صارخا، للتجارب والأوضاع التعريبية الجارية والحالية في الوطن العربي، لكونها خضعت لذات «المستحمر» والمدمر الفرنسي، وقد استثنينا ليبيا لأنها لم تخضع لهذا الغازي المستمر في عدوانه الثقافي بعد انحسار ظله الجغرافي من مستدمراته السابقة، وكل ما يقال عن الوضع التعريبي في البلدان المغاربية الثلاثة ينطبق على موريتانيا بكل

المقاييس بعد انضمامها إلى جامعة الدول العربية سنة 1973، حيث إنها ظلت تمثل صورة مصغرة لما بعدها، وصورة مكبرة لما قبلها من الأقطار الشقيقة الحديثة العهد بالانضمام إلى جامعة الدول العربية كالصومال، وجيبوتي، وجزر القمر، وغيرها مما قد ينضم مستقبلا من الأقطار الإسلامية السائرة على الدّرب الاستقلالي الحضاري عن هيمنة الغرب الاستحماري و«الاستدماري».

ويجدر التنبيه هنا الى أن المناداة بالتعريب الحضاري الحقيقي والكامل على المستوى الوطني والقومي، وكذا استعمال لفظة (التعريب) ذاتها لا تتعارض مع كوننا عربا شعوراً ووجدانا في الأصل قبل وأثناء وبعد خروج بعض جنود الاحتلال من الأرض...

ولذلك نقول: إن المطالبة بالتعريب، أو رفع شعار التعريب لفظا ومضمونا... لا يتعارض البتة مع كوننا عربا، والعكس هو الصحيح، أي نحن ننادي بالتعريب اليوم لأننا عرب، وبعبارة أخرى لولا الاحتلال لماكان الاستقلال، ولولا المسخ الشخصاني «للاستحمار» الاستيطاني لما وجب التعريب، ومن ثمة فالتعريب بمعناه الاصطلاحي الراهن هو مقابل الاحتلال والفرنسة، أو هو مقابل الاحتلال الثقافي والشخصاني، الذي يهون أمامه الاحتلال العسكري والسياسي، كما تثبت الأيام الحالية ذلك في معظم أقطار العالم المعاصر، من العراق وأفغانستان، إلى كوبا وإيران والسودان ولبنان!!

فالعروبة اذن شعور وجداني بالانتماء إلى قوم يتحدثون اللسان العربي، والتعريب بهذا المعنى ليس إلا نشرا للسان هذا الشعور القومي على أوسع نطاق ممكن رسميا وشعبيا، وقد يكون الانسان عربي الشعور، ولظروف معينة (سببها المباشر هو نفسه العدو الغادر) يكون هذا المواطن العربي غير «فصيح» اللسان، فيختل التوازن بين لغة الشعور ولغة التفكير والتعبير، ويقع الانفصام في الشخصية (الفردية والجماعية) لأفراد الأمة المحمدية

الواحدة ذات الرسالة السّماوية الخالدة التي ظلت رغم الأعداء عبر كل القرون صامدة!!

ومن هنا يكون التعريب ضروريا للعروبة الحضارية والثقافية، وليس مرادفا لها، كما أنه ليس متناقضا معها من باب أحرى وأولى، وإلا فكيف نفسر الحركات التعريبية القديمة التي تمت في صدر الإسلام وسارت متوازية في المكان ومتعاقبة في الزمان عبر العصور المختلفة للحضارة العربية الإسلامية على إمتداد رقعتها الجغرافية والتاريخية الزاهرة والمشرقة من بلاد الرافدين إلى الأندلس وصقلية وجنوب فرنسا وبلاد البلقان.

والدليل الثاني على ذلك من عصرنا الحاضر هو أن التعريب الآن مطروح على الصعيد القومي العربي وليس على الصعيد الوطني أو الإقليمي فحسب، ومن ذلك ـ مثلا ـ أن جامعة الدول العربية قد وضعت التعريب ظمن أحد محاور نشاطها (حتى قبل استقلال الجزائر في مؤتمر طنجة والرباط كما أسلفنا) وكان من نتائج هذا النشاط التعريبي الحضاري إنشاء مكتب لتنسيق التعريب في الوطن العربي مقره مدينة الرباط (سنة 1961) عَقَد مجموعة من الندوات العربية حول هذا الموضوع، على مر العقود الماضية، ومن نتائج هذه المساعي التعريبية السياسية والسيادية والحضارية، اتخاذ القرار بتعريب الط ب في الجامعات العربية قبل سنة 1999 كما قلنا، وها نحن الآن قد مرّ على الأمة ما يقارب العقد منذ انتهاء هذا الأجل، وهي ما تزال ممزقة ومشتتة على مائدتي (شكسبير) و(فوليتر) في المشرق والمغرب العربيين، بل وقد ازداد الأمر التغريبي استفحالاً أكثر في السنوات الأخيرة كما سنبيّن لاحقا.

هذا، ومن الناحية الاصطلاحية فإن للفظة التعريب معنيين متفقين في الاشتقاق، ومختلفين في الدلالة.

المعنى الاول: اصطلاح تقليدي مفاده استعمال العرب للألفاظ الأعجمية بالنطق العربي... ولقد استمرمدلول التعريب هذا بمعناه الإصطلاحي لتحديد استعمال العرب للألفاظ الأعجمية بالنطق العربي وفتح باب الاضافات اللغوية (إلى جانب النحت والتركيب والتوليد والقياس والاشتقاق والترجمة، كما سنبين في آخر الفصل السابع..) على مصراعيه لإدخال الآلاف من الكلمات الحضارية التي لم يكن للعرب بها عهد سابق، وقد اعتمد علماء اللغة العربية هذه الطريقة كأسهل الوسائل والقنوات لاغناء اللغة العربية بالمصطلحات المستحدثة في اللغات الأخرى كالفارسية، واليونانية، واللاتينية، والتي هي بمثابة الإنجليزية والفرنسية والألمانية في الوقت الحاضر... وقد أثبتت لنا الأيام أن الزمان إذا كان غير الزّمان فالإنسان هو الإنسان؟!

فالتعريب –إذن– بهذا المعنى الاصطلاحي الضيق يعني أخذ كلمة أعجمية من أي لسان آخر بلفظها كما هي، على أن تخضع لمخارج الحروف العربية، وتلائم النطق العربي، بإجراء بعض التعديل النطقي لها ثم اعتمادها كلفظة فصيحة في القاموس العربي بعد ذلك (مثل راديو، رادار، تلفزيون، أمبريالية، بريسطرويكا، استراتيجية، فلسفة، فيزياء، جغرافيا، ميطافيزيقا... إلخ).

المعنى الثاني: وهو المعنى الشامل والمتداول في أيامنا هذه ، ويعني بالدرجة الأولى العمل من أجل نشر استعمال اللغة العربية الفصحى بين المواطنين (سواء كانوا من الأميين، أو من المتعلمين باللغات الأجنبية فقط، لأسباب قد تكون استعمارية في الغالب) وإحلال اللغة العربية محل اللغات الأجنبية المفروضة على واقع الشعب، وجعلها أداة طيعة للتعبير عن كل ما يقع تحت الحس! وبعبارة أوضح فالتعريب بهذا المعنى، هو جعل اللغة العربية لغة الحياة في مختلف مجالاتها ومظاهرها ابتداءً من نظم أبيات الشِّعْر ونسج بيوت الشَّعَر إلى تركيب الصواريخ وإطلاقها، واختراع

القنابل الذرية وتفجيرها... مع التأكيد على الإشارة هنا بأن الانسان هو الذي يفكر باللغة، وليست اللغة هي التي تفكر بالانسان، وأقوى الأدلة على ذلك: الصين واليابان وألمانيا وكوريا وإيران وتركيا وروسيا...، وإسرائيل ماضيا وحاضرا!

ومن هذه المبادىء السامية الوطنية والقومية والرغبة الجماهيرية... انطلقت البلاد المغاربية منذ حصولها على الاستقلال السياسي عن الاحتلال الفرنسي (المغرب وتونس سنة 1956 والجزائر سنة 1962) في عملية التعريب، ونقتصر هنا على تجارب هذه البلاد على التوالي، ونترك الحديث حول هذا الموضوع في كل قطر للمهتمين به من أهله رسميا وشعبيا، ولا ينبئك مثل خبير!

أولا- المغرب:

ونبدأ بتصريح أحد أعلام العربية والإسلام في هذا البلد، وهو الأستاذ محمد الفاسي، حيث يقول حول هذا الموضوع «... وبعد الاستقلال كان أول ما اتجهت إليه اهتمامات المسؤولين في المغرب هو القضاء على هذه الظاهرة «الفَرْنَسَة» وإحلال اللغة العربية في مكانها كلغة وطنية صالحة لكل ما تصلح له أية لغة في أي بلد، وأطلق على هذه الاجراءات لفظة التعريب، وهكذا قررت لجنة وطنية أسست في مطلع سنة 1956 بالمغرب، لوضع أسس السياسة التعلمية، وقد كان مبدأ التعريب في جملة المبادئ التي ركزت عليها هذه السياسة، وأخذ في الحين في تطبيقها في المدارس الابتدائية، وفي مدرسة نموذجية ثانوية، وهي مدرسة يعقوب المنصور بالرباط... ومن الناحية العامة صدر قرار بإلزام كل أصحاب المتاجر والمعامل والمهن الحرة بكتابة الإشارات واللافتات بالعربية، وكانت في الغالب الأغلب بالفرنسية وحدها، ولكن مع الأسف وقعت بعد ذلك نكسة في هذه الخطة، وبقيت

مسألة التعريب تتخبط منذ ذلك الوقت بين مد وجزر حتى الأن، على الرغم من اقتناع الدولة بضرورة تطبيق التعريب بكيفية شاملة في التعليم والإدراة والحياة العامة... »[1].

وعن عمليات المسخ الشخصاني التي تعرض لها المغرب من المحتل الفرنسي، ورد في صحيفة « الراية » حول هذا الموضوع ما نصه:

« لا يخفى على أحد أن (سياسة الحماية الفرنسية بالمغرب) خلال 44 عاما (1912–1956)، كانت تهدف لتحويله الى « مستعمرة فرنسية » تكتمل بها خريطة « شمال إفريقيا » كأجمل وأكبر وأغنى المناطق الإفريقية التابعة والخاضعة للامبراطورية الفرنسية، وهو الحلم الذي ظل قادة وصانعو هذه الامبراطورية يعملون لتحقيقه أكثر من مائة وعشرين عاما منذ احتلالهم للجزائر سنة 1830، وعظم حلمهم هذا بنجاحهم في احتلال تونس سنة 1880.

ولقد كان المفروض عقب إعلان استقلال المغرب، أن تبادر حكومته الوطنية، بوضع منهاج « المدرسة المغربية العربية الإسلامية » الذي كان يجب أن يحل محل منهاج « المدرسة الاستعمارية » جملة وتفصيلا، لكن هذا لم يحدث، وبدأت المؤامرات لنسف جميع المحاولات التي ترمي إلى تحقيق هذا الهدف(...):

... وفي سنة 1961 انعقد أول مجلس أعلى للتعليم وأجمع أعضاؤه الذين يمثلون الأحزاب والمؤسسات الوطنية التعليمية على معارضة سياسة « الازدواجية اللغوية والفرنسة »، وفي نفس الوقت انعقد (المجلس الأعلى لرابطة علماء المغرب) وندد في بلاغه بخضوع الحكومة للسياسة الاستعمارية في التعليم، وجدد مطالبته بوضع سياسة قارة للتعليم، تنسجم مع تاريخ المغرب وحضارته وشريعته كدولة عربية إسلامية،

(1) محمد الفاسي، التعريب ووسائل تحقيقه، بحث منشور في مجلة «الأصالة» عدد 1974/08/17.

وحماية أجياله من آثار الغزو الصليبي الذي يهدف لتدمير خصائصه الدينية والثقافية واللغوية...»[1].

ونورد فيما يلي نص البيان الصادر عن علماء ومثقفي المغرب لأهميته البالغة في توضيع معاني الصراع الدائر بين الحكومة والشعب حول التعريب في هذا البلد المغاربي الكبير:

«يواجه المغرب منذ حصوله على الاستقلال سنة 1956، وبصفة خاصة منذ عشر سنوات، ضغطا استعماريا خفيا يرمي لإقرار وتثبيت وتعميم الوجود اللغوي الفرنسي في المغرب المستقل، وإعطاء هذا الوجود (الذي فرضته الحماية الفرنسية في عهدها) صبغة الشرعية والاستمرار، لا في الإدارة المغربية، والمصالح العمومية فقط، ولكن في ميدان التعليم وتكوين الأطر المغربية أيضا...

وكانت النتيجة التي انتهت إليها سياسة ازدواجية لغة التعليم، وإعطاء حصة الأسد للغة الفرنسية، بعد 14 عاما من تجربتها، هي إعلان فشلها تربويا، واقتصاديا، وقوميا، ودينيا...

ولكون الشعب المغربي لا يريد بعد تحرره واستقلاله أن يظل مربوطا بعجلة أية دولة أجنبية، ويظل فكره القومي محتكرا للغتها، ودون أن يتخلى قيد أنملة عن لغته العربية، كلغة رسمية حية، في التعليم والإدارة والعمل اليومي، فإن علماء المغرب ومثقفيه ورجال الفكر والإصلاح فيه، يرون من واجبهم القومي والديني بمناسبة الحوار المفتوح حول سياسة التعليم ومستقبله في المغرب.

أولا: أن يُجدّدُوا نصحهم وتحذيرهم من أخطار السياسة القائمة حتى الآن في مجال التعليم، والتي لم تحقق غير المزيد من فرنسة الأجيال المغربية الناشئة، وفرنسة لغة التخاطب المغربية وترسيخ فرنسة الإدارة والمصالح العمومية والخصوصية بالمغرب المستقل ومن شأن هذه الأخطار، إذا لم يوضع

---

(1) مقال منشور في صحيفة «الراية» المغربية بتاريخ 17 أبريل 1997.

لها حد عاجل، أن تهدد وحدة وكيان ومستقبل الشعب المغربي، وأن تعرقل تقدمه وازدهاره وأمنه الفكري، وأخطر من ذلك اتجاه عزم المسؤولين اليوم الى فرنسة التعليم الابتدائي من جديد، بدل تعريب التعليم الثانوي، وأن يقع الرجوع باللغة العربية القهقرى، أي الى ما كانت عليه في عهد الحماية الفرنسية، مع أن الشعب المغربي آنذاك قاوم هذه السياسة بتقوية جهاز المدارس العربية الحرة، وتدعيم كيان جامعة القرويين.

ثانيا: أن يذكروا بأن التعريب الكامل العام في التعليم والإدارة والعمل والشارع، هو مطلب قومي أجمعت عليه الأمة منذ الاستقلال، وهو لا يتعارض بحال من الأحوال، مع دراسة اللغات الأجنبية الحية كلغات، ولا يتناقض مع رغبتنا جميعا في التفتح على حضارة القرن العشرين، وإنما يؤكد فقط رغبة الشعب المغربي في المحافظة على مقومات شخصيته الوطنية، ومن المعلوم أنه لا يمكن لهذه الشخصية أن تنمو وتزدهر إلا في إطار اللغة القومية، ولا يمكن للتعليم أن يصبح شعبيا وديمقراطيا ومزدهرا إلا باللغة القومية.

ثالثا: أن ينبهوا الى التجني الذي يرتكب في حق اللغة العربية عندما يراد ربطها بالوضع الذي يوجد عليه العالم العربي اليوم، وبالنقص الذي يلاحظ في المصطلحات العلمية الحديثة، مع أنه لا ينكر أحد أن اللغة العربية كانت هي اللغة العالمية الوحيدة في العصور الإسلامية الزاهرة، وأن تخلفها اليوم في ميدان المصطلحات الحديثة لا يرجع لعجزها هي، بل لجمود المجتمعات العربية التي عليها أن تقوم بسد هذا النقص في الميدان اللغوي، في نفس الوقت الذي تعمل فيه على نقصها في الميادين العلمية والصناعية، ذلك أن اللغة العربية، ككل اللغات الحية، لا يمكن أن تتطور وتتقدم بمعزل عن الحياة والعلم والمجتمع، وإن إبعادها عن أن تكون لغة التعليم والإدارة والعمل، هو الطريق المفضي بها الى الموت البطىء، لا الى الحياة الخالدة!

رابعا: أن تؤكدوا أنه لا حل لمشاكل التعليم المستعصية إلا بوضع المبادىء التي أجمعت عليها الأمة وهي: تعريب التعليم في جميع المراحل وعلى جميع المستويات، ومغربة أطره، وتعميمه، موضع التنفيذ المخلص السريع، حسب «ميثاق للتعليم»، وطبق «تصميم» محدد، يساهم في وضعهما، ويصادق عليهما الممثلون الحقيقيون للمؤسسات الوطنية كلها، على أن يكونا جاهزين للتطبيق ابتداء من أكتوبر 1970 المقبل، وأن يكونا مصحوبين بسياسة وتصميم مواز لتعريب الأجهزة والمصالح الإدارية المغربية كلها، وبدون ذلك سنواجه المزيد من الأخطار، والمزيد من المشاكل التي لا حل لها، وليست في صالح أحد في هذه البلاد».

حرر في 1970/05/23

وكدليل على أن الوضع التعريبي في هذا البلد العربي الإسلامي الكبير يسير من سيء إلى أسوأ، نورد هذا المقال التقويمي الهام المنشور في جريدة «الراية» في سنة 1997 بعد أكثر من ربع قرن من صدور البيان المذكور آنفا:

«والخطير في الأمر أن عملية فرنسة المغرب ظلت تسير بخطى حثيثة رغم إرادة الشعب المغربي، فقد وقع إحكامها وتعميمها وتشجيعها، فلم تقتصر على وسائل الإعلام كلها، أو على الإدارة المغربية كلها، أو على الإعلانات وأسماء الشوارع فقط، وإنما استهدفت بصفة أخص، فرنسة الأجيال الناشئة باسم التعليم، فسلكت في هذا الميدان اتجاهين طبقيين متكاملين يمثلان صورة «المغرب المتفرنس» المستقل، الذي يحلم الاستعمار الجديد بأن يحل محل «المغرب الفرنسي» المحمي:

الأول: يتمثل في مدارس البعثة الثقافية الفرنسية حيث تجري عملية فرنسة أبناء الطبقة البرجوازية لغة وفكرا وعاطفة، وإعدادها للتعليم العالي لكي

تتسلم الأعمال الكبرى والمناصب العليا في الإدارة المغربية، وتلعب دورها الذي هيئت له في التنكر والعداء للحضارة العربية الإسلامية، ومحاولة ربط المغرب الى الأبد بمصالح الغرب الاستعمارية!!

الثاني: يتمثل في التعليم الرسمي العمومي وهو الخاص بأبناء الشعب الذين تجري عملية فرنستهم بنسبة 33٪ في الابتدائي (20 ساعة في الأسبوع بالعربية و10 ساعات بالفرنسية) و66٪ في الثانوي (20 ساعة بالفرنسية و10 ساعات بالعربية)، والذين يكفي أن يحصل منهم على البكالوريا 2٪ على أحسن تقدير، لأن دورهم في (المغرب المتفرنس) ينحصر في أن يكونوا أعوانا للرؤساء في المكاتب الإدارية وعملة ومساعدين في الخدمات العامة!!

وتضيف الجريدة قولها: لهذه الحقائق كلها، وبعد مرور أربعة عشر عاما على تجربة فاشلة في التعليم ذهب ضحيتها مئات الآلاف من التلاميذ، لم يعد أحد يطمح لا في مغربة التعليم، ولا في تعريبه، ولا في تعميمه، ولا في توحيده، بعد أن عمت سياسة الفرنسة كل المظاهر الوطنية: الإدارة الحكومية، والتعليم ووسائل الإعلام، والشركات والمؤسسات الصناعية والتجارية، وأسماء وإعلانات الشوارع، وبطائق الزيارات والحفلات لتتحول تلقائيا الى لغة التخاطب المغربية بنسبة 100٪ بين أبناء الطبقة البورجوازية خريجي مدارس البعثة الفرنسية، وبنسبة 50٪ بين أبناء الطبقات الشعبية الذين مروا بالمدارس الحكومية، وأصبح الجميع يتساءل: هل هناك تصميم يجري تطبيقه – في غيبة الشعب – لفصل المغرب المعاصر عن تاريخه العربي الإسلامي، وعن العالم العربي، وضمه في النهاية الى الدول الناطقة بالفرنسية (الفرانكوفونية)؟.

وتنهي الجريدة مقالها بسلسلة من المطالب... لم يتحقق أي مطلب منها حتى هذه اللحظة (أغسطس 2007).

ونختم حديثنا عن وضع التعريب في المغرب بهذه المواقف المعلنة من الأحزاب الوطنية المغربية حول هذا الموضوع المصيري الخطير، فتحت عنوان: «هل هو هجوم فرنكفوني جديد؟»، قالت: «الاتحاد الاشتراكي» بتاريخ (1996/12/1) في صفحتها الأولى: «فوجئت أطر التعليم الثانوي بمشروع جديد صدرت التعليمات بالشروع فورا في تنفيذه دون استشارة أي طرف معني آخر، وبإلحاح وتصميم غريبين، سمي بـ «المسالك المزدوجة» وقد شرعت وزارة التربية الوطنية في تطبيقه دون استشارة الجهات الواجب استشارتها... خطوة عملية في التراجع عن التعريب...».

وتحت عنوان: «ضاقت مدارس البعثات الفرنسية ففتحت لها وزارة التربية الوطنية ملحقات في التعليم العمومي، (بكالوريا فرنسية) خاصة بالنخبة و(البكالوريا الحالية) لبقية أبناء الشعب، قالت جريدة: «العلم» (لسان حزب الاستقلال) بتاريخ (1996/12/5):

«تتهيأ وزارة التربية الوطنية لتنفيذ (مشروع تربوي جديد) يمثّل تراجعا عن بعض المكتسبات التي تحققت في مجال التعريب»

وتعلق الجريدة على هذا الموقف بقولها:

«إن ما جاء في تصريح السيد (فرانسوا بايرو)[1] من الخطورة بمكان، إذ يدل دلالة واضحة أن فرنسا وراء هذا المشروع الذي تستعد وزارة التربية الوطنية المغربية لفرضه خلال الموسم الدراسي المقبل دون تقدير لخطورته الثقافية على هويتنا، وخطورته السياسية على مستوى التوجهات الوطنية في مجال التعليم».

(1) وزير التربية الفرنسي آنذاك، والذي أصبح المرشح الثالث في الرئاسيات الفرنسية لسنة 2007.

« . . . إن دوافع فرنسا في هذا الباب واضحة ومشروعة من وجهة نظرها الوطنية، وهي تقوية ونشر اللغة الفرنسية الآخذة في الانكماش على نفسها، والتقلص من مجموع أنحاء العالم، أمام الانجليزية والإسبانية وغيرهما من اللغات، ولكن هذه الخطوة التي تعتزم وزارة التربية الوطنية تطبيقها لا تعدو أن تكون تكريسا (لسيادة الثقافة الفرنسية) ».

بعد هذا العرض الوجيز لمراحل ووجوه الصراع المرير الذي ما يزال مستمرا لأكثر من خمسين عاما (1956 – 2007) في هذا البلد المغربي العريق في أقصى الجناح الغربي، ننتقل إلى أدنى الجناح الآخر. . .

ثانيا - وضع التعريب في تونس:

وكما اعتمدنا في الحديث عن التعريب في المغرب الأقصى على الأحرار من أبناء المغرب، نفعل الشيء ذاته بالنسبة للوضع في تونس، وحول هذا الموضوع ورد في دراسة لأحد الباحثين التونسيين قوله: «لم تنفك قضية تعريب التعليم والإدارة والمناخ الاجتماعي تثار من حين لآخر في الاجتماعات الحزبية والثقافية والبرلمانية وفي الندوات الخاصة والعامة، وآخرها ندوة حول التعريب وصفتها لنا جريدة الصباح وصفا موجزا في عددها الصادر يوم 1979/5/20 وركزت على النقاط الأساسية التي جرى فيها النقاش وأثير فيها الحوار حول أسباب تقهقر حركة التعريب بين مفسر وناقد ومبرر.

وحيث عشنا أطوار القضية منذ عهد التلمذة الى عهد الاستاذية ومن عهد الاستعمار الى عهد الاستقلال وساهمنا في النضال الوطني الذي دار في العهدين لتحقيق التعريب والتخلص من الهيمنة والتبعية يحق لنا أن نعلق على ما ورد من تبرير للتقهقر ونكشف بعض الحقائق التي لم تذكر في الندوة ونسلط بعض الضوء على منطلقات الاتجاه العام الذي سارت عليه البلاد من خلال وثيقة خطيرة البعد

والغاية قدمها الخبير الفرنسي «جان دوبياس» تحت عنوان: (مشروع تحوير التعليم في تونس)، فزيادة على ما كتبناه في قضية التعريب تحت عدة عناوين: لماذا التعريب؟ التعريب أصالة وانتماء وولاء.. الخ. وكذلك ما قلناه ورددناه في أكثر من ندوة واجتماع ردا على الذين يحاربون التعريب باسم التفتح الثقافي أو المذهبي أو السياسي بأننا «نرفض التفتح الذي تضبط فيه المخططات التربوية في باريس. نعيد التذكير ببعض المسلمات التي لا تقبل الطعن أو التجريح ولا تحتاج الى برهان أو دليل أو طول نقاش، وتذوب أمامها كل المقولات المعرقلة للتعريب سواء بدعوى العلم والتقنية أو المناهضة له بتعلة المحتوى والمستوى أو الرافضة له تحت شعار التقدم والتقدمية الفرانكفونية.

1 – من المسلمات التي أيدتها تجارب الأمم في الماضي والحاضر أن العلم لا ينتشر في مجتمع ولا يتأصل في شعب إلا بلغته القومية.

2 – من المسلمات أيضا أن الأساس الأول لشد أمة الى تراثها وربطها بلغتها يتم على الأقل في المستويات الابتدائية والثانوية من التعليم حتى تعايش الأجيال الصاعدة لغتها في جميع المواد وتمارسها في كل الاختصاصات وتستعملها في احتياجاتها اليومية.

3 – من المسلمات كذلك أن أهم عنصر للسيادة الوطنية يتجلى في استعمال اللغة القومية في النشاط التربوي والثقافي والاجتماعي والاقتصادي والإداري والإعلامي، واليوم بعد 23 سنة من الاستقلال يبحث البعض عن أسباب العرقلة ثم الردة، وبالتالي الأزمة التي يعانيها الكثير من تذبذب في التعبير والتفكير والتحرر من الدين، مما جعل اللغة القومية هامشية في حياة المجتمع غير صالحة إلا لأناشيد الحث على الحماس، وخطب الوعظ بيوم الآخرة، وقراءة سورة الفاتحة في المآتم والمقابر، وجعل من اللغة الأجنبية لغة التعليم والإدارة والخطب الرسمية في

المحافل الدولية ولافتات الشوارع والمغازات والملاعب والأسماء في دليل الهاتف وكشوف الحساب للماء والكهرباء وقروض البناء، وهو ما يعكس صريح الدستور، ويخالف واقع الشعب وشرعية التاريخ. ويلمس من هذا الواقع أن اللغة الأجنبية قد أصبحت لغة الحياة واللغة القومية هي لغة ما بعد الحياة؟؟».

الى أن يقول: «فهل نتج هذا الواقع صدفة بحب التواكل كما قيل في الندوة؟ أم كان نتيجة فعل فاعل وتنفيذ مخطط متقن، ومحدد الأهداف؟؟

لقد قررنا مخططا تونسيا للتعريب الشامل بعد الاستقلال يمتد تطبيقه الى عشر سنوات 1958/1968 قلنا فيه بالإجماع واتفقنا على:

1 – تعريب التعليم الابتدائي سنة بعد أخرى مع العلم أن السنتين الأولى والثانية كانتا معربتين تماما.

2 – تعريب التعليم الثانوي حسب خطة موضوعية تنطلق من واقع مختلف الى واقع متحد، فقررنا احداث ثلاث شعب:

– شعبة (أ) القارة: معربة في جميع المواد وخاصة العلوم.

– شعبة (ب) انتقالية: مزدوجة أغلب موادها بالفرنسية، تتحول تدريجيا الى (ب) ثم الى (أ) وعلى أساس تعريب الإدارة والتعليم أرسلت مئات الطلبة في بعثات رسمية وغير رسمية الى الجامعات الشرقية وخاصة الى سوريا في العلوم.

ماذا حصل بعد عشر سنوات؟

1 – ظل التعليم الابتدائي غير معرب ومجمد في مكانه!!

2 – حذفت شعبة (أ) رغم نجاحها الباهر في تعريب العلوم، ورغم كل وسائل العرقلة والتفشيل والحرب النفسية التي شنت على طلبتها وأساتذتها وظلت شعبة ب و ج.

3 – غلق باب البعثات الى الجامعات الشرقية وارجاع الطلبة أثناء الدراسة، وطلب سحبهم حالا استغلالا لاحداث سياسية طارئة. ما هي الأسباب؟

والجواب يكمن في المخطط المجهول من الشعب ومجلس الأمة والحزب والنقابات إذ يشير مخطط «جان دوبياس» بصريح اللفظ والعبارة «من المفضل أن يتعلم الطفل التونسي بلغة (أمه) الكتابة والحساب في السنة الأولى والثانية من التعليم الابتدائي» صفحة: 28–30!!

ثم يلمح بالاغراء في تعليم الفرنسية إذ يقول في الصفحة 17: «إنه بفضل تعلم الفرنسية يمكن لتونس أن ترسل سنويا الى فرنسا مائة ألف عامل»!!!

ويتساءل السيد «جان دوبياس» في الصفحة 16: «هل يمكن بداية من الآن تعليم العلوم والتقنية باللغة العربية؟» (لم يذكر جامعة دمشق التي تدرّس كل العلوم باللغة العربية لأنه عاجز عن الطعن فيها).

فيقول: «قمت بالتجربة الآتية لاختبار قدرة اللغة العربية على تحمل التفكير العلمي، فجمعت أربعة أساتذة تونسيين ممتازين في التكوين العلمي ووزعت عليهم مجموعة من النصوص العلمية باللغة الفرنسية، من مستوى الثالثة الى الإجازة على أن يترجم النص الى العربية من كل أستاذ ثم يقوم كل أستاذ بترجمة النص المعرب من زميله الى الفرنسية، وبمقارنة النص الفرنسي في البداية والنهاية، تمكنت من تقييم اللغة العربية في تحملها للفكر العلمي، يبدو لي أنها تتحمله حتى القسم الأول»!!!

وبعد عرض وتحليل طويل يخلص الباحث التونسي قائلاً: «وبهذا يتبين أن عرقلة حركة التعريب لم تكن بسبب عجز اللغة عن الاستعمال والأداء، بل كانت نتيجة تنفيذ مخطط أجنبي كله سموم لطمس الهوية وتحطيم الذاتية وتركيز التبعية تحت شعار «العلم والتقنية» والاغراء بتحويل المجتمع التونسي في مدة عشر سنوات متقدما مثل سويسرا والدانمارك المتشابهتين له في عدد السكان وفي الثروة الطبيعية!!!».

ولتأكيد هذا الكلام الصادق عن وضع التعريب في تونس وموقف السلطة السياسية منه، نورد هذه الشهادة الناطقة لرئيس الوزراء التونسي السابق الأستاذ محمد مزالي في شكل رسالة مفتوحة إلى الرئيس الحبيب بورقيبة جاء فيها قوله: «وذلك كان موقفي عام 1970 عندما قررت إبعادي من الحكومة ولم احتفظ لا وقتئذ ولا هذه المرة بشعور المرارة أو الغيظ، ولا أحسبك الا أحسست بذلك عندما جئت لتوديعك يوم الجمعة 11 يوليو 1986 ففي هذا اللقاء الأخير ولم توجه لي أثناءه أي لوم إلا قولك لي، لقد عربت كثيرا يا سي محمد... وطبعا فإنني امتنعت عن إيجاد الأعذار (...) معتزا فخورا بما حققت من أجل اللغة العربية لغة الشعب وعنوان أصالته وأداة حضارته، واكتفيت أمامك بالتعبير عن «تمنياتي» بالنجاح لمن اختاروا طريق ارضائك والسير في درب التهافت والارتجال البيداغوجي فادخلوا تعليم اللغة الفرنسية منذ السنة الثانية وإضافة خمس ساعات من الفرنسية في كل الأقسام الأخرى كما لو كان ذلك أيام الاستعمار! ويضيف قوله في مكان آخر: «وفي اعتقادي، بدون تواضع مزيف، أنني أرسيت مع مجموعة الزملاء الأجلاء رجال التعليم أسس تربية أصيلة وعصرية ومتلائمة مع بلادنا وأجيالها الصاعدة.

فقد شرعت في تركيز مبدأ التعريب لمناهج تعليمنا عام 1970 عندما تحملت مسؤولية وزارة التربية عن الشهور الستة تمكنت خلالها من تدشين عهد جديد يتميز بالحماس للتعريب! ولكن عصابة الذين لم يهضموا الاستقلال أو اكتفوا منه بالعَلَم والنشيد الرسمي وضعوا حدا لهذه السياسة الجديدة فأقلت من الوزارة يوم 12 يوليو 1970.... دعاني السيد/ الهادي نويرة في نهاية عام 1971 لعضوية الحكومة وعلى رأس وزارة التربية القومية بالذات، وقَبِلَ الشرط الوحيد الذي اشترطته وهو مواصلة التعريب، ولو بالتدرج، وللمرة الثانية لم تترك لي الوقت اللازم لإنجازه فوضعت حدا لمسؤوليتي بالوزارة بعد حوالي عامين،

ولكن البذور التي رميتها أتت أكلها ولم يجد خليفتي بدا من تعريب الفلسفة عام 1975 تحت ضغط الرأي العام»[1].

وقد ظل الوضع في تونس على تلك الحالة التعريبية إلى بداية هذا القرن، حيث اتخذت الدولة قرارات مشرفة في مجال تعريب الإدارة، ومؤسسات الدولة، وقد سار التعريب في هذا المجال الإداري خطوات ملموسة، في السنوات الأخيرة(...)، خلافا للوضع المتردي في المغرب، كما ذكرنا، وفي الجزائر –أيضا– كما سنفصله فيما يلي:

ثالثا- وضع التعريب في الجزائر:

وهكذا تأتي تجربة الجزائر لتمثل من حيث النوع أبرز التجارب العربية على الإطلاق، ويمكن أن تقاس عليها الأوضاع العربية السابقة واللاحقة في هذا النطاق، وذلك للأسباب التالية:

أولا: طول المدة التي مكثها هذا القطر «المغاربي» تحت الاحتلال الفرنسي، حيث كان أول من وقع في قبضته سنة 1830 وآخر من تحرّر من وطأته «المباشرة» بعد هذا العهد الطويل الذي لم يشهد له في التاريخ العربي مثيل!

ثانيا: نوعية الأسلوب الممارس من طرف هذا المحتل الحاقد الذي أنكر على الشعب الجزائري العربي المسلم شخصيته المتميزة، وانتماءه الحضاري والثقافي إلى كيان الأمة المحمدية، مستهدفًا تذوبيه الكلي، في كيان الأمة الفرنسية، معتبراً إياه قطعة لا تتجزأ من فرنسا الصليبية الديانة، اللاتينية اللغة والثقافة ترابا وشعبا، لسانا ووجدانًا!.

(1) انظر نص محمد مزالي في كتاب المؤلف «الهوية الوطنية الحقائق والمغالطات»، دار الأمة الجزائر، 1996، ص 131–132.

وانطلق المحتل من هذا الوهم (الذي ظل وما يزال حتى هذه اللحظة يمثل الحقيقة في نظره!)(*) إلى طمس كل معالم الشخصية العربية المسلمة المتميزة للشعب الجزائري، وإزالة معالمها الثقافية، مبتدئًا بمحاربة اللغة العربية التي ظلت لغة المجتمع، ووعاء ثقافته الراقية، وأساس عروبته وعقيدته السامية منذ أن قرأ القرآن، وعرف حب الوطن من الإيمان، على يد أمثال عقبة بن نافع، وحسان بن نعمان، وموسى بن نصير، وطارق بن زياد وغيرهم من الفرسان، في مضائق الأسبان، وما وراء البحار، محاولا إزالتها من الوجود، لتمثيلها أقوى السدود المنيعة، في وجه عملية التذويب الفظيعة، التي كان وما يزال يستهدفها، وقد اندحر عسكريا وزال من بعض الأرض، وفي نفسه شيء كثير منها، كما تبرهن على ذلك تصريحات زعماء فرنسا السياسيين، وبعض جنرالاتها الحاقدين الذين لم يهضموا خروج الجزائرمن حوزتهم حتى الآن!!

وتأكيداً لذلك كله يمكن الرجوع إلى عهد الاحتلال ذاته لنتبين أن لهذا الأخير خصائص ومميزات تجعله ينفرد بها عمّا سواه من الغزاة والمحتلين «المنورين» و«المحررين» في المشرق والمغرب العربيين، وأن أوضح ما تتجلى فيه هذه الصفات والبصمات، وتلك الطرق والأساليب المبتكرة في «الإبادة الثقافية» والاستحواذ على المقدرات المادية والمعنوية للوطن والأمة... هو ما طبّقه في الجزائر التي تميّز فيها عن غيره معها ومع غيرها من البلدان التي احتلها بعدها، (كما أسلفنا).

فرض اللغة الفرنسية على الشعب الجزائري

لقد ظلت فرنسا طوال احتلالها للجزائر تعمل بجد وتسخر كل إمكانياتها المادية والمعنوية كما قلنا من أجل جعل الجزائر قطعة لا تتجزأ من التراب

(*) انظر تصريح الرئيس الفرنسي الحالي (نيكولا ساركوزي) حول هذا الموضوع أثناء زيارته الأولى للجزائر في يوليو 2007، ورفضه الاعتراف بجرائم جيش بلاده في الجزائر أثناء الاحتلال (1830 – 1962).

الفرنسي أرضا ولغة وثقافة ودينا، وقد انتهج قادة الاحتلال لذلك سياسة الفرنسة وهي إحلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية في جميع مجالات الحياة حتى يصبح المجتمع الجزائري فرنسي اللسان والثقافة، وينقطع بذلك عن تاريخه، ويفقد مقومات شخصيته الوطنية والقومية تدريجيا، ويذوب في بوتقة الأمة الفرنسية. على اعتبار أن اللغة هي أساس الهوية، وروح القومية في كل شعب، ولا زوال لأي شعب إذا بقي متمسكا بلغته، كما لا بقاء له كشعب موحد الهوية والكيان، إذا زالت لغته القومية من حياته اليومية. فاللغة هي الجنسية، واللغة هي الهوية، كما يصرح الفرنسيون أنفسهم بذلك، (انظر خطاب الرئيس ساركوزي حول الهوية الوطنية)!!

1 – حظر استعمال اللغة العربية في المجال الرسمي حظرا مطلقا:

لقد كانت كل الوثائق والمستندات المكتوبة باللغة العربية مرفوضة رفضا باتا وقاطعا في إدارة الاحتلال، ولا تقبل إلا إذا كانت مكتوبة باللغة الفرنسية وحدها دون سواها!

كما كانت عناوين الرسائل، أسماء الشوارع، أسماء المحلات، الاماكن العامة، اشارات المرور، كل شيء باللغة الفرنسية وحدها، حتى التوقيع على الوثائق كان لا يقبل الا باللغة الفرنسية، وقد يقبل من الجزائري البصم بالسبابة أو الإبهام إذا كان أمِّيا، ولا يقبل منه الإمضاء بالحروف العربية!!

فكان الفرد المتعلم باللغة العربية والأمي في درجة واحدة أمام الادارة الفرنسية، وهذا كله لتزهيد الأهالي في تعلم اللغة العربية، وإلزامهم بتعلم اللغة الفرنسية وحدها التي صيّروها لغة الخبز وحدها، دون بديل منافس لها في البلاد!

2– عدم السماح للأهالي بتأسيس المدارس والمعاهد لتدريس الدين الإسلامي واللغة العربية ولو بأموالهم الخاصّة:

وفي هذا يقول الامام عبد الحميد بن باديس في مقال له بعنوان: «محاربة التعليم العربي في الجزائر»: «وهذه حكومتنا أكبرت علينا بضع مدارس لا

يأوي مجموعها ألفا من أمة تعد ستة ملايين نسمة، ولا يُعلَّم بها أكثر من الحروف الابجدية ومبادئ الدين ولغة أولية، وهي تهتم بحركة تعليمنا البسيط اهتمام انجلترا باستحكامات ايطاليا وتحصيناتها للحرب»[1].

ولذلك كان على الدولة الجزائرية الفتية أن تبادر في صبيحة يوم الحرية برفع شعار التعريب لاسترجاع أهم مقومات الشخصية الوطنية، ووضع حد للتغريب والتخريب تحت إلحاح بعض الثوار الرافضين لكل أنواع التبعية للاستعمار... وشرع في التعريب تنفيذا لما ورد في الميثاق الوطني والدستور.. الذي نصت المادة الثالثة منه على أن: «اللغة العربية هي اللغة الوطنية والرسمية، تعمل الدّولة على تعميم استعمال اللغة الوطنية في المجال الرسمي».

مسيرة التعريب في الجزائر

ويمكن أن نقصر الحديث عن التجربة الجزائرية كنموذج لما قبلها وصورة مكبرة لما بعدها من البلدان السائرة في الطريق كما قلنا... ويمكن تقسيم هذه المسيرة «الاسترجاعية» للذات الحضارية في الجزائر إلى مرحلتين اثنتين، ومن الناحية النوعية تنقسم كل مرحلة إلى مجالين اثنين مختلفين في المحتوى والوسائل، ومتكاملين في الغاية والهدف بحيث يتوقف نجاح كل واحد منهما على الآخر بكيفية متزامنة.

فالمرحلة الأولى تمتد ما بين (1962 ـ 1979) ومجالاها هما: التعليم والإدارة، بمعنى تعليم العربية في المؤسسات التربوية، واستعمال العربية في المؤسسات الرسمية بمختلف أنواعها.

فبالنسبة لتقويم المجال الأول يمكن القول بأنه سار سيرا مقبولا مقارنة بالإمكانات المتاحة للبلاد في هذا المجال، وقد حققت الجزائر تعريبا معتبرا في مجال التعليم من الابتدائي حتى الجامعة... ونعتقد أن تلك الخطوة

(1) جريدة البصائر، عدد (10) ديسمبر 1937.

مثّلت مؤشرا واضح الدلالة على مدى تقدم مسيرة التعريب في مجال التعليم في الجزائر مقارنة بما كانت عليه المدرسة والجامعة الجزائرية أيام الاحتلال الفرنسي المباشر (قبل سنة 1962) ومقارنة أيضا بما هو عليه التعليم في كل من المغرب وتونس (كما أسلفنا).

وقد ظل الوضع كذلك حتى وفاة الرئيس الأسبق هواري بومدين (ديسمبر 1978) وهنا يمكن أن نؤرخ لتقويم المرحلة الثانية بشقيها التعليمي والإدراي.

فمن ناحية الجانب الأول، أي تعريب التعليم والتكوين بصفة عامة في المؤسسات التربوية (أفقيا وعموديا) تم في أواخر سنة 1979 إتخاذ قرارات هامة بتعريب جميع مراحل التعليم وفروعه « غير العلمية » والشروع في تطبيق هذا القرار على المستوى الوطني في سبتمبر من سنة 1980 وقد سار دون أية انتكاسة تستحق الذكر حتى الأن! ومن النتائج الإيجابية الملموسة للسياسة التربوية الجديدة المنتهجة في هذه المرحلة هو القضاء على تلك الإزدواجية « الطائفية » التي خلقت الوضع المأساوي المشار إلى أخطاره أنفا، وتجدر الإشارة إلى أن القرارت التي تم تطبيقها للقضاء على ذلك الوضع « الشاذ » على مستوى التعليم هي قرارت تنقسم إلى نوعين أو شقين بطبيعة الحال تماشيا مع التقسيم الأول .

1 – قرارات تتعلق بتعريب التكوين وتوحيد شعب التعليم الجامعي ليتم التكوين بلغة واحدة هي العربية، في جميع فروع التعليم العام، من الإبتدائي حتى العالي (باستثناء بعض مراكز التكوين المهني والفروع العلمية والتقنية بالجامعة التي لم يشملها القرار).

2– قرارات تتعلق بتعريب الإدارة، صادرة تباعًا من سنة 1980 حتى استقالة الرئيس اليمين زروال سنة 1998 ومجيء خليفته الحالي، الذي عكس الاتجاه رأسا على عقب، (كما سنبين بعد حين).

واسترسالا في تقويمنا للجانب الاول من هذه المرحلة يمكن حصرجوانبها الإيجابية فيما يلي:

أولا: توحيد شُعب التعليم الجامعي مع تعريب لغة التعليم في جميع فروع العلوم الانسانية والاجتماعية، وفي هذا المجال تعتبر الجزائر أفضل حالاً من بلاد المغرب العربي الأخرى التي ما تزال تدرس باللغة الفرنسية في مختلف فروعها الجامعية حتى العلوم الاجتماعية والانسانية، فضلا عن التخصصات العلمية والتكنولوجية التي ما تزال حكرا مطلقا على اللغة الفرنسية وحدها (المسماة أجنبية!؟) في كل البلاد المغاربية!!

ثانيا: تعريب لغة التكوين في المدرسة الوطنية للإدارة، وكافة مراكز التكوين الإداري على مستوى الجمهورية، وكل مؤسسات التكوين الأخرى التي كانت تابعة لوزارة الداخلية حين صدور القرار، والتي كنت شخصيا أشرف على تطبيق التعريب بها بصفتي مستشاراً للوزير مكلفا بهذا القطاع على المستوى الوطني.

ثالثا: انطلاق المدرسة الأساسية التي تتخذ من اللغة الفرنسية لغة أجنبية ومن اللغة العربية لغة وطنية (أي لغة التكوين في جميع سنواتها التسع) مما كوّن جيلا موحد الثقافة وكاد يقضي على مظاهر «التمييز اللغوي» السيئة السمعة والمظهروالجوهر (!!) وفي سنة 1989 منحت ولأول مرة في تاريخ الجزائر شهادة الباكالوريا الموحدة والمعربة في جميع فروع التعليم الثانوي على مستوى الجمهورية، وهومكسب كبير بالنسبة لعملية التعريب، ولكن هذه القرارات و هذه النتائج كلها رغم أهميتها الواضحة فيما حققه تطبيقها الصارم من نتائج ايجابية في الجانب الاول، فإنها ظلت يتيمة وناقصة باعتبارها قطبا واحدا في جهاز المسيرة التعريبية الذي لا يشتغل بفعالية الا بوجود القطب الثاني أو الشق الثاني المكمل له، ويتمثل هذا القطب الموجب في تعريب الإدارة والمؤسسات الحيوية للدولة في مختلف مجالات الحياة...

ولتقويم هذا الجانب الهام يمكن القول إنه اذا كان تطبيق القرارات المتعلقة بالجانب الأول إيجابياً ويبعث على الارتياح بشكل اجمالي، فان تطبيق القرارات المتعلقة بالجانب الثاني ظل وما يزال سلبيا بل وخطيراً الى حد بعيد. ولقد أثّر هذا الإخفاق التام في مجال تعريب الإدارة تأثيراً مباشرا وكارثيا مدمرا حتى على تعريب لغة التكوين!! .

و الوضع ما يزال على تناقضه حتى الآن، أي التناقض بين تعريب التعليم وفرنسة الإدارة، والتناقض بين القرار والتنفيذ والتناقض بين الدستور وشهادة الزور!! وبالنسبة للتعليم فإن الصراع ما يزال قائما بحدة حول تعريب الفروع العلمية والتكنولوجية بالجامعة مثل كل البلاد العربية مغرباً ومشرقاً (باستثناء سوريا الشقيقة... كما سنفصل الحديث حول هذا الموضوع لاحقا)!

وفي خضم هذا الخطاب المزدوج لأصحاب القرارنشط المناوئون للتعريب من غلاة الفرنكوفونية لعرقلة تطبيق أي قرار لتعريب الإدارة والفروع العلمية بالجامعة... وقد انطلقوا من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم بعد سنة 1999 بتنفيذ ما يسمى «بمؤامرة إصلاح المنظومة التربوية» التي أعادت اللغة الفرنسية إلى الحضانة! وهي تساوم الآن على إعادة فرنسة لغة تعليم المواد العلمية من جديد! وكأن زلزال الاحتلال سنة 1830 قد ضرب الوطن بقوة مرة أخرى باسم العولمة والانفتاح ومحاربة الإرهاب الذي يمثله «الحزب العربي الإسلامي في الجزائر»!!

وإن هذه المفارقات والخروقات التي عاشتها الجزائر مع تطبيق الدستور وقوانين اللغة العربية بالذات، فيما يتعلق بكيفية اختلاق المبررات وافتعال المناسبات وخلق الظروف لزرع الألغام واختراع الأدوات والقنوات الموازية لإلغاء القوانين أو إعادة تفصيلها على مقاس رئيس العهد الجديد، وإبطال مفعولها لصالح أصحاب المصالح، جعلتني أشبّه قصة التعريب في الجزائر

بالقضية الفلسطينية منذ خيانة بعض الحكام العرب لها سنة 1948 حتى الآن، وكذلك عقد مقارنة بين ما وقع لقوانين اللغة العربية في الجزائر بما وقع للإسلام مع «جنرالات» الأحزاب العلمانية في تركيا «الأوروبية»!![1].

أما الوضع الحالي الذي آل إليه التعريب بعد 1999 كما قلنا، فيلخصه هذا المقال المترجم عن مجلة «باري ماتش» الفرنسية، الذي جاء فيه حرفيا (من باب وشهد شاهد من أهلها) دون زيادة أو نقصان ما يلي:

«منذ أن تسلم الرئيس بوتفليقة مقاليد الحكم وهو يرسل الإشارة تلو الأخرى ملمحًا إلى أن من الضروري إعادة استعمال اللغة الفرنسية في الإدارة الجزائرية، لأن التعريب لم يرق إلى مستوى الطموحات التي كانت معقودة عليه، بل إنه فشل فشلا ذريعًا لا سيما في مجال التعليم، ويرى بوتفليقة أن من الخطأ إقصاء اللغة الفرنسية، «لأنها تشكل جزءاً مهمًا من التراث الجزائري وتمكن من التواصل والانفتاح على العالم الخارجي».

ويعتبر الرئيس الجزائري كذلك أن استعمال اللغة الفرنسية في الجزائر"لا يمكن تلخيصه في كونه مجرد خصام لغوي بسيط وإنما هو صراع أيديولوجي حول تشكيل تصور واضح للمجتمع مستقبلاً".

فبعد الوئام المدني، يطمح بوتفليقة إلى إحداث تغييرات ناجحة لمواكبة العصر والانعتاق من أغلال التعريب معولاً في ذلك على مساندة الشعب الذي صوت لصالح توجيهه السياسي في الاستفتاء الأخير بنسبة 99٪ في المائة!

وقد قال في أكثر من مناسبة أن استعمال اللغة الفرنسية في الممارسات الإدارية اليومية «لا يعد مخالفًا للدستور ولا شيء يمنعه». كما خاطب أولئك الذين يتظاهرون بالتذمر والانزعاج لسماع الرئيس يتحدث بلغة المستعمر،

(1) أحيل القارئ إلى هذه المقارنة (الطريفة والمتطابقة) المفصلة في كتابنا «مصير وحدة الجزائر بين أمانة الشهداء وخيانة الخفراء، دار الأمة الجزائر، سنة 2005، وذلك لعدم فقدان صلاحياتها حتى هذه اللحظة زمانا ومكانا ووجوه شبه عجيبة ومريبة!!

قائلاً: «ليس ذنبي إذا كنت أتكلم الفرنسية والعربية حتى قبل الاستقلال..فإذا كان تعلم اللغة اليابانية يتطلب 3 أشهر والانجليزية 3 سنوات فلنتعلم اليابانية إذن". وقد أدرك جميع المستمعين أنه عندما ضرب مثلاً باللغة اليابانية فإنه في حقيقة الأمر لا يعني سوى اللغة الفرنسية التي يفهمها ويتحدث بها السواد الأعظم من الجزائريين».

ويضيف صاحب المقال قوله: «وقد اعتبر الأديب الجزائري كاتب ياسين اللغة الفرنسية عقب الاستقلال، بمثابة إحدى "غنائم الحرب" وملكًا للجزائر من الآن فصاعدا». أما الأديب بوعلام صنصال فيقول: «كنا رومًا وأتراكًا وعربًا وفرنسيين ونحن الآن جزائريون... الرئيس الراحل بومدين حصر هويتنا في تعريف يتكون من كلمتين فقط هما: الإسلام والعربية.»

ثم يضيف: «ولم تكن عملية تعريب التعليم سوى مجازفة أيديولوجية أقدم عليها الرئيس الراحل هواري بومدين، وبمجيء الرئيس الشاذلي بن جديد ظهرت المدارس القرآنية على حساب ثنائية اللغة التي دخلت تدريجياً في طي النسيان! ومن ثم أنتجت الجامعة الآلاف من المجازين في العربية انضموا إلى طوابير البطالة. والجدير بالذكر أن الفرنسية ظلت لغة التعليم في كليات الكيمياء والرياضيات والطب!

وخلاصة القول كما يقول صاحب المقال هي: «إذا كان عبد العزيز بوتفليقة يريد فعلاً إصلاح التعليم بإعادة الاعتبار إلى اللغة الفرنسية فإنه سيسدي خيراً عميماً للجزائر. فسوق العمل تفكر وتعمل وتوظف باللغة الفرنسية. علينا أن ننهي هذا النفاق والكذب على العباد...الجزائر بلد فرانكوفوني عمليًا».

ونظرا لتبني الرئيس عبد العزيز بوتفليقة لمقولة كاتب ياسين، «الفرنسية غنيمة حرب»، والتي ما فتئ يعمل على تنفيذها في الواقع، منذ وضع على

رأس السلطة في الجزائر سنة 1999، كما أثبتنا في كتابنا المذكور آنفا(...)، فإننا نقف قليلا هنا لمناقشة هذه المقولة، وكل من يتبناها –حاضرا ومستقبلا– فنقول لهؤلاء الذين يحاولون أن يضحكوا على الأحياء (فضلا عن الأموات) ويرددون عبارة: «الفرنسية غنيمة حرب» ويحاولون أن يصيروا الهزيمة غنيمة والغنيمة هزيمة، نقول لمن يعتقد هذا أنه كمثل فرد أو أفراد في عائلة محترمة فاضلة تعرضت لعملية اعتداء واغتصاب، استحلّ المغتصب أثناءه كل محرماتها، وكسر أهم «طابوهاتها»، وبعد أن تمكن الأبناء الشرفاء والشهداء من التغلب على المعتدين وهزموهم شرَّ هزيمة، بادر بعض "الشواذ" (أخلاقيا ووطنيا وثقافيا) من الأهلين بالدفاع عن المغتصبين، وحمايتهم في عقر الدار لتمكينهم من مواصلة الاغتصاب بدعوى أنه هو القصاص والعقاب!! في حين أن ذلك هو الوضع العجيب والمريب الذي لم يوجد له في التاريخ مثيل قريب في غير الجزائر، حسب ما هو معلوم، مقارنة بتضحيات الشعب الجزائري من أجل الاستقلال والحرية والسيادة الوطنية كما ينص عليها البيان النوفمبري الخالد في أول بنوده القائل في هذا الخصوص بالذات:

1– إقامة الدولة الجزائرية الديمقراطية الاجتماعية ذات السيادة ضمن إطار المبادئ الإسلامية (غير الشيوعية وغير اللائكية) ولا سيادة وطنية بدون سيادة لغوية، ولا وحدة وطنية بدون وحدة لغوية رسمية حقيقية!!

2– تحقيق وحدة شمال إفريقيا في إطارها الطبيعي العربي الإسلامي،

ونلاحظ هنا الإعلان الصريح عن الانتماء الطبيعي والهوية الوطنية ذات الأصل الثقافي والبعد الجغرافي والطبيعي (العربي الإسلامي، وليس الإفريقي أو المتوسطي أو حتى النوميدي، فضلا عن الروماني أواللاتيني).

3– «احترام جميع الحريات الأساسية دون تمييز عرقي أو ديني»، ونلاحظ هنا شيئا مهما يتمثل في عدم وجود كلمة «لغوي» في البند، وهو

ما يعني صراحة أن البيان النوفمبري الوحدوي والسيادي يقر حرية الاعتقاد وتعدد الأديان داخل المجتمع، كما هو شأن كل البلاد الإسلامية في العالم، وكما يقره الإسلام ذاته «لا إكراه في الدين»، ولكن البيان يرفض التعدد اللغوي الرسمي، لأنه هو الفيصل القاطع في السيادة، وإن التلاعب فيه أوالتلاعب به سيؤدي حتما إلى ما لا يقبل التعدد على الإطلاق ألا وهو الهوية، لأن الإنسان لا يمكن أن يكون عربيا وغير عربي في الوقت ذاته! أو يكون عربيا مسلما في نوفمبر... ويصبح مسلمًا فرنسيًا بعد ديسمبر!!

4 - «الاعتراف بالجنسية الجزائرية بطريقة علنية ورسمية ملغية بذلك كل القرارات والقوانين التي تجعل من الجزائر أرضا فرنسية التاريخ والجغرافيا واللغة والدين والعادات للشعب الجزائري».

وهذا الرفض القاطع من أصحاب البيان معناه صراحة أن للجزائر هوية وشخصية متميزة تتكامل فيها كل المقومات التاريخية والجغرافية واللغوية والدينية والثقافية التي تجعلها غير فرنسية وتمد بالتالي أبناءها المخلصين بمشروعية المطالبة بالاستقلال وإفحام ساسة فرنسا بالحجج الدامغة في المحافل الدولية، وإذا لم تكن لغة الشعب الجزائري هي اللغة الفرنسية، كما ينص البيان، ولم يكن دينه هو المسيحية كما ينص البيان أيضا، فما هو بديل هذه اللغة وبديل هذا الدين غير العربية والإسلام المؤكدين في البندين (1 و2 المذكورين سابقا).

وللرد على هؤلاء الشواذ عقليا ونفسيا ووطنيا نقول:

1- إذا كانت اللغة التي تعتبر بكل المقاييس روح الشعب الذي يتحدث بها (كما يقول فلاسفة الحضارة الكبار في العالم...) من الأمور التي تدخل ضمن الغنائم التي يسبيها المنتصر من المهزوم... فلماذا لم تغنم ألمانيا والفيتنام اللغة الفرنسية، ولم تغنم كوريا اللغة اليابانية، ولم تغنم فرنسا ذاتها اللغة العربية (مع أنها أممت كل شيء!) بعد احتلال الجزائر والسيطرة على مقدراتها (بعد غزوها سنة

1830)، كما هو معلوم، وقبل هذا وذاك فلماذا لم يغنم الغرب عموماً، وإسبانيا على وجه الخصوص، اللغة العربية (وقد كانت يومئذ لغة الحضارة والعلوم والفلسفة والثقافة الراقية في كل أقطار العالم مثل اللغة الأنجليزية اليوم بدون منازع) وذلك إثر سقوط غرناطة وانهزام العرب النهائي في الأندلس سنة (1492).

2– وإذا كانت اللغة مجرد وسيلة (محايدة) للتقدم التكنولوجي كما يدّعون... فلماذا يحاربون بشراسة محاولة اعتماد اللغة الإنجليزية في المدرسة الجزائرية، كمجرد لغة، للانفتاح بها على كنوز التطور العلمي والتكنولوجي الهائل المكتشف بها أصلاً، والمدوَّن بها أيضا، ويفرضون اللغة الفرنسية الدخيلة والعليلة على أبنائنا في السنة الثانية ابتدائي؟؟

ولكن أصحاب "الغنيمة الجريمة" يرفضون بل ويحاربون دخول اللغة العربية إلى الأقسام العلمية في الجامعات الوطنية مع العلم أن العربية هي الأقدر على ذلك حتى الآن من اللغة الفرنسية، لأن هذه الأخيرة لا تعدو كونها مجرد ناقلة عن اللغة الأنجليزية مثلها في ذلك مثل بقية لغات العالم في العصر الحاضر، وحجتنا في ذلك أننا إذا فقدنا العلم –فَرَضًا– إن درّسنا العلوم باللغة (الوطنية والرسمية في الدستور) فلا أقل من أن نحافظ على الأقل على الروح الوطنية والسيادة والكرامة، اقتداءً بما فعله الرئيس الفرنسي ذاته في قمة بروكسل يوم 2006/03/25، عندما انسحب من الاجتماع بسبب تقديم أحد الفرنسيين تقريره في المؤتمر باللغة الأنجليزية، فهل جاك شيراك أقل وطنية وانفتاحا على العصر من أصحاب «جرائم الحرب» عندنا من مركوبي الجزائر في غياب الشهداء والشرفاء!؟

وعلى ذكر هؤلاء الأصلاء، أورد هنا هذه الرسالة الخطية المترجمة عن اللغة الفرنسية بعثها العقيد المجاهد عمرو أوعمران (أحد قادة الثورة المسلحة) من استوكهولم (عاصمة السويد) في 1958/12/09 إلى المجاهد الهادي المشيرقي رئيس لجنة مناصرة الشعب الجزائري أثناء الثورة (بليبيا الشقيقة).

الأخ العزيز الهادي... «فكرت أن أحكي لك عن أخباري حتى أطمئنك أولا.. ثم لأحييك بالرغم من المسافة البعيدة التي تفصل بيننا وبين اخوتنا الليبيين والذين برهنوا لنا أمام الله وأمام التاريخ على تأييدهم القوى للقضية الجزائرية أولا.. وعلى روحهم الوطنية تجاه بلدهم وتجاه اخوتهم العرب بالرغم من الصعوبات الكبيرة التي تواجههم.. وإني أكتب لك الآن بالفرنسية ليس حبا فيها.. لكنك تعلم أني لا أقدر على الكتابة باللغة العربية.. وهذا ليس خطإي بل هو جرم إمبريالي عميق الأثر.. وربما يأتي اليوم الذي نتعلم فيه لغتنا العربية العزيزة.. وإنني فخور جدا لانني وجدتك أخا صادقا بالقلب لا باللسان..»[1].

وشتان بين هذا الطراز النادر من الوطنيين الذين كانت ألسنتهم وأقلامهم الفرنسية ترجمانا صادقا عن مشاعرهم العربية و الوطنية النابضة، وقد استشهد منهم من كتبت له الشهادة، وبقي منهم من بقي صامداً مجاهداً يحارب المستعمر بلغته في المجال السياسي والفكري والدعوي دفاعاً عن مقومات الأمة، وثوابت هويتها وفاء بالعهد وانجازا للوعد، واستمراراً في الجهاد الصادق تحقيقا للاستقلال الأكبر... شتان بين أصحاب هذه الإرادة الفذة والوعي الوطني الرفيع... وبين المغالطين من أقطاب "الاستحلال" الفرنسي في الجزائر الذين يتخذون من اللغة الفرنسية غاية في ذاتها لإذلال شعبهم، تملقا لأسيادهم، وادعاءً كاذبا على التاريخ الحيّ للأمة بان ثورة نوفمبر فجرت بالفرنسية، بل ربما قالوا بأنها فجرت من أجل استرجاع اللغة الفرنسية "غنيمة الحرب" كما يدّعون حماقة ووقاحة، وجهلاً واستخفافًا بعقول أبناء هذا الشعب، في الجامعة قبل الجامع وفي أجهزة الإعلام والإدارة والشارع!!

ومن ثمة فما كانت دعواهم ووصاياهم "للمستخلفين" في الأرض، والمستأمنين على الغنيمة "الفرنسية" إلا العض عليها بالنواجذ ومواصلة

(1) نقلا عن كتابه (قصتي مع ثورة المليون شهيد – دار الأمة الجزائر 2000م).

المعركة بها ومن أجلها (كما هو وارد حرفيًا في مقال صحيفة «باري ماتش» الفرنسية المذكور آنفا)، حتى إزالة آخر حرف عربي من على شواهد القبور في الجزائر أسوة بما فعله «أبناء العمومة» من الإسبان في غرناطة سنة 1492!

وإذا كنا قد تحدثنا عن الجناح الغربي للأمة، والمتمثل في البلدان المغربية الثلاثة للأسباب التاريخية الصليبية والاستراتيجية المعروفة والمذكورة، فإننا لا نخرج عن هذا الموضوع دون أن نشير إلى وضع اللغة العربية في قلب جناح الأمة من الناحية المشرقية، ونأخذ نموذجا حيا لواقع لغتنا في قلب مشرق أمتنا، أرض الكنانة وبلاد الأزهر الذي أشعَّ بنوره على العالم لأكثر من عشرة قرون...

فعن وضع اللغة العربية في هذا البلد العربي الأكبر، نورد هذه الشهادة لأحد كتّاب الأمة من أبناء هذا البلد ذاته، حيث ينعى على لغة الأمة، وضعها في بلد الأزهر، فيقول الأستاذ أحمد حسن الزيات في الثلاثينيات من القرن الماضي ما نصه: «استقلال اللغة مظهر استقلال الذات، ووحدة اللسان جزء من معنى الأمة، واتحاد البيان سبيل إلى توحيد الرأي والهوى والثقافة. فإذا سمعت امرأً يتكلم غير لغته من دون ضرورة، أو يلهج غير لهجته من دون مناسبة، فلا يخامرك شك في أنه كذلك في خليقته وعقيدته ونمط تفكيره وأسلوب عمله. وإذا رأيت أمة تدير في أفواهها ألسنة الأمم، وتستعير في أعمالها دلالات الناس، فلا تتردد في الحكم عليها بالتبعية المدنية والعبودية الأدبية والوجود الملفَّق، وإذا شقَّ عليك أن ترى في الأرض هذه الأمة، أو تسمع في الأمة ذلك الإنسان، فتحامل على شعورك وجل جولة في إحدى عواصم مصر، فهنا أو هناك تجد في معارض التجارة، ودور الصناعة وبيوت المال، وأماكن اللهو، خليطا من الناس كجيش الدمُستق(*).

(*) الدمستق لقب قائد جيش الروم.

تدخل متجرا من المتاجر، أو مصرفا من المصارف، أو مقصفا من المقاصف، أو شركة من الشركات، فلا تقرأ في الإعلانات والمستندات إلا كتابة أجنبية، ولا تسمع في المحادثات والمفاوضات إلا لغة أجنبية، فإذا حرصت على أن تتفاهم بالعربية لاعتزازك بها أو لجهلك بغيرها، تضاءلتَ في رأي مخاطبك فينظر إليك بشطر عينه، ويكلمك ببعض شفته، وربما صغرت وصغرت حتى يستسرَّ عليه مرآك فلا يحفلك. وتغشى قصراً من قصور الأمراء أو داراً من دور الكبراء، فتسمع النادين يتطارحون الحديث بالفرنسية أو التركية، فإذا شاركتهم فيه بلغتك، وقرُوا آذانهم عن سمعك، لأنك نقلت الحديث الخطير إلى لغة السوقة، وأنزلت البهو الوثير إلى مجلس العامة، وتلقى أبناء (الذوات) في المشارب والملاعب والأندية، فتسمعهم يتراطنون بلغة مشوهة التأليف، مدخولة الوضع، بغيضة اللهجة...»[1].

وإذا كان هذا الحكم على وضع اللغة العربية قد صدر من هذا الغيور الكبير على أحد رموز هوية الأمة ووحدتها في الثلاثينيات من القرن الماضي، فإن وضع اللغة العربية حتى الآن ليس أحسن حالا ممّا وصفه الأستاذ الزيات منذ أزيد من سبعين عاما.

وتأكيدا لذلك، نورد هذا الحكم الصادر عن كاتب آخر معاصر غيور كذلك على وضع لغتنا الحاضر... هو الأستاذ فهمي هويدي، مصدّقا لما أسلفناه عن وضع اللغة العربية في الجزائر وما قاله الأستاذ الزيات عن وضعها في مصر في مقال له بعنوان «لغتنا العربية تتآكل وجميعنا إما لاهون أو راضون ما نصه: «وقف التعريب في الجزائر، في أعقاب الانقلاب على الممارسة الديمقراطية في بداية عام 1992، وهو الانقلاب الذي أعاد «هيمنة فرنسا» على مقدرات البلاد، الذي كان طبيعيا في ظله أن تتراجع عملية التعريب لحساب

(1) مجلة الرسالة –القاهرة– ع 179 س 4 ديسمبر 1936.

طغيان اللغة الفرنسية، ليس ذلك فحسب، وإنما أدى أيضا الى إثارة النعرات العرقية وتمزيق الهوية الوطنية... »[1].

هذا عن الجزائر، أما عن مصر فيقول: «إن الهجوم الكاسح الذي مارسته اللغات الأجنبية على مجتمعاتنا، وحقق نجاحا كبيرا مستفيدا من عوامل ثلاثة هي:

1- انهيار النظام العربي وخلخلة مفهوم الأمة، الأمر الذي أدى الى زعزعة مسألة الانتماء العربي وهيأ فرصة مواتية لدعاة التفكيك والانخلاع.

هذه القسمات يمكن إجمالها تحت عنوان: «الهزيمة الحضارية» التي كان طبيعيا أن تصبح اللغة من ضحاياها.

2- سياسة الانفتاح المنفلت التي انتجتها الدول العربية بدرجات متفاوتة، حيث أدت الى ما نشهده من هجوم واسع النطاق للسلع الأجنبية، ولكنها استصحبت أيضا هجوم موازيا للثقافة الأجنبية، حتى أصبح الذين يجيدون اللغات الأجنبية هم المميزين اجتماعيا واقتصاديا، وصارت المدارس الأجنبية تحظى باقبال غير عادي، بل ووجدنا بعض الجامعات الوطنية تفتح فروعا للتدريس باللغات الأجنبية، الأمر الذي لا يخلو من مفارقة. فبعد أن حقق العمل الوطني انجازه بتعريب التعليم الجامعي، خصوصا في كليات الدراسات الإنسانية، وبينما الأصوات تتعالى لمواصلة الشوط بتعريب مناهج الكليات العلمية من طب وهندسة وصيدلة وما الى ذلك، إذا بنا نجد الكليات التي تم تعريبها تعود للتدريس باللغات الأجنبية، فهذا ما حدث في جامعة القاهرة (كلية الاقتصاد والعلوم السياسية)، وهي القضية التي مازالت محل خلاف وجدل حاد بين أهل الاختصاص!!

3- ثورة الاتصال واتساع نطاق البث المباشر عبر الأقمار الصناعية، وهذه الثورة جعلت الإرسال التليفزيوني يخترق الحدود والجدران، ويصل الى غرف النوم في أي مكان بالعالم..

---

(1) نفس المرجع السابق.

. . . اجتمعت هذه العوامل في واقعنا العربي فمسخته على تلك الصورة، حتى أصبحت أغلبية واجهات أسواقنا، وأسماء مشروعاتنا وعلامات منتجاتنا، أما مكتوبة بحروف لاتينية وتحمل أمساء أجنبية أو أنها مفردات أجنبية مكتوبة بالحروف العربية!

صارت العربية المستخدمة في الإعلانات المبوبة أقرب الى «الأردية»، التي تستخدم الحروف العربية حقا، لكن مفرداتها خليط من العربية والأنجليزية والفارسية.

أكثر من ذلك، وجدنا مجلات عربية تصدر باسماء أجنبية، مثل «تي. في» (التلفاز) و«شوبنج» (التسويق)، و«سلكشن» (مختارات) و«كولورز» (ألوان)... الخ.

باختصار فإن لغتنا العربية تتآكل على ألسنتنا وفي واقعنا حينا بعد حين، فرغم خطورة الظاهرة وعمق دلالتها، فإننا لا نجد أحدا معنيا بمناقشتها ومحاولة البحث عن سبيل للتعامل معها. نعم هناك كتابات متناثرة تناولت جوانب تطوير اللغة وتبسيطها ودور النحاة في الإقبال على اللغة والإعراض عنها، وهي أمور مفيدة لاريب، لكنها لا تمس لب الموضوع وجوهره – ذلك أن اللغة ليست منفصلة عن الواقع الاجتماعي والسياسي، وإنما هي تعبر عنه سلبا أو إيجابا، فحين تتمسك الأمة بثوابتها وتدافع عن هويتها وتعتز بها، فإن ذلك لابد أن ينعكس على مواقفها وسلوكها ولغتها بالضرورة»[1].

ونختم هذه الشهادات المرّة والصادقة على وضع اللغة العربية في واقع الأمة بشهادة أخرى لأحد الأبناء من بلاد الشام المتألمين الذين لا يملكون سوى أوسط الإيمان (المتمثل في القلم) بالتنبيه إلى الخطر المحدق باللغة العربية، فيقول الدكتور عبد الكريم الأشطر في حوار له مع مجلة «العربي» حول الأخطار التي تهدد اللغة العربية، فيجيب قائلا: «هناك أخطار وعقبات كثيرة تواجه اللغة

(1) نفس المرجع السابق.

العربية منها الجهل بأبسط قواعدها، والزهد فيها، والشك في قدرتها على مواجهة العصر، ومازال فينا من يجادل في قبول العلوم التطبيقية بها على رغم من شيوع التجارب الناجحة في هذا الميدان. هذا وغيره ولد الأخطار التي تواجهها اللغة العربية مثل الدعوات الإقليمية إلى استخدام العاميات، وطغيان اللغات الأجنبية، مما ينتهي كله إلى إضعاف اللغة العربية وتمزيقها»[1].

وشعوراً بهذه الخطورة المحدقة بلغتنا القومية وعلاقتها بالهوية القومية، انطلقت بعض البلاد العربية، بعد حصولها على استقلال أوراق الجنسية الورقية (كما أسلفنا في البلدان المغاربية) من هذه المبادىء إلى وضع برامج مرحلية لتحقيق التعريب، أسوة بمن سار على الدّرب من بعض الأشقاء في المشرق العربي كسوريا على وجه الخصوص بعد استقلالها عن فرنسا سنة 1936!!

غير أن التركة الثقيلة التي ورثتها هذه البلاد المغاربية من هذا العهد الاحتلالي المديد، والأسلوب الخياني الفريد! جعلت برامج التعريب فيها تصطدم بالعديد من العوائق الموضوعة في طريقها، والتي ظهر بعضها للعيان، وبقي البعض الآخر مضمراً في النفوس والأذهان.. يتطلب المزيد من التحليل والبيان للذين لا يدركون أبعاد القضية الحضارية والهوية الوطنية والقومية، ولا يفرقون بين الجد واللعب، وبين العلم والأدب، وبين الغاية والوسيلة والأمة والقبيلة! وظل الاستعمار قائما (محنطًا) في أذهان بعض (كبار) الدار، ليمثل أفضل الشماعات لتعليق العجز عن مواصلة السير في طريق التحرير (الذي سطره المجاهدون الأولون الشهداء منهم والمنتظرون..) فبقوا نتيجة الجهل أو التواطؤ واللامبالاة، جامدين يرددون منذ الاستقلال السياسي المكتسب، بعض الحجج والمقولات الملقنة من قبل المحتل ذاته بلسانه أو بلسان نوابه ووكلائه المعتمدين، والتي يمكن حصرها فيما يلي:

(1) مجلة العربي عدد 567، فبراير 2006.

أولا: التذرع بالاستعمار الذي ظل يمثل أفضل الشماعات لتعليق التخاذل والعجز عن التعريب أو عدم الرغبة فيه، وذلك بقولهم (المكرر منذ استرجاع أوراق الجنسية المغربية والتونسية سنة 1956 والموريطانية سنة 1960 والجزائرية سنة 1962) بأنه لا يمكن أن نبني في بضع سنين ما هدمه أو مسخه المحتل في عقود من الزمن، ونام بعضهم متكئنين على هذه العصا التي نخرها السوس من الداخل، وهم لا يشعرون أو لا يعقلون!!

وإذا كانت هذه الذريعة تتطلب بعض المناقشة أو التفنيد فنقول: إن هذا المنطق المبرر لاستمرارية الاحتلال الفكري والتبعية الثقافية، وكأننا به يريد من الدول المغاربية الوطنية أن تجمد في مكانها منتظرة عددا من السنين تعادل سنوات الاحتلال العديدة والمديدة كي تسترجع أهم مقومات الشخصية الوطنية الحقيقية التي حاول أن يمسخها المحتل خلال هذه المدة الطويلة، وما يزال (كما أثبتنا بأمثلة حية من الأقطار الثلاثة)!!

ولو جارينا هذا المنطق «الاستدباري» أو «الاستحماري»، لكان على ثورة التحرير الجزائرية –مثلا– أن تنتظر المرحلة الأولى من الاستقلال السياسي سنة 2097 إن طالت الأعمار وصحّت العزائم، وبات المحتل جاهلا أو نادماً أو ظل غافلا أو نائما!!

ثانيا: نقل التعريب من قضية تحريرية وطنية، وهدف حضاري عظيم، إلى مشكل اجتماعي، يتوقف حله على عاتق الدولة وحدها مع فئة محدودة الإمكانيات من المواطنين (الوطنيين) الغيورين على مستقبل وطنهم ووحدة شعبهم وهوية أمتهم..!

والحقيقة أن التعريب ليس قضية فئوية، وإنما هو قضية وطنية، وهدف استراتيجي وطني وقومي، كما تنص عليه كل الدساتير الوطنية وميثاق جامعة الدول العربية...

وطالما أن دول كل هذه البلاد ظلت تؤكد في كل مناسبة أنها مستمرة في تحقيق أهدافها الوطنية والقومية، فالتكامل يجب أن يعيد نفسه حتماً... وإذا كان للاستعمار أشكال وأنواع... فإن الوطن واحد والأمة واحدة، ومن ثمّ يكون نوع الوطني واحداً، وهو إن قبل التعدد في الشكل، فإنه لا يقبل التعدد في المحتوى والجوهر! فلا يعقل أن يوجد عربي يكافح من أجل التحرر الشخصاني بالتعريب و«عربي» آخر يقذفه بدبابة التغريب من بعيد، أو يطحنه بانقلاب بها من قريب!!

ثالثا: التذرع بقلة الإمكانات المادية والبشرية لتحقيق التعريب واسترجاع اللغة العربية مكانتها الوطنية والقومية والحضارية...

والحقيقة أن هذه الحجة إذا كانت مساعدة في الخمسينيات في المغرب وتونس والستينيات في الجزائر على تجميد مشاريع التعريب في الملفات.. فإنها في السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي وأوائل القرن الحالي أصبحت حجة للتعريب وليست ذريعة للتغريب، إلا إرهابا وزورا وتزويرا!

رابعا: التذرع بضعف الكفاءة للإطار المكون باللغة العربية...

وهذه المغالطة يكذبها الواقع، ويؤكد تكذيبها المنطق، أما تكذيب الواقع لها، فهو التساوي في أسباب النجاح والفشل، بالنسبة للإطارات المعربة القليلة التي قلدت المسؤولية، بالمقارنة مع الإطارات التي ظلت تستعمل اللغة الفرنسية وحدها، مما يثبت أن المسألة متعلقة بالإنسان، وليست كامنة في اللّسان، ولعل انتصار مجاهدي الثورة التحريرية بالأمس على جنرالات فرنسا، وانتصار أبناء الأمة اليوم (بشهادة العالم) في بعض الفضائيات العربية على رجال (البي بي سي) و(سي أن أن) لخير دليل وبرهان على أن العبرة تكمن في الإخلاص والروح الوطنية والقومية، وليست في الرطانة وتعويج اللسان باللغات الأجنبية!!

وأما تأكيد المنطق السليم لهذا التكذيب الذي يثبته الواقع، فهو أن الكفاءة تأتي مع التعود، ولا يمكن للإنسان أن يولد كفءًا!!

فهل يعقل أن يمارس بعضهم على بعضنا (بعد نصف قرن من استرجاع أوراق الجنسية العربية لهذه البلاد المغربية والمشرقية)، اليوم تجربة استعمارية، أثبتنا نحن بإرادتنا الحرّة بالأمس القريب خطأها بكيفية عملية وعلمية، لا تقبل أن يجادل فيها عربيان عاقلان من عُمان إلى تيطوان!!

ونختم حديثنا في هذا الموضوع الوجودي الهام بهذا الرد الرائع والرائد للأديب العربي الكبير جبران خليل جبران دفاعًا عن اللغة العربية في مواجهة أعدائها من معاصريه منذ عقود، فيقول بكل صدق وإيمان بمستقبل لغة القرآن: «نعم سوف يعم انتشار اللغة العربية في المدارس العالية وغير العالية، وتعلم بها جميع العلوم، فتتوحد ميولنا السياسية، وتتبلور منازعنا القومية لأن في المدرسة تتوحد الميول وفي المدرسة تتجوهر المنازع، ولكن لا يتم هذا حتى يصير الواحد منا إبنا لوطن واحد بدلا من وطنين متناقضين أحدهما لجسده والآخر لروحه.

لا يتم هذا حتى نستبدل خبز الصدقة بخبز معجون في بيتنا، لأن المتسول المحتاج لا يستطيع أن يشترط (أن يفرض شروطه) على المتصدق الأريح. ومن يضع نفسه في منزلة الموهوب (المتسول) لا يستطيع معارضة الواهب، فالموهوب مسير دائما والواهب مخير أبدا!

ثم يضيف: «أما أولئك المنصرفون إلى نظم مواهبهم ونثرها، فلهم أقول: ليكن لكم من مقاصدكم الخصوصية مانعا عن اقتفاء أثر المتقدمين، فخير لكم وللغة العربية أن تبنوا كوخا حقيرا من ذاتكم الوضيعة أفضل من أن تقيموا صرحا شاهقا من ذاتكم المقتبسة»[1].

(1) اللغة العربية، آراء ومناقشات، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ص 184.

الفصل الثاني
بعض المعوقات التي تعترض سيادة اللغة العربية في الوطن العربي كلغة وطنية وقومية

المعوق الأول: عدم اعتزاز الأنظمة العربية باللغة القومية في بلدانهم:

ربطًا بما قلناه في الفصل السابق لا نجد أوضح وأصدق من المثل العربي القائل: «من لم يحترم نفسه لا يحترمه الغير» لنطبقه على العرب والتعريب حيث أننا لا نكون منطقيين مع أنفسنا، وواقعيين مع التاريخ، أن ننتظر الازدهار للغة العربية والتعريب في العالم العربي، ونحن نضع لغتنا القومية في المرتبة الأخيرة من اهتماماتنا الوطنية والقومية... فنجد من يعتبر اللغة مجرد وسيلة للتفاهم، وإذا حصل التفاهم بين الأفراد بغيرها فقد ثبت المطلوب كما يتوهمون، وقد ذهب بعض الشواذ والمنحرفين منهم وطنيا وعلميا وقوميا إلى اعتبار اللغة الأجنبية، ولغة المحتل بالذات، «غنيمة حرب» كما أسلفنا عن الوضع في الجزائر، وقد يذهبون في شذوذهم هذا إلى اعتبار المطالبة بالسيادة اللغوية نوعا من التخلف والتعصب والرجعية (.!.).

وهذه المعوقات تنطبق على استعمال اللغات الأجنبية التي أصبحت «غنيمة حرب»، كما تنطبق أيضا على هذه الذهنيات الشاذة التي تشجع استعمال اللهجات الدارجة العربية التي أصبحت تنشر بها الخطب الرسمية في بعض الأقطار المشرقية، مما جعل الطلاب الأجانب الذين يؤمون أقطارنا لدراسة اللغة العربية يصدمون بواقع مخجل، حيث لا يجدون أثرا للغة الضاد في الواقع، وأبرز مثال لهذا الوضع نجده في مصر حيث يتخرج الآن الطلبة الأجانب بشهادات في اللهجة المصرية في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وقد

ألِفّت قواميس بهذه اللهجة (فنجد –مثلا– قاموس فرنسي مصري، وأنجليزي مصري، وإسباني مصري، وألماني مصري وكذلك فرنسي تونسي، وفرنسي جزائري، وفرنسي مغربي، وفرنسي بربري.... إلخ) وآخر ما آل إليه وضع لغة الضاد في بلاد الأزهر الشريف، إضافة إلى ما أشرنا إليه في الفصل السابق، أن تقدم مندوبو الطلاب الأزهريين الذين يمثلون أكثر من سبعين بلدا إسلاميا، باحتجاج لإدارة الجامعة، على الصعوبة التي وجدوها في مزاولة الدراسة الجامعية، حيث يأتون من بلدانهم ملمين بمستوى معتبر من اللغة العربية الفصحى أصلا، إلا أنهم يفاجأون بواقع مر يهدد بمحو ما عرفوه من لغة فصحى في بلدانهم، فضلا عن تعلم الجديد من هذه اللغة، وذلك بطغيان استعمال اللهجة الدارجة المصرية في كل شيء حتى في بعض المدرجات الجامعية، مما يضطر الطلبة الى العيش في عزلة عن المجتمع المصري قبل الاضطرار الى تعلم تلك اللهجة، وذلك بطبيعة الحال يكون على حساب لغة القرآن التي قدموا ليتقنوها، في هذا البلد العربي العريق (...) ونظرا لتمسك بعض الطلبة المسلمين بالحديث بالفصحى فيما بينهم، ومع المصريين (سواء عن مبدأ أو عن جهل للهجة المصرية أو عن احتقار لها) فان التحدث بالفصحى أصبح الطابع المميز للأزهري حيثما كان عربيا أو أعجميا، في الوقت الذي توجد عشرات الجامعات بها ما يناهز الربع مليون طالب، لا يتحدث فيها الطلبة (فيما بينهم وحتى بعض الأساتذة أثناء الدروس مع الطلاب وفيما بينهم)، إلا باللهجة المحلية السوقية، ولا نجد للفصحى أثرا، إلا في أوراق الامتحان الكتابي، والكتب المقررة! ونحن الآن إذا وجدنا مبررا للأميين العرب الذين يتحدثون باللهجات العامية (للأسباب التي سنتناولها بالتفصيل وسنناقشها في فصل لاحق) فكيف نجد للجامعيين العرب (طلابا وأساتذة) وللمثقفين العرب، في احتقار الفصحى، أو التهوين من قيمة التحدث بها – على

الأقل – في الحرم الجامعي، وفي منابر العلم المختلفة.. فكيف ينتظر العرب أن تنتشر لغتهم في العالم وتكون لها قيمة عملية تذكر، وهم يحتقرونها في بلدانهم ويفضلون عليها اللهجات المحلية أو اللغات الأجنبية، ويفرضون تعلم هذه اللهجات المحلية على الأجانب القادمين الى بلداننا؟!

ثم كيف نتصور نظرة الأجنبي الى العرب واحترامهم كقوم يكونون وحدة ثقافية في الحاضر والمستقبل، وهو مضطر الى اتقان أكثر من عشرين لهجة عربية، كي يفهم العرب أو يتفاهم معهم؟!؟

وكيف نطمح أو نطمع في تحقيق الوحدة الثقافية والسياسية لأمتنا ودعمها مستقبلا بين الأمم، دون تحقيق التعريب الكامل، بالارتفاع عن مستوى اللهجات الى اللغة العربية الفصحى الجامعية، وإعطاء الأولوية، ومكان الصدارة والسيادة للغة العربية على مواطنينا العرب أولا، ثم على الأجانب في بلداننا ثم على الأجانب في بلدانهم، بقدر ما تسمح به القوانين الدولية، والأعراف الدبلوماسية (كما نلاحظ فرض الأجانب للغاتهم في بلداننا بكيفية قد تتجاوز المعقول الى درجة الاعتداء على مشاعرنا الوطنية والقومية!!)[1].

ويجدر التنويه هنا إلى أن بعض العرب القوميين قد ناضلوا وبذلوا الجهد والمال من أجل أن تعتمد اللغة العربية كلغة رسمية في الأمم المتحدة ومنظماتها المتخصصة رغم كل العراقيل الظاهرة والباطنة التي وضعت في طريق هذا الهدف من طرف الدول الاستعمارية ذاتها التي تعرف قيمة اللغة الوطنية ودورها السياسي والحضاري على المدى البعيد.. والوضع المشين الذي يخجل منه كل عربي أصيل ويندى لها جبين التاريخ، هو أن يأتي بعض العرب الذين لم يكن لهم أي دور في تحقيق ذلك المكسب العظيم (لا بالمال ولا بالأقوال) ليضربوا بذلك المكسب عرض الحائط، ويلقون خطبهم

(1) انظر في هذا الخصوص كتاب «اطلبوا الوطنية ولو في فرنسا»، دار الأمة الجزائر، 2005.

الرسمية باللغة الفرنسية، أو الأنجليزية، بدعوى تبليغ الفهم مباشرة الى الرأي العالمي، وكأن ذلك الرأي العام يجيد كل اللغات المعتمدة في الأمم المتحدة باستثناء اللغة العربية (!!).

فهل حصل في تاريخ هذا المنبر الدولي أن تحدث الإسباني بالفرنسية أو الفرنسي بالأنجليزية أو الألماني بالروسية أو الفرنسية أو الصينية! وإذا كان ممثلو العرب في الخارج، والذين يفترض فيهم أكثر من سواهم، الوعي الكامل لقيمة اللغة القومية كرمز للسيادة والعزة (كما أسلفنا في الفصل السابق) إذا كان بعض هؤلاء يهين قومه، باهانته لنفسه، فكيف نلوم العرب البسطاء على عقدة الخواجات، وهم الذين يمثلون في مجموعهم أعلى نسبة للأمية، ما دون خلق الله في البلدان الستة التي اعتمدت لغاتها في الأمم المتحدة بصفة رسمية!!

ألا ينطبق علينا المثل القائل: «لا يستقيم الظل والعود أعوج» و«فاقد الشيء لا يعطيه!» فالقدوة في التعريب الحضاري الحقيقي ونشر اللغة الوطنية والقومية بصفتها رمزاً للسيادة ومرآةً للسياسة والحضارة... يجب أن تسير من الأعلى الى الأسفل ومن الداخل الى الخارج. فاللغة هي التي تعطي للأمة هويتها القومية واسمها وهيبتها وقيمتها بين الأمم والدول، ومن خلال هذه اللغة تحقق ذاتيتها، وان التنازل عن اللغة القومية واستبدال أية لغة أجنبية بها (كليا أو جزئيا) هو مساومة على الشرف، وتنازل عن الشخصية القومية أو الوطنية المميزة لهذا الشعب أو ذاك، وتنازل عن الذات القومية من حيث هي كيان حضاري، ووجود إنساني متميز، في مرحلة تاريخية معينة.. فاللغة ليست مجرد أداة نستخدمها في حياتنا الاجتماعية كما تستخدم الأدوات الصناعية، أو كما يستخدم الحرفي والصانع أدواته المختلفة، بحيث يستطيع أن يستبدل هذه الأداة بتلك، إذا كانت هذه الأخيرة أحسن وأريح. فاللغة شيء مختلف تماما، فهي فضلا عن كونها وسيلة للتعبير عن كل ما يجول في

ذهن الإنسان، والتفاهم، والاتصال بين بني البشر، فانها بحكم اتصالها الوثيق بحياة الناس العقلية والعاطفية والثقافية قد أصبحت تمثل جزءا من أفكارهم وقيمهم، لا تكاد تنفصل عنها، وأن حياة اللغة تكمن في حياة أهلها الناطقين بها حتى ليمكن أن نقول: «كما تكونون تكون لغتكم» فاللغة لا تحيا ببطون المجلدات والمحاضر والمجلات الدورية للمجامع اللغوية العربية، ولكنها تحيا بالاستعمال على ألسنة الناطقين بها والمعتزين بها كلغة قومية، فبذلك تعلو في قيمتها على كل اللغات، وفوق كل الاعتبارات، كأحد رموز السيادة والعزة والكرامة القومية والوطنية، وتحيا بكتاباتهم، وإبداعهم الأدبي والعلمي والتطبيقي والسلوكي.

لقد عرفنا كيف أصبحت كل من اللغة الفرنسية والإسبانية واللغات الأخرى الكثيرة التي تفرعت عن اللاتينية، وكانت كلها مجرد لهجات محلية ضيقة الانتشار الجغرافي، وكذلك اللغة الانجليزية كيف أصبحت كل هذه اللغات، لغات علم وتقنيات وأدوات معرفة، وغزت قارات العالم بفضل القيمة التي أعطاها لها الناطقون بها، ومكان الصدارة والأولوية التي بوأوها إياها كرمز للقومية والسيادة والحضارة، فتفاوتت تلك الأمم الأوروبية المختلفة في ميدان تشييد الحضارة ونشر اللغة الوطنية، لتكون المأوى والمعبر والأساس لتلك الحضارة، وهكذا وجدنا الأمم التي أرادت أن تتحرر وتستقل سياسيا وثقافيا وحضاريا في بداية القرن الحالي، تعتمد أساسا في بنائها الحضاري على اللغة القومية، بمعنى أنها بنت حضارتها العظيمة ذات الطابع التكنولوجي والعلمي، بلغتها القومية، فنجد الأمة اليابانية مثلا تنطلق من عمق وأصالة لغتها القومية، لكي تلحق بركب الأمم المتقدمة وتحقق معجزة في مجال العلم بجميع فروعه الحديثة، وتبلغ الذروة في زمن قياسي مذهل لكل الأعداء والأصدقاء، وذلك كله من خلال

لغتها القومية فقط، التي تعتز بها اعتزازا قلَّ نظيره، وتدافع عنها كدفاعها عن حياتها وشرفها!!

مما جعل وضعهم هذا يمثل أفحم الأجوبة وقدوة رائدة ورائعة للذين يتساءلون عن مدى صلاحية اللغة العربية لتكون لغة علم وتكنولوجيا، ومسايرة التاريخ الحضاري للعصر الذي نحياه، في سلسلة الوجود الحضاري للبشرية عبر الحدود التي ترسمها الثقافة النوعية باللغة القومية !!

والمثال الياباني ذاته ينطبق على كثير من الأمم، ولغاتها في العالم، ومنها اللغة الروسية وقوميتها، وكيف أصبحت هذه اللغة في مدة نصف قرن لغة التكنولوجيا وغزو الفضاء، وكذلك اللغة الصينية، ومن ورائها الأمة الصينية، التي فجرت الذرة أمام العالم، بعبقرية لغتها القومية التي تعتبر من أصعب وأعقد اللغات في العالم على الاطلاق، وكذلك الأمة الألمانية والأمة الإيطالية، كيف جعلتا من لغتيهما لغتين للعلم والتقنيات الحديثة، منذ انطلاق أوروبا الغربية في نهضتها الصناعية، وكيف ظلتا تنافسان اللغة الأنجليزية والفرنسية في جميع المجالات على المستوى الدولي، فلماذا لم يتبن الألمان أو الإيطاليون اللغة الفرنسية أو الأنجليزية، رغم أن هاتين اللغتين أقدم ازدهارا وأكثر انتشاراً في العالم وتقدما من اللغتين الأخريين!؟

لم يفعل الألمان والطليان وغيرهما ذلك، لأنهم يعرفون قيمة اللغة القومية، ودور اللغة القومية في بناء الحضارة الأصيلة للأمة التي تريد أن تجد لنفسها مكانا في تاريخ الأمم المتحضرة.

هذا بالنسبة لعدم إعطاء العرب للغة العربية الحد الأدنى من القيمة المشروعة، التي تستحقها، كلغة قومية وحضارية، وهو كما نراه عائقًا كبيراً في وجه التعريب وانتشار استعمال اللغة العربية في الحياة العملية للشعوب العربية، ويليه عائق آخر لا يقل عنه خطورة، ويتمثل في عدم التشديد على

استعمال هذه اللغة كرمز للسيادة الوطنية، في المؤسسات الرسمية وأجهزة الإعلام والثقافة، والإدارات العامة التي لها علاقة بالجمهور العربي العريض، كالجمارك والعدالة، والحالة المدنية، ووثائق السفر، والشؤون القنصلية والدبلوماسية عموما، وهذه الحالة المهينة والمشينة تنفرد بها بعض البلاد العربية في شمال إفريقيا، وخاصة المغرب والجزائر كما أثبتنا ذلك بالوثائق الناطقة في الفصل السابق!!

فإن عدم تعريب هذه القطاعات تعريبا كاملا، وجدّيا، في كل الأقطار العربية، يؤثر تأثيرا خطيرا على سير التعريب الحقيقي الذي تنشده بلداننا العربية، كأمة واحدة، ذات لغة راقية سائدة، ورسالة حضارية خالدة (!!) .

المعوق الثاني: منافسة العامية للفصحى في مجالات تتجاوز وظيفتها...:

وإلى جانب منافسة اللغة العربية باللغات الأجنبية على الصعيد الجامعي، والبحث العلمي والحضاري (كما أسلفنا)، توجد منافسة أخرى للغة العربية على الصعيد العملي والأدبي والإعلامي من قبل اللهجات العامية، وهذه المشكلة لا تقل خطورة على اللغة العربية الفصحى، في تحطيمها من الداخل، إذا لم يحرص العرب على إيقاف اللهجات العامية عند الحد الذي يجب ألا تتعداه، حتى لا يتجاوز الشيء حده فينقلب إلى ضده(...) .

وإذا كنا قد فصلنا القول حول الأسباب التي دعت بعض المستشرقين، ومن ذهب مذهبهم من العرب، الى الدعوة الى تفصيح العامية والاستعاضة بها عن الفصحى، فأننا سنتناول في هذا السياق الأسباب التي أدت الى وجود هذه الظاهرة العامية، وما هي الجوانب الطبيعية في الموضوع والجوانب الخطيرة التي يتعين علينا التنبيه الى خطورتها، والقضاء عليها بكل الوسائل لاستئصال شأفتها حتى لا يستفحل داؤها القاتل في جسم الأمة، فيزيد أوضاعها اللغوية والتعريبية سوءًا على سوء!!

ورغم محاولة العرب صيانة الفصحى في صدر الإسلام، بوضع قواعد النحو والصرف لها، (كما شرحنا ذلك في الفصل الأول)، لم يحل ذلك دون وقوع الانحرافات اللفظية، وظلت على مر العصور تحاول أن تفلت من قيود الاعراب الثقيلة. وانطلاقا من تحديد اللغة الفصحى بقواعد النحو يصبح من المنطقي أن كل كلمة في العربية قابلة أن تصبح فصيحة شرط أن تدخل في جملة مفيدة. فالكلمة تكون عامية إذا استعملت في تركيب يقوم على الكلمة، وتصبح فصيحة إذا استعملت في تركيب يقوم على الجملة وارتبطت بسابقات لها ولاحقات، بحيث تنشأ الوحدة الاعرابية أو النحوية. فكلمة (إبريق) مثلا في خاص مبناها ومعناها لا تعتبر فصيحة أو عامية إلا بعد وضعها في جملة. فإذا قلنا (شفت الإبريق محطوط فوق الطابلة) تكون كلمة الإبريق عامية، وإذا قلنا: رأيت الإبريق موضوعا فوق الطاولة تكون الكلمة فصيحة. فلا اعراب في العامية لأنها بنت الحواس، والاحساسات تخرج فيها كالقذائف مستقلة بعضها عن بعض.

والذي يهمنا هنا التنبيه إليه كمعوق، لا يتمثل في وجود ظاهرة العامية في ذاتها، وإنما يكمن في تجاوز العامية لحدودها، بحيث تنافس الفصحى في مجالها وتضر بها كلغة وطنية ورسمية.

وفي ذلك يقول جرج فندريس: «ينحصر الفرق الأساسي بين اللغة العاطفية واللغة المنطقية في تكوين الجمل، هذا الفرق يتبين تماما عندما تقارن اللغة المكتوبة باللغة المحكية، هاتان اللغتان المكتوبة والمحكية تبتعدان في الفرنسية إحداهما عن الأخرى الى حد أن الفرنسيين لا يتكلمون إطلاقا كما يكتبون ولا يكتبون كما يتكلمون إلا نادرا، فلكل حالة من حالات التعبير طريقة مختلفة في تركيب الكلمات الى جانب اختلاف المفردات.

إن التركيب المنطقي الذي نلاحظه دوما في الجملة المكتوبة، يتعطل في الجملة المحكية ان قليلا أو كثيرا»[1] ويؤكد هذه الثنائية الطبيعية في اللغات ومن ضمنها اللغة العربية فيقول برهارد: «وتجد اختلافا كبيرا لاريب في لهجات اللغة العربية العامية، لكنه لا يصعب عليك أن تفهمها جميعا إذا ما تعلمت إحداها، وذلك على الرغم من اتساع البلدان التي يتكلم أهلوها بها، وقد يكون لاختلاف البلدان تأثير في اختلاف تلك اللهجات التي هي عذبة في أودية مصر والعراق الدنيا، وجافة في جبال بلاد البربر وسورية، وأعظم فرق كما أعلم هو بين لهجة المغاربة في مراكش ولهجة الأعراب في الحجاز. لكن هذا الفرق بين تينك اللهجتين لا يزيد عن اختلاف لهجة فلاحي جنوب ألمانيا عن لهجة فلاحي سكسونية في شمال ألمانيا»[2] فوجود اللهجات العامية في اللغات العالمية ليس مضرا في ذاته كما نرى وهو عفوي ويعبر عن جانب من جوانب الكائن الناطق، إلا أن الواجب علينا أن نضع كل شيء في مكانه ولا نحمله أكثر مما يستطيع فنحل العامية محل الفصحى، والفصحى كما رأينا قوامها القواعد والصواب والتركيب المنطقي في جملها.. فهي وجدت لضرورة التفكير، والعامية وجدت لضرورة التعبير السريع اليومي العملي التلقائي العاطفي. ومن هنا كان لكل شق من التعبير الفصيح أو العامي دور ووظيفة يؤديها خير أداء، ولكن الداء في محاولة احلال العامية محل الفصحى، وليس العكس[*]. فهل يمكن أن نلغي الفاعل من النحو؟ فالقضية ليست إجماعا بين العلماء، فحسب، وإنما هي قوام في العقل، فرض نفسه

(1) جورج فندريس: اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو–المصرية (بدون تاريخ)، ص 171.

(2) نقلا عن غوسطاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، ص: 532.

(*) أي أن الفصحى يمكن أن تنوب مناب العامية في أي شيء، لكن العامية لا يمكنها أ تعوّض الفصحى في كل شيء، وإن فعلت ذلك فتصبح فصحى، وستحتاج حينئذ إلى دارجة تساعدها (مثل الملكة والوصيفة).

بقوة، وهو الذي فرض وجود مقاييس اللغة، في الأوضاع النحوية، وفرض اعراب التثنية على اختلاف اعراب الجر، والخبر، وفرض أن تكون الجملة على أربعة أصناف.. وفرض أن تكون لكل جملة وقعت خبرا لمبتدأ من أن تشتمل فيها على ذكر يعود إلى المبتدأ.. فكل تلك الدقائق لم توضع إلا لحساب دقيق، ولغاية تؤديها في التركيب اللفظي.

فاللغة ليست حروفا بمعزل عن الألفاظ، ولا ألفاظا بمعزل عن الجمل، ولا جملا بمعزل عن البيان.. فاللغة هي كل هذا دفعة واحدة، فإذا قضينا على الروابط أي على المقاييس النحوية ماذا يبقى من اللغة؟ لا شيء، وفي ذلك يقول العلامة عبد القادر الجرجاني: «إن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الاعراب هو الذي يفتحها، وان الأغراض كامنة فيها، حتى يكون المستخرج لها، وانه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض على المقياس الذي لا يعرف صحيحاً من سقيم حتى يرجع إليه» [1].

فالثنائية التي نلاحظها في حياتنا الاجتماعية بين الفصحى والعامية هي ذلك الفارق في النحو الذي يجعل العامية عامية والفصحى فصحى، وهي مسألة طبيعية، لها حدود يجب أن لا تتعداها. فالعامية لها دور ووظيفة تؤديها الى جانب الفصحى، ولا ضير من بقائها ملتزمة بوظيفتها، إذا كان ولابد من بقائها، والفصحى لها دور ضروري في الحياة الاجتماعية الراقية يجب أن تؤديه ولا تؤديه إلا إذا بقيت فصحى، ولا تبقى فصحى بدون نحو وقواعد. والتيسير يكون من الفصحى لخدمة الفصحى، وليس للقضاء عليها وجعلها عامية أو استبدال العامية بها، فهذا هو الخطأ والخطر الذي يهدد الفصحى في وقتنا الحاضر، وهو خطأ ارتكبه العرب أنفسهم عن جهل أو تعصب، وليس الخطر كامنا في الخطأ أكثر مما هو كامن في التمادي فيه والدفاع عنه باختلاق

(1) دلائل الإعجاز، القاهرة 1331 هـ، ص: 24.

أسباب مختلفة، أقواها حجة عدم فهم القراء للكتابة الفصيحة والكلام الفصيح في القصة أو الرواية أو المسرحية أو المحاضرة.. حتى أصبحنا نشاهد – بكل أسف – أساتذة جامعيين يحاضرون في كليات الآداب بالعامية، فضلا عن كليات العلوم، والأخطر من ذلك أن تناقش الرسائل العلمية في الجامعات العربية (كجامعة القاهرة مثلا) بالعامية أي بلغة غير مقعدة في الوقت الذي لا تقبل التعابير المكتوبة من الطالب في الامتحان بالعامية لماذا؟ لأن الأستاذ إذا سهُل عليه فهم حديث الطالب بالعامية في المناقشة فيصعب عليه فهم الكتابة بالعامية، خاصة إذا كان الطالب يكتب بلهجة غير اللهجة المصرية (التي تكتب بها حاليا الخطب الرسمية في الجرائد كما تلقى من أفواه أصحابها).

ويؤكد هذا الحكم الدكتور عبد الصبور شاهين بقوله: «ولسنا نستطيع أن نتجاهل عملا خطيرا من بين عوامل عزل الفصحى، وهو استعمال المشتغلين بالتدريس في المدارس العامة (حتى نهاية المرحلة الثانوية) للهجات أو لمستوى رديء من (الفصعمية).

وأخطر من ذلك تأثرا استخدام أساتذة الجامعات للعامية (اللهجات المحلية)، وليس ذلك من باب المبالغة أو التجني، فنحن لا ننكر وجود أساتذة يحترمون اللغة الفصحى ويلتزمون بأدائها في محاضراتهم، وفي مقابل هؤلاء نجد بعض من يدرسون مادة (النحو العربي) ويستخدمون اللهجات العامية في مخاطبة الطلاب بقواعد النحو وسائر علوم العربية.

وإذا نظرنا الى العامية في الوقت الحاضر نجدها تمثل خطرا كبيرا على اللغة الفصحى كمقوم فكري واجتماعي للمجتمع العربي والأمة الإسلامية قاطبة. فهي من جهة لا تصلح نقطة التفاف لبناء العالم العربي، بسبب اختلافها بين المناطق اختلافا قد يصل الى صعوبة التفاهم بين أفراده (من غير المتعلمين) كلهجات بلاد المغرب العربي، ولهجات الخليج العربي أو الشام مثلا. ومن جهة

أخرى فانها عاجزة على أن تكون موصلا بين أبناء العالم العربي الإسلامي، وبين التيارات الثقافية التي تحيط بهم في المجال الداخلي أو الدولي..

ومن هذا المنطلق إذا أردنا أن نعالج الوضع للتخفيف من أخطاره المذكورة يتعين علينا أن نعمل على تحقيق أقرب لقاء ممكن بين العامية والفصحى على أن يكون هذا التقريب على حساب العامية (الفرع) وليس على حساب الفصحى (الأصل) والعمود الفقري للحضارة العربية الإسلامية والوحدة القومية أيضا ذلك لأن العامية هي التي تختلف من قطر الى قطر، وليس الفصحى التي أثبتت حتى الآن بأنها هي نقطة التفاف الأفراد، في هـذه الأقطار المعبر عن مجموعها، بالعالم العربي والأمة العربية.

والخلاصة أنه لا خوف على اللغة الفصحى من العامية ولا خوف من الفصحى على العامية إذا لزمت كل واحدة منهما حدودها ووظيفتها الميسرة لها. أما الخطر –كل الخطر– فهو أن تتقمص العامية شخصية الفصحى فتضيع العامية والفصحى معًا.

وقد قال في ذلك أحد المجمعيين العرب هو الأستاذ محمد الفاسي: «من النقائص التي تنسب للغة العربية ما يسمى بالازدواجية وهي أن الشخص العربي يتكلم لغة ويكتب لغة أخرى على خلاف ما هو الشأن عند غيرنا.. هذا صحيح.. ولكن في هذا الادعاء مبالغة ومغالطة، وذلك أن الفرق بين العامية والفصحى ليس بهذه الدرجة حتى يسمى كل ما نتخاطب به وما نكتبه لغة، بل باستثناء الاعراب وبعض المفردات فهما لغة واحدة.. وكل لغات الدنيا تتسم بهذه الفوارق، فهل العامية في فرنسا مثلا ولغة الكتابة ليس بينهما بون لا يقل عما بين لهجاتنا من جهة، وبين لغتنا الفصحى من جهة أخرى؟ بل أرى الفرق بين ما يتكلمه عمال ضاحية باريس ولغة الشاعر (بول فاليري) يفوق بمراحل الفرق بين ما يتكلمه العامل الجزائري وما ينظمه من

شعر الشاعر مفدي زكرياء... على أن هناك لغة علمية راقية وهي الألمانية تحتوي على اعراب معقد يتسلط حتى على أداة التعريف، تكون مذكرة أو مؤنثة ومحايدة بالأفراد وبالجمع وبحالات الفاعلية والمفعولية وغيرها.. ثم أنها لا يتكلمها أحد، إذ أن لكل ناحية لهجتها الخاصة.. إنما تستعمل الفصحى للكتابة وهي التي توحد بين مختلف أجزاء البلاد الجرمانية، وهي في هذا تماما مثل العربية.. ولم يمنع ذلك من أن اللغة الألمانية من أهم لغات العلم والأدب والفلسفة » (1).

ويضيف قوله في عرض حله المتوازن لهذه الظاهرة: «إن الحل لهذه المشكلة ممكن بالنسبة للغة العربية إذا سارت في طريق اللغة الألمانية، وتوفرت لها الوسائل التي وفرت للغة الألمانية لكي تكون لغة الكتابة، وللغة الرسمية المشتركة.. فيقول: «فالمسألة في هذه المشكلة هي مسألة تعليم فقط. فلو لم يكن التعليم عاما بالبلاد الألمانية لكان لهم مشكل من هذا النوع. ولكن حيث أن كل فرد من مجموع الأقطار التي لغتها جرمانية يحسن الألمانية الفصحى، فانه يقرأ كل ما يكتب أو يلقى في الإذاعة والتلفزة ولا يحس بنقص. إن من أكبرالعوامل الضارة باللغة العربية وبمستقبلها، وحتى بمستقبل الوحدة العربية استعمال اللهجات المحلية في السينما والمسرح وفي الإذاعة والتلفزة، إذ لا يجمع بين البلاد العربية إلا لغة القرآن والعدول عنها الى اللهجات المحلية هو فصم لهذه الوحدة، وقد قال الدكتور طه حسين رحمه الله: «الذين ينادون باحلال العامية لسهولتها محل الفصحى لصعوبتها هم أشبه بمن ينادون بتعميم الجهل لأنه سهل وإلغاء العلم لأنه صعب المنال..» (2).

---

(1) محمد الفاسي، التعريب ووسائل تحقيقه، بحث منشور في مجلة الأصالة، عدد 1974/08/17.

(2) محمد الفاسي، نفس المرجع السابق.

ونفس الرأي والموقف يتبناه الدكتور الدكتور إسحق موسى الحسيني، حيث يقول: «إذا كتبنا ما نحكي اليوم فبأية لهجة نكتب؟ إن اللهجات المحلية لا حصر لها، فلكل قطر لهجة عامية، ولكل منطقة في داخل القطر لهجة، ولكل بلد أو مجموع متقارب من البلدان لهجة. وعندنا لهجات مدن ولهجات قرى ولهجات بدو ولهجات طوائف. فبأية لهجة نكتب؟ وإذا ترك لكل امرئ أن يكتب باللهجة التي يتكلمها تبلبلت ألسنتنا وتشعبت لغاتنا وانتهينا إلى فوضى مريعة. وإذا كان الغرض التيسير فأي تيسير هذا الذي يدعو إلى تعلم عشرات اللهجات بدل لغة واحدة؟ وإلى تعلم عشرات القواعد بدل قاعدة واحدة؟ وإلى تعلم عدد من الألفاظ بدل لفظة واحدة[1]؟

وعن أضرار وأخطار العامية إذا تجاوزت حدودها يقول الشيخ محمد سعيد العرفي: «وأما مسألة إحلال اللغة العامية في محل اللغة العربية الفصحى، فعلاوة على ما ذكرناه من الأضرار، فإنها يلزم عنها تفريق شمل الأمة العربية نفسها، فتصبح كل بلدة، بل كل قرية أمة مستقلة بذاتها لا علاقة لها مع غيرها...!

فالقول بترويج اللغة العامية توكيد للتفرقة التي أدرك أعداء العرب والإسلام، أنها تكون سبب تنفيذ برامجهم التي تؤمّن مطامعهم ومنافعهم!»[2].

وعن إمكانية التعايش بين الفصحى والعامية دون ضرر أو ضرار يقول الأستاذ جورج كفوري: «وأما العامية فينبغي أن يتغير موقفنا منها ونظرنا إليها وبعد أن إزدريناها طويلا وأصلينها حربا عوانا لندفع عاديتها عن الفصحى على

(1) إسحق موسى الحسيني كتاب: أزمة الفكر العربي، دار بيروت، 1954.

(2) اللغة العربية، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق، القسم الأول، ص: 271.

غير طائل يجب أن نرجع إلى أنفسنا ونتبصر في أمرها قليلا فنرى أنها مانازعت الفصحى هذا الزمن الطويل ولا تم لها ماتراه من الإنتشار السريع بين العامة والخاصة إلا لمزايا خصت بها من دونها وهذه المزايا يجب أن تأخذ منها الفصحى مايعوزها ولا ينزل بها عن رتبتها.

إن التواصل بين الفصحى والعاميّة أمر مطلوب ومرغوب فيه، ولا ينبغي أن يُعادى، ولا نملك أن نفرّ منه، وهو ما حدث على مرّ العصور، وغاية ما يُطمح فيه أن نراقب التدرّج في رأب الهُوّة كلما اتسعت بينهما، ليكون ذلك لصالح الفصحى، ورُجحان كفّتها...

وإننا إذ نرفض رفضا مطلقا وقاطعا إحلال اللهجات العامية محل الفصحى في الحاضر وفي المستقبل لكل الاعتبارات المذكورة... فإن إحلال الفصحى محل العامية في أقطارنا العربية، وإن كان صعبا فهو أمر مرغوب فيه، وممكن الحصول عليه بالإرادة القوية والنيات الحسنة وصدق العزائم على الارتفاع بالقوم إلى مستوى هذه اللغة وليس النزول بهذه اللغة إلى مستوياتهم الدونية (بكل ما تحمل هذه العبارة من معانٍ) ومن سخريات القدر أن الكثير من الذين ينادون بتدريج الفصحى بحجة عدم فهم العوام لها، هم أنفسهم الذين يتفيصحون باللغات الأجنبية (الأنجليزية والفرنسية) على شعوبهم في أجهزة إعلامهم الرسمية والشعبية، وكأن هذه الشعوب العربية المسلمة تفهم الفرنسية والأنجليزية أكثر مما تفهم لغة القرآن التي يستمعون إليها يوميا، ويمارسونها في نسبة عالية منهم أثناء تأدية الصلاة!؟

المعوق الثالث: الازدواجية اللغوية بين اللغة العربية واللغات الأجنبية المفروضة على بعض البلاد العربية

لا شك أن الازدواجية أو التعددية اللغوية في حد ذاتها (وهي معرفة الفرد للغتين اثنتين أو أكثر...) هي من الأمور المحبذة، بل والضرورية في عصرنا الحاضر .

لكن إذا كان هذا مفيدا على المستوى العام، فإن الوضع على مستوى البلاد العربية يختلف اختلافا كبيراً وقاتلا، وذلك ما سنبيّنه فيما يلي كأخطر المعوقات التي تعترض الانتشار الحضاري المنشود للغة العربية حسب المقاييس السيادية والسياسية الوطنية والقومية:

ولتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود في هذا الموضوع المتداخل العوامل نقسم الازدواجية اللغوية إلى ثمانية أنواع أو أشكال يمكن ترتيبها منهجيا على النحو التالي، لتقريب الصورة كي يتسنى إدراك الخطر على اللغة القومية، وهذه الأنواع هي:

أولا: ازدواجية عامة.

وهي التي لا يقتصر استعمال اللغتين فيها على قطاع من القطاعات الحيوية في المجتمع دون الآخر، بمعنى أنها تشمل معظم المجالات الحيوية كالتعليم بجميع فروعه ومراحله، والإعلام بجميع أنواعه، وكذا الإدارة، والمؤسسات الرسمية والشعبية، وهذا النوع من الازدواجية يعتمد في بعض البلدان العربية (المغاربية على وجه الخصوص) بدعوى مساعدة اللغة العربية على النهوض، وبسبب الاعتقاد بأن هذه اللغة لا تقدر في الوقت الراهن -على الأقل- أن تكون لغة تدريس العلوم، وتسيير المؤسسات الهامة في الدولة، وبالتالي يرى أصحابها استبقاء الوصي أو البديل إلى أجل غير معلوم!

وحول أخطار هذه الازدواجية العامة يقول الدكتور علي لغزيوي: «إن مصير اللغة العربية يتراءى من خلال الأخطار التي تهددها بشكل حاسم، وأولها هو ذاك الخطر الثقافي. والخطر الثاني هو اللغة الأجنبية عندما يرافقها لدى التلميذ في مراحل التعليم العام الشعور بأنها هي القادرة على حمل أعباء المعرفة العلمية، وبأن اللغة العربية تظل قاصرة عن أداء تلك الوظيفة، وهذا الإحساس كثيراً ما يزدوج ويظل ازدواجه مغمورا في منطقة اللاوعي، فهو في واجهته الأمامية يخصّ جدول الألفاظ بحكم الوهم المتصل بافتقار العربية للمصطلحات القادرة على أداء الدلالات الفنيّة الدقيقة، وهو في الواجهة الخلفية يولد الوهم بأن اللغة العربية تعجز عن صياغة الخطاب العلمي الكفيل بمضاهاة الخطاب المصوغ باللغات الأجنبية سواء في وظيفته الأدائية أو في وظيفته الإقناعية»[1].

ثانيا: ازدواجية خاصة:

وهي أن تستعمل الدولة اللغة الأجنبية، في قطاع بعينه، أو قطاعات من الحياة الاجتماعية، دون الأخرى، كأن تستعمل في التعليم دون الإدارة، أو في التعليم العالي، دون التعليم الثانوي والابتدائي، أو الفروع العلمية دون الفروع الأدبية، أو في فروع التعليم التقني دون فروع التعليم العام... وذلك لأسباب تختلف من هذا البلد العربي إلى البلد الآخر... في المشرق أو في المغرب العربيين.

ثالثا: ازدواجية دائمة:

وهي أن ينطلق هذا البلد العربي أو ذاك مما يسمى بمبدإ الأصالة والتفتح (...) فيعتمد لغتين للاستعمال في البلاد، واحدة تمثل الأصالة والماضي

(1) من محاضرة له بعنوان «دور الإعلام والفنون في النهوض بالفصحى ومواجهة التغريب والعامية» في الندوة الدولية حول اللغة العربية، الرباط 1–3 نوفمبر 2002.

بما يمثله من عواطف وقيم وتراث وثقافة دينية، يفرض استبقاءها الواقع التاريخي والثقافي للفئات العريضة من أفراد الشعب... وواحدة توصف بأنها مفتاح التقدم، وغزو الكواكب، فيرى بعض الحكام العرب استبقاءها ونشرها، على اعتبار أن اعتماد اللغة العربية وحدها (على ما هي عليه، في نظرهم من جمود وضعف) ستجمد حركة التنمية المنشودة..

وأبرز مثال للازدواجية الدائمة، نجده في تونس الشقيقة كما بينه لنا هذا التقرير، الذي أعده باحثون تونسيون، عن تجربة بلدهم (الازدواجية) منذ ثلث قرن تقريبا... ومما جاء في هذا البحث الذي نشر بعنوان «التعريب والازدواجية في تونس»[1].

«.. يعتمد هذا البحث تحقيقا جرى في ثلاثة معاهد ثانوية بالعاصمة، اثنان للفتيات وواحد للفتيان، وقد تم استجواب مائة تلميذ (68 فتاة، و32 فتى) من السنتين الخامسة والسادسة آداب عصرية، وعلوم من شعبة (ب) وهي أهم الشعب كما أنها تضم التلاميذ الذين قوتهم متساوية في اللغتين: العربية، والفرنسية مبدئيا، وإن كان جانب الفرنسية فيها أوفر بكثير، فهي إذا شعبة الازدواجية اللغوية المثلى، خلافا لشعبة (أ) العربية، وشعبة (ج) الفرنسية.

وينقسم البحث إلى ثلاثة أقسام كبرى يمكن إرجاعها إلى المحاور التالية:

1) اللغة التي يستعملها التلاميذ في الوسط العائلي في مستوى الحديث، وتبين من البحث، أن أغلب التلاميذ يستعملون اللهجة العامية التونسية، إلا بالنسبة لمن يعيشون في وسط مثقف، فإنه يغلب عند ذلك الخلط بين اللغتين، غير أنه خلط لا يشوه الهياكل اللغوية الخاصة باللغة التونسية: (هكذا وردت العبارة في النص...) إلا أنه من الغريب أن ثلث التلاميذ

(1) بحث للطيب البكوش، منشور في مجلة الأصالة الجزائرية عدد: 17، سنة 1974م.

يؤكدون أنهم يستعملون الفرنسية عندما يكونون في حالة غضب أو حالة أخرى من حالات الانفعال، ونحن نعتقد أن ذلك راجع إلى ظن التلاميذ في هذا المستوى، أنهم يتكلمون الفرنسية، حين يستعملون بعض الكلمات في «لغتهم» اليومية، واللجوء إلى كلام أجنبي، في حالات البذاءة وما يتصل بها... يرجع فيما يبدو لنا إلى ظاهرة الكناية، والتورية، لغاية التلطيف، وبدافع الاحتشام اللاشعوري، فالكلام الأجنبي ليس له نفس الشحنة العاطفية التي تكون للغة الإنسان الأولى...

أما في مستوى المكتوب فإن الأجوبة تدل على أنه إذا توفر الاختيار يميل التلاميذ إلى استعمال الفرنسية... وقد ركزت خاتمة هذا القسم على إبراز نزعة التلاميذ إلى تفضيل الفرنسية، ولا سيما لدى الفتيات...

ويقول التقرير نفسه: «أما في حديث التلاميذ فيما بينهم خلال الدروس من ناحية، ومع الإدارة من ناحية أخرى، فإن الخليط اللغوي يسود! إلا أن الفرنسية تتفوق هنا أيضا، لأسباب لغوية، ونفسية.

ويختم الباحث تقريره قائلا: «أما موقف الطلبة من الازدواجية والتعريب، فهو جدير بالاهتمام وإن كان ينم أحيانا عن سوء فهم لجوهر القضية، فثلاثة أرباع يفضلون بقاء الازدواجية عموما، مما يدل على أنهم لا يفرقون بين أنواع الازدواجية، ولا يشعرون بأن الازدواجية السليمة هي التي تكون تفتحا وإثراء للغة القومية، لا التي تحل فيها لغة أجنبية محل لغة قومية. أما في مستوى التعليم، فإن النصف يحبذون بقاء الازدواجية، والنصف الآخر يشعر بما في ذلك من ضياع للوقت الذي يذهب في محاولة امتلاك لغتين، فكثيرا ما يؤدي ذلك إلى العجز في كلتيهما»[1].

(1) الطيب البكوش، نفس المرجع السابق.

رابعا: ازدواجية مرحلية:

وهي الازدواجية التي تعتمد فيها اللغة الأجنبية لظروف طارئة تفرضها الضرورة لتهيئة الإطارات الوطنية، المتكونة باللغة الوطنية، لتقوم بمهمة التعريب الكامل والشامل، وهذا المثال نجده واضحا في المغرب حيث كانت توجد النية لدى المسؤولين، منذ الاستقلال على أن تصبح اللغة العربية هي اللغة السائدة والمستعملة في جميع المجالات، ورغم أن الازدواجية ظلت مستمرة، إلى يومنا هذا، في التعليم وفي الإدارة إلا أن النية ظلت متّجهة نحو التعريب الكامل، كما يتمثل ذلك في اللوائح والمطالب الشعبية والحزبية للأحزاب الوطنية.

وعن الازدواجية في قطاع التربية والتعليم، نورد هذه المقتطفات من دراسة قام بها الدكتور إدريس الكتاني منشورة في جريدة «الأمة» المغربية في 1992/04/20 تحت عنوان:

ازدواجية التعليم بالمغرب وأثرها في المجال التربوي، جاء فيها ملخص يقول:

«... بعد حصول المغرب على استقلاله، أنشئت أول لجنة للنظر في التعليم وهي (اللجنة الملكية لسياسة التعليم)، التي أقرت أربعة مبادئ وهي: «التعريب، التوحيد، التعميم، المغربة». وهذه المبادئ وقع عليها الإجماع من طرف الشعب المغربي. ويضيف بأنه منذ مناظرة 1964 عرف المغرب صراعا من أجل إقرار سياسة التعريب سماها الباحث «معركة التعريب».

ورغم هذا الإجماع للشعب المغربي حول مبدإ التعريب فإن الازدواجية بقيت سائدة، لأنها كانت مخططا مرسوما «من أجل استمرارية الوجود الفرنسي الاستعماري في البلاد».

ثم انتقل المحاضر إلى تحليل نتائج الازدواجية، والتي يمكن تلخيصها في تكرار التلاميذ للأقسام وانفصالهم فيما بعد عن المدرسة وإنهاك الدولة ماليا.

ففيما يخص التكرار يبلغ مكوث التلميذ في المرحلة الابتدائية «8 سنوات ونصف سنة، يعني 9 سنوات بدل 5 سنوات». ونتيجة هذا التكرار (زيادة على التكرار في المرحلة الثانوية) نجد أن «معدل العمر الذي يحصل فيه المغربي على شهادة البكالوريا هو 25 سنة... بدل 18 سنة، وهو المعدل العام للحصول على البكالوريا في باقي الدول...» وهنا يتحدى المحاضر من يقول بأن هناك أسبابا عائلية أو اقتصادية أو نفسية أو اجتماعية «من غير السبب الرئيسي الذي هو ازدواجية لغة التعليم». ثم أعطى نتائج مقارنة -قام بها- بين دول المغرب العربي التي يفرض عليه نظام الازدواجية في التعليم، ودول المشرق العربي: مصر، الأردن، العراق، سوريا، ليبيا، التي تعتمد نظام اللغة المفردة في التعليم. فوجد أن نسبة الذين يحصلون على شهادة الابتدائية في المغرب هو (14 ٪) أما البقية وهي (86 ٪) فإنها «ضاعت في التكرار والانفصال»، في حين أن نسبة الذين يحصلون على هذه الشهادة في بلاد المشرق هي: (40٪) ويعلق على هذا الفرق بين النسبتين متسائلا «لماذا عندنا نحن نسبة الذين يحصلون على شهادة الابتدائية 16 ٪ في حين أن نظيرتها في البلدان الخمس هي 40,5٪؟ ألأننا فقراء؟! هناك من هو أفقر منا، مصر أفقرنا، الأردن فقيرة... ليبيا نقول إنها تملك النفط، لكن لماذا الجزائر تعاني مما نعاني منه نحن أيضا، رغم أنها تملك البترول والغاز؟ الجواب: لأنها لها نفس نظام الازدواجية».

ولهذه الأسباب يعتبر الدكتور إدريس الكتاني الازدواجية «جريمة تربوية ووطنية وسياسية وأخلاقية واقتصادية في حق الشعب المغربي».

وفي آخر هذا العرض شرح المحاضر فشل سياسة التعريب وأرجعها إلى ثلاثة أسباب:

أولها: أن نظام الازدواجية في التعليم «هو نظام استعماري ابتكرته فرنسا من أجل استمرار وجودها وسيطرتها الثقافية، تريد أن تمتلك الأرواح والأشخاص والأفكار، وبذلك تضمن استمرارية إمبراطوريتها» وهذا السبب يمكن عتباره العامل الخارجي الذي يفسر لنا بقاء نظام الازدواجية.

وثانيها: أن المسؤولين الذين تولوا وزارة التعليم ليست لهم أي علاقة بالتعليم فهو «إما أن يكون طبيبا أو مهندسا... أي ليس لديه أي فكرة عن نظم التعليم والتربية».

وثالثها: جهل الرأي العام المغربي وجهل نخبة المثقفين والزعماء السياسيين، الذين كانوا يعتقدون أن استمرارية الفرنسية وازدواجية اللغة هي عملية عفوية استمرت بعد الاستقلال، كما أن «مديري التعليم الحر ومديري التعليم الرسمي يجهلون الحقائق التي تنتج عن الازدواجية وهي حقائق فظيعة» وهذان السببان الأخيران يمكن إدراجهما ضمن العامل الداخلي الذي يفسر استمرارية الازدواجية في النظام التعليمي بالمغرب.

وتؤكد هذا الرأي دراسة أجريت عن الازدواجية اللغوية في المغرب تحت عنوان: «الازدواجية الاستعمارية» نشرت في صحيفة «البيان» بتاريخ سبتمبر من عام 1970م، جاء فيها: «الازدواجية الاستعمارية أخطر كارثة في عهد الاستقلال، تتفاقم الأزمة وترغم المسؤولين عن التعليم على الخروج من صمتهم المطبق والاعتراف علنا بأن التعليم الحالي يحتضر بسبب سرطان استحال علاجه، ومع ذلك فإن أحدا من المسؤولين عن التعليم لم يجرؤ على ذكر اسم هذا السرطان وتأتي اعترافات وزير التعليم العالي لجريدة «العَلَم» لكي تكشف عن الحقيقة العلمية التي تختفي خلف الظاهرة حيث قال: «... وقد أثبتت الدراسات التقنية أن أسباب انخفاض مستوى التعليم ترجع لازدواجية لغة التعليم» ويدعم اعتراف وزير التعليم العالي الشرح الذي ورد

على لسان معلمة فرنسية في مدارس البعثة الفرنسية، وفي مدرسة حرة عربية حيث وضحت مشكل الازدواجية في نظام التعليم العربي قائلة: «إن التلميذ المغربي يطلب منه أن يدرس جميع المواد التي يدرسها التلميذ الفرنسي وباللغة الفرنسية، وفي نفس الوقت عليه أن يدرس المواد العربية والدينية باللغة العربية، وهذا شيء إذا كان في مقدور الأذكياء جدا، فإنه فوق طاقة التلميذ العادي بكل تأكيد».

وعن الأهداف الخطيرة للازدواجية يضيف التقرير:

«عشرات المقالات والأبحاث التي نشرت خلال العشرين عاما الماضية، كلها تشرح وتؤكد بأن نظام التعليم القائم على ازدواجية لغة التعليم هو نظام استعماري؛ يهدف إلى فرنسة لغة الشعب ومسخ شخصيته الوطنية، وامتصاص قيمه الإسلامية، بل إنه أسلوب ماكر لاستنزاف طاقاته البشرية والاقتصادية والفكرية، وعرقلة نموه وتقدمه».

وإذا كانت تونس تتميز بالازدواجية الدائمة وتميز المغرب بالازدواجية المرحلية المتسمة بالمعارضة والصراع رفضا أو فرضا كما هو واضح، فيما أوردنا بأقلام وشهادات المعنيين أنفسهم... فإن الجزائر ظلت إلى هذه اللحظة تقف في هذا الموضوع بين تونس والمغرب، وكأنها تلتزم الموقع الجغرافي (الوسط)، حيث نجد بعض المسؤولين فيها يقرون بضرورة الازدواجية التعليمية (وهي الأساس) على المستوى المرحلي، في حين ينادي آخرون بضرورة انتهاج الازدواجية الدائمة المتبعة في القطر التونسي الشقيق!

ونورد ها هنا تصريحين مختلفين لوزيرين جزائريين تعاقبا على وزارة التربية الوطنية، فقد ورد على لسان الأول، وهو الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي ما يلي: «لقد كثر الحديث عن الازدواجية اللغوية، ورأينا من ينتصر لها بكل حماس ومن يعارضها بكل شدة، ولكننا لم نجد من حدد مضمونها وأبعادها،

فإذا كان المقصود بذلك هو الازدواجية العقائدية التي تتخذ اللغة العربية أداة للتعامل بين العوام، والجماهير الشعبية، وتجعل من الفرنسية لغة المدرسة والنخبة المثقفة، فإننا لا نرضى بذلك أبدا، لأن هذه الازدواجية التي يدعي البعض بأنها تمثل الواقع الثقافي بالجزائر، مثل هذه الازدواجية لا تستند إلى أي دليل من المنطق القويم، والعقل السليم، وحتى في البلدان التي يتفاهم فيها الناس بلغتين مختلفتين، لأسباب تاريخية أو عرقية، فقد لوحظ أن التحدث بلغتين في البلد الواحد كثيرا ما أدى إلى الانقسام...

أما إذا كانت الازدواجية لا تقوم على أساس عقائدي وكانت من الظواهر التي تفرضها بعض الظروف الطارئة، فينبغي حينئذ أن نقبل بها كظاهرة تاريخية محتومة، ومحدودة العواقب أحيانا، لأنها قد تتيح لنا فرصة الاحتكاك بغيرنا، والاستفادة من العلوم العصرية ومن الفكر العالمي »[1].

هذا اتجاه واضح المعالم في دعوته إلى الازدواجية المرحلية الجزئية، إلا أن هناك اتجاها آخر يختلف عنه، وهو ما يظهر لنا في التصريح التالي لوزير تربية آخر أتى بعد الدكتور أحمد طالب وهو السيد / مصطفى الأشرف، الذي يقول: «إن بعض الناس يصرون على القول بأن اللغة ما هي إلا صورة تعكس حساسية الأمة من خلال التاريخ، وتعبر عما يختلج في كيانها المشترك، فهؤلاء الناس لا يمكن أن يدركوا لماذا كانت أجيال وأجيال من البشر في الماضي والحاضر، رغم أنها تلم بثقافتها الوطنية تمام الإلمام، إلا أنها مع ذلك رأت ولا تزال ترى لزاما على نفسها، أن تلم إلماما عميقا باللغات الأجنبية، لأنها تعتبرها وسائل لإثراء ثقافتها وتعتبرها قبل كل شيء أداة وظيفية...

(1) د. أحمد طالب الإبراهيمي، من قضية الاستعمار إلى الثورة الثقافية (1962–1972)، نشر الشركة الوطنية للنشر التوزيع، 1975، الجزائر، ترجمة د. حنفي بن عيسى، ص: 126. (مع العلم أن الحديث المستشهد به أعلاه هو من نص محاضرة ألقاها المؤلف أمام الإطارات النقابية بالجزائر بتاريخ 1972/02/18م، تحت عنوان، الثورة والتعريب.

كذلك كان الأمر في الجزائر، بل في المغرب العربي كله، حيث كانت اللغة الفرنسية، وهي لغة المحتل الدخيل، مستعملة من قبل الوطنيين والمناضلين، منذ أن نشأت الحركة الوطنية وأثناء الكفاح التحريري كله، أولا على الصعيد السياسي، ثم على صعيد الكفاح المسلح، فعبرت عن نضالنا وتصميمنا على تحقيق استقلال بلادنا واسترجاع الشخصية الوطنية لشعوبنا... ومن البديهي أنه لم يكن يوجد عند أبناء المغرب العربي، ولا يوجد عندهم اليوم أي تجاوب عاطفي مع هذه اللغة التي استعملوها ولا يزالون يستعملونها، كأداة للتعبير، مثلها في ذلك مثل غيرها من الأدوات المحايدة الوظيفية...

إلى أن يقول: «ويضاف إلى ذلك أن اللغات الأجنبية أصبحت لها أهمية كبرى في عصر الصناعة، وأصبح تعلمها ضروريا –جدا– نظرا إلى متطلبات عصرنا... ولا شك أن هذا الأمر من شأنه أن يساعد في إعطاء فكرة عما ينبغي أن يتوفر في البحث العلمي، من شروط، ومن شأنه أيضا أن يساعد في إعداد الباحثين إعدادا صحيحا، وتمكينهم من الإلمام بلغتين، أو بثلاث لغات، وقد اتضح لنا مما سبق العمل الذي لا يزال ينتظرنا في الجزائر، لا لكي نتدارك ما فاتنا وما نعانيه من تخلف فحسب، بل كذلك لكي نغير العقليات ونزيل أحكاما مسبقة وخلافات خطيرة تغذيها نظرة التجهيل من طرف قوم يهمهم أن تدوم حالة الذبذبة بإيهام الناس أن التعريب الذي يعتبرونه من القيم الثابتة المقدسة، يكفيه أن يكون وجوده وحده، غاية ومبررا، حتى لو فرضنا أن يكون هذا الوجود جامدا ومضرا بالمدرسة وبالأطفال والدارسين»[1].

(1) مصطفى الأشرف «مشكلات التربية والتعليم»، بحث منشور في مجلة الثقافة (الجزائر) عدد: نوفمبر 1977م.

خامسا: ازدواجية فردية:

وهي أن يكون الفرد المتعلم في المجتمع عارفا للغتين اثنتين (اللغة الوطنية واللغة الأجنبية الأولى) معرفة جيدة، بحيث يستطيع استعمال كلتيهما بالدرجة والكفاءة نفسها، وهذا النوع من الازدواجية في اعتقادنا لا يضر بالتعريب، بل يفيده إذا روعيت فيه الشروط الأساسية التالية:

1) أن يكون للغة الوطنية مكان الصدارة في الإدارة والحياة العامة، والاستعمال اليومي الشفهي والتحريري.

2) أن تغرس المناهج التربوية في نفوس الناشئة حب الوطن، وحب اللغة الوطنية كمبدإ لا يقبل المساومة والنقاش، مثل العَلَم والاستقلال والسيادة الوطنية...

3) يفضل من يجيد اللغة الوطنية (عند الاختيار) على من يجيد اللغة الأجنبية، وذلك في الوظائف العامة، وفي معدلات النقط التي تعطى للطلبة في الامتحانات، كأن يرتفع الحد الأدنى لعلامة الرسوب في اللغة الوطنية، ويلغى أو ينخفض نسبيا، الحد الأدنى للرسوب في اللغة الأجنبية الأولى.

4) أن يقتصر استعمال اللغة الأجنبية على المجال الدراسي والبحث العلمي، والتوجيه يكون للغة الوطنية، وتبعد اللغة الأجنبية من الاستعمال في الحياة العامة في الإدارة والإعلام والثقافة بكل فروعها (كفرنسا في فرنسا مثلا)، فإذا توفرت هذه الشروط وروعيت بإخلاص وطبقت بنزاهة من طرف المعنيين بشؤون البلاد، لم ينجم عن الازدواجية الفردية أي ضرر على التعريب خصوصا، وعلى الوحدة الاجتماعية والسياسية للمجتمع عموما، ومثال هذه الازدواجية المشروطة، نجده في بعض الأقطار المشرقية التي انتهجت طريق الازدواجية الفردية مثل لبنان ومصر وسوريا والسودان...

سادسا: ازدواجية فئوية:

وهي التي تؤدي فيها السياسة التربوية والتعليمية في بلد معين إلى خلق فئات لغوية تصل إلى درجة الطبقات بعد استفحالها، وهي أن توجد فئة تتقن اللغة الأجنبية مثل أهلها وتجهل اللغة الوطنية جهلا يؤدي بها إلى معاداتها (...) وإذا عادت اللغة الوطنية عادت بالضرورة الفئة المقابلة، أي الفئة التي لا تعرف إلا اللغة الوطنية، وينتج عن ذلك رد فعل حتمي يؤجج العداوة بين الفئتين المتعارضي المصالح... وهذا النوع من الازدواجية الفئوية، إذا لم يقض عليه في الوقت المناسب، مع مراعاة الشروط المطلوبة لنجاح الازدواجية الفردية (السالفة الذكر) فسيؤدي بالبلاد إلى عواقب وخيمة وخطيرة، عبر عنها الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي (وهو مزدوج اللغة: عربية – فرنسية) بقوله: «مثل هذه الازدواجية لا تستند إلى أي دليل من المنطق القويم والعقل السليم، وحتى في البلدان التي يتفاهم فيها الناس بلغتين لأسباب تاريخية أو عرقية فقد لوحظ أن التحدث بلغتين في البلد الواحد كثيرا ما أدى إلى الانقسام...»[1]، وأبرز مثال لهذه الازدواجية الفئوية الخطيرة التي ترجع لأسباب تاريخية، هي الحالة الازدواجية التي تعيشها الجزائر في الوقت الراهن نتيجة الاستعمار أولا، ونتيجة للتجارب التربوية المتعاقبة على البلاد بعد الاستقلال ثانيا، وقد أكد ذلك المفكر الجزائري مالك بن نبي بقوله: «لقد أحدث الاستعمار العديد من الظواهر المختلفة في المجال الاقتصادي والاجتماعي والإداري، في البلاد التي استعمرها، ومن بينها ظاهرة خاصة، نتيجة للظواهر والعوامل السابقة... وهي ظاهرة الازدواج اللغوي التي تترك أثرها ومفعولها المباشر على الظواهر الثقافية في البلاد. ونذكر في هذا الصدد نموذجين للازدواج اللغوي تركه الاستعمار،

(1) أحمد طالب الإبراهيمي، في مقال بعنوان: «الثورة الثقافية والتعريب..» مشنور في مجلة «الأصالة» الجزائرية بتاريخ 17 نوفمبر 1974.

وما يزال قويا إلى الآن، وأول هذه البلدان مصر: حيث اللغة الأنجليزية تؤثر وتستحوذ على ميدان حي من العمل الفكري في المجال الجامعي، حيث تدرس العديد من المواد العلمية بها، غير أن هذه الازدواجية لا نجد لها أثرا إلا في المجال الفكري العالي والثقافة الراقية لطبقة عليا في المجتمع.

والبلد الثاني الذي يعيش الآن ازدواجية لا مثيل لها في العالم هو الجزائر، حيث أنها لم تتوقف عند حد المجال الفكري الجامعي... وإنما امتدت إلى كل المجالات الحيوية الأخرى، والحياة اليومية للمجتمع، والازدواج هنا أخطر بكثير: لأنه ازدواج شعبي، على مستوى القاعدة العريضة للمجتمع، ويمكن القول: أن هناك ازدواجا طبقيا في مصر وازدواجا شعبيا وجماهيريا في الجزائر»[1].

وعن مساوئ التدريس باللغات الأجنبية نتيجة عقدة الخواجة المستفحلة في العديد من النفوس والرؤوس العربية، يقول الأستاذ إبراهيم كفروني «غير أن مايكسبه الطالب بالإسراع في تعلم اللغة يخسره بما ينقص من إدراكه العلم المطلوب وبما يلزم له من الوقت الزائد لأجل تحصيله إياه. وكثيرا ما يشاهد ذلك في الذين يدرسون العلوم من السوريين في اللغة الفرنساوية فإنك تراهم متضلعين في معرفة اللغة يحسنون التكلم بها والكتابة، غير أنك إن سألتهم عما تعلموه رأيت أن ما يعرفونه من العلم هو دون الطفيف...».

إلى أن يقول: «هذا فضلا عن أن من يتعلم العلم بلغة أجنبية لا يقدر أن يفيد به الآخرين ما يفيده من يتعلم بلغته الأصلية، وننصح الذي غرضه تحصيل العلوم أن يدرسها في لغته بالألفاظ التي يألفها والعبارات التي يفهمها والاصطلاحات التي تعوّدها فإن لها وقعا في نفسه وتأثيرا لا تؤثره الألفاظ والعبارات والاصطلاحات التي في اللغة الأجنبية»[2].

(1) مالك بن نبي، «مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي»، مكتبة عمار، القاهرة 1970، ص: 183.

(2) اللغة العربية، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق، القسم الثالث، ص: 35، 37.

سابعا: ازدواجية إيجابية:

وهي أن تكون مرحلية وخاصة، بغرض النهوض بمستوى اللغة الوطنية وبالقدر الذي يفيد هذه اللغة ولا يضر بها... ومن خلال التحليل السابق، للأوضاع السائدة في بعض البلدان العربية والنوعيات المطبقة فيها، للازدواجية اللغوية... يتبين لنا أن الازدواجية ليست مرفوضة، في حد ذاتها، إذا ظلت اللغة الوطنية وطنية في الدستور والواقع، واللغة الأجنبية أجنبية في اللسان والميدان، وحدد لها نطاق ضيق لا تتجاوزه بحيث تفيد التعريب ولا تعوقه، كما هو حاصل إلى حد الآن، في بعض البلدان العربية السائرة في طريق الازدواجية (المذهبية) التي خلقت من «المزدوج» مواطنا أجنبيا في السلوك والثقافة، ومن الذي لا يجيد اللغة الأجنبية في بلاده ووطنه، مواطنا أجنبيا في الحقوق والمكانة(!!).

ثامنا: ازدواجية سلبية:

وهي الازدواجية التي تتجاوز حدها لتنقلب إلى ضدها، فتسيء أكثر مما تصلح، وتهدم أكثر مما تبني، ومن نتائجها أنها تخلق فئات، وطبقات اجتماعية متعارضة المصالح والاهتمامات والاتجاهات الفكرية والثقافية، والإيديولوجية، وتخلق اتجاهات اجتماعية معارضة للازدواجية من أساسها، ليس كرها في اللغة الأجنبية وإنما حبا للغة الوطنية، وليس رفضا للتفتح وإنما رفضا للذوبان، وإن حل هذا الإشكال لا يتم إلا بتمسك جميع الأطراف المتصارعة بمبدإ سيادة اللغة الوطنية على الصعيد الوطني والقومي والحضاري مثل جميع الدول والأمم المستقلة ذات السيادة في العالم!

والجدير بالملاحظة أن الازدواجية الدائمة أو المرحلية قد تكون كل واحدة منها عامة وخاصة، أي قد تكون الازدواجية دائمة وعامة مثل تونس، أو تكون الازدواجية عامة ومرحلية مثل المغرب، أو تكون ازدواجية دائمة

وخاصة مثل بلدان المشرق العربي، أو ازدواجية دائمة ومرحلية وعامة وخاصة معا مثلما هو واقع في كل من موريطانيا والصومال وجيبوتي، والجزائر بالذات التي صدر فيها قانون اللغة الوطنية سنة 1991 لإنقاذ مستقبل الوطن، غير أن قوى «الاستحلال»، في الداخل والخارج، أقامت القيامة من أجله ولم تقعدها حتى جمّدته على الورق وقبرته في مهده بعد إلغاء نتائج الانتخابات التشريعية سنة 1992 ثم بُعث القانون من جديد سنة 1998، ولكن سرعان ما أُبعد الرئيس اليمين زروال الذي أصدره(!؟) لتعود الأمور مع الرئيس الجديد إلى وضع أسوأ مما كانت عليه[*]، وما تزال هذه الردّة قائمة رغم وجود القانون، وذلك منذ 1999 حتى الآن!!

وإذا كانت الازدواجية المفيدة مشروطة، وكان الانفتاح على اللغات الأجتبية ضرورة حضارية للأمم الحية... فإن ذلك يجب أن يقنن مثل الدواء الذي لا ينبغي أن يتجاوز حدَّه لكي لا ينقلب إلى ضده!

وعن شروط هذا الانفتاح الذي يجب أن يتوخى بالنسبة لتعلم اللغات الأجنبية، يقول الشيخ السعيد العرفي: «ليس معنى هذا أن تعلم غير اللغة العربية محظور أو غير مقبول، كلاّ، بل هو مقبول شرعا، مستحسن عقلا، بدلالة أن رسول الله ﷺ أمر زيد بن ثابت الأنصاري أن يتعلم (العبرية) -كما ثبت في الصحيح- لاحتياج المسلمين يومئذ إلى معرفتها.

وإنما نحن نذمّ الناطقين بالضاد، إذا قدّموا معرفة لغة أجنبية على إتقان لغتهم، أو جعلوها مساوية أو مزاحمة لها. فإن من أعظم أنواع انحلال الأمة العربية إهمالها لغتها وعدم الاعتناء بها[1].

(*) انظر تفاصيل هذا الموضوع في كتابنا «مصير وحدة الجزائر بين أمانة الشهداء وخيانة الخفراء!!»، دار الأمة الجزائر، 2005م.!!.

(1) اللغة العربية، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق، القسم الأول، ص: 276.

وعن هذا البعد الحضاري والانفتاح المشروط نحو اللغات الأجنبية لإفادة حضارة الأمة يقول الأستاذ عبده كحيل: «إن الدواعي التي تسوق الإنسان الى درس لغة غيره متفاوتة، فمنها طلب المنفعة المادية كالترجمة والتجارة وغيرهما، ومنها درس لغة قوم قصد إفادتهم أدبيا أو روحيا، ومنها لمعرفة الكتب الدينية في اللغة التي جاءت فيها كدرس غير العربي للعربية لمعرفة القرآن... أما الطلبة في بلادنا فيكفيهم أن يتمكنوا من فهم اللغة التي يقصدونها والترجمة منها إلى العربية»(1).

وعن هذه الأهمية الحضارية للترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة القومية، يقول الشيخ سعيد العرفي: «لا أتصور أن يتوهم أحد أن الدعوة إلى الاهتمام الواسع والشامل بالترجمة إلى العربية وإلى تعريب العلوم الرياضية والطبيعية وتدريسها في كل المستويات التعليمية بالعربية.. هي دعوة ضد تعلم اللغات الأجنبية. وخصوصا اللغات "الكبرى". وفارق كبير بين الدعوتين: الدعوة الأولى إلى ترجمة كل أساسيات تراث البشرية إلى لغتنا القومية، والدعوة إلى تعريب العلم وتدريسه بهذه اللغة القومية هي دعوة إلى إثراء لغتنا وثقافتنا القوميتين»(2).

المعوق الرابع: الثنائية اللغوية بين اللغة العربية الوطنية والرسمية واللغات المحلية المكتوبة والشفوية(*):

من المعلوم أن الإسلام قد أعلن منذ البداية عالميته، وأنه لا يفرق بين الناس على أساس الجنس أو اللغة أو اللون أو الوطن، كما يتمثل ذلك في إعلان رسوله الكريم ﷺ أنه «لا فضل لعربي على أعجمي إلا

(1) اللغة العربية، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق، القسم الثالث، ص: 28.

(2) اللغة العربية، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق، القسم الأول، ص: 276.

(*) لقد اعتمدنا كثيرا في إنجاز هذا الموضوع على بحث قيم للدكتور يوسف الخليفة أبو بكر، مقدم في ندوة الرباط، اللغة العربية إلى أين، 1–3 نوفمبر 2002م.

بالتقوى...» ووجد الإسلام أن من بين شعوب الأقطار المفتوحة من يتكلم لسانا غير العربية..».

وهي من اللغات السامية ذات العلاقة العريقة مع العربية، وكان اللسان الفارسي في الحيرة والرومي والآرامي أو السرياني والعبري والنبطي في شمال الجزيرة العربية.

ثم زحف الإسلام بفتوحاته الكاسحة، شرقا وغربا، ليشمل كافة أنحاء المعمورة(*) يحمل معه لغة الوحي المبين (العربية)، فتغلبت هذه اللغة الربانية على اللغات التي أحاطت بها، كما حدث في مصر والشام واليمن والعراق وشمال إفريقيا وشمال السودان...

وعلى الرغم من تعريب المنطقة التي تسمى اليوم «الوطن العربي»، فإن هناك جزراً لغوية احتفظت بلغاتها التي كانت تتكلمها قبل الإسلام، منها اللغة النوبية في جنوب مصر وشمال السودان وأواسطه، واللغة الأشورية، وهي من بقايا الأشورية في العراق، واللغة الكردية في العراق وسوريا والأرمينية في الشام، والبربرية في شمال إفريقيا...

وهو ما أدى إلى ظهور هذه الثنائية اللغوية في الوطن العربي، ونعني هنا بالوطن العربي، البلاد التي تسود فيها اللغة العربية كلغة رسمية للدولة، ولغة للتعليم ولغة للتواصل اليومي بين غالبية أفراد المجتمع، وبهذا التحديد تخرج البلاد التي انضمت سياسيا فقط إلى جامعة الدول العربية، مثل الصومال وجزر القمر وجيبوتي...والتي لم تدخل لغويا وثقافيا وقوميا وخاصة الصومال،بدليل أن الرئيس الحالي لهذا البلد قد اصطحب معه مترجما أثناء زيارته لليمن (يوم 2006/11/11) للتفاهم مع رئيسها العربي الذي لا يعرف الصومالية بطبيعة الحال.

(*) لقد حجّ إلى بيت الله الحرام هذا العام (1427 هـ مسلمون من 189 دولة في العالم!!

وهذا ما يجعلنا نعني بالثنائية اللغوية في الوطن العربي أن يتكلم الناس في البلد (من هذا النوع المذكور) لغتين، الأولى العربية التي تستخدم في المجالات الرسمية، كالتعليم والإعلام والبرلمان وكتابة القوانين، والثانية لغة محلية (غير عربية) تستخدمها مجموعة من المواطنين للتواصل فيما بينهم، كما هو شأن اللهجات البربرية في بلاد المغرب العربي على وجه الخصوص، حيث تتداول محليا فقط، لكن على المستوى الوطني لا يتم التفاهم بين أبناء الوطن والأمة إلا باللغة الجامعة (أو المشتركة) الوطنية والرسمية التي هي العربية، وهذا هو وضعها اللغوي الثنائي القائم منذ قرون[1].

وهو ما يحتم على الدولة رسم سياسة لغوية يراعى فيها تحديد الأمور التالية:

1- تحديد اللغة الرسمية للدولة التي تستخدم في الإدارة والإعلام.

2- تحديد لغة التعليم في مراحله المختلفة (العام والعالي).

3- تحديد اللغات العالمية (الأجنبية) التي تدرس في المؤسسات التعليمية.

4- تحديد موقف الدولة من اللغة أو اللغات الأخرى من حيث مجالات استخدامها ودراستها (دراسة لغوية مقارنة).

بالنسبة للغة أو اللغات الوطنية، يجب أولا معرفة دورها في حياة المجموعة التي تتحدثها، ومدى معرفتها والكفاية اللغوية لدى المتحدثين بها وعددهم، ذلك لأن هناك لغات تتحدثها مجموعات صغيرة، وقد تكون في طريقها إلى الانقراض والزوال، ومع ذلك تعتبر هذه اللغة جزءً من تراث البلد، وفي البلاد العربية عدد من هذه اللغات الجهوية والمحلية التي انقرضت خلال القرن العشرين[2].

على أن هذه المجموعات الثنائية اللغة تختلف من حيث طموحاتها السياسية في مدى رغبتها في تطوير هذه اللغات من بلد إلى آخر. فالنوبيون

(1) انظر محمد علي الخولي، «الحياة مع لغتين» ط1، جامعة الملك سعود، الرياض، 1988، ص 17.

(2) الدكتور يوسف الخليفة أبو بكر، من بحث له في ندوة الرباط....

في جنوب مصر مثلا، قد لا يرغبون في تطوير لغتهم لتكون لغة تعليم وآداب... إلخ. وقد يكون الأمر كذلك أيضا بالنسبة للمجموعة ثنائية اللغة في واحة سيوة في غرب مصر، ولكن الأمر يختلف تماما بالنسبة لغرب ليبيا وشمال الجزائر والمغرب الأقصى، حيث تدور صراعات طاحنة حول هذا الموضوع، عرفنا بدايتها ولا تعرف نهايتها التي ترتبط كليا بالعوامل السياسية الداخلية والخارجية[1].

وإن هذه البلاد الثنائية اللغة التي تستخدم اللغة العربية لغة للتعليم، يواجه التربويون فيها عدة مشكلات، منها: التداخل اللغوي بين اللغة العربية ولغة التلاميذ «الأم»[*] وضعف استيعاب التلاميذ للمواد، فينشأعن ذلك نوع من التأخر الدراسي لدى هؤلاء التلاميذ، بالمقارنة مع زملائهم الناطقين بالعربية كلغة «أم» لهم خاصة عندما تكون الامتحانات العامة موحدة في كل مناطق البلد، واحتمال تفوق التلاميذ الناطقين بالعربية، وحصولهم على نسبة أكبر من مقاعد المراحل الأعلى في التعليم، الأمر الذي قد يؤدي إلى صراع اجتماعي أو سياسي بين المجموعات اللغوية.

---

(1) انظر للمؤلف «فرنسا والأطروحة البربرية في الجزائر»، ط2، دار الأمة الجزائر، 1996.

(*) وهنا يجب الوقوف قليلا لتوضيح المعنى المقصود باللغة الأم ذلك أن هذا الموضوع يكتنفه بعض الغموض وتحوطه العديد من الملابسات، فإذا كان كل طالب له «أم أجنبية» يطالب بترسيم لغة «أمه» في الجامعة الوطنية، فأين نضع أبناء الملايين من الأمهات الأميات الناطقات بمختلف اللهجات المحلية (العربية والبربرية وغيرها) في الوطن العربي، وكذلك أبناء الأمهات الإيطاليات والإسبانيات والروسيات والألمانيات والفرنسيات... إلخ في بلادنا العربية المنفتحة في الزيجات وفي الألسن على جميع اللغات والثقافات في معظم القارات والمحيطات!؟ فهل توجد الدولة العربية ذات السيادة في هذا القطر أو ذاك لكل فئة أو رهط من هؤلاء جميعا، مدارس وجامعات تدرس لهم بلغات أمهاتهم المنحدرة من سلالات وجنسيات مختلفة، كما هو واقع، وبعبارة أخرى هل يرفع العرب لغة الأم «الأمية» إلى لغة الجامعة الوطنية أم ينزلون بلغة الجامعة إلى مستوى لهجة أو لغة أبناء الأميات لكي يكونوا علماء!؟

ومن الموضوعات التي تستحق الدراسة العلمية في هذا الخصوص هو الصراع النفسي لدى التلميذ الذي يتكلم لغة غير عربية عندما يبدأ تعليمه بالعربية، خاصة إذا كان جديد عهد بهذه اللغة، والتنازع بين الولاء للغة الأم ولغة التعليم، واللغة التي يعيشها التلميذ عندما يواجه العربية لأول مرة في المدرسة، على أنه قد يخف هذا الصراع إذا كان مجتمع التلميذ مسلما، ولكنه يكون على العكس من ذلك شديدا ومعقدا إذا كان التلميذ من أقلية دينية غير مسلمة، وكان المقرر الدراسي موحدا لجميع أبناء الوطن!!

وإن الباحث الذي يزور المدارس في المناطق الثنائية اللغة التي تتخذ العربية لغة تعليم يجد أن المعلمين في الصفوف أو المراحل الأولى، مضطرين لأن يستخدموا لغة التلاميذ في معظم الأحوال لشرح المواد الدراسية، بل يستخدمونها في دروس اللغة العربية ذاتها، من حيث شرح بعض المفردات مثلا، وهذا قد يرادفهم حتى إلى الصفوف المتقدمة، حيث نجد أحيانا أن بعض المفردات في القطعة الأدبية غريبة أو جديدة على هؤلاء التلاميذ، الذين يتكلمون لغةً أو لغات غير العربية في محيطهم الضيق.

وتكون المشكلة أكثر تعقيدا إذا تعددت اللغات المحلية، كما هو الحال في السودان، إذ اختارت الإدارة البريطانية ست لغات لتكون وسيلة التعليم في الصف الأول والثاني الابتدائي، في جنوب السودان، لكي تصبح وسيلة التعليم «اللغة الأنجليزية» ابتداءً من الصف الثالث. وبما أن عدد لغات الجنوب يناهز الخمسين، فالذي حدث هو أن أطفال القبائل خارج هذه اللغات الست يضطرون إلى تعلم إحدى هذه اللغات (كلغة أجنبية) لكي يتعلموا بها لمدة عامين، وفي نفس الوقت يتعلمون لغة أخرى أجنبية (الأنجليزية) ليتعلموا بها فيما بعد، فيضطر الطفل في هذه الحالة إلى تعلم الطفل لغتين أجنبيتين في وقت واحد!!

وعندما تحولت لغة التعليم إلى العربية فضّلت المجموعات القبلية أن يكون التعليم باللغة العربية وحدها منذ البداية، بدلا من بدء التعليم بلغة ثم يتحول إلى لغة أخرى. وهذا المثال السوداني هو الذي يسود في بعض بلاد المغرب العربي المذكورة بالنسبة للثنائية اللغوية السائدة فيها بين اللغة العربية (الوطنية) واللغة الأجنبية (الفرنسية) واللغات المحلية المتمثلة في اللهجات البربرية المختلفة كما قلنا.

ويجدر هنا عرض حجج المعارضين لاستخدام اللغات المحلية في التعليم، وهي:

1- استخدام عدد من اللغات المحلية في التعليم يثير النعرات العرقية ويفتت وحدة الأمة.

2- استخدام اللغات المحلية في التعليم سيكون على حساب اللغة القومية (لغة التعليم).

3- الفائدة التي نجنيها من التعليم باللغات المحلية لا يعدو أن يكون من قبيل التكتيك فقط لإرضاء الأقليات ذات الثقافات المتعددة على حساب اللغة الوطنية والرسمية!.

4- اللغات المحلية قد لا ترقى لأن تكون لغة تعليم حتى على المستوى الابتدائي، بَلْهَ التعليم في المستويات الأعلى .

5- زيادة لغات التعليم الذي توجد به، تعني زيادة تكلفة التعليم بترجمة وطباعة مناهج وكتب بلغات متعددة. وقد تكون اللغات في البلد كثيرة (كالسودان: أكثر من 100 لغة!) فيكون من المستحيل التعليم بمائة لغة، وسنحتار أية لغة نختار؟!.

6- الامتحانات بلغات متعددة لا تضمن العدالة في التقويم عند التنافس.

7– وحدة البلد تحتاج إلى أن تسوده لغة واحدة (سياديا وسياسيا)، حيث لا وحدة وطنية حقيقية بدون وحدة لغوية حقيقية، وليست ثنائية أو ازدواجية مَرَضية!!

ونختم هذا الفصل بتحديد مشكلات التعليم باللغة العربية في مناطق التداخل اللغوي التي تنطبق عليها المحاذير والتخوفات السياسية والحضارية والقومية والوحدوية (الآنفة الذكر).

إن التعليم (سواء بدأ باللغة العربية أو باللغة المحلية)، يواجه التلاميذ في مناطق التداخل المذكورة عددا من المشكلات التي تحتم على التربويين معالجتها على مستوى المنهج والمقررات، وتدريب المعلم والامتحانات، وعلى مستوى البحث العلمي.

وإذا كان التلاميذ يجلسون إلى الامتحان الموحد مع زملائهم الذين يتحدّثون العربية كلغة أولى، فإن مراعاة هذه المشكلات يصبح من الأولويات القصوى، وهذه المشكلات يمكن إيجازها فيما يلي:

1– دلّت بعض الدراسات التي أُجريت[1]، على أن التلميذ الثنائي اللغة يواجه مشكلات عديدة في نموه اللغوي (بالمقارنة مع الأحادي اللغة) وأن مفرداته أقل عدداً من زميله الأحادي اللغة، وأن الثنائي اللغة عليه أن يحفظ كلمتين لكل معنى، واحدة في لغته «الأم» والثانية في اللغة الأخرى (التي يتعلم بها أو يدرسها).

2– الطالب الذي يتعلم بلغته لا يحمل همَّ إخراج الأصوات اللغوية لأنه ينطقها بالسليقة (بطريقة آلية) بخلاف التلميذ الذي يتعلم بلغة غير لغته «الأم» فإنه يحمل همَّ نطق الأصوات التي لا توجد في لغته حتى ينطقها بطريقة صحيحة، وقبل ذلك فإنه يتعرض للسخرية (غير المعلنة) من زملائه وأساتذته والسامعين حيث قد ينظر إليه نظرة دونية!!

(1) انظر محمد علي الخولي، «الحياة مع لغتين» ط1، جامعة الملك سعود، الرياض، 1988، ص 214، 217.

3– فيما يتعلق بمهارة الكتابة فإن أخطاءه الإملائية والنحوية تحسب عليه، وهو يعاني من اختيار التراكيب التي يعبر بها عن المعاني ولذلك فإنه يحتاج إلى وقت أطول بالمقارنة مع زميله من أهل اللغة الذي يؤدي ذلك بطريقة لا شعورية وبدون عناء وكل ذلك يقلل فرص الاستيعاب ويؤثر على نتائج الامتحانات.

4– معاناة التلميذ الثنائي اللغة في تعلُّم اللغة العربية(*) قد تغرس فيه اتجاهًا نفسيا سلبيا نحو هذه اللغة التي عادة ما تكون هي اللغة الوطنية والرسمية في الدستور، لذلك فإن من الضروري على التربويين والمعلِّمين التدرج والتبسط وتكثيف التدريب حتى يحس التلميذ بالنجاح في السيطرة على الظواهر اللغوية.

وبهذا نأتي على ذكر أهم المعوقات التي تعترض سير التعريب والانتشار السليم والأمثل للغة العربية في البلاد الإسلامية التي تبنّت اللسان العربي مع اعتناق الإسلام منذ القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) وما يزال قائما وقويا حتى هذه اللحظة، وسيظل كذلك إلى الأبد، مصداقا لقوله تعالى: **(يريدون أن يُطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلاّ أن يُتم نوره ولو كره الكافرون، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون)** (التوبة/ 32، 33)، وإن كل أعداء اللغة العربية في العالم لا يخرجون عن كونهم كافرين أو مشركين أو منافقين !!

(*) والعجيب أن هذه المشكلة لا وجود لها في مدارس البلاد الغربية، التي تحرص في مجموعها على تخصيص السنوات الأربع الأولى من المدرسة الابتدائية للغة القومية، وتبدأ تعليم اللغة الثانية بعد العاشرة غالبا، وفي بعضها بعد الثانية عشر. ومع ذلك فإن أبناء هذه المدارس الغربية يتمون المرحلة الابتدائية ثم الثانوية، وتكون حصيلتهم من اللغة الأجنبية، التي قد تتعدد فتصبح لغتين، حصيلة متميزة إذ قيست بحصيلة الطلاب في مدارسنا. ويرجع ذلك إلى طرق التدريس (انظر السيد / محمد عثمان ومحمد خيري حربي: آراء ومقترحات، ص 10).

الفصل الثالث
البعد الحضاري والثقافي للتعريب
والهوية والسيادة القومية للغة العربية

أولا - الفرق بين الثقافة والحضارة

تعتبر كلمة حضارة، من الألفاظ اللغوية الأكثر شيوعا في الاستعمال لدى الكتاب والمفكرين في عصرنا الحاضر.. ولا يوجد معنى واحد من معانيها قد بلغ درجة من الشمولية تجعله متفقا عليه لدى الجميع. ولذلك نجد معنى الحضارة لدى العلماء، ينقسم إلى قسمين ومفهومين من حيث علاقته بالثقافة:

أ – **المفهوم الأول**: يعتبرالحضارة شكلا من أشكال الثقافة[1].

ب – **المفهوم الثاني** يقوم على مقابلة الحضارة بالثقافة. والثقافة كما ورد في التعريف الصادر لها عن المؤتمر العالمي بشأن السياسات الثقافية تحت اشراف «اليونيسكو» المنعقد بميكسيكو (من 06 جويلية إلى 06 أوغسطس 1982) جاء فيه ما نصه: «إن الثقافة بمعناها الواسع هي جماع السمات الروحية والمادية والفكرية والعاطفية التي تميز مجتمعا بعينه أو فئة اجتماعية بعينها وهي تشمل الفنون والأداب، وطرائق الحياة، كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان، ونظم القيم والتقاليد والمعتقدات، وأن الثقافة هي التي تمنح الإنسان قدرته على التفكير في ذاته، والتي تجعل منه كائنات تتميز بالإنسانية...». أما الحضارة فتدل على المبتدعات الانشائية المتعلقة بمجال العلوم المادية والتكنولوجية..

---

(1) راجع معنى الثقافة في كتابنا «هذي هي الثقافة»، دار الأمة، الجزائر، 1996، صفحات من 97 إلى 114.

وعلى هذا الأساس ذهب العلماء إلى الفصل بين الحضارة والثقافة[1] فهم يقصرون معنى الثقافة على النظم الاجتماعية، والمعايير التي تعبر عن (حياة) الجماعة الروحية، كالدين، والأدب والفن والغايات الأخلاقية العليا كما ورد في التعريف السابق، أما الحضارة فيقصرونها على المظاهر المادية، والميكانيكية التي ابتدعها الإنسان في محاولة لضبط ظروف حياته، وبهذا المعنى، فالحضارة هي ما يطلق عليه غيرهم لفظ الثقافة المادية، وكل العلماء الذين يفصلون بين مفهوم الحضارة ومفهوم الثقافة هم متأثرون أساسا بالمدرسة الألمانية، وعلى رأس علمائها الذين بحثوا هذا الموضوع بعمق واستفاضة هو (ألفريد ويبر) الذي أنشأ علما خاصا لدراسة مجال الحضارة ومجال الثقافة سماه: (علم الاجتماع الثقافي) حيث يذهب فيه الى أن الحضارة تنبني على العقل وتنتقل نماذجها بسهولة من مجتمع لآخر، أما الثقافة فأساسها العاطفة والقيم الروحية وهي متحررة من العقل –الى حد ما– وتعبر عن روح الجماعة التي تنشأ بها هذه الثقافة، وهي تقوم على الكمال الروحي والكمال العاطفي للإنسان[2].

ويمكن القول أن الحضارة بهذا المعنى الذي نتبناه نحن أيضا، هي أمر مشاع بين جميع البشر، وينتقل من أمة وحضارة إلى أمة وحضارة أخرى دون حرج أو حساسية، أو انتقاص من مقومات الهوية الوطنية والقومية لدى هذه الأمة أو تلك، (مثل اختراع الكتابة، أو الأرقام، أو الطائرة، أو البارود، أو الإسمنت، أو المطبعة، أو الذرة والصاروخ والهاتف... إلخ)، حيث سرعان ما ينتقل هذا الاختراع بسرعة البرق من أمة إلى أخرى كما يلاحظ في عصرنا الحاضر بالنسبة للاختراعات

(1) د/ صوفي أبو طالب، المجتمع العربي، دار النهضة العربية بمصر 1970، ص 68–69.
(2) د/ حسن سعفان، الموجز في تاريخ الحضارة، القاهرة 1951.

المختلفة المذكورة وغير المذكورة (...) ولكن الذي يُحارَب ويقاوَم دوماً هي القيم والرموز الثقافية والدينية التي ترتبط بهذا الاختراع الحضاري أو ذاك... !![*]

فالغرب قديماً أخذ علم الفلك من المسلمين ولم يأخذ مواقيت الصلاة والصيام ولا صلاة الكسوف والخسوف، وكذلك أخذ الصفر والأرقام العربية وعلم الجبر والحساب والطب، ولم يأخذ علم حساب المواريث والتركات، وهكذا يتبين لنا الفرق الواضح بين الحضارة والثقافة.. فجهاز التلفزة أو الشبكة العنكبوتية (الأنترنت) حضارة، أما الفلم والمحاضرة والبرامج والخطاب... فهي ثقافة مغايرة ومتناقضة أحيانا تناقض الخير والشر لدى هذا المحور أو ذاك(...!!)

وإذا كان للغة علاقة قوية بالحضارة، فإن للغة علاقة أقوى بالثقافة... ونظرا لتداخل الحضارة مع الثقافة وعلاقة اللغة بكليهما معًا، فإننا نفضّل أن نتناول علاقة كل واحد منهما باللغة على حدة، خدمة للموضوع الذي نحن بصدده، ونبدأ بـ:

(*) والحقيقة أن العرب كما عهدناهم في عصورهم الزاهية الذهبية لم يكونوا أعداء للتجديد والخلق والتوسع، وبالنسبة للغة عهدناهم يبيحون كل الاشتقاقات الناجحة، وقد تصرفوا في كل ذلك برحابة صدر، بدون أدنى قدر من التزمت، وذلك من أجل الانفتاح على الآفاق المعرفية الجديدة.. التي لم يكن لهم بها علم من قبل. واللغة العربية طيعة كسواها، بل أكثر منها مرونة ولينا ورقيا، حيث سايرت في القديم تطور كل الشعوب التي تكلمتها، في جميع مراحل تاريخها، ومن أجل هذا تكثر مفرداتها، وقد انتقلت من خشونة الجاهلية الى حضارة الإسلام، واندفعت، من فلك بني أمية الضيق، الى فلك بني العباس الواسع فتهذبت طرقها، وملكت مرونة أقوى في الدلالة، وإذا رجعنا الى ماضيات عصور هذه اللغة الطبيعية الفينا النّحاة واللغويين فيها غير متزمتين، ولم يكونوا يوصدون الأبواب في وجه من أراد إثراء اللغة. لقد استعاروا الكثير من الألفاظ الأعجمية للتعبير عما لم تكن تستطيع لغتهم التعبير عنه حينذاك.

ثانيا - علاقة اللغة بالثقافة:

انطلاقا من أن الثقافة تتضمن (فيما تتضمنه من عناصر ومكونات) الجانب الفكري أو المعنوي في الإنسان، فإن علاقتها باللغة تصبح أكثر من عضوية كما يتبين ذلك من التعاريف الموضوعة للغة، حيث ورد أنها هي:

«التعبير اللفظي عن الفكر سواء كان داخليا أم خارجيا»[1].

وأنها: «وسيلة إنسانية خالصة وغير غريزية إطلاقا لتوصيل الأفكار والانفعالات والرغبات عن طريق نظام من الرموز التي تصدر بطريقة إرادية»[2].

وأنها «الوسيلة التي يمكن بواسطتها تحليل أي صورة أو فكرة ذهنية إلى أجزائها أو خصائصها، والتي بها يمكن تركيب هذه الصورة مرة أخرى في أذهاننا أو أذهان غيرنا بواسطة تأليف كلمات ووضعها في تركيب خاص»[3].

والملاحظ أن هذه التعاريف على اختلاف واضعيها لا تخلو من الإشارة إلى علاقة اللغة بالفكر... حيث إنها هي الوسيلة التي توصل الأفكار إلى الغير، وأن الكلمات تعتبر الأوعية التي تحفظ فيها وتنقل بها هذه الأفكار.

وإذا اعتبرنا لغة الإشارة وسيلة من وسائل التعبير، فإنها عاجزة كل العجز (بمفردها) عن أن تعبر عن الأفكار والوجدانيات التي تجول بخلد المتكلم، (ويلاحظ ذلك بسهولة في لغة الصم البكم).

مما يؤكد أن الألفاظ تبقى هي أرقى وسيلة للتعبير عن الأفكار من الإشارة والحركة، لأنها أقدر على التعبير عن أسماء الأجناس والصفات والعلاقات المعنوية من غيرها، لأن الألفاظ لا تقابلها صورة ذهنية فقط، بل تقابلها أفكار ومعان مجردة ومعقدة، لا يمكن التعبير عنها بالحركة والإشارة!!

---

(1) Lallandre André, vocabulaire téchnique et critique de philosophie.

(2) Harcourt Sapire E. language an introduction to the study of speach, New-York brace and compagny, 1921, p: 7.

(3) عبد العزيز عبد الحميد، اللغة العربية، دار المعارف بمصر 1961 الطبعة الثالثة، الجزء الأول، ص 16.

إلا أن اللغة وإن كانت نتيجة للتفكير لدى الفرد المتحدث، فهي تبعث على التفكير أيضا لدى الفرد السامع، والتعبير من الغير يتبعه تفكير لدى السامع، والتفكير لدى السامع يعقبه تعبير عنه للغير، ومن هنا تكون اللغة والفكر بمثابة دائرة متصلة الحلقات تبدأ بتأثر الفرد بما ينقل إليه المجتمع من أفكار، فيعمل عقله فيه ثم يعبر عن تفكيره فيه إلى المجتمع بواسطة اللغة. فاللغة هي الناقلة للأفكار وإليها، وبذلك تكون سببا للتفكير ونتيجة له في ذات الحين.

ولا يمكن أن ينمو التفكير من غير اللغة... فاللغة هي التي تمد الفرد منذ الطفولة بالألفاظ التي تطلق على المعاني الكلية وهي التي تمكنه من السمو بفكره من المحسوسات إلى المجردات وربط المعاني الكلية بالألفاظ الدالة عليها والتمييز بين أسماء الأشياء وأسماء الأجناس.

وهنا يمكن أن نستنتج وجود مسلمتين، الأولى هي أن اللغة وعاء للفكر، والثانية هي أنها أداة للتفكير. ومع أن الفكر ينطلق فطريا من العقل كما يقول «بركلي»، فإن تسلسله وتحليلاته ومقرراته تتم باستعمال اللغة وألفاظها وتراكيبها ومنطقها وكأنما يحادث الإنسان نفسه وهو في حال التفكير، كما نبه كلو ريدج وبياجيه وجمهور علماء النفس. وقد يلجأ الإنسان إلى أسلوب الرسم،أو استخدام الأرقام، أو تكوين الصور الذهنية، أو استحضار الأصوات، أو غير ذلك، ولكن ذلك كله يعتبر من الوسائط اللغوية، التي تترابط وتتوالى بالألفاظ والتعبيرات اللغوية الصريحة. وعليه فإن التفكير واللغة مترابطان، وارتفاع الذكاء يؤدي إلى الرقي اللغوي، كما أن إتقان التعبير اللغوي يؤكد منطقية التفكير ويؤدي إلى تميزه.

وينبني على اقرار هذه المسلّمة، أن يحرص المربون على الارتفاع بمستوى اللغة لدى الناشئين، وإغناء ثروتهم من الألفاظ والتراكيب والمصطلحات

الأدبية والعلمية، والسمو باللغة عن المستوى العامي والدارج. وهذا أمر ملحوظ عندما يوازن بين تفكير المثقفين وتعبيراتهم وبين تفكير المحرومين من الثقافة والصقل اللغوي، ومقدرة كل من الفريقين على التوسع الفكري والعلمي والإبداعي[1] .

والمسلمة الثانية هي أن اللغة وسيلة التفاهم والتواصل الاجتماعي. وهي مسلمة لا تحتاج إلى استدلال. ولكن التواصل الاجتماعي يتقارب أو يتباعد من جهة وينجم عنه توحد المجتمع أو تميزه إلى طبقات من جهة أخرى، وفقا لمستوى اللغة المستعملة، وكونها فصيحة أو عامية، ومرتفعة أو هابطة. فالعناية باشاعة اللغة التي يفهمها كل الناس، والاجتهاد في الارتفاع بمستواها، وتقليل الفارق بين فصاحتها وعاميتها يؤدي إلى إحكام التواصل الاجتماعي والترقي به [2] .

ولقد دلت التجارب العلمية، أن إدراك الطفل لمعاني الأشياء مقترن بتقدم اللغة عنده، والوظيفة اللغوية تتماشى مع إدراكه وتصاحبه دوما، وتخلف الوظيفة اللغوية عند الأطفال يصحبها غالبا تخلف في الإدراك!!

فاللغة هي الوسيلة التي تمكن الإنسان من أن يتجاوز وجوده البدني والمادي إلى وجوده الفكري وهي التي تنقل له أفكار الأجيال السابقة وتراثهم، لأنها هي الوسيلة الوحيدة التي تسجل تلك الأفكار وتحفظها له بأمانة، ليطلع عليها ويضيف إليها وتبقى الفكرة ككرة الثلج التي تزداد كبرا كلما ازدادت تدحرجا!!

---

(1) السيد / محمد عثمان ومحمد خيري حربي: آراء ومقترحات بشأن تدريس اللغة القومية، القاهرة 1956م، وانظر أيضا:

– د. عبد العزيز القوصي وآخرون: اللغة والفكر – القاهرة 1946م.

– د. مرزوق بن صنيان بن تنباك: الفصحى ونظرية الفكر العامي – الرياض 1986م

– جان بياجيه (ترجمة أحمد عزت راجح): اللغة والفكر عند الطفل – القاهرة 1954م

– محمد عبد الحميد أبو العزم: المسلك اللغوي ومهارته، القاهرة 1953م، ص 127 – 168.

(2) John B. Caroll: Language and Thougnt, p. 1-8, New Jersy, 1964

ولولا اللغة التي بواسطتها تتصل أفكار الأجيال بعضها ببعض لضاعت أفكار البشر منذ الخليقة ولتجددت الحياة البدائية للجماعات جيلا بعد جيل، وهنا نلمس علاقة اللغة بالتاريخ والثقافة معا!!

ويمكن الجزم أيضا بأن اللغة ليست مجرد وسيلة لنقل الأفكار فحسب، وإنما هي ذات ارتباط وثيق بالأفكار التي تنقلها، وذات تأثير فيها، وتأثر بها، وكل لغة تحمل أفكارا ومعاني وأحاسيس لا تدرك إلا بتلك اللغة!

كما يؤكد ذلك الفيلسوف الألماني (فيختة) بقوله: «إن اللغة تؤثر في الشعب الذي يتحدث بها تأثيرا لا حد له، يمتد إلى تفكيره وإرادته وعواطفه وتصوراته، وإلى أعماق أعماقه، وإن جميع تصرفاته تصبح مشروطة بهذا التأثير ومتكيفة به».

وقد عبّر الكاتب الجزائري مالك حداد عن هذا المعنى أصدق تعبير بمقولته المأثورة: «أشعر أني منفي بأفكاري وأحاسيسي العربية، في ثقافة اللغة الفرنسية...»!!

وبالفعل فإن كل الأدوار والوظائف التي تقوم بها اللغة في المجتمع نجد لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالثقافة.

فالعناصر المعنوية كالدين والتاريخ والقانون والآداب، لا تعرف إلا باللغة وفي اللغة، وكذلك العناصر المادية للثقافة لها علاقة باللغة لأن هذه العناصر في حقيقة الأمر هي أفكار مجسدة في أعمال، أي قبل أن تكون أشياء ملموسة كانت أفكارا، ومن ثم كانت لها علاقة باللغة...

ونظرا لأن ثقافات المجتمعات والأمم يختلف بعضها عن بعض في القيم، فإن كل لغة تحمل للسامع معاني تثير في نفسه انفعالات تختلف لدى أفراد المجتمع الذين يتحدثون بها عنه لدى أفراد مجتمع آخر غريب عنها كما قال مالك حداد آنفا، وهو تعبير صادر عن تجربة صادقة، ذلك أن اللغة تحمل

مضامين فكرية وشحنات انفعالية تترك في السامعين آثارا مختلفة، وقد أكّد ذلك الدكتور زكي نجيب محمود بقوله: «اللغة هي نفوس أصحابها وقلوبهم، وعقولهم جميعا، هي مرآة حياتهم في ظاهرها وفي باطنها معا، إنه لولا اللغة لاندرج الإنسان مع الحيوان الأعجم في عالم البكم، وإذا لم تكن للإنسان لغته فماذا يكشف عن حقيقته حيا ناطقا عاقلا عالما شاعرا؟ إنها هي حياة الفرد موصولا بسائر الأفراد في يومه، وهي حياته موصولا بأسلافه في تاريخ واحد، وهي حياته موصولا بأبنائه وأبناء أبنائه إلى ما شاء الله لأمة أن يمتد بها تاريخ...»[1]

على أن الذي يهم بالنسبة لعامل اللغة هاهنا هو التعدد والتفرد (أو الوحدانية)، فالمجتمعات تتعدد بتعدد اللغات، وتتوحد بتوحد اللغة (كما سنبيّن في فصل لاحق حول وحدة اللغة ووحدة الأمة). ولذلك لم يكن من الغريب أو من محض الصدف أن تسمى المجتمعات باسماء لغاتها، فيوصف أو يسمى ألمانيا من يتحدث بالألمانية ويسمى انجليزيا من يتحدث بالانجليزية، ويسمى عربيا من يتحدث بالعربية، وهذا مصداقا للحديث الشريف: «ليست العربية (أي صفة كونك عربيا) من أب وأم وإنما هي باللسان، فمن تحدث العربية فهو عربي»[2]. ويسمى روسيا من يتحدث بالروسية، ويسمى فرنسيا من يتحدث بالفرنسية، وقس على ذلك أهم الشعوب والأمم المعتبرة في هذا الكوكب المعمور.

وهكذا تلصق دائما أسماء الأجناس البشرية باللغات التي تتحدث بها (كقاعدة وليس كاستثناء) بقطع النظر عن الأصول السلالية والعرقية لتلك الأجناس، في الماضي أو الحاضر أو المستقبل... كما تتغير أسماء الأجناس والمجتمعات بتغير اللغات التي تتحدثها، وقد تزول أسماء مجتمعات بكاملها

(1) جريدة "الأهرام" عدد 1988/10/25.

(2) رواه ابن عباس.

بمجرد زوال لغتها من التداول في الواقع، وطالما أنه لا يوجد مجتمع بدون لغة، فإن المجتمعات التي زالت أسماؤها بزوال لغاتها من التداول في الوجود (لسبب من الأسباب) ستعطى بصفة عفوية، أسماء جديدة تنسبها إلى اللغة التي أصبحت سائدة لديها، وذلك لأن اللغة (كما هو معروف لدى أهل الاختصاص) هي قدرة مكتسبة وليست فطرية في الإنسان، ومن ثمة فهي قابلة للظهور والزوال وقابلة للقوة والضعف، وكل ذلك متوقف على إرادة الأفراد الناطقين بها.

وبما أن ثقافات المجتمعات والأمم يختلف بعضها عن بعض في القيم (كما قلنا)، فإن كل لغة تحمل للسامع معاني تثير في نفسه انفعالات تختلف لدى أفراد المجتمع الذين يتحدثون تلك اللغة عنه لدى أفراد مجتمع آخر غريب عنها، ذلك أن اللغة تحمل مضامين فكرية وشحنات انفعالية تترك في السامعين آثارا مختلفة اختلافا قد يصل إلى درجة التعارض والتناقض أحيانا(..!!).

فالكلمة تكون مشحونة في غالب الأحيان (بالإضافة إلى جانبها الفكري) بانفعالات مختلفة التأثير بالنسبة لمن يتحدث بها أو يكتبها أو لمن يسمعها أو يقرأها.

فكلمة (جمل) و(صحراء) و(سيف) ترتبط لدى ابن الصحراء العربية بمشاعر مختلفة تماما عن تلك التي ترتبط بها الكلمات نفسها لدى الأفراد في مجتمع الإسكيمو مثلا بالقطب المتجمد الشمالي. وعكس ذلك كلمة (ثلج) و(مطر) و(برد) فإنها تترك انفعالات لدى سامعها من سكان القطب الشمالي... ترتبط بمشاعر سلبية أو إيجابية حسب أثرها السابق في مجرى حياته اليومية... تختلف عن المشاعر والأفكار التي توحي بها الكلمات نفسها للفرد في الصحراء العربية أو الإفريقية. وقل الشيء نفسه عن كلمة

(بقرة) و(خنزير) بالنسبة للفرد المسلم في المجتمع الجزائري، والفرد الوثني في المجتمع الهندوسي، ففي الوقت الذي توحي الكلمة الأولى للمسلم بمشاعر طيبة توحي له الثانية بكل ما هو قذر ومقزز ومحرم، وعكس ذلك عند الفرد الهندوسي الذي توحي له الأولى بمشاعر التقديس والمهابة، في حين توحي له الثانية بمشاعر مختلفة لما أوحت به إلى المسلم... ومما يتمثل فيه تشبع الكلمات بالمشاعر والمعاني الخاصة هي الشعر والأدب عموما، ولهذا تكون ترجمة التراث الأدبي وبخاصة الشعر من لغة لأخرى مقتصرة (في أحسن الظروف) على الجوانب الضيقة، وتترك وراءها ثروة ضخمة من المشاعر والمعاني السامية التي لا تقوى على نقلها من لغتها الأصلية إلى أية لغة أخرى!!

ولعل المثل الإيطالي القائل: «الترجمة تعني الغش أو الخيانة»[1] (Traditori Trayitori) يؤكد هذه الحقيقة إلى حد بعيد أو كما قال الفيلسوف الفرنسي "برجسون": «الترجمة الكاملة خيانة حقا للفكر الأصيل»[2] ومثلما يقال عن ترجمة تراث أمة وأدبها إلى لغة أمة أخرى يقال عمن يكتب عن واقع ثقافة مجتمعه بلغة غير لغة قومه، فإنه لا يجيد التعبير عما يحسه وهو من ثم لا يجيد التبليغ للآخرين عن أصدق مشاعره... ولا يترك كلامه لدى السامع من أفراد مجتمعه نفس الأثر الذي يتركه التعبير باللغة القومية.

فالثقافات الإنسانية إذن يتميز بعضها عن الآخر وتختلف في مدلولاتها ومضامينها من مجتمع لآخر، ولا تعبر عن تلك المضامين الثقافية إلا اللغة التي وعت معانيها... فمضامين الثقافة العربية الإسلامية مثلا لا تعبر عنها

(1) نعيمة محمد، اللغات الأجنبية في ودورها الثقافي في المجتمع الحديث، دار النهضة 1965، ص: 174.
(2) د. كمال يوسف الحاج، فلسفة اللغة، دار النشر للجامعيين، بيروت، 1956، ص 9.

أصدق تعبير إلا اللغة العربية... وربما من أجل هذا أوجب الله تأدية الصلاة في الإسلام باللغة العربية وحدها، وأجمع العلماء على عدم جواز ترجمة القرآن الكريم حرفيا إلى أية لغة أخرى في العالم، (كما سنبين ذلك في فصل لاحق).

وعن هذا الموضوع الخاص بعلاقة اللغة بالثقافة، وخصوصية كل لغة في العالم، وتميزها عن غيرها بخصائص تطبع المتحدثين بها بمميزات نوعية... يقول الدكتور زكي نجيب محمود: «ونزوع العربي نحو التجريد في فكره وأدبه وفنه، قد أدى به إلى ميل شديد نحو تكثيف المعنى الكبير في أقصر عبارة ممكنة... إن اللغة هي أنفس، فهي قلوب وعقول تحولت باللغة من باطن إلى ظاهر، فإذا قرأت علما فأنت إنما تطالع (عقلا) توقد في دماغ صاحبه، وقد سلك نفسه في لغة لا تراه، وإذا قرأت شعرا، فإنما هذا الذي تقرؤه هو (قلب) الشاعر وقد وضع نبضاته في كلمات لتسمعها...

إلى أن يقول: «اللغة هي الوسيلة الأولى لربط الصلة بين إنسان وإنسان آخر، يعاصره، أو يسبقه في الزمن أو يلحق به، فإذا كنا نريد للعربي اليوم أن يكون موصول الوجدان بالعربي الذي مضى، فإن أهم ما يحقق تلك الصلة هو اللغة المشتركة بينهما، على أن يكون واضحا لنا بأن تلك المشاركة لا تنفي أن تتغير أساليب التعبير بين كاتب وكاتب في العصر الواحد، ودع عنك أن تُبَاعِد بينهما مئات السنين أو ألوفها، لكن اختلاف الأساليب في اللغة الواحدة، يخفي وراءه أسسا ثابتة هي التي تضمن للغة المعينة استمرارها، أو قل إنها هي (روح) اللغة كما يقولون...

وهذه الحاسة اللغوية وإن تكن مشتقة من فطرة الإنسان، إلا أنها –شأنها شأن كل ما هو فطري في معظم الأحيان– قابلة للتهذيب والإرهاف بالتدريب الدراسي، ومثل هذه الحاسة المرهفة التي تميز الصواب من الخطأ، كما تميز

الأجمل من الأقبح، تكاد تنحصر في أبناء اللغة دون من يتعلمونها من أبناء اللغات الأخرى...»[1].

وعن هذه الخصوصية التي تميز ثقافة كل شعب، وهي مرتبطة بلغته وقيمه، يقول الدكتور عز الدين إبراهيم: «ويعجبني من التعريفات أن الثقافة هي تهذيب الإنسان بالعلم والمعرفة والخلق والسلوك. وقد قال أبو حيان التوحيدي " سعادة الإنسان تتوقف على العلم والدين والأخلاق". والثقافة من جانب آخر وجدان الأمة، وهي من ناحية ثالثة اسم مرادف لعقيدة أية أمة من الأمم. ولا شك أن ثمة فرقا بين الثقافة والتعليم وبينها وبين الاعلام وبينهما وبين أنواع أخرى من المعارف.

ونترك باب التعريفات المختلفة ونقول أن ثقافة كل أمة من الأمم هي صورة لحياة تلك الأمة وخزانة لتجاربها وعقائدها. وهي مرآة لأمالها وآلامها، ومن ثم أصبحت الثقافة بخلاف العلم.فالعلم لا وطن له غير أن الثقافة لا بد أن تكون وطنية ولا بد أن تكون قومية لأن فيها جوانب من الخصوصيات وجوانب من العاطفيات وجوانب من الذاتية التي تتميز بها أمة عن سائر الأمم الأخرى»[2].

والذي يهمنا في هذا كله هو أن الخصوصية الثقافية في الأمة مرتبطة ارتباطا عضويا باللغة القومية، وهي تختلف عن علاقتها النوعية بالحضارة، كما سيأتي.

(1) جريدة "الأهرام"، 1988/10/25.

(2) الدكتور عز الدين إبراهيم، من بحث له في الندوة العالمية التي نظمتها المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم بالرباط، تحت عنوان اللغة العربية إلى أين؟ بتاريخ 1–3 نوفمبر 2002م.

ثالثا- علاقة اللغة بالحضارة:

إن التحليل الذي أوردناه آنفا ينسحب في بعض جوانبه على الحضارة بالمعنى الفرنسي والأنجليزي الذي لا يفرق بين الحضارة والثقافة.. أما ما نوضّحه هنا، فهو علاقة اللغة بالحضارة، بالمعنى الألماني، لكلمة «الحضارة» (كما أسلفنا)، وهنا يتعلق الأمر بالجانب العلمي، والتكنولوجي، والتقدم المادي للمجتمع، علما بأن هذه الجوانب المنفصلة منهجيا لا تكاد تنفصل في الحياة العملية نظرا لارتباط الثقافة (الجانب الفكري) بالحضارة (الجانب المادي) أو الثقافة المادية (كما يطلق عليها البعض) فكل جانب يؤثر في الآخر تأثيرا مباشرا، ومن ثمة لابد أن تكون للغة علاقة بكل جانب منهما، وطالما كانت الثقافات واللغات مختلفة، فالحضارات هي الأخرى تتسم ببعض الطوابع التي تميزها في خطوطها العامة عن غيرها، على اعتبار أن للثقافة القومية تأثيرا في الحضارة، كما أن للثقافة القومية تأثيرا في اللغة وتأثُّرًا بها.

وتظهر العلاقة التكاملية بين اللغة والحضارة في أن الثقافة تساعد على تطوير اللغة وإثرائها والتأثير فيها بما تحققه من اختراع في جوانبها المادية وسمو في الإنتاج الفلسفي والفكري والأدبي، وما لذلك الإنتاج الثقافي (المادي، والمعنوي) من أثر في إغناء اللغة بالمفردات والمعاني السامية والمضامين التي تزيد اللغة ثراء وقوة. كما أن نضوب معين الثقافة في جانبها المادي (أي الحضاري) وتوقفها عن الاختراع المادي، والإنتاج الفكري، يؤدي في المقابل إلى وقوف تطور اللغة في الدلالات والمعاني، ويضيق أفق اللغة وتعجز عن التعبير عن الأشياء المستحدثة التي لم يكن لثقافة أو حضارة تلك اللغة فضل في اختراعها(...).

ومن وجوه هذا الترابط بين اللغة والثقافة والحضارة، هو العلم والتكنولوجيا.

فالعلم هو المعرفة، ومن ثمة فهو أحد العناصر الأساسية للثقافة (. . .) أما التكنولوجيا فهي تطبيق للعلم في مجالات الحياة المختلفة، وبمعنى آخر فالتكنولوجيا هي تجسيد للنظريات العلمية في الواقع المعيش. . .

والحضارة الحقيقية هي كل لا يتجزأ بين العلم والتطبيق، وبناءا على ما يوجد من علاقة بين الثقافة واللغة من جهة، وبينها وبين العلم من جهة أخرى، وبين العلم واللغة من جهة ثالثة. . . فإن ما يحدث في الوقت الحاضر في البلدان العربية، من ازدواجية لغوية، بين لغة العلم ولغة الشعر، ومن صراع بين الثقافة الأصيلة، ومظاهر الحضارة المادية المستوردة (التكنولوجيا) يجعل شخصية هذه البلدان مخلخلة، كما يجعل ثقافتها غير مكتملة العناصر وغير متجانسة بين العقل والعاطفة، وهو أكبر حائل دون تحقيق التقدم الحضاري، الذي يرقى إلى مستوى الحضارات التي حققتها المجتمعات المتقدمة في عصرنا الحاضر، على أساس الانسجام الكامل، بين اللغة والثقافة والحضارة في سنفونية واحدة، منسجمة الآلات والأنغام والأداء دون خلل أو نشاز. .

وإذا كانت المرحلة الحضارية التي تجتازها البلدان الإسلامية الناطقة باللسان العربي في الوقت الراهن (للأسباب التي ذكرناها في الفصل السابق) قد حتمت عليها استيراد التكنولوجيا، من البلدان المتقدمة للنهوض بالصناعة التي تمثل أس الأساس في الاقتصاد الوطني. . فان ذلك لن يخرجها من دائرة التبعية الحضارية لتلك البلدان الأجنبية التي تستورد منها العلم والتكنولوجيا (من الإبرة إلى الصاروخ)، مصنوعة ومصحوبة ومفروضة (أحيانا) بلغة تلك البلدان!!

وعلى هذا الأساس يتوجب على الدول العربية التخطيط المستقبلي لتجاوز مرحلة الاستيراد الجاهز إلى مرحلة الخلق والإبداع الذاتي لتلك الآلات والأجهزة العلمية، وإضافة اختراعات جديدة تحسب للحضارة

العربية الإسلامية في رصيد الحضارة العالمية التي تتعدى الحدود الوطنية والقومية، كما رأينا.. وتجتاز القارات والمحيطات، وهو ما لا يتم للعرب إلا بلغتهم وفي مناخ ثقافتهم الأصيلة ذات التاريخ المديد، وذلك لأن الرقي الثقافي والحضاري لأي مجتمع من المجتمعات في العالم، لا يتحقق بمعزل عن الرقي اللغوي، الذي ينمو ويتطور فيه وبه فكر الأفراد وتتفتق فيه مداركهم وتنتج عن ذلك العبقريات في مختلف ميادين الحياة الفكرية والمادية، وتتوازى حضارة الشعر والأدب، مع حضارة العلم والتكنولوجيا، ليكتمل الإنسان العربي، ويشفى من مرض انفصام الشخصية الذي ألم به من جراء الذبذبة القائمة بين اللغة والثقافة والحضارة أو بين الفكر والعاطفة والواقع.

إن الصينيين (قديما وحديثا) لم تتفتق عبقريتهم إلا في مناخ الثقافة الصينية، ولا اليابانيين، ولا الكوريين، ولا الإغريق ولا الرومان، ولا الفرس، ولا العرب (قديما)، ولا الأوروبيين (حديثا) إلا في مناخ ثقافتهم وبالتالي لغاتهم القومية. ولولا عملية التعريب الكبرى التي تمت في عهد الخلفاء الامويين والعباسيين في المشرق والمغرب، والأندلس.. لما وجدت الحضارة العربية الإسلامية –في التاريخ– على ما عرفت عليه من رقي في جميع المجالات.. لأن المخترعات والفنون، والصناعات التي أتت بها تلك الحضارة وتميزت بها، كانت ستُنسب الى الحضارات والثقافات التي ينتسب إليها المخترعون بلغاتهم، فرسا كانوا أو هنودا أو تركا، أو فراعنة، أو بربرا أو إسبانا.. غير أن التعريب الحقيقي والكامل جعل من هؤلاء العباقرة عربا لغة وثقافة، والعروبة (كما قلنا ونؤكد دائما) ليست في وحدة العرق السلالي الوهمي والخرافي، وإنما هي في وحدة اللغة والهدف الرسالي وما ينتج عن ذلك من وحدة الفكر والثقافة والتاريخ...

فلو فرضنا اليوم أن أحد العلماء العرب قد اخترع شيئا من الأشياء الحضارية في أمريكا أو فرنسا أو ألمانيا.. فان هذا الاختراع لا يحسب أبدا للحضارة العربية الإسلامية، وإنما سيحسب لحضارة البلد الذي تم الاختراع بلغته، وفي مناخ ثقافته، على الرغم من أن المخترع هو فرد عربي في الأصل الثقافي أو الجغرافي، وهذا ما يلاحظ بكل وضوح في أعمال الفضاء، التي تتبارى فيها روسيا وأمريكا وأوروبا اليوم، فإن كل الاختراعات التي تمت في هذا المجال قد شارك في إبداعها علماء ألمان، وهنود، وعرب.. الى جانب العلماء الروس، والأمريكان والأوروبيون.. ولكن لم تحسب هذه الاختراعات في تاريخ الحضارة المعاصرة إلا للحضارة الروسية، والحضارة الأمريكية، والحضارة الغربية (الأوروبية) بأسماء بلدانها المشتقة والمرتبطة أصلا بأسماء لغاتها (كما أسلفنا).

من المؤكد أنه لم يحدث لأية أمة في التاريخ أن أبدعت واخترعت، وشيدت حضارة راقية، بغير لغتها القومية وفي مناخ ثقافتها الأصيلة، وعليه، فلا يمكن للأمة المحمدية (العربية الإسلامية) أن تسترجع أصالتها في الاختراع والتقدم التقني إلا بالتعريب الكامل، والترجمة العلمية للوصول باللغة العربية الى مستوى التعبير عن كل المجالات الحضارية التي يعرفها عصرنا، وتواكب التطورات التي ستعرفها العصور القادمة.. وهو ما من شأنه أن يطبع التقدم الحضاري (التكنولوجي) للأمة المحمدية بالطابع العربي الخاص به، وبذلك يساهم العرب في تشييد الحضارة العربية الإسلامية، ويضيفون من ابداعهم الى رصيد الحضارة العالمية، مثلما كانوا قديما يأخذون من حضارات الأمم ويعطونها في المقابل الكثير مما انتجوه من حضارة راقية ما تزال معالمها شاهدة على أصالتهم إلى الآن في أكثر من قارة من قارات هذا العالم، وفي هذا الخصوص يقول الرئيس الجزائري الراحل هواري بومدين: «إن

طموحنا نحن الذين اضطهدت لغتنا في عقر دارها، ليس أن نسترجع لغتنا القومية لتأخذ مكانها في جامعاتنا ومعاهدنا فقط، ولكن أن نطور هذه اللغة ونثريها لنجعل منها بحق لغة علم وعمل، لغة ترقى الى مستوى متطلبات العصر، وتساهم في إثراء الحضارة الإنسانية في كل المجالات، ان اللغة يجب أن ترتبط بالتطور المادي للمجتمع، ولقد عرفت اللغة العربية مرحلة انحطاطها يوم أن دخلت الحضارة العربية الإسلامية مرحلة الركود والتخلف.. » [1].

ومن أكبر الأخطاء أن نعتقد بأنه يمكن استيراد الحضارة من الخارج بلغاتها الأصلية، ونغرسها في تربتنا العربية، فالتكنولوجيا ليست إلا الجانب الاستهلاكي من الحضارة، أما الجانب الخلاق، فهو العلم الذي انتج تلك التكنولوجيا، فذلك العلم هو الذي يجب أن يوجد في الواقع العربي، وهو لا يوجد إلا بعملية التعريب التي تمكن اللغة العربية من الازدهار ومواكبة التطور الحضاري الذي يقتضيه العيش في القرن الحالي (...)

ولعل أبرز الأمثلة التي يمكن الاستدلال بها في هذا المجال هي اليابان، ونذكر في هذا الإطار هذه الحادثة التي يرويها لنا أحد الكتاب العرب في سياق حديثه عن التقدم الفكري والتقدم المادي الذي يجب أن تسير فيه الشعوب والأمم بكيفية متوازية ومتكاملة لتشييد الحضارات الراقية دون أن يطغى جانب على جانب آخر.. فتختل الأمور (؟!) يقول الأستاذ أحمد بهاء الدين: « .. منذ أكثر من عشرين عاما تعرفت على الملحق الصحفي الشاب بسفارة اليابان بالقاهرة، وعرفت منه أنه يواظب على حضور حصص اللغة العربية، في مدرسة المنيرة الثانوية.. فدهشت وقلت له: إن هناك وسائل أخرى أسهل لتعلم اللغة العربية بالنسبة له.. فقال لي: إنه مكلف بمهمة أخرى محددة (زيادة عن العمل الدبلوماسي) وهي دراسة اللغة

---

(1) انظر: خطب الرئيس بومدين، طبع رئاسة الجمهورية – الجزء الثالث.

العربية دراسة دقيقة وعميقة، تمكنه من أداء غاية معينة بعد سنوات وهي: ترجمة كتاب «مقدمة ابن خلدون الى اللغة اليابانية...»[1] وإذا تمعنا في مغزى هذه الحادثة البسيطة نصل الى نتيجة في غاية الأهمية في مجال بحثنا في الحضارة واللغة، وهي أن اليابان في ذلك الوقت كانت خارجة لتوها من حرب ذرية مدمرة، كادت أن تقضي فيها على مجرد الحياة، فضلا عن الاقتصاد والازدهار الحضاري والثقافي، وقد بدأت اليابان حينئذ نهضتها الصناعية من الصفر، والتي جعلتها في زمن قياسي مذهل تغزو العالم أجمع بمخترعاتها التكنولوجية البديعة.. إلا أن هذه النهضة التكنولوجية لم تكن لتتم في اتجاه واحد، دون الاهتمام في الوقت ذاته بالجانب اللغوي والثقافي، أي الجانب المعنوي من الحضارة (كما بيّنّا آنفا) فكـتاب ابن خلدون من أهم كتب التراث العربي القديم، وهو في الوقت نفسه، من أمهات المراجع في علم الاجتماع في العالم كله، إذ من المعلوم أن مؤلف الكتاب هو المؤسس أو الموجد الأول لعلم الاجتماع ذاته (...).

ولذلك لم يقل اليابانيون بالاكتفاء بقراءة مقدمة ابن خلدون بترجماتها المختلفة الى اللغات العالمية الأخرى كالفرنسية والأنجليزية والألمانية.. وإنما رأوا ضرورة ترجمة الكتاب الى اللغة اليابانية لتنتقل المعرفة من الخاصة الى عامة الدارسين المثقفين من كافة أفراد الشعب الياباني الذين ليس من الواجب عليهم أن يجيدوا اللغات الأجنبية لقراءة ابن خلدون، وإن كان من الحتمي عليهم أن يجيدوا لغتهم القومية التي يهضمون بها تراث الحضارة العالمية، ويعبرون بها عن المستحدثات من الأشياء التي يخترعها العقل الياباني كل يوم ليصدرها الى عالمنا الاستهلاكي (...) وبعض الحكام العرب ما زالوا يعتقدون واهمين بأن النهضة الصناعية لا تتحقق إلا

---

(1) جريدة الأهرام عدد 1978/11/17.

باللغات الأجنبية على حساب اللغة القومية في جامعاتنا العربية (باستثناء سوريا كما أسلفنا). مع العلم أن أكثر من قرن مضى على تدريس العلوم والهندسة والطب باللغة الأنجليزية في مصر دون أن يحقق ذلك شيئا يذكر في مجال الاختراع التقني والاكتشاف العلمي قياسا بما حققه اليابانيون باللغة اليابانية، التي تعتبر من أصعب اللغات وأعقدها في الطباعة والتعلم.. ولكن المسألة كما أكدنا، ونؤكد دائما، ليست في صعوبة اللغة (لأنها إنتاج بشري اجتماعي قابل للتطور) وإنما هي في إرادة الناطقين بهذه اللغة، فهل يفكرون في لغاتهم وبلغاتهم، لينتجوا بها الأشياء، ويشيدوا بها الحضارة، أم يتكاسلون ليستهلكوا ما ينتجه غيرهم من الأشياء، ويظلون محنطين أو متفرجين على هامش التاريخ الحضاري للإنسانية.. فتلك هي القضية المضافة إلى موضوع الحرية والدمقراطية في أوطان أمتنا المحمدية!!

ويلخص هذا المعنى الدكتور إسماعيل أحمد العمايرة بقوله: «في ضوء المنظور مما يجري حولنا بهذه السرعة المتسارعة في مجالات الحياة جميعاً، فإن اللغات تعيش صراع البقاء، وتتزاحم تزاحما عجيبا، فكم من لغة كانت محلية كالأنجليزية والفرنسية، ثم أصبحت عالمية بوسائل العصر الحديث، وبمتغيرات أخرى في معادلة القوة والضعف الحضاري. فإذا أردنا للغتنا أن تزاحم اللغات الأخرى، وأن تعزز مقومات وجودها، فإن علينا أن نبذل المال والوقت والخبرة في سبيل تطوير الواقع كله، والواقع اللغوي من ضمنه، وألا نكتفي بدور اليد السفلى التي تنتظر من اللغات المزدهرة الآن، بحثا متطورا تترجمه، أو برنامجا حاسوبيا تعربه، وقد يأتي التعريب مسخا، لا هو بالعربي ولا هو بالأجنبي، كصورة التعليم المدرسي والجامعي في بلادنا...

فالمرجو أن يظل تحسين الأداء في تقديم العربية للناشئة هاجسا يقلقنا، وأن تبقى العربية أما لهذه الأمة، تغار عليها، وتسهر من أجل خدمتها، وتعتز بها، فهي لغة القرآن العظيم، ولغة العلم والحضارة»[1].

أما عن عدم تحمل اللغة العربية مسؤولية التخلف وتحميلها كاملة للمدّعين الانتماء إلى حضارتها والنطق بلسانها وترسيمها في دساتير أوطان هذه الأمة فيقول الدكتور أحمد بك عيسى: «أما ما يقال عن وقوف اللغة العربية وتأخرها فليس بصحيح وإنما الذي وقف والذي تأخرهم أهلها، هم العرب هم المستعربون فقد إضمحلوا في العلم وإنحطوا في الفهم وتأخروا في الصناعات فوقفت لذلك لغتهم وبديهي أن اللغة تتبع ذلك كله، أوجد العلم أولا تتبعك اللغة»[2].

فمن أخطر التحديات التي تواجه اللغة العربية اليوم هو عدم تبنيها كلغة أساسية في جميع مراحل التعليم وجميع فروعه العلمية والأدبية على حد سواء، وليس من المبالغة أن نقول بأنه لم تظلم لغة في التاريخ من طرف الناطقين بها كما ظلمت اللغة العربية في عصرنا الحاضر، أَوَ ليست جريمة نكراء يرتكبها معظم الحكام العرب دون مبرر في حق لغتهم القومية؟ اللغة السادسة الرسمية في الهيئات الدولية، ولغة ثلاث مائة وخمسين مليون عربي!! (وأكثر من أربعة أضعاف هذا العدد من المسلمين في العالم)، عندما نعلم أن أصغر دولة تحترم شخصيتها على وجه الأرض مثل (إسرائيل) واليونان وبلغاريا ورومانيا والمجر وتشيكيا وسلوفاكيا[*] وصربيا والسويد والنرويج وفنلندا والدانمارك وغيرها...

---

(1) من بحث له في الندوة العالمية التي نظمتها المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم بالرباط، تحت عنوان اللغة العربية إلى أين؟ بتاريخ 1–3 نوفمبر 2002م.

(2) مجلة الهلال، القاهرة، ج 10، أوت 1934.

(*) وتجدر الإشارة هنا إلى أن هاتين الدولتين كانتا دولة واحدة في العهد الشيوعي تسمى «تشيكوسلوفاكيا»، ولقد تفككتا إلى دولتين مستقلتين بسبب اختلاف كل واحدة منهما في اللغة الوطنية كما هو معلوم ، وهذا ما سيقع في المستقبل كما نعتقد في كل من بلجيكا وكندا وإسبانيا، حيث ستتفكك هذه البلدان بسبب الاختلاف اللغوي الرسمي. (انظر كتابنا «التعصب والصراع العرقي والديني واللغوي»، الطبعة الثانية، دار الأمة الجزائر، 1996).

تدرس جميع العلوم في جامعاتها باللغات الوطنية الخاصة بها، رغم ضآلة، بل انعدام المتكلمين بها في العالم، ونحن (خير أمة أخرجت للناس) ما نزال نصر على تدريس كل المواد العلمية في جامعاتنا العربية وفي بعض الثانويات والمدارس الابتدائية باللغات الأجنبية التي يسوق لنا أعداؤنا أنها «الحية»، وكأننا نقرهم بكل غباوة وجهالة وخيانة وعمالة على أن لغتنا العربية «ميتة» بالفعل(!!) دون أن نشعر بالخزي والعار والدونية المحبطة، ونهبُّ إلى العيش في الحضارة عن جدارة بلغتنا القومية والدينية دون أن نعمل أو نفكر (على الأقل) في الاقتداء بالجامعات العربية السورية في هذا الخصوص، بل أننا على العكس من ذلك قد نلاحظ بعض الهجوم الحاقد على هذه الجامعات العربية «اليتيمة»، ومحاولة التشكيك في مستوى تكوينها، وكفاءة خريجيها، وذلك كله نتيجة عقد النقص الحضارية التي عجزت كل نظريات (الخواجة فرويد) في حلها لدى بعض الحكام العرب في المشرق والمغرب العربيين، حتى أصبح ذلك سلاحا يشهره الأعداء في كل مناسبة كحجة في وجه دعاة التعريب الحضاري في الوطن العربي، حيث نسمع دائما عبارة: كيف تدعون أن اللغة العربية قادرة على مسايرة التطور الحضاري وتطالبون بتعريب كل فروع التعليم الجامعي، ونحن نلاحظ أوفر دولة عربية في الإمكانيات (مصر) وأعرق دولة عربية في الأصالة (السعودية) ما تزال تدرس في جامعاتها العلمية وبعض معاهدها الثانوية وحتى الابتدائية باللغات الأجنبية وتبعث بأبنائها الى الخارج للتكون بتلك اللغات الأجنبية التي تعلموا بها ثم يعودون إلى جامعاتهم ليواصلوا التدريس بها، وراثة وتوريثا، على غرار وراثة العروش في الأنظمة العربية (الملكية والجمهورية) وتوريثها خلفا عن سلف من القصر إلى ما بعد القبر!!؟

ومن ذلك مثلا قيام الجزائر بعد الاستقلال السياسي سنة 1962 بإرسال بعثات تعليمية الى بعض بلدان المشرق العربي (وبصفة خاصة مصر) للتكون

في مجال بعض التخصصات العلمية (التي لا تدرس في الجزائر باللغة العربية) بهدف الاستعانة بهؤلاء الخريجين في تعريب الجامعات الجزائرية.. إلا أن ما حدث هو أن رجع هؤلاء الطلبة يرطنون بالأنجليزية، فاضطرت الدولة إلى توظيفهم فيما لم يعدوا له وحرم التعريب بذلك من أقوى عوامل النجاح!.

وعن هذا الوضع الحضاري والمأسوي الشاذ الذي توجد عليه اللغة العربية في ديار الأمة، وعن علاقة الاستعمار بهذا النسخ والفسخ والمسخ الحضاري الراهن لأهم مقومات هوية الأمة بعد الإسلام، نورد هذا النص للباحث العربي شفيق جحا الذي يبيّن لنا كيف كانت اللغة العربية قبل أن تعرف معاول الهدم الراهن، فيقول عن وضع اللغة العربية في سوريا: «كانت اللغة العربية لغة التدريس في الكلية السورية الإنجيلية في أول عهدها، كانت مواد الطب والصيدلة والطبيعيات والرياضيات والفلسفة وغيرها تدرس باللسان العربي، وفي السنوات العشر الممتدة من 1873 إلى1883، تم تدريجيا استبدالها بالإنكليزية[*]، لغة للتدريس في سائر دوائر الكلية... وقد مرت هذه السياسة بثلاثة أدوار رئيسة موزعة على الشكل التالي: الدور الأول من سنة 1824 إلى سنة 1840 والدور لثاني من سنة 1840 الى سنة 1873، الدور الثالث من سنة 1873 إلى الوقت الحاضر (ويقصد زمن كتابة المقال أي 1883)»[1].

وعن وضع اللغة العربية قبل هذا الغزو «المغولي» الغربي الحديث لجوهر الأمة المحمدية، يضيف قوله: «ولما تأسست الكلية السورية الإنجيلية في بيروت سنة 1866 لم يكن الطلاب المرشحون لدخولها متمكنين من اللغة الإنكليزية، بهذه اللغة، وفي نفس الوقت كان بين الأساتذة المرسلين أشخاص

(*) هذا خطأ شائع حتى لدى بعض الكتاب الكبار، والأصوب هو قوله استبدال الأنكليزية بها (أي بالعربية)، لأن الباء تذهب مع المتروك، مثل قوله تعالى على بني إسرائيل: **(أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير)** (البقرة/ 61).

(1) كتاب دارون وأزمة 1882 بالدائرة الطبية – بيروت 1991.

قادرون على إلقاء هذه الدروس باللغة العربية، فكان من الطبيعي إذن أن تسير الكلية على النهج ذاته الذي كانت الإرسالية تتبعه في مدارسها بشأن إعتماد العربية لغة للتدريس وهذا ما حصل فعلا فقد كانت الدروس في الدائرة الطبية، كما في الدائرتين الأخريين العلمية والاستعدادية تلقى باللغة العربية نطقا وكتابة وتأليفا، وقام هؤلاء الأساتذة (الأجانب)، وهم كرنيليوس فان ديك، وجورج بوست، وادوين لويس، ويوحنا ورتبات، بالإضافة إلى واجباتهم اليومية في تدريس الطلاب ومعالجة المرضى بتأليف كتب التدريس باللغة العربية في سائر المواضيع الطبية والصيدلية والعلوم الطبيية والرياضيات»[1].

هذا عن بلاد الشام، أما عن بلاد الأزهر وبداية مسخ لغة القرآن في ربوعها والتي آلت بها إلى الوضع السيء الذي أشرنا إليه في الفصل الخامس، يقول شفيق جحا في بحثه القيم: «وتمت الموافقة أخيرا في سنة 1878 على طلب العمدة وتقرر استبدال العربية بالإنكليزية[*] لغة للتدريس في الدائرة العلمية، ابتداء من العام الدراسي 1879– 1880. وصدر بيان الكلية السنوي في ذلك العام،لأول مرة باللغة الإنكليزية، وفيه ملاحظة تقول أن لغة التدريس اصبحت اللغة الإنكليزية في الدائرتين الاستعدادية والعلمية. وعلى الأثر، اصدرت العمدة قرارا يوجب على سائر الطلاب في الدائرة العلمية أن يكون التخاطب فيما بينهم باللغة الإنكليزية دون سواها ما داموا داخل حرم الكلية»[2].

هذا عن تغريب لغة العلوم بعد أن كانت تدرس بلغة التنزيل لأكثر من عشرة قرون، أما عن تغريب لغة الطب بالذات التي ما تزال تدرس باللغات الأجنبية في جميع البلاد العربية مشرقا ومغربا (باستثناء سوريا) إلى هذه

(1) كتاب دارون وأزمة 1882 ، مرجع سبق ذكره.

(*) راجع ما كتبناه حول هذا الخطأ الشائع في هامش صفحة ...

(2) اللغة العربية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 2004، القسم الثالث (إصلاح اللغة والتعليم)، صفحة 14.

اللحظة (أوت 2007) فيقول شفيق جحا: «كانت الدائرة الطبية الاخيرة في تغير لغة التدريس. ومع أن القرار بهذاالشأن لم يصدر حتى سنة 1880 إن التحضير لهذه الخطوة الإنتقالية ابتدأ قبل ذلك بحوالي سنتين. ففي خريف سنة 1878، أي بعد وقت قصير من جعل الإنكليزية لغة التدريس في الدائرة العلمية، قررت العمدة أنه يتوجب على جميع الطلاب الذين يستعدون لدخول الدائرة الطبية أن يدرسوا اللغة الإنكليزية. وبعد عام عدلت العمدة هذا القرار بحيث أصبح لا يكفي أن يدرس هؤلاء الطلاب اللغة الإنكليزية فحسب، بل وأن يتلقوا جميع الدروس أيضا بهذه اللغة. وبعد ذلك بستةأشهر فقط، أي في كانون الثاني سنة 1880 اتخذت العمدة قرارها التاريخي، بحضور جميع أعضائها وبالاجماع ،بأن لغة التدريس في الدائرة الطبية تصبح اللغةالإنكليزية ابتداءمن العام الدراسي 1881–1882» [1].

وتأكيدا لهذا الفعل المدمر لهوية الأمة المتمثل في محاولة القضاء على اللغة العربية التي كانت هي لغة الحياة العامة لكل أقطار الأمة في الجامعة والجامع وفي السوق والشارع، يضيف الباحث قوله: «اللغة العربية كانت هي لغة التدريس في مدرسة قصر العيني الطبية بمصر منذ تأسيسها في سنة 1826 وبقيت كذلك حتى استبدلت باللغة الإنكليزية في التدريس، مثلما جرى في الدائرة الطبية بالكلية السورية الإنجيلية في بيروت قبل ذلك بخمس عشرة سنة وللأسباب ذاتها تقريبا»[2].

وعن إتمام هذه العملية التغريبية، (التي ما تزال قائمة حتى هذه اللحظة) لهوية الأمة المحمدية وحضارة الإسلام النورانية كما أسلفنا، يختم حديثه بقوله: «وفي خريف سنة 1883 كان قد اكتمل استبدال اللغة العربية باللغة

(1) اللغة العربية، القسم الثالث (إصلاح اللغة والتعليم)، مرجع سبق ذكره، صفحة 16.

(2) المرجع ذاته، صفحة 24.

الإنكليزية(*) لغة التدريس في دوائر الكلية الثلاث، الدائرة الإستعدادية، والدائرة العلمية، والدائرة الطبية، ومازالت هذه حالها منذ ذلك الحين وحتى الوقت الحاضر.»[1].

بناء على ما سبق ذكره في الفصل السابق من عدم إعطاء القيمة السيادية والشخصانية والسياسية للغة القومية في الحياة العملية والإدارية، خاصة في بلدان المغرب العربي، فقد ترتّب عن ذلك (من باب أولى) التدريس باللغات الأجنبية في التخصصات العلمية الدقيقة والهامة كالطب والهندسة في كل الأقطار العربية –مشرقا ومغربا– (باستثناء القطر السوري الشقيق) كما هو معلوم، في هذا المجال الحيوي الاستراتيجي الذي تقاس به الحضارات الراقية في الوقت الحاضر في الاكتشاف والاختراع باللغات القومية، على غرار كوريا واليابان وإسرائيل وإيران.

وإذا رجعنا قليلا إلى الوراء لنعرف السبب الذي يمكن أن يتذرع به بعض العرب (المشارقة على الخصوص) في مواصلة ارتكاب هذه الجريمة الحضارية في حق الأمة حاضرا ومستقبلا، (ما دون جميع الأمم في العالم بأسره كما ذكرنا في المقدمة)، نجد أن هذا التقصير الحضاري الخطير وهذا الوضع الشاذ الذي توجد عليه اللغة العربية في الجامعات العربية، يعود في تاريخه إلى الحملة البربرية الصليبية التي شنها الغرب على البلدان العربية، ابتداءا بغزو فرنسا للجزائر عام 1830م وأقطار المغرب العربي بعد ذلك، ثم غزو انجلترا لمصر سنة 1882م والبلدان الشرقية الأخرى بعد ذلك، وكذلك الاستعمار الإسباني في كل من شمال المغرب والصحراء الغربية، والإيطالي في ليبيا، حيث اجتاحت جحافل تلك القوى الصليبية المدمرة للبلدان العربية

(*) راجع هامش صفحة ...

(1) المرجع ذاته، صفحة 21.

في المشرق والمغرب، وتصادف في تلك الآونة أن بدأت العلوم تجد طريقها الى العالم العربي بفضل سياسة الانفتاح على الغرب التي نادى بها ابن العنابي الجزائري في المغرب الأوسط وردد صداها محمد علي ورفاعة الطهطاوي في المشرق، فأنشأت المعاهد والمؤسسات العلمية، في العديد من الأقطار العربية، قبل ذ لك الغزو المدمر الذيتوّج التقسيم والتمزيق «السايكس–بيكوي» الحالي، وكانت اللغة العربية وحدها هي لغة التدريس لكل تلك العلوم العصرية، في ذلك الوقت، فكان الطب وبقية العلوم تدرس في مصر باللغة العربية، وكذلك الحال في بيروت (كما أسلفنا).

ولكن بعد أن حط الاستعمار رحاله في مصر أصدر قرارا بجعل لغة تدريس الطب وجميع الفروع العلمية في مصر باللغة الأنجليزية، وما تزال تلك القوانين التغريبية مطبّقة في جامعة القاهرة والأزهر حتى هذه اللحظة، ونفس الشيء حدث في كلية الطب ببيروت، في الجامعة التي أصبحت تعرف الآن بالجامعة الأمريكية، وقد تمت قبلها نفس الفعلة مع الاستعمار الفرنسي في الجزائر (راجع الفصل الخامس)، وكذلك بلدان المغرب والمشرق الأخرى التي وقعت تباعا تحت وطأته فيما بعد(...) وتشتت بين (الفرنكوفونية والأنجلوفونية)، وظلت الحملة الاستعمارية الصليبية متواصلة ضد اللغة العربية بدون هوادة منذ ذلك التاريخ إلى يومنا هذا (!!!).

وهكذا استطاع الأعداء أن يؤبدوا وجودهم الحضاري في أقطارنا بواسطة وكلائهم الذين نصّبوهم واعتمدوهم كمقاولين من الباطن لمواصلة إقصاء اللغة العربية من الحياة العامة عموما ومن مجالات تدريس العلوم والتقنيات الحديثة خصوصا..

وكان دعاة هذه الحرب الشعواء ضد العربية في أواخر القرن الماضي، (كما سنبين لاحقا في الفصل الثالث عشر) من أكبر أساطين الاستعمار

وعلمائه، ومفكريه الذين سخرهم تسخيرا كاملا لخدمة أغراضه الحضارية القريبة والبعيدة، في بلداننا العربية، ثم ما لبث هذا المخطط المدمر أن انطلى على بعض (المستغربين) أو المقاولين العرب من الباطن فوجدناهم يحملون شعارات الاستعمار ذاته باسم الموضوعية والنزاهة العلمية، والحرص على التقدم العلمي لبلدانهم، وكأن العلم في اللسان وليس في مخ الإنسان(.!!)

ومما يدل على هذا "الاسترقاق" اللغوي الجديد الذي لا يحمل من معنى التقدم والحضارة إلا اسم اللغة "المستعمرة"، لكون العبرة في الإنسان وليست في اللسان هو اعتراف أحد أساطين الفرنكوفونية الإفريقية الأستاذ (ألفا عمر كوناري) رئيس مفوضية الاتحاد الإفريقي في اجتماع وزراء التربية الأفارقة المنعقد في الجزائر في 2005/04/09، حيث قال: «إن ثمة 100 جامعة عالمية لا تتضمن أي جامعة إفريقية»، وهو ما يبين بالدليل القاطع والبرهان الساطع واقع التقدم التعليمي والعلمي لإفريقيا المتصارعة على فتات أو فضلات اللغة الفرنسية والأنجليزية في القارة الإفريقية دون أن يمكنهم هذا الصراع من تجاوز مستوى محو الأمية بالحروف اللاتينية التي تعبر عن مدلولات لغوية فرنسية أو أنجليزية لا تبرح المستوى البيولوجي إلى المستوى الفكرولوجي (انظر تغطية اجتماع وزراء التربية الأفارقة في جريدة الشروق اليومي ليوم 2005/04/11).

وهكذا فعل بعض هؤلاء «الحكام» في أنفسهم، عن جهل أو تهاون أو عن خيانة وتواطؤ، ما عجز الاستعمار عن تحقيقه فيهم بالطرق الإكراهية المباشرة، وسار غزو الأرض مع غزو الفكر جنبا الى جنب في تكامل ونجاح عجيب، نتيجة هذه الذهنية المركوبية القابلة للاستعمار التي سادت وما تزال تسود أمخاخ بعض الحكام المقاولين الذين لم يكن لهم دور في عملية

الجهاد من أجل تحرير الأرض والفكر وتحطيم قيود التبعية بجميع أشكالها وأنواعها للاستعمار القديم والجديد.. فكان من نتيجة هذا الحصار الذي فرض قسرا على اللغة العربية، من هؤلاء جميعا، في مجال التعليم الجامعي والبحث العلمي والتكنولوجي.. أن وجدنا أنفسنا اليوم أمام واقع مر مؤسف يتمثل في العشرات من الجامعات التي تنشأ في الوطن العربي كل سنة لتجعل اللغات الأجنبية لغة التدريس في الأقسام العلمية بها، وخاصة في مجال العلوم التطبيقية والعلوم البحتة.. بدلا من جعل لغة التدريس في هــذه الفروع الهامة هي اللغة القومية، على غرار الجامعات السورية اليتيمة في واقع الأمة؟!.

وحول تعريب العلوم في الجامعات يقول الدكتور عبد الله واثق شهيد: «بدأ تعريب التعليم في سورية بجميع مراحله وأنواعه قبل الحرب العالمية الأولى: وبدأ تعريب التعليم العالي، في وقت مبكر...»(1).

وحول الموضوع ذاته يقول الدكتور عبد السلام العجيلي: «هذا التعلق العاطفي باللغة الأم، في مجموعة بشرية هو دلالة من دلالات ثقة هذه المجموعة بنفسها، كما هو نقطة ارتكاز لا بد منها لكي تنتج هذه المجموعة إنتاجا حضاريا ذا قيمة أصيلة. هذا العامل النفسي هو الذي يدفع كل شعب من شعوب العالم للاعتزاز بلغته والتعليم بها في جميع مراحل التعليم مهما كان تعداد سكانه. وها هي عدوتنا إسرائيل قد أحيت اللغة العبرية بعد موتها وجعلتها نقطة ارتكاز أساسية لوجودها العدواني ولغة التعليم في جميع مراحله... أما لغتنا العربية فلها في هذا الخضم من القرآن الكريم حرز، ومن الحضارة العربية الإسلامية ركن شديد، ولها في نفس كل

(1) من بحث له بعنوان «تجربة سوريا الرائدة في مجال تعريب العلوم في التعليم العالي» في الندوة الرباط الدولية حول اللغة العربية، بتاريخ 1–3 نوفمبر 2002م

مسلم قدسية أضفاها عليها القرآن الكريم والدين الإسلامي الحنيف، وهي التي أبدعت مصطلحات علوم تلك الحضارة السامية، فانتشرت بها في أصقاع العالم كله وأنارت ظلمات العصور الوسطى ومهدت لعصر التنوير. إنها لغة العلم والحضارة »[1].

وعن مستوى تعليم العلوم في الجامعات السورية يقول الدكتور عبد الله واثق شهيد: «مستوى تعليم العلوم في التعليم العالي: بلغ تعليم الطب بفروعه الثلاثة مستوى مرموقا في الثلاثينات من القرن الماضي، وتابع تطوره وتحسنه. فقد توافرت له جميع المزايا لبلوغ ذلك المستوى، فالتعليم فيه باللغة العربية. وقد كان خريجو الجامعة السورية موضع ترحيب لاستكمال دراساتهم العليا في الجامعات الفرنسية.

ووجه أعضاء هيئة التدريس في المعهد الطبي العربي بحوثهم الطبية إلى معالجة الأمراض البيئية المستوطنة، وكانت ضافية في البرداء والزحار والضنك وبثرة حلب وداء الجلبان، الذي كان للمعهد الفضل في اكتشافه...، ونشروا بحوثهم في مجلة المعهد الطبي العربي وفي غيرها من المجلات العلمية المحكّمة. وهاهو أيضا مرشد خاطر ينشر مع الأستاذ ترابو زميله الفرنسي في مجلة الجراحة الفرنسية ومجلة المعهد.

وكان المعهد الطبي العربي يفاخر في أنه المعهد الوحيد في البلاد العربية "الذي تدرس فيه العلوم باللغة العربية، ويتوافد عليه الطلبة من جميع الأقطار العربية المجاورة والبعيدة. فإن لدينا طلبة من بلاد سورية ولبنان والحجاز والعراق ومصر وتونس وغيرها...»[2].

(1) عبد السلام العجيلي: لغة العلوم الحلقة الرابعة – مجلة المعرفة، السعودية، عدد شعبان 1421 هـ.

(2) من بحث له في ندوة الرباط، مرجع سبق ذكره.

وعن كفاءة الخرّيجين في الطب والعلوم باللغة العربية، يقول الدكتور عبد الله واثق شهيد: «واللغة العربية بعد هذا كله، قد برهنت بما حققته، على كفاءتها لتعليم العلوم كلها وعلى جميع المستويات. وهذا هو الطبيب زهير أحمد السباعي يقارن في دراسة له في مجلة المعرفة (عدد 65) بعنوان: «هل تدريس الطب بالعربية يخرّج لنا أطباء أضعف»، نتائج الأطباء السوريين الذين يتعلمون الطب بالعربية بنتائج الآخرين، في اختبارات المجلس التعليمي للأطباء الأجانب، وهو اختبار تعقده الولايات المتحدة الأمريكية عدة مرات في كل عام، ويتقدم إليه في كل مرة نحو عشرة آلاف طبيب من مختلف أنحاء العالم. ومن يجتازه يحق له العمل أو الدراسة الطبية العليا في الولايات المتحدة الأمريكية. وتضمنت الدراسة جدولا بمعدل علامات نتائج اختبار الطلاب الأطباء السوريين المتقدمين، وبمعدل العلامات الإجمالي للمتقدمين؛ ويتضح من ذلك الجدول أن معدل علامات السوريين أعلى قليلا من المعدل الإجمالي. وينبّه الدكتور السباعي في دراسته القارئ "إلى أن الاختبار يعقد باللغة الإنكليزية، أي أن تعلم الطب باللغة العربية لم يكن عائقا أمام الأطباء السوريين يحول دون أدائهم للاختبار واجتيازهم له بنجاح». وفي ذلك برهان على نجاح تعليم العلوم باللغة العربية مستخلص من مقارنة نتائجه بنتائج الآخرين»[1].

ثم يضيف قوله: «ولقد توطد في سورية تعليم العلوم باللغة العربية، كما أخفقت جميع الأساليب لحرفه عن توجهه هذا، وبخاصة في مشروعات افتتاح كليات ومعاهد بمعونات دولية أو أجنبية. لقد أصبح التعليم باللغة العربية في جميع مراحله هدفا ثابتا لا محيد عنه. حتى أن تلك الأساليب المغرضة ساهمت، كرد فعل إلى حد ما، في إهمال اللغات الأجنبية التي هي نوافذنا للتواصل مع التقدم العلمي العالي»[2].

---

(1) من بحث له في ندوة الرباط، مرجع سبق ذكره.

(2) المرجع ذاته.

وفيما عدا سوريا كما نرى، فقد بلغ الأمر في البلاد العربية الأخرى حالة مخزية حقا، حيث أننا نجد مثلا أن جامعة الأزهر الشريف تتخذ من اللغة الأنجليزية لغة الطب والهندسة وبقية العلوم، وكذلك جامعات الأراضي المقدسة في المملكة العربية السعودية مهبط القرآن، ومنبر الإيمان والبيان، ومثله في جامعات بلد الرشيد والمأمون مهد العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية العريقة، حتى قبل الغزو الأمريكي الصهيوني، والتي بتنا نبكي اليوم على أطلالها بكاء أمير غرناطة الصغير سنة 1492م الذي لم يعرف كيف يحافظ على مجد وملك كبير، ورثه بلا تعب ولا نصب!! وأصبحنا ننعى حظوظنا ونندب خدودنا، على ما فعله رعاة البقر، وعبّاد الشمس والقمر، بجوهرة خلافتنا، وعزّ مجدنا، وبيت حكمتنا، ومهد نحونا، وبحر شعرنا في كوفتنا وبصرتنا دون أن ندرك أنه لا يوجد احتلال دائم ولا استقلال دائم، ولكن يوجد وعي دائم، وتحصين دائم للذات ودفاع دائم عن الذات وهوية الأمة والوطن ضد الذوبان الشخصاني في العدو اللساني!!

وكان من نتائج هذا الحصار الذي بدأه الاستعمار القديم، وواصله بعض أصحاب الديار مع «الاستحمار» الجديد، بعد عشرات السنين، من استرجاع أوراق الجنسية الوطنية، متخذين من الاستعمار أفضل الذرائع والشماعات، لتعليق عجزهم عن مواصلة التحرير الذي بدأه الأولون.. وقد كان من نتائج ذلك خلق الوضع الحالي المعوق للتعريب في بلداننا العربية بدرجات متفاوتة (مشرقا ومغربا) ويتمثل في الحالات التالية:

1 – إبعاد اللغة العربية عن مجال التفاعل مع العلوم الحديثة المختلفة في التدريس والبحث والتأليف والترجمة، وبالتالي إبعاد العربية عن مسايرة العصر التكنولوجي الراهن باستيعاب المفاهيم والمصطلحات العلمية الحديثة، وظهور الدوريات والمصادر العلمية المختلفة بهذه اللغة العربية التي باتت أجنبية في عقر دارها!.

2 – استبقاء اللغات الأجنبية المختلفة للتدريس في مختلف الفروع العلمية في الجامعات العربية التي يربو عددها عن المائة والخمسين جامعة، في كافة أقطار الوطن العربي وقد نتج عن ذلك:

3 – بقاء خريجي تلك الجامعات العربية مرتبطين ببلدان الشرق والغرب في تبعية يخجل منها الاستقلال السياسي الذي حققه الوطنيون الأحرار في تلك الأقطار.. حيث نجد هؤلاء الباحثين والعلماء العرب يثرون بمؤلفاتهم وأبحاثهم العلمية، حضارات تلك اللغات الأجنبية التي زاولوا بها تخصصاتهم العلمية في الجامعات العربية والأجنبية(...) بمعزل عن المساهمة في عملية الإبداع العلمي العربي الأصيل، الذي ولد في الجامعات السورية، منذ زمن طويل، على غرار ما فعلته وتفعله الأمم الصغيرة والكبيرة في العالم كالصين واليابان وتركيا وإيران وبلغاريا واليونان وبولونيا والمجر ورومانيا وفنلندة وفرنسا وإسبانيا وأمريكا، (وإسرائيل) وبريطانيا، والبرتغال وهولندة وألمانيا(...) دون أن نجد في بقية الجامعات العربية، الى حد الساعة من يحذو حذو الجامعات السورية، وكأنها هي وحدها العربية التي يقع عليها عبء توفير هذا الشرط الضروري لتحقيق النهضة الحضارية العربية المنتظرة!!

4 – اظهار اللغة العربية في موقف العاجز عن مسايرة التطور العلمي والحضاري، مما يشجع الأقطار العربية النامية، ويضطرها الى تبني لغة علمية (جاهزة لديها) لبناء التقدم الحضاري المنشود.. وطالما أن العرب لا يعتمدون لغة علم واحدة في جامعاتهم (حيث يدرسون العلوم في كل بلد بلغة المستعمر الأنجليزي أو الإيطالي أو الإسباني أو الفرنسي) فتكون النتيجة الحتمية ألا تتحقق حضارة عربية على الاطلاق لأن الحضارة لكي تكون عربية، يجب أن تكون على مستوى كل الأقطار العربية، ولكي تكون ذات

هذا الطابع العربي العام، يجب أن تكون بلغة واحدة، ولا يمكن أن تكون بلغة واحدة إلا باللغة العربية التي تجمع كل العرب، وتمثل أحد الأركان الأساسية لوحدتهم المعهودة والمنشودة..

5 – عزوف الطلبة العرب عن اللغة العربية الى لغة الحياة والمناصب حيث أصبح المستقبل المضمون للشباب العربي في الهندسة والطب والالكترون أكثر مما هو في الآداب والعلوم الاجتماعية، على اختلاف أنواعها!!

6 – غرس عقدة النقص في نفوس الناشئة العربية بتكوين صورة سيئة في أذهانهم عن اللغة العربية، بوصفها لغة عاطفة وشعر وقصص وخيال وأقوال، وليست لغة عقل وتحليل وطب وعلم وهندسة وأعمال.. وهذه الذهنية السائدة لدى بعض الناشئة العربية نتيجة لهذا الوضع الشاذ الأعرج الذي توجد عليه اللغة العربية في أقطارهم.. يمثل عائقا بعيد الأثر على التعريب المنشود والاعتزاز باللغة القومية، حيث يشتت القوة الناشئة، بين العقل والعاطفة، وبين الروح القومية والمصلحة الشخصية، فيتذبذبون بين الاستجابة الى نداء الضمير والواجب الوطني بإتقان اللغة القومية، (لتحقيق التعريب الحضاري المنشود) وبين نداء الواجب (البَطَني) باتقان اللغات الأجنبية المرهون مستقبلهم الوظيفي باجادتها على حساب اللغة القومية..

وخلاصة القول: إن اللغة العربية، لو كانت عاجزة في ذاتها عن مسايرة التطور العلمي المنشود لهان الأمر، ولوجدنا عذرا للمستعجلين والمشككين في قدرة هذه اللغة على مسايرة التقدم في جميع مجالاته.. ولكن الذي يبعث على الاستغراب والرثاء في آن واحد، هو أن معظم الأقطار العربية ذات التعليم الجامعي الأعوج والتعريب الأعرج لا تقر أبدا

بعجز اللغة العربية ولا تتردد في أن تهاجم مَن يتهم العربية بالعجز مستدلة بمأثورة حافظ إبراهيم الخالدة:

«أنا البحر في أحشائه الدر كامن فهل سألوا الغواص عن صدقاتي..
وسعت كلام الله لفظا وغاية وما ضقت عن أي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة وتنسيق أسماء لمخترعات»

إلا أن الحماسة في الدفاع عن لغة الضاد بالكلام شيء والرد بالفعل الخلاق والجاد المتمثل في العمل على تدريس العلوم بها في الجامعات العربية، شيء آخر! يحول دونه «الاستحلال» القائم والتواطؤ الظالم والكسل الدائم المثبط للعزائم والهمم والمزيل للحضارات والأمم! وإلا فكيف نبرر بغير الكسل، وضعف الهمة، بقاء تدريس مختلف فروع الطب والهندسة في جامعة المعز لدين الله الفاطمي (الأزهر الشريف، فضلا عن مختلف الجامعات المستحدثة الأخرى) باللغة الأنجليزية، مع الشرح باللهجة العامية المحلية – في غالب الأحيان – بسبب الضعف العام الذي يوجد عليه الطلبة باللغة الأنجليزية، التي لم يعدوا لها اعدادا كافيا، في مرحلة التعليم الاعدادي والثانوي العام، مما اضطر هذه الجامعة (الأشعاعية العريقة) الى فتح الباب أمام حملة الثانوية العامة (البكالوريا) من غير الأزهريين للحصول على دكتوراه الطب والهندسة من الأزهر، وقد لاحظنا إقبالا شديدا على الكليات العلمية الأزهرية، من طرف الطلبة العرب (مصريين وغير مصريين) لأنها تطلب مجاميع أقل مما تطلبه سائر الجامعات المصرية الكبرى.. ووجدنا أنفسنا نتيجة لذلك أمام طلبة أزهريين، لا تربطهم بالأزهر إلا شهادة الطب والهندسة التي ينتظرونها منه، فارغة من أي محتوى ديني أو أخلاقي أو حضاري أو شخصاني يمت بصلة الى ما اشتهرت به تلك المؤسسة الحضارية الإسلامية العريقة ذات اللغة الراقية، على مر المئات من السنين قبل عهد الاحتلال الغابر، ثم «الاستحلال» الحاضر!!

مع العلم أن الإمكانيات العلمية والبشرية المتوفرة في بلد الأزهر خليقة بأن تغطي احتياجات التعريب في جميع الفروع العلمية، في كل الجامعات العربية والإسلامية في إفريقيا وأروبا وآسيا، فضلا عن الجامعات المصرية (...) وكيف نبرر – أيضا – بغير الكسل وضعف الهمة بقاء التدريس في الكليات العلمية العربية باللغات الأجنبية المختلفة وبين أيدينا آلاف الكتب العلمية المؤلفة باللغة العربية، والمترجمة إليها والتي أثبتت قدرتها وقيمتها في الكليات العلمية السورية التي التزم مؤسسوها التزاما مستميتا وبكل شجاعة وهمة وإخلاص بالتمسك بمبدإ التدريس باللغة القومية منذ أكثر من سبعين عاما، وكأنهم هم وحدهم ممثلو الوجود الحضاري للعرب، بعد «سايكس بيكو» الذي ما فتئ يفعل أفاعيله في هذا العالم «العربي» العجيب والمريب! فلم تضعف إرادتهم ولم تتراجع يوما عن هذا المبدأ القومي المصيري الخطير، رغم تشكيك الشقيق والصديق، قبل العدو الاستعماري والحضاري.. في جدوى التجربة السورية الرائدة التي ظلت الى الآن صامدة كالطود الشامخ، تمثل النواة الحية لكبرياء الأمة الحضارية والقومية، إذا حضر الوعي القومي والحضاري بالذات لدى بعض الحكام واستيقظوا من سباتهم قبل فوات الأوان، وصحت عزائمهم، ليستخلصوا الدرس المفيد من واقع بلاد الرافدين، التي أصبحت مهددة بالتمزق إلى أكثر من دولتين، بلسانين متصارعين، ومتقاتلين لحساب «دولة ما بين النهرين» المرسومين في علمها الوطني باللون الأزرق للعرب أجمعين، وهي التي تجمع على «مغتصباتها» أشكالا من شتى أجناس البشر، من الفلاشات والغجر، والبدو والحضر، تحت قبة برلمان واحد، ولسان قومي صامد منبعث من أعماق بركان توراتي خامد منذ العصور الأوابد!!

وللرد على هذا الوضع الذي صارت عليه اللغة العربية في جامعاتها مشرقا ومغربا، نتيجة الاحتلال الغربي المباشر الذي ما يزال قائما من

الناحية اللغوية إلى الوقت الحاضر، كما بيّنا، يقول الدكتور عز الدين إبراهيم: «للعرب عراقة محققة في إنشاء الجامعات، فقد اتفق المؤرخون ومن أبرزهم شارل هاسكنز المؤرخ الأمريكي، أن الجامعات العربية الإسلامية قد سبقت جامعات أوروبا بأربعة قرون. وأنها لم تكن مقتصرة على الدراسات الدينية بل ضمت إليها فنون المعرفة والعلوم أيضا. ونضيف أن الجامعات العربية قد فتحت مجال الدراسة للإناث فيها قبل أمريكا بأحد عشر قرنا، إذ لم تتمتع المرأة في أمريكا بالتعليم الجامعي إلا ببداية القرن العشرين، في حين أن جامعة القرويين قد سمحت بذلك في القرن التاسع الميلادي.

وفي سوريا أنشئت كلية الطب في دمشق سنة 1919م، وتلتها كلية طب الأسنان، وتقرر أن يكون التدريس فيهما باللغة العربية. ومازال هذا القرار منفذا ومرعيا بكامل الاعتزاز والإصرار حتى يومنا هذا. وغني عن الإشارة أن التدريس في الكليات الجامعية الأخرى كان ولا يزال بالعربية.

وفي هذا النسق الالتزامي باللغة العربية في مؤسسات التعليم العالي العربية، قامت كلية الطب بالجامعة الأمريكية في بيروت، فكان التدريس فيها باللغة العربية، ثم تغير إلى الانجليزية فيما بعد، حينما اختل ذلك النسق. ولما أنشأ الفرنسيون كلية طب الأسنان في بيروت، جعلوا التدريس فيها باللغة الفرنسية وهذا ما فعلوه في شمال أفريقيا أيضا»[1].

وبعد أن يستعرض الدكتور عز الدين إبراهيم حجج المتشككين في أهلية اللغة العربية للاستعمال في مجالات تدريس العلوم والطب، يورد مجموعة من الإجابات عن تلك الحجج الواهية، نلخص أهمها في النقاط التالية:

(1) من بحث له بعنوان «اللغة في مؤسسات التعليم: العام والعالي والأعلى» مقدَّم في ندوة الرباط الدولية حول اللغة العربية، بتاريخ 1–3 نوفمبر 2002م، وللتوسع في هذا الموضوع، انظر ش. هـ هاسكنز، نشأة الجامعات في العصور الوسطى، ترجمة جوزيف نسيم يوسف، الأسكندرية 1971..

1) إن العرب، في مجال البحث العلمي، والتعبير العلمي، وفي مقدمته ما يتعلق بالطب – أصلاء لا دخلاء، وتاريخهم مع العلوم والطب ضارب في القدم والعراقة.

ويمكننا أن نذكر، على سبيل المثال لا الحصر، بعض عناوين الكتب العربية للتذكير بأصالتنا في هذا المضمار، فمنها «القانون في الطب» لابن سينا، و«الحاوي في الطب» للرازي، وكتاب «الرمد لابن النفيس» وله أيضا كتاب «الشامل في الطب» الذي أتم منه ثمانين جزءا قبل موته وكانت خطته جعله في ثلاثمائة جزء، وكتاب البيطرة لحنين بن اسحق، وأسرار الكيمياء لجابر بن حيان، والمناظر والمرايا والبصريات لابن الهيثم، وكتاب النبات للدينوري، والزراعة لأبي الخير الأشبيلي، والجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار، والرياضيات للخوارزمي، وغيرها .

2) عدم توقف التأليف باللغة العربية في العلوم والهندسة والطب فقد تابع العرب والمسلمون التأليف بها، وما زالوا يترجمون كل جديد إليها حتى يومنا هذا. وقد أشرنا إلى المؤلفات التي ظهرت في مصر وفي سوريا من قبل ومنها على سبيل المثال أيضا: معجم الألفاظ الزراعية للأمير مصطفى الشهابي، والشذور الذهبية في الألفاظ الطبية لمحمد عمر التونسي، ومعجم مصطلحات تعويض الأسنان لميشيل الخوري، وكتب الجراحة لمحمد البفلي، وكتب الزراعة والنبات والجيولوجيا والكيمياء لمحمد ندا، وكتاب علم الجراثيم للدكتور أحمد حمدي الخياط، وعلم الطبيعة لجميل الخاني، والأمراض الباطنية لحسني سبح، وعلم تشخيص العقاقير للدكتور زهير البابا[1]، وما كتبه الدكتور عبد الرحمن مخلوف في تخطيط المدن والذي سماه (علم التخطيط العمراني الشامل) ودرسه بالعربية في جامعتي القاهرة والإمارات، وكذلك كتابات الدكتور جلال شوقي في الهندسة الميكانيكية، وبوجود هذه الكتب وأمثالها، ما زال

(1) د. مازن المبارك: اللغة العربية في التعليم العالي والبحث العلمي، بيروت 1986، ص 15، 47، 48.

الطلاب في كلية الطب بجامعة دمشق يتابعون دراساتهم بلا أدنى مشقة كما أن الموضوعات العلمية والهندسية وجدت لها مراجع كاملة باللغة العربية[1].

3) إن واقع التدريس باللغة الانجليزية للمواد العلمية والطبية، في الجامعات العربية، قد وضع موضع الدراسة التقييمية مؤخرا، واختيرت له كلية العلوم الطبية بجامعة الملك فيصل بالدمام التي تدرس فيها العلوم الطبية باللغة الانجليزية، واستخدمت فيه استبيانات دقيقة، وعينات من الطلاب المستجدين، والذين امضوا نصف مدة الدراسة، وطلاب التخرج والدراسات العليا، وكانت نتيجة هذه الدراسة أن الطلاب جميعا يقدرون استعمال العربية والانجليزية في الدراسة والبحث، ولا يقبلون الاكتفاء بواحدة، ولكنهم يفضلون بنسبة 70٪ أن تكون الدراسة باللغة العربية أساسا مع الاهتمام البالغ باللغة الانجليزية. وقد اشتملت الاستبانات تقييم قدرات الطلاب على فهم لغة التدريس، واستخدام المراجع، والمناقشة في قاعة الدراسة، وعند الامتحانات الشفوية والتحريرية، وإعداد الأبحاث العلمية وتقديمها، ومتابعة الدراسات العليا[2].

وأخيرا نتمنى لو أخطأ العرب مرة واحدة وطبّقوا إحدى توصياتهم في هذا المجال المتعلق بتدريس العلوم والطب والهندسة وأشباهها باللغة العربية يؤدي لا محالة إلى تعزيز اللغة العربية وإغنائها، وتطويرها، وإقدارها على مواجهة متطلبات الحياة المتجددة. والعكس صحيح، إذ أن الاعتماد على

---

(1) بمناسبة انعقاد مؤتمر الوزراء العرب المسؤولين عن التربية والتعليم والتخطيط في مراكش سنة 1970، أصدروا توصية جاء فيها «فإن المؤتمر يوصي بأن تبادر جميع الدول العربية في أسرع وقت ممكن إلى اتخاذ التدابير والوسائل الكفيلة باستعمال اللغة العربية لغة تدريس في جميع مراحل التعليم العام والمهني والجامعي، مع العناية الكافية باللغات الأجنبية، (ولفضح هذه المفارقة العجيبة في الواقع العربي، بين من يريدون ولا يقدرون، وبين من يقدرون ولا يريدون، من بعض الحكام المتواطئين المشار إليهم... راجع كتابنا التعريب بين المبدأ والتطبيق في الجزائر والعالم، الطبعة 1، 1981، الطبعة الثانية، دار الأمة الجزائر 1996).

(2) سليمان عبد العزيز السحيمي والدكتور عدنان أحمد البار: رأي طلاب الطب من تعريب التعليم الطبي ص41 – 65 رسالة الخليج العربي عدد 42 سنة 1992م.

غيرها في هذه المجالات يضمرها، ويزري بمكانتها، ويشعر أبناءها وأهلها بضعف أهليتها للتعبير الشامل المتنوع دون وجه حق، وعليه فإن اعزاز اللغة العربية، الذي لا يختلف على أهميته عربيان، يقتضي استعمالها لا إهمالها.

ويختم الدكتور عز الدين إبراهيم قوله حول هذا الموضوع: «وبتأمل المبررات التي يسوقها الأكاديميون والمربون المتشككون في قدرة اللغة العربية على أن تكون لغة التدريس الفعالة والناجحة في مجالات العلوم والهندسة والطب، وكذلك الاعتبارات التي يقدمها المناصرون للغة العربية، الواثقون من كفاءتها وأهليتها لهذه المهمة – نجد أن كفة المتشككين بصفة عامة مرجوحة، وأن استخدام اللغة العربية للتدريس في الإنسانيات والعلوم جميعا هو الاتجاه الصحيح، باعتبار أنها اللغة التي يساندها التاريخ، والتجربة السابقة الناجحة، ووفرة المراجع المؤلفة فيها، وقوة اللغة ومرونتها، والحاجة العملية للمجتمع العربي النامي والمتطور إلى التعامل بها، واستحقاقها للتنمية والتطوير والتعزيز المستمر...

ولاشك لدينا أيضا أن الجامعات المتشككة في جدوى تدريس العلوم والهندسة والطب بالعربية يمكن أن تنضم إلى ركب التعريب تدريجيا، إذا كسر لديها الحاجز النفسي الموجود حاليا ضده»[1].

ونختم هذا الموضوع الحضاري والهوياتي الهام المتمثل في هذه المفارقة العجيبة بين واقع اللغة العربية القومية والمحسوبين عليها في الوطن العربي بهذه الفقرات للدكتور محمد غوزي التي تلخّص وتؤكّد كل ما طرحناه في هذا الفصل، في مقال له بعنوان «تعريب الطب واقع وطموحات» يقول فيه: «... لا يرتاب أحد من الباحثين اللغويين، قدامى ومحدثين، شرقيين وغربيين في أن العربية من أقدم اللغات وأقواها أصالة وأوسعها تعريفا، بل

(1) الدكتور عز الدين إبراهيم، اللغة العربية في مؤسسات التعليم العام والعالي والأعلى، بحث له في ندوة الرباط (اللغة العربية إلى أين؟) بتاريخ 1–3 نوفمبر 2002م.

يذهب البعض الى اعتبار العربية فوق اللغات الإنسانية قاطبة، فهي أم اللغات الآرية، لا السامية والحامية فحسب.

إن اللغة العربية عنصر عالمي مستقل وظاهرة اجتماعية وعامل حضاري، فإذا ما عزونا إليها طواعيتها للاكتشاف والاختراع والتوليد قديما وحديثا، فليس لنا أن نستسلم في ذلك استسلاما شعريا لذيذا ترى خلاله العربية لغة العلوم. فالعربية مرنة مطواعة مطاطية تلبي أدق مطالب العلوم وخاصة منها العلوم الطبية بألوان اشتقاقاتها، وأنواع صيغها أسماء وأفعالا وصفات، وباستعدادها الأصيل للاقتباس والتعريب لكل لفظ دخيل من ألفاظ الحضارة والفنون والعلوم، وكان لها في ذلك كتب واسعة ومجلدات ضخمة...

فالعربية ما هي باللغة الجامدة الميتة، بل هي اللغة المرنة المطواع التي كتب الله لها النماء والبقاء والخلود، فهل نحن أهل لحمل رسالتها وجعلها لغة علومنا كما هي لغة قرآننا»[1].

ثم يضيف قوله بصفته عضو اتحاد الأطباء العرب (وهو متخرج باللغة العربية): «إن اتحادنا.. قد حمل فكرة تعريب الطب منذ نشأته 1982 فمؤتمراتنا الطبية التي تقام في وسط أوروبا ترفع شعار العربية لغتها، جمعيتنا الطبية هي الأولى من نوعها بمقالاتها العلمية والطبية التخصصية ناطقة بالعربية، ورفع الاتحاد مذكرات عديدة الى وزراء الصحة العرب والى نقابات الدول العربية وكذلك الى منظمي المؤتمرات الطبية في الأقطار العربية مذكرا إياهم بأن الطب في العالم كله يدرس بلغة بلده الأصلية، فاليونان والألبان والبولونيون وحتى أرمينيا وفي دولة طاقجستان كل يدرس بلغته القومية. فلمَ إذا ندرّس العلوم الطبية في بلادنا باللغة الفرنسية أو الأنجليزية. وطالب الاتحاد كافة المنظمات المعنية بوضع حد لهذا الانهزام الحضاري»[2].

---

(1) مجلة "الرابطة" عدد أوت – سبتمبر 1996.

(2) نفس المرجع.

الفصل الرابع
اللغة العربية بين ادعاءات الأعداء وردود العلماء

ولما كانت اللغة العربية على هذا المستوى الذي ذكرناه من علاقتها الوثيقة بالحضارة العربية الإسلامية ذات الطابع المتميز، فإنه من غير الطبيعي ألاّ تصادفها المشاكل وتعترض طريقها العوائق والمعوقات وتحوم حولها التشكيكات في قدرتها على القيام بدورها الحضاري الذي يجب أن تستمر في القيام به لتبقى حية ولا تتجاوزها الأحداث لتحيلها إلى متحف تاريخ اللغات... كما يرغب الأعداء في ذلك ويعملون كل ما في وسعهم لتحقيقه بكل الوسائل(...).

وسعيا منا لإظهار الحقيقة التي ننشدها بكل موضوعية للغة العربية، سنتعرض لبعض مواطن الضعف المسجل عليها، والاتهامات الموجهة إليها حتى نكون على بيّنة من جوانب ضعفها من جهة، وجوانب التقصير فينا من جهة أخرى نحن الذين قد نظلم هذه اللغة بجهلنا لها، أو بتصديق ما يفتريه أعداؤها عليها، وما يطلقونه من أحكام جائرة ضدها لأهداف خفية قد لا تظهر منها إلا بعض المسحة الخارجية التي تسلب أفكار بعض السذج من أبناء جلدتها، وتجعلهم يرون وجوههم في مرايا مشوهة لهم من هؤلاء الأعداء أنفسهم في مخابرهم، فيظنون أن وجوههم حقا كذلك وهي في حقيقة الأمر مجرد خدعة انطلت عليهم ببراعة ماكر، وكيد غادر...!!

فذلك ما سنتناوله في النقاط التالية، لتحديد بعض جوانب النقص أو الضعف في لغتنا العربية، وشرح أسبابه، ثم طرح الاتهامات الموجهة لها من أعدائها الحقيقيين وأبنائها المزيفين مع الرد عليهم جميعا وعلى أهم الادعاءات والأطروحات بما تتطلبه من تحليل ومناقشة، مع الإقرار بما هو حقيقي منها بكل تجرد وموضوعية...

الادعاء الأول: التضخم في المفردات الأدبية وكثرة المترادفات للمسمى الواحد!

يؤخذ على اللغة العربية كثرة مفرداتها الزائدة عن اللزوم في بعض المجالات الحياتية دون الأخرى، وعيوب هذه الكثرة تتمثل في المترادفات المعروفة للشيء أو المسمى الواحد، مما يجهد القارىء والمتعلم في الاحاطة بكل تلك المترادفات التي قد لا يرى بعض المنتقدين أية فائدة من كثرتها!

ومن ذلك قول المستشرق الفرنسي أرنست رينان: «إن الثراء الخارق للمألوف في المفردات العربية يجر على هذه اللغة من المتاعب أكثر مما يوفر لها من الفوائد، فهو ينتهي الى متاهات تجني كثيرا على الوضوح وأن الإنسان ليشعر بما يشبه الدوار عندما يرى كل تلك المعاني المختلفة والمتضادة تقريبا.. تزدحم في المعاجم العربية حول كل لفظة»[1] والحقيقة أن هذا التضخم الحاصل في المفردات العربية شيء لا ننكره، ويعتبر من مميزات اللغة العربية إلا أن استغلال بعض المتحاملين لهذه الظاهرة، للهجوم على اللغة العربية واتهامها بالقصور والضعف والاستشراف على الموت، باعتبار أن ظاهرة التورم اللغوي هذه (المتمثلة في كثرة المفردات اللغوية الزائدة كما يظنون) هي من صفات اللغات الميتة... يجعلنا نقف عندها لشرح أسبابها وتحديد ما هو فيها حقا، ومنها صدقا، وما هو زائد ومتقول عليها يتطلب تبيان وجوه المغالطة فيه، وهو ما يهمنا هنا بالدرجة الأولى، في سياق هذا الكتاب. وعن شرح أسباب كثرة المفردات في اللغة العربية يقول أحد اللغويين العرب القدامى: «إن لوقوع الألفاظ المترادفة سببين: أحدهما أن يكون من واضعين (وهو الأكثر) بأن تضع إحدى القبيلتين أحد الاسمين، والأخرى الاسم الآخر للمسمى الواحد من غير أن تشعر أحداهما بالأخرى، ثم يشتهر الوضعان ويختفي الواضعان، أو يلتبس وضع أحدهما بالآخر، وهذا مبني على كون

(1) د. حسن ظاظا، كلام العرب في قضايا اللغة العربية، مكتبة الدراسات اللغوية بمصر، 1971.

اللغات اصطلاحية.. والثاني أن يكون من واضع واحد على الأقل وله فوائد منها أن تكثر الطرق الى الاخبار، عما في النفس، ومنها التوسع في سلوك طرق الفصاحة وأساليب البلاغة في النثر والشعر»[1] ويؤكد هذا التفسير أو التبرير العربي القديم، أحد المستشرقين المتأخرين، هو الدكتور إسرائيل ولفنسون حيث يقول في هذا الخصوص: «إن اللغة العربية الباقية هي مزيج من لهجات مختلفة بعضها من شمال الجزيزة، وهو الأغلب، وبعضها من جنوب البلاد، واختلطت كلها بعضها ببعض حتى صارت لغة واحدة، وكانت اللهجات القديمة مختلفة في كثير من مادتها اللغوية ولا سيما في كيفية نطق الكلمات المشتركة. فلما اجتمعت هذه اللهجات وامتزجت وصارت لغة متباينة مثل كلمة (نجم) فأننا نقول في جمعها أنجم ونجوم وأنجام وكلها بمعنى واحد.. ومثل كلمة (أسد) نقول في جمعها: أسود، وأُسْد، وآساد، وهذه الأمثلة تدل على أنها كانت كلها صيغا مختلفة لكلمة واحدة تستعمل في كل قبيلة من القبائل صيغة واحدة منها، فلما جمعت المفردات والصيغ العربية في معاجم الكتب بعد الإسلام، اجتهد اللغويون والأدباء في تخصيص كل صيغة بمعنى خاص، ولكن مع ذلك بقي كثير من الصيغ المختلفة يتوارد على معنى واحد»[2] ويضاف الى هذه الأسباب أن أصحاب المعاجم العربية لم يأخذوا عن قريش وحدها، بل أخذوا عن القبائل الأخرى ألفاظا لم تكن موجودة في لغة قريش وإنما لها مترادفاتها، في هذه اللغة.. كما أن واضعي تلك المعاجم سجلوا كثيرا من الألفاظ المهجورة التي استبدل بها غيرها مع مر الزمن، الأمر الذي أدى الى زيادة المفردات ومترادفاتها في المعاجم العربية.

(1) المزهر في علوم اللغة للسيوطي، دار إحياء الكتب العربية (بدون تاريخ)، ص 404.

(2) تاريخ اللغات السامية، مطبعة الاعتماد، مصر، 1929، ط1، ص 166.

وبالإضافة الى ذلك نعتقد أن كثرة التعريب والاشتقاق، الذي حصل في عصر الازدهار الحضاري للعرب، قد زاد من مفردات اللغة العربية زيادة ملحوظة الى جانب الاستعمالات المجازية التي انتشر تداولها لدى الكتاب والأدباء منذ ذلك العهد..

ونخرج من هذا بحقيقة مفادها أن كثرة المفردات في اللغة العربية هي عيب من ناحية تسليمنا بأن بعض المترادفات لا تحمل أكثر من معنى بذاته (...) ولكن ما يغيب عن الكثيرين من هؤلاء الطاعنين والأدعياء هو أن المئات، بل الآلاف من تلك المفردات التي يظنونها مترادفات.. هي في الحقيقة تحمل دلالات في غاية الدقة (كما سنبيّن بعد حين)، يندر وجود مثيل لها في أية لغة من اللغات الحية على الإطلاق، بشهادة العلماء المتخصصين العرب والمستشرقين معاً (انظر الفصل الثامن). ومن هذا الجانب تعتبر تلك الكثرة من مفاخر اللغة العربية ومن محاسنها، وليست من المساوىء والعيوب التي تؤخذ عليها بأي حال من الأحوال، كما سنثبت ذلك بعد حين، وهنا يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود، ومن ذلك مثلا: أننا نجد مجموعة من الألفاظ التي قد يبدو لبعض هؤلاء السطحيين والجهلة أنها تدل كلها على معنى واحد، وهي متقاربة حتى في النطق، وعدد الحروف كـ: لَدَم ولَطَم ولَكَم ولَحَم، غير أننا عند تحري الدقة نجد جميع هذه المترادفات مختلفة الدلالة في نوعية الضرب، **فلدم**: تعني الضرب بشيء ثقيل يسمع صوته، و**لطم**: تعني الضرب على الخد، ولكم: تعني الضرب باليد مجموعة الأصابع، و**لحم**: تعني الضرب المعنوي (أي الاضرار بالفرد ونيله بمكروه).

ومفردات أخرى مماثلة تدل على الحال، وقد نعتقد أنها مترادفات ذات مدلول واحد، ولكنها في الحقيقة هي مختلفة وفي غاية الدقة، ومثال

ذلك: الكمد، البث، الكرب، الأسى، الوجوم، الأسف، الكآبة، كل هذه الألفاظ تعطي انطباعا عاما للسامع أنها تعني معنى واحدا، في حين أن الكمد: حزن لا يطاق، والبث: الحزن الشديد، والكرب: الغم الذي يأخذ بالنفس، والأسى: الحزن على الشيء الفائت، والوجوم: الحزن الذي يسكت صاحبه، والأسف: الحزن مع الغضب، والكآبة: سوء الحال والانكسار مع الحزن.. وكـذلك الوشم، الوسم، الوشي، الرفرفة، الزفزفة، الحمحمة، الجمجمة، اللسع، اللسب، الخذف، الحدف، القذف، اجلح، أجلى [1].

فكل مجموعة من هذه الألفاظ يعتبرها الكثير من الأعداء والأدعياء مترادفات زائدة لا معنى لها، وهي في الحقيقة تحمل دلالات ومضامين دقيقة تجعلها تختلف عن بعضها البعض بحيث لا يمكن لأية لفظة أن تعوض الأخرى دون أن يتغير المعنى، وحقيقة هذه المفردات عند التدقيق في معانيها في كتاب الله وفي قواميس اللغة العربية المتخصصة نجدها كالتالي:

- **الوشم**: في اليد.
- **الوسم**: في الجلد.
- **الوشي**: في الثوب.
- **الرفرفة**: صوت أجنحة الطائر إذا حام ولم يبرح.
- **الزفزفة**: صوت خفيف للريح الشديدة الهبوب.
- **الجمجمة**: ان يخفي الرجل في صدره شيئا ولا يبديه.
- **الحمحمة**: ان يردد الفرس صوتا ولا يصهل.

(1) انظر (فقه اللغة) للثعالبي و(نشوء اللغة العربية) لأنستاس الكرملي، و(غرائب اللغة العربية) لرفائيل نخلة، و(المزهر) للسيوطي الجزء الأول، و(فقه اللغة) لعبد الواحد وافي.

- **اللسع**: من الحية.
- **اللسب**: من العقرب.
- **الخذف**: بالحصى.
- **الحذف**: بالعصا.
- **القذف**: بالحجر.
- **اجلح**: صفة تطلق على الذي انحسر الشعر عن مقدم رأسه.
- **أجلى**: وأجله، صفة تطلق على الذي انحسر الشعر عن نصف رأسه[1].

ومن مئات الكلمات الأخرى التي تبدو في الظاهر من المترادفات وهي في الحقيقة عند التمعن فيها نجد لكل كلمة فيها معنى في غاية الدقة لا يعوضه لفظ آخر في النص العربي، وعلى سبيل المثال نذكر هذه الكلمات القرآنية التي تبدو مترادفات في الظاهر [*] وهي على العكس من ذلك تماما، ونكتفي هنا بذكر بعض الألفاظ فقط مع تجاوز شرح معنى كل لفظ على حدة، لأن استيفاء ذلك كله يتجاوز حجم هذا الكتاب، ونطاقه، ويخرج عن موضوعه منهجا وغاية[**]، وكنماذج أو عينات من هذه الألفاظ والكلمات التي لا يعوّض بعضها بعضا، لا في كتاب الله ولا في لسان العرب، والتي نوردها هنا على سبيل المثال وليس الحصر، هي:

---

(1) عامر رشيد السامرائي، آراء في العربية، مطبعة العاني، بغداد، بدون تاريخ، ص 77.

(*) علما أن كل ما في القرآن من ألفاظ هو عربي، وليس كل ما هو لفظ عربي نجده بالضرورة مستغرقا في القرآن بطبيعة الحال، وذلك راجع إلى أن منزله تعالى لم يستعمل فيه من الألفاظ إلا ما يحقق المراد من الآية أو الكلمة المنزلّة بدقة وحكمة بالغة. وعليه فإن هذه الألفاظ التي تبدو مترادفة في اللغة العربية عموما، وفي القرآن خصوصا، هي في الحقيقة ليست كذلك، ويمكن لأي باحث أن يتأكد بنفسه من دقّتها المتناهية في أمهات المعاجم العربية.

(**) من أراد التعمق في ذلك، فليرجع إلى برنامج «الكلمة وأخواتها» للدكتور أحمد الكبيسي في تلفزيون دبي، الذي ما يزال يبث أسبوعيا منذ سبع سنوات ولم ينته بعد، وهو للعلم والإنصاف برنامج غير مسبوق في تاريخ العرب، حسب علمنا المتواضع في هذا الخصوص..

1– جرح، اجترح، افترى، اكتسب، ارتكب، اقترف، احتمل، كسب، عمل، فعل، تجانف.
2– جَنَح، مال، زاغ، زيغ، جنَف، حنَفٌ، راغ، عدل، زلَّ، لحد، نكب.
3– خنق، قتل، ذبح، أردى، وقذ، أغرق، صلب، صرع، قضى عليه، نحر.
4– ذنب، خطيئة، سوء، سيئات، فحشاء، إثم، معصية، جرم، منكر، ضلالة.
5– بعُد، أعرض، نأى، شط، ولّى، طرد، هزم، هرب، جفى، اجتنب.
6– صراط، سبيل، منهج، خطوات، سنة، سيرة، دأب، طريقة، أمة.
7– خير، رحمة، رزق، نعمة، منّة، فضل، بركة، إحسان، هبة.
8– ثوب، لباس، جلباب، كساء، خمار، سربال، ريش، صابغ، مزمل.
9– جَعَل، خلق، سوّى، أبدع، أنشأ، صنع، عدل، عمل، فعل.
10– جرى، مرَّ، ركض، سبح، نفر، زحف، انطلق، أفاض، اثّاقل.
11– إمام، صراط، طريق، سبيل، نهج، فجٌّ، جُدَدٌ (ج جادة)، نفق، نجد.
12– بعض، جزء، قسم، نصيب، كفل، حظ، قسط، قط.
13– بطن، أخفى، يعزب، ستر، أسرّ، كتم.، حجب، أكنَّ
14– أيّد، أمدّ، نصر، أعان، مكّن، ثبّت، آزرَ، بعث.
15– جبار، قاهر، متكبر، عالي، مجرم، عتلٌّ، عاتي، طاغية.
16– جثا، جثم، قعد، جلس، اتّكأ، استند، خَلَد، استوى.
17– جذوة، شعلة، لهب، شهاب، قبس، شرر، شواظ، جمر.
18– حديقة، جنّة، روضة، حرث، زرع، نبات، بستان، حقل.
19– خطب، مصيبة، نازلة، دائرة، طامة، بلاء، قارعة.
20– الخفت، المناجاة، الغض، الهمس، الوحي، الحسيس، الركز.
21– خنس، اختفى، غاب، تواري، غرُب، أفل، وقب.
22– خاض، سبح، مخر، ماج، غاص، غرق، طاف.
23– أجر، ثمن، عطاء، جزاء، ثواب، وفاء، فضل.
24– بغي، عدوان، طغيان، ظلم، جور، حيف، جنف.
25– بقاء، دوام، استمرار، خلود، مُكث، ثُوى أو الثواء.
26– تاب، أناب، آب، أسِف، رجع، انتهى، فاء.

27– الشهوة، الهوى، الحب، الشغف، الغرام، الهيام، الودّ.
28– حبس، سجن، إمساك، توقيف، إثبات، حجر، رباط.
29– حبل، وثاق، سلسلة، غِلٌّ، صفد، طوق، قفل.
30– الخبث، الرجس، الرجز، النجس، القُبح، السوء، الفساد.
31– جدار، حائط، سور، ردم، برزخ. حاجز، حجاب.
32– الحديث، القول، الكلام، النطق، اللفظ، الصوت.
33– البر، التفضل، الإنعام، الإحسان، المنّة، الرحمة.
34– جثّ (اجتثّ)، قطع، قلع، نزع، صرم.
35– لا جرم، حقّ، حقيق، حاق، لزم، وجب.
36– أحب، أشاء، أرغب، أريد، أبغي، أبتغي.
37– حجاب، غطاء، غشاء، خمار، نقاب، ستار.
38– صوت، لفظ، نطق، كلام، حديث، قول.
39– إخبات، تضرع، خشوع، لين، اطمئنان، خضوع.
40– ثنّى، عطف، عوّج، قلب، طوى، لوى.
41– بينة، آية، آلاء، برهان، حجة، بصائر.
42– جمال، جميل، حُسنٌ، وسامة، زينة، نضارة.
43– جذب، جرَّ، سحب، سحل، سفع، نتق.
44– أبق، فرَّ، هرب، انهزم، ولى.
45– آثار، أطلال، رسوم، علامات، آيات.
46– آزر، أمدَّ، أعان، أيّد، نصر.
47– بدى، ظهر، طلع، بزغ، برز.
48– اترُك، دَعْ، ذَرْ، تولّى، أعرض.
49– الجليل، الكبير، العظيم، السيد، الوجيه.
50– جهر، أعلى، أظهر، أذّن، أفاض.
51– جاوز، عبر، قطع، سبق، سارع.
52– جِبتٌ، طاغوت، رذل، زنيم، سفيه.

53– جحود، كنود، كفران، نكران، خداع.
54– صام، أمسك، طوى، وصل، حصر.
55– خفّف، سيّر، هوّن، ليّن.
56– أتى، جاء، أقبل، حضر.
57– آتى، وهب، أعطى، أهدى.
58– أنصت، استمع، سمع، أصغى.
59– بعدُ، وراء، خلف، خلاف.
60– بعل، سيد، زوج، صاحب.
61– أتمّ، أكمل، أتقن، أحسن.
62– تاهَ، ضاع، ضلّ، فُقِدَ.
63– جوع، خصاصة، مخمصة، مَسغبة.
64– جمّ، لمّ، شديد، كثير.
65– جن، الأبالسة، العفاريت، الشياطين.
66– جنى، حصد، خضد، قطف.
67– تعس، نكس، سحق، سحق.
68– أبَى، امتنع، رفض.
69– تلا، قرأ، رتّل.
70– جدث، قبر، لحد.
71– حبط، فسد، بطل.
72– أبٌ، والد.
73– أبّ، فاكهة
74– إبل، بعير.
75– أثاث، متاع.
76– أجاج، ملح.
77– بتر، بتك.
78– بعث، أرسل.
79– تترى، متتابع.

ولو تتبعنا القرآن الكريم وهو دستور العربية وقاموسها الأبدي، لوجدناه كله على هذا المنوال، حيث إن كل كلمة فيه موظفة توظيفا محددا بديعا، لا زيادة فيه ولا نقصان ولا إبهام ولا لُبس، ولكل منها معنًى لا يفيده غيرها من الكلمات، ففي قوله تعالى: (ما يلفظ من قول) السالف الذكر في المثال رقم 32، لم يأت بكلمة (حديث) أو (كلام) أو (صوت) أو (نطق) وإنما جاءت الآية بكلمة (قول)، ومعنى كلمة (قول) في الآية كما هو معلوم هو أن الملكين (الرقيب والعتيد) لا يسجّلان كلام الحشو ممّا لا يعني الإنسان، وليس عليه به مسؤولية، مثل: (هل نجح إبنك في الامتحان؟) أو (أين كنت البارحة...؟) إنما الذي يسجله الملكان هو القول الذي يعنيه الإنسان، ويؤثر عليه أو على غيره في الحياة والاجتماع والدين، ويسجَّل في صحيفة أعماله التي سيتلقاها يوم القيامة بيمينه أو بشماله بحسب أعماله الحسنة أو السيئة!!

فالقول: هو كلام مقصود قصدا ومهم جدّا لدى القائل والمتلقي معا، فهو الجزء المحدد من الحديث الطويل، والحديث الطويل هو الجزء المحدد من الكلام الطويل، والكلام الطويل هو الجزء المحدد من النطق الطويل، والنطق الطويل هو الجزء المحدد من اللفظ الطويل، واللفظ الطويل هو الجزء المحدد من الصوت الطويل، وكل كلمة لا تغني عنها رفيقتها، كما نلاحظ ذلك في القرآن الكريم، كلمة كلمة مما ذكرناه من أمثلة ومما لم نذكره وهو الأكثر(*)!!

أما ما يعيبه البعض على اللغة العربية من أن للسيف فيها، أو للأسد أو للعسل أسماء لا تحصى عددا فانه رغم تسليمنا بهذه الحقيقة إلا أنه يجب التنبيه الى أن معظم تلك الأسماء هي صفات للأسد أو للسيف أو العسل

(*) لقد أخذنا عينات هذه الأمثلة من البرنامج «المرئي» المذكور آنفا للدكتور أحمد الكبيسي.

استخدمت مقام الأسماء كـ: الصارم، والرواء، والخليل وذو الكريهة، وذو الفقار، والحسام، والهندواني، والمهند، والصقيل، والأبيض للسيف، والحارث وحمزة والقشعم والضيقم للأسد.. والضرب والذوب، والشهد، والنسيل، والسلوان، والمزج، للعسل، وقس على ذلك الجمل، والصحراء، والسماء، والبيداء[1] وهكذا نلاحظ أن اتهام اللغة العربية بالتضخم، في المفردات التي يقال إنها لا معنى لها، هو في كثير من الأحيان لا يعبر عن حقيقة موضوعية أكثر مما يدل على جهلنا بدقائق هذه اللغة ذات الدلالات المتناهية في الدقة كما حاولنا أن نبين بالأمثلة السابقة من خالق العربية ومنزّل القرآن بها، وحافظه فيها إلى يوم الدين، وهو ما يؤكد لنا ما قلناه بأنها هي أول لغة في الوجود خُلقت مع أول آدمي موجود لتنقل الرسالة الخاتمة لكل الديانات السماوية في الوجود (...).

وفي هذا الموضوع يقول الدكتور علي فهمي خشيم: «يأخذون على اللغة العربية هذه الوفرة الوافرة في ألفاظها وهذه السعة العظيمة في تعبيرها وتركيبها، كأنما هذا سبّة لها وهو مبعث الفخار، أو كأنه نقص وهو عين الكمال. ومبعثه قدم هذه اللغة الكريمة قدمًا لا تنافسها فيه لغة أخرى على وجه الأرض، مكّنها من أن تتدرج في سلم التطور زمنًا بعد زمن، فعاصرت البشرية في تطوّرها منذ بداية نطق الإنسان، فلما اكتملت تخيّرها الله سبحانه لتعبّر عن هدايته للبشر في كتابه العزيز، فعزّت وارتبط وجودها بوجود القرآن، فقال تعالى: **(إنّا نحن نزّلنا الذّكرَ وإنّا له لحافظون)** – وهو ذكر نزل بلسان عربي مبين، وحفظه يستوجب حفظ اللسان الذي نزل به. وهذا ما كان[2]».

---

(1) المزهر للسيوطي، ج1، مرجع سبق ذكره، ص 407 – 409.

(2) رحلة الكلمات، دار إقرأ للطباعة والنشر، ليبيا 1986، ص 19.

الادعاء الثاني: الفقر في المصطلحات العلمية:

التهمة الثانية التي يوجهها الأعداء للغة العربية في الوقت الحاضر هي فقرها في المصطلحات العلمية المعبرة عن مختلف مجالات الحضارة العصرية، وخاصة في مجال الآلات الصناعية وقطاع الغيار لمختلف الأجهزة المخترعة حديثا، والتي لم تلحق المجامع العربية لإيجاد مسميات لها. ومن ثمة يقفز بعضهم إلى اتهام العربية بالعجز الآيل بها إلى الموت المحقق كما يأملون، مع المطالبة بالاستعاضة عنها باللغات ذات الرصيد الصناعي، والتقني، والحضاري في الوقت الراهن، والمسماة حية في عرفهم(*).. والحقيقة أن عدم تناسب المفردات العربية الأدبية مع مفرداتها العلمية والتكنولوجية كما هو واقع بالفعل.. لا يرجع، ولا يمكن أن يرجعه أي عاقل منصف، إلى اللغة العربية في ذاتها أكثر مما يجب أن يرجع الى أهل هذه اللغة أنفسهم، بمن فيهم أعداؤها من بعض أصحاب الدار... كما أسهبنا في تفصيل الحديث عنهم في الفصول السابقة (...)

ذلك أن اللغة في مثل هذه الحال ليست إلا أداة عاكسة متأثرة بما لدى الناطقين بها من مستوى حضاري، ويكفي دليلا على ذلك أن هذه اللغة لم تعجز في أي عصر من عصور تاريخها المجيد عن التعبير عن الجوانب العلمية المختلفة للحضارة التي شيدها العرب المسلمون في عهد نهضتهم السالفة الذكر. وقد وجد العرب في لغتهم طواعية فائقة في التعبير عن أي شيء اخترعوه أو اكتشفوه في عالم الجماد وعالم الإنسان والحيوان والكون بأسره كما يشهد بذلك تاريخ العلوم... ويشهد كذلك حتى بعض الخصوم الحضاريين الموضوعيين المنصفين، للحق والعلم والتاريخ، (كما سنبين ذلك في الفصل السابع). والحق ما شهد به الأعداء! ولاشك أن أية لغة تغنى بغنى أصحابها وتتقدم

(*) راجع على سبيل المثال الفصل الأول للاطلاع على ما قاله الخبير الفرنسي (دُوبياس) عن اللغة العربية لتزهيد الأشقاء التونسيين في تعريب العلوم وترغيبهم في مواصلة التدريس باللغة الفرنسية!!

بتقدمهم وتطورهم، ويؤكد هذه الحقيقة العلمية والمنطقية أحد علماء اللغة الكبار بقوله: «إننا لا نعلم إطلاقا لغة قصرت عن خدمة إنسان عنده فكرة يريد التعبير عنها، فلا ننصت الى أولئك المؤلفين العاجزين الذين يحملون لغاتهم مسؤولية النقص الذي في مؤلفاتهم، لأنهم هم المسؤولون، على وجه العموم عن هذا النقص، ويقول (ديكارت) : «أولئك الذين يفكرون خير تفكير ويهضمون أفكارهم خير هضم ليجعلوها واضحة مفهومة يستطيعون دائما أكثر ممن عداهم، أن يفهموا الآخرين آراءهم ولو لم يتكلموا غير البريطانية» [1].

وعندما نسلم بقلة المصطلحات المعبرة عن المخترعات العصرية في اللغة العربية، فذلك ليس تأكيدا للدعوة الى التخلي عن هذه اللغة إلى اللغات الأخرى الموصوفة بالعلمية، كما ينصحنا الأعداء بذلك، وإنما هو التنبيه إلى المغالطة، وتحديد مسؤولية العجز في الناطقين باللغة العربية من أبنائها العاقّين والعاجزين، وليست في اللغة ذاتها، بأية صورة من الصور، كما أنه لا يمكن أن يقال أن اللغة العربية هي التي تحمل بذور العجز وعدم المسايرة للحضارة العصرية بدليل أنها عبرت عن أرقى الأمور الحضارية في عصرها الزاهر عندما كان أجدادنا أسياد العالم حضاريا لعدة قرون قبل الآن، وحتى في الوقت الحاضر نجد أنه قد مر على إنشاء الكليات العلمية في الجامعات السورية أكثر من سبعين سنة (الأن 2007)، وهي ما تزال ثابتة تبعث على الفخر والاعتزاز لدى كل عربي، بتدريس جميع المواد العلمية في كل الاختصاصات باللغة العربية، وتبرهن علميا وعمليا، على أن اللغة العربية مثل سائر اللغات، لا تعجز عن مضاهاة اللغات الأخرى في تطورها للتعبير في جميع المجالات الحضارية إذا تعهدها الناطقون بها واخلصوا لها [2] وعند أسوأ الفروض

---

(1) جورج فندريس، اللغة، ترجمة عببد الحميد الدواخلي، ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو–المصرية، بدون تاريخ، ص 421.

(2) انظر الأمير مصطفى الشهابي، «المصطلحات العلمية»، معهد الدراسات العربية بالقاهرة، 1959، ص 59.

وأضعف الحجج لا يمكن للعقل العلمي أن ينكر احتمال تكرار شيء في المستقبل، سبق أن تحقق في الماضي على أكمل الصور، وبإمكانات أقل وفرة من الإمكانات الحاضرة، وإن تاريخ الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس لأقوى دليل وشاهد إثبات، عبر العصور من القصور إلى القبور!!

فيكفي هذا برهانا إذن على أنه لا يعقل أبدا أن تحمل اللغة العربية مسؤولية الضعف الحاصل لها في مجال المصطلحات العلمية أو أن تحمل مسؤولية تأخر العرب في المجال العلمي والحضاري (...) وذلك لسبب بسيط، هو أن العرب سبق لهم أن تقدموا بها حضاريا، وهي ما تزال موجودة كلغة دين ودنيا، وقد ساهمت في استيعاب ذلك التقدم ونقلته وحافظت عليه، ولما تأخروا وتجمدوا بعد ذلك لا تملك هذه اللغة أو أية لغة أخرى في العالم (باعتبار أنها منتوج إجماعي، تابع ومتأثر)، إلا أن تقف كالظل حيث وقف العرب في تطورهم العلمي والحضاري، بدليل أنها إن ضعفت أو عجزت أو وقفت، ففي مجال المصطلحات العلمية والتكنولوجية الحديثة، وليس في مجال الشعر، والأدب عموما، لأن العرب توقفوا وتخلفوا في المجال الأول، وواصلوا بعض العطاء «اللفظي» في المجال الثاني، ولعل هذا ما يستوجب أن تكون الخطوة الأولى نحو الازدهار الحضاري والعلمي للغة العربية، هي التي يبدأها الناطقون بها كما فعلوا في فجر الإسلام.

وفي هذا يقول الدكتور أحمد أرحيم هبّو: «لو أمعنا النظر في قواميس كل من اللغات السامية وأحصينا مفرداتها لوجدنا العربية من أغناها على الإطلاق بل تفوق كل مفردات اللغات السامية الأخرى مجتمعة وتكاد تتفوق على أخصب لغات العالم لما تحويه من مفردات وألفاظ تشمل كل مستلزمات الحياة وتعبر عن كل ما يجول في خاطر الإنسان. صحيح أن العربية كانت في الجاهلية وقبل خروج العرب إلى خارج حدود شبه جزيرتهم محدودة الأفق والغايات ولكن خيال البدوي الشاعر كان يتفتق عن أوصاف للطبيعة المحيطة به قلما يستطيع إنسان آخر أن يجاريه في ذلك... صحيح أن العربية في تلك الفترة كانت محدودة الأفق،

والمواضيع التي تشغل بال متكلميها معدودة، ولكن ما أن خرج العرب إلى العالم بموجاتهم العارمة حتى سارعوا إلى استعاب كل ما هو غريب عنهم، وما هي إلا فترة وجيزة من الزمن حتى بدأوا أنفسهم في تأليف المجلدات الضخمة والتعبير عن أدق المسائل العلمية والروحانية ومن ثمَّ استطاعوا أن يحتلوا مكان المعلم في العالم فشاعت كتبهم وانتشرت آراؤهم حتى صار علماء العالم المسيحي الأوروبي يتتلمذون على العلماء العرب في جامعات الأندلس وصقلية مثل البابا سيلفر (Silvester) 999م (Leqnardo de Pisa) خوارزمي الغرب كما يسميه الناس ويدرسون في جامعاتهم كتب ابن رشد (Averros) والرازي (Rhases) وابن سينا (Avicenna) والخوارزمي في الطب والفلسفة والرياضيات وخاصة في جامعة سالرنو في جنوب إيطاليا أم الجامعات الطبية الأوروبية. وهكذا استطاعت اللغة العربية أن تحيط بكل علوم ذلك الوقت وتبدع في التعبير عنها إلى درجة أن عددا من المصطلحات الطبية والكيميائية وعلوم الفلك والرياضيات وغيرها مازالت متداولة في عصرنا هذا في لغات العالم الحديث، وكلنا يعرف أن كلمة (Logaritm) و(Algebra) مثلاً من أصل عربي.. لم يكن العرب هم وحدهم الذين استأثروا بالكتابة باللغة العربية وتأليف الرسائل العلمية فيها وإنما شاركهم فيها أبناء الشعوب الأخرى التي كانت تخضع لسيادتهم وخاصة الفرس كما هو معروف»[1].

وكما فعل غيرهم في بداية القرون ما بعد الوسطى، من الناطقين باللغات المسماة علمية وحية، في الوقت الحاضر، لأن أصحابها تقدموا فقدموا لغاتهم ومكنوا لها سبل الانتشار والسيادة في العالم، أما اليوم فإننا نجد، وفي أحسن الأحوال أن أطيب وأخلص الحكام العرب (من غير الدخلاء والعملاء للأعداء الألداء) ما يزالون غارقين في البحث عن أولية الوجود بين البيضة والدجاجة، أي بين اللغة والتقدم التكنولوجي، واعتقد هنا أن العلاقة بين اللغة والتقدم هي علاقة تكاملية، على أن تكون الخطوة الأولى والمبادرة الأساسية للإنسان قبل

(1) مجلة المعرفة – دمشق– كانون الأول 1976.

اللسان، وللحدث قبل الحديث، وللفعل قبل المفعول، وللزواج قبل الوليد، وللوليد قبل التسمية وللسان، قبل النطق!!

فكيف يستقيم العود والظل أعوج!؟ كيف ننتظر أن تزدهر اللغة العربية وتكثر مفرداتها في المجال العلمي مثل ما هي مزدهرة في المجال الأدبي، ونحن نستهلك ولا ننتج، نقلد ولا نبدع، نتأثر ولا نؤثر، نشتري بالمال ولا نقايض بالأعمال!!

إن الحضارات في الدول المتقدمة تلد ونحن العرب نتسابق مع الزمن لنجد الأسماء للمواليد الجدد، ويا ليتنا تمكنا من القيام بهذه المهمة على الوجه الأكمل وطبقنا ما أوجدنا من مفردات ومصطلحات علمية في المجامع اللغوية بالتعريب الحقيقي كما قلنا، وهو وحده كفيل بإثراء اللغة العربية وتمكينها من الدفاع عن نفسها ضد التهم الباطلة الموجهة إليها، بالعجز عن إيجاد أسماء لمخترعات... كما قال شاعر النيل (حافظ إبراهيم) غير أن ما نلاحظه هو التقصير حتى في اختراع الأسماء واستعمالها، ناهيك من اختراع الأشياء! ثم إن تمكنت المجامع العربية من إيجاد الاسماء لتلك المخترعات والمكتشفات، فهي في واد وواقع الممارسة العربية (السياسية والسيادية لتلك الاسماء المعربة) في واد آخر! فالمجمعيون العرب على اختلافهم يجدّون ويجتهدون في اشتقاق وتعريب الألفاظ المختلفة لإثراء المعجم العلمي العربي، والجامعيون، وقبلهم في المسؤولية الحكام العرب (إياهم) الذين ينسخون تلك الألفاظ المعربة، ويئدونها في معاجمها العربية، قبل أن ترى النور، وذلك ناتج عن عدم تعريبهم المتعمد (وغير المبرر) للفروع العلمية في الجامعات العربية، ومحاربتهم لهذه العملية الحضارية والسيادية في كل أقطار الأمة حتى الآن (كما بينا في الفصل السابق، باستثناء سوريا الشقيقة)، وكأنها هي الدولة العربية الوحيدة في هذا الكوكب التي تقف رادة التهمة على عجز لغة الأمة في مواجهة عجرفة الأعداء الحضاريين الصهاينة منهم ومنا والصليبيين القدماء منهم ومنا، والمعاصرين!!.

الادعاء الثالث:- صعوبة النحو العربي والإملاء:

ومن التهم الموجهة إلى اللغة العربية هي صعوبة نحوها وقواعد إملائها، وفي ذلك يقول البحاثة اللغوي كمال يوسف الحاج: «لاشك أن في النحو فضول قول فيه ما هو متكلف وما يجشم الفكر، فيه من المسائل العويصة ما لا يعود بطائل على ذهن السامع. فنحن نعلم أن في النحو مثل هذا التعجيز، ولا نلوم الذين لا ينظرون فيه ولا يعنون به، وليس يهمنا أمره، فليقولوا فيه ما يشاؤون ولكننا نرفض أن يضرب عرض الحائط بالنحو كله... مقاييس الاعراب ليست كلها من نوع التعجيز، ما كان من هذا القبيل مجه الذوق السليم، وترك في سبيل الرياضة المترفة، ونحن نوافق على تيسير العربية، لكن شرط ألا نتجاوز التيسير الى القضاء على العربية، فهذا أمر خطير للغاية» [1]

وكما نلاحظ فان أمر الصعوبة في قواعد النحو العربي شيء لا يناقش فيه مطلع على الأمور، إلا أن ما يهمنا هنا هو أمر التيسير لهذه القواعد، بما يتماشى مع عصر التخصصات العلمية والانتشار اللغوي المعتمد على البساطة واليسر التعبيري الى أبسط الحدود الممكنة.. ونحن نقر بصعوبة القواعد النحوية العربية بالنسبة لبعض اللغات العالمية الأخرى (كالأنجليزية على وجه الخصوص)، التي خطت خطوات ملحوظة إلى الأمام في سبيل التيسير بغرض خدمة اللغة ذاتها.. ولكن عندما نقر بذلك ونطالب بتيسير الفصحى ونحوها وإملائها بقدر الإمكان، لتساير جميع مناحي التقدم التكنولوجي في عصرنا الحاضر، مما يستلزم أن تختلف هذه اللغة في درجة البساطة عن لغة الزمخشري.. ننبّه ونحذّر هنا (بوضوح) بأن هذا التيسير يجب أن يخدم اللغة العربية ولا يقضي على بنيانها الأساسي، بمعنى أن هذا التيسير والتطوير المنشود، يجب أن تحدد معالمه، كي لا يتجاوزها وإلا بطل أن يكون تطويرا،

(1) فلسفة اللغة، دار النشر للجامعيين، بيروت، 1956، ص 232.

بل انتقل من درجة البناء الى الهدم، ومن درجة العلاج الشافي الى القتل مع سبق الاصرار (...) ونذكر أن الوعي العربي متوفر لدى العلماء العرب، بالنسبة لهذه المعضلة. ولا أدل على ذلك من عقد مجموعة من الندوات والمؤتمرات العربية المتخصصة حول هذا الموضوع كان أولها المؤتمر الثقافي العربي الأول المنعقد في الجامعة العربية سنة 1947، وآخرها ندوة تيسير تعلم اللغة العربية المنعقدة في الجزائر سنة 1976 مرورا بندوات المجامع اللغوية العربية في القاهرة، ودمشق، وبغداد، والتي لا تكاد تخلو جميعها من التعرض لهذا الموضوع. ونكتفي هنا بذكر أهم القرارات الصادرة عن هذه الندوات المتخصصة، والمتعلقة بموضوع التيسير. فمما ورد في قرارات المؤتمر الثقافي الأول بالقاهرة سنة 1947 ما يلي:

1 – يرى المؤتمر أن قواعد اللغة العربية، من نحو وصرف وإملاء، تحتاج الى تيسير وتبسيط يقربانها من مدارك الطلاب، على ألا يمس ذلك بحال من الأحوال جوهر اللغة(...).

2 – يرى المؤتمر ضرورة تدريس قدر من قواعد اللغة (صرفها – ونحوها) في مرحلتي التعليم الابتدائي والثانوي، على أن يراعى في تدريسه التبسيط والتيسير، وأن توجه العناية الى تقويم اللسان على أساس المحاكاة والتدريب والتكرار. ومما ورد في قرارات مجمع اللغة العربية بالقاهرة حول موضوع التيسير منذ تأسيسه حتى الآن ما يلي:

1 – كل رأي يؤدي الى تغيير في جوهر اللغة وأوضاعها العامة لا تنظر إليه اللجنة لأن مهمتها تيسير القواعد.

2 – يبقى التقسيم القديم للكلمة، وهو أنها: اسم أو فعل أو حرف.

3 – يستغنى عن الصيغ المألوفة في اعراب المبنيات وفي اعراب الاسم الذي تقدر عليه الحركات.

4 – يستغنى عن الصيغ المألوفة في الدلالة على العلاقات التي تنوب عن الحركة الأصلية.

5 – يقتصر على الاعراب، ولا يكلف الناشيء ببيان حركة المبني أو سكونه سواء أكان له محل أم لم يكن، اكتفاء بأن المبني يلزم آخره حالة واحدة.

6 – ضمائر الرفع المتصلة بارزة أو مستترة كلها لا محل لاعتبارها ضمائر عند الاعراب، وإنما هي في الضمائر البارزة حروف دالة على نوع المسند إليه أو عدده. أما الضمائر المستترة وجوبا فمصروف عنها النظر [1].

وقد ورد في اقتراحات اللجنة الوزارية المصرية المكلفة بدراسة تبسيط قواعد النحو والصرف والتي كان يرأسها الدكتور طه حسين ذاته قولها: «ترى اللجنة وجوب الاستغناء عن الاعراب التقديري والاعراب المحلي مثل: (الفتى) يعرب بحركات مقدرة، و(القاضي) تقدر فيه حركة الرفع والجر، ومثل (هذا) مبني على ضم مقدر، وكذلك (يا سبويه) مبني على ضم مقدر.. ترى اللجنة الاستغناء عن الاعراب المحلي والاعراب التقديري في الجمل، ويوفر على التلميذ والمعلم والعلم هذا العناء»[2] وورد في مقترحات المجمع العلمي العراقي حول نفس الموضوع:

1 – اعتبار القرآن الكريم وحديث الرسول ﷺ والمأثور من كلام الصدر الأول أغنى المصادر لاقتباس الشواهد والأمثلة.

2 – قصر محاولة التيسير على مرحلتي الدراسة الابتدائية والثانوية.

3 – ان تيسير قواعد النحو والصرف لا يؤدي غرضه المنشود ما لم يقترن ذلك بجهود أخرى في غير ميدان النحو، كالاكثار من دراسة النصوص والمطالعة وممارسة التعبير الشفوي والتحريري (الإنشاء).

---

(1) مسجل ندوة الجزائر، طبع اتحاد المجامع اللغوية العربية، القاهرة، 1977.

(2) المرجع نفسه.

4 – محاولة الجمع – ما أمكن – بين المفردات التي تؤدي معنى واحدا في الجملة العربية، وأن اختلفت اثرا اعرابيا فيما تدخل عليه كأدوات النفي التي تشترك في النفي وتختلف في الأثر الاعرابي.

5 – تضم بعض القضايا الصرفية الى القضايا النحوية حين يكون هناك ارتباط ويؤدي الصنيع الى تيسير. ففي دراسة الفعل تدرس أوزان الفعل المختلفة وما يحدث لها عند الاسناد الى الضمائر مثلا، كما تدرس جموع التكسير عند دراسة الجمع السالم.

6 – تفضيل المصطلح النحوي الدال على معناه بوضوح على غيره مع المحافظة على الصلة بمصطلحات التراث.

وعلى الرغم من هذه القرارات والمقترحات المتعددة التي ظلت تقدم على مر ستين عاما، ما يزال الموضوع مطروحا للنقاش على العرب المعنيين بهذا الأمر الحضاري الحيوي، ولا نجد بدا من ايراد هذه الفقرة المعبرة بإِيجاز عما نتبناه من موقف حول الموضوع برمته.

«إننا نعاني من آثار عصر الانحطاط، إذ لا يزال البعض منا يعتقد على صعيد الفكر المحض بأن باب الاجتهاد قد أغلق نهائيا، أما على صعيد الفكر اللغوي فالتّزمت هنا أشد: إذ لا يزال الكثير منا يعتقدون بأن عصر الاستشهاد قد انتهى، وأن الشواهد التي جمعها سبويه والرعيل الأول من النحاة هي وحدها التي تصل لاستنباط قواعد اللغة» [1].

وعن أهمية النحو العربي، يقول الدكتور رمضان عبد التواب في حوار له عن اللغة العربية ما نصه: «إن اللغة العربية لها عدة مظاهر من بينها الأصوات والصيغ والدلالة والتراكيب، وهو ما أطلق عليه علماؤنا القدماء ظواهر النحو، وأي خلل

(1) من الخطاب الافتتاحي لوزير الأخبار والثقافة الجزائري (الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي) في ندوة تيسير تعلم اللغة العربية المنعقدة في الجزائر، 1976.

في ظاهرة من هذه الظواهر يعَد خللا في اللغة العربية، وخطرا عليها، لو نطقت صوتا عربيا فصيحا بطريقة تختلف عمّا عليه العربية الفصحى، فقد أخللت بنظام العربية الفصحى، مثلما لو أنك نطقت القاف همزة، وقلت: (آل لي أم من مكانك) يعني: (قال لي قم من مكانك)، وكذلك لو أخللت ببنية من الأبنية، فقلت مثلا: (مَخرطة أو مَقصلة) بفتح الميم، فهذا لا يعني المعنى حين يكون المطلوب هو بكسر الميم، ونفس الشيء لو استخدمت كلمة عربية في غير دلالاتها التي كانت عند العرب. فمثلا: لو استخدمت كلمة «برهة» وهي الزمن القصير في مكان تقصد به الزمن الطويل، فقد أخللت بمستوى من مستويات اللغة العربية، وكذلك الحال، لو أخللت بتركيب معين، ووضعت حرف الجر بعد المجرور، أو وضعت النعت قبل المنعوت، فقلت: (الحسنُ الولد) فقد أخللت بنظام الفصحى، وهكذا فكل مستويات اللغة لا يصح الإخلال بها.

إن هناك نظاما لغويا عاما يكمن في عقل كل جماعة، وهذا النظام العام للغة يتحقق في صور متعددة باختلاف الأفراد، وهو ما يسمى بالنظام اللغوي العام، وهذا لحسن الحظ التفت إليه علماء النحو، وعلماء البلاغة، عندما تحدثوا على الحذف، وقد علمت أخيرا أن عالم اللغة الأمريكي ناعوم تشومسكي، قد استعان بشخص لبناني يقرأ عليه كتاب (سبويه)، والمؤكد أنه تأثر في نظريته بالنحو العربي ويريد أن يؤصلها من جديد على ضوء ذلك»[1].

وعن هذه المشاكل المصطنعة التي يفتعلها الأعداء للطعن في قيمة اللغة العربية من الناحية الحضارية والبنيوية والنحوية والصرفية والإملائية ينبري لهم أحد أبناء هذه اللغة وهو أحمد ياسين يزبوز، حيث يقول: «وأقرر حقيقة مرة وهي أن هؤلاء القادحين ليسوا من الذين تصعب عليهم هذه اللغة ويشكون

(1) عن بحث له في جريدة النصر، قسنطينة، 07 ماي 1986.

ضعفا، إذ لو كان الأمر كذلك لهان الأمر وإنما الشكوى من أناس لا يشكون مثل هذا الضعف ولكنهم فئة قد جندوا أنفسهم للإساءة لها لأغراض هادفة بسبب من شعوبيتهم. وليست اللغة العربية هي الهدف وإنما الهدف هو القرآن الكريم والدين الحنيف، ذلك لأن العربية هي لغة الكتاب والسنة وهي لغة الصلاة والدعاء والذكر ولغة الدين والتراث. فهم عندما يكيدون لها يكيدون لكل أولئك ونتيجة لذلك، فهم إما أعداء وإما عملاء لهم أو أنهم ليسوا عربا أو أنهم ملحدون وعلمانيون!!

ويورد الكاتب عدة نقاط يجعلها أعداء هذه اللغة سببا في صعوبة هذه اللغة:

1- كثرة أشكال الحرف الواحد تبعا لمكان الحرف في الكلمة. وخاصة في الهمزة.

2- كثرة الحروف في الكلمة الواحدة.

3- تشابه الحروف في مجموعات مثل الباء والتاء والثاء ومجموعة الجيم والحاء والخاء ومجموعة الدال والذال... إلخ.

4- الحركات.

5- وجود حروف زائدة ترسم ولا تقرأ أو أنها تقرأ ولكن لا ترسم.

ولنقف عند كل نقطة من هذه النقاط:

1- أما بالنسبة للنقطة الأولى فهي خاصية من خصوصيات اللغة العربية ويشاركها في هذه الخاصية بعض اللغات الساميات مثل السريانية.

2- أما كثرة الحروف فهناك في اللغة اللاتينية من الكلمات ما تحوي من الحروف أضعاف ما تحويه أكبر كلمة في العربية.

3- أن الأبجدية العربية تتألف من مجموعات من الحروف تتخذ حروف كل مجموعة شكلا واحدا ولم تعجم وتميز فيما بينها إلا في العصر الأموي، وتحديدا في زمن عبد المالك بن مروان، وهذه الخاصة مشتركة بين عدد من

اللغات الساميات وذلك بسبب تبادل اللفظ بين أفراد المجموعة الواحدة. مثل: (أرص) العبرية هي نفسها (أرض) العربية، والثاء في (ثوم) هي نفس التاء في (توم) والحاء في (حوري) هي نفس الخاء في (خوري) والسين في (سام) هي نفس الشين في (شام) والسين في (مسيح) العربية هي نفس الشين في (مشيح) السريانية والعبرية، والأمثلة كثيرة جدا لاتحصى!!

4- وأما الحركات فشأنها عظيم في الاختصار لأنها توفر علينا كتابة حرف، فكلمة (cut) هي نفس (قط)، فالفتحة هنا جاءت بدلاً من (u)، فإن كنا نستطيع لفظ (قط) دون كتابة الفتحة في العربية فإننا لا نستطيع لفظ (cut) بدون (u) قطعاً.

والحركات هي بالإضافة إلى أنها تدخل في بنية الكلمة فإنها الظواهر الإعرابية (جاء سعيد، رأيت سعيداً، مررت بسعيد) فهي في الأولى فاعل وفي الثانية مفعول وفي الثالثة مجرور، وهي أشد اختصارا مما يوجد في اللغة الروسية أو الألمانية أو اللاتينية، إذ أن شكل الكلمة كله يتغير تبعا لموقعها في الإعراب ويستدعي ذلك استبدال حروف بأخرى أو إضافة حروف، بينما عندنا في العربية تحافظ الكلمة على وضعها والتغير فقط في الحركات وهذه الحركات ليست لمن ألم بالعربية(*).

5- وأما وجود الحروف الزائدة التي ترسم ولا تقرأ، وأخرى تقرأ ولا ترسم فهي شركة بين جميع اللغات وبشكل كبير كما في الفرنسية (est) تلفظ (e) أما السين والقاف فهما لا تلفظان وكذلك التاء في (poignet) فالتاء تكتب ولا تلفظ وكذلك (ent) في (ils content) وكذلك (s) في (ils) لا

(*) يمكن تشبيه هذه الحركات التي طرأت على الكتابة العربية في عهد لاحق على نزول القرآن ووضع القواعد النحوية الحالية لضبط أواخر الكلمات بالشكلات، يمكن تمثيلها بالنسبة للمبتدئين بوضع عجلتين على يمين وشمال العجلة الخلفية للدراجة الهوائية للأطفال حتى يتعلم الطفل كيف يمسك التوازن فوق الدراجة، ثم يستغني عنها تلقائيا لشعوره بأنهما يعرقلانه ويثقلان عليه سيره بالسرعة المرغوبة، وبذلك تكون الشكلات والحركات هي الاستثناء!!

تلفظ أيضا. ومن الشواهد في الأنجليزية أفدح من ذلك بكثير، حيث أن ما يكتب غير ما يلفظ، ويلفظ غير ما يكتب. والحرف الواحد يلفظ بأشكال مختلفة مثل (u) في (put) وفي (cut) وفي (Future).

وبعد كل هذا فهناك من اللغات ما هو أصعب من العربية بكثير مثل الروسية والألمانية والصينية واليابانية والسنسكريتية ومع ذلك فأصحاب هذه اللغات لم يتخلوا عن لغتهم ولا عن حروفهم أبدا.

ولا بد بعد ذلك من التنويه إلى حقائق مهمة:

- إن الأحفاد ملزمون بالمحافظة على لغة الأجداد ومن أجل قراءة وفهم تراثهم الحضاري، وأن العربية تختلف عن كل اللغات فهي:

أولا: لغة حضارة عالمية استوعبت كل ما سبقها من حضارات وكانت نواة مهمة في قيام وتكوين حضارة القرن العشرين.

ثانيا: فهي لغة القرآن الكريم، هذا الكتاب الفذ والفريد الذي لا يماثله كتاب من حيث أنه كلام الله وليس فيه شيء من كلام البشر، فهو الكتاب الأول في المكتبة العربية وهو بالإضافة إلى ذلك المرجع الأول للإسلام وهو آية في الأدب واللغة ليس لها مثيل!!»[1].

ودفاعا عن قواعد اللغة العربية بنحوها وصرفها الحاليين، يقول الدكتور جورج كفوري: «وهنا قد يبدو لسائل أن يسأل: أتريد أن نهمل الإعراب ونضرب صفحا عما وضع من القواعد لحفظ اللغة الفصيحة فتنال العامية منها؟ فأجيب كلا ليس هذا ما أدعو إليه ومعاذ الله أن أقدم على تجريد اللغة من إعرابها وهو حليها وزينتها كما يقولون، أو أن أكون نصيرا للعامية عليها وأعبث بالجهود التي بذلها علماؤها الأعلام من عهد أبي الأسود الدؤلي إلى اليوم في سبيل الإعراب وحفظ حركاته، أما إعرابها فأدعه للأيام تفعل فيه فعلها وهي

(1) عن دراسة في جريدة الشرق الأوسط 22/01/1989.

في دوراتها لاتبقى إلا على ما كان صالحا للبقاء.... أما الإعراب فعلى مافيه من الصعوبة التي سبقت الإشارة إليها لايمكن إغفاله من اللغة الفصحى لأن ذلك يوقع التشويش والالتباس في بعض صور الكلام واللغة من أصل وضعها مبنية عليه فهو والحالة هذه جزء مهم منها إذا زال أخلّ بها إخلالا يصعب تداركه ولكن إذا لم يمكن إزالته فلا يتعذر تسهيله على متعلم اللغة وذلك بنبذ الكثير من الأقوال المتضاربة والمذاهب المرجوحة في المسألة الواحدة من مسائلها. والاقتصار على أصح الأوجه وأسهلها بحيث تتوحد القواعد ويكفى الطالب مؤونة التشعبات التي كانت تشتت ذهنه على غير طائل.»[1].

الادعاء الرابع:- صعوبة الطباعة العربية:

يقول الأستاذ محمد فريد وجدي حول هذا الموضوع: «إن مصاب اللغة العربية بحروفها لا يجوز السكوت عليه، فليس في العالم لغة يعجز عن قراءتها صحيحة، خاصة أهلها غير اللغة العربية. فبينا تجد الطفل في أية أمة من الأمم الغربية يقرأ لغته دون أن تبدو منه لحنة واحدة، تجد لدينا كبار الرجالات لا يستطيعون أن يقرأوا العربية قراءة صحيحة ولا أن يكتبوها كذلك!

ولكنا معشر العرب والمتعربين نحرص كل الحرص على عدم البعد عن العربية على ما كانت عليه في صدر الإسلام ليدوم اتصالنا بالقرآن، وهو حرص نبيل، ولكن هل يعقل أننا مع هذا الالتزام الذي لم تلتزمه أمة في الأرض نهمل كل هذا الإهمال في تسهيل تناول هذه اللغة، فندع حبلها على غاربها يتغلغل إليها الفساد، وتطغى على أهلها العجمة فيزدادون كل يوم عنها بعداً؟»[2].

وكما يبدو من هذا الطرح فإن العربية تتميز بهذا المشكل الذي يجعلها تختلف عن اللغات الأروبية الحالية، ويتمثل في حروفها الملتصقة التي تحول

(1) مجلة «الكشاف»، بيروت، المجلد 3، الجزء 8، تشرين الأول 1929.

(2) مجلة الهلال، س 40 ج10، أوت 1940.

دون سهولة طباعتها، وبالتالي تحول نسبيا دون تسهيل تأدية هذه اللغة لرسالتها كاملة كموصل للثقافة، حيث أنها تضع المطبعة العربية وجها لوجه أمام مشكلة التأليف، سواء في الكتب أو في المطبوعات العربية عموما، وهذا يؤثر بالتالي على اتساع دائرة انتشارها.. والسبب في هذه المشكلة كما هو معروف، هو أن العربية تطبع بحروف متصلة بدلا من الحروف المنفصلة التي تطبع بها مثيلاتها الأوروبيات، حيث أن صندوق الطباعة الأوروبي (وهذا قبل اختراع الحاسوب الحالي الذي حلّ هذا الموضوع حلا جذريا) فيه من الحروف ما لا يتجاوز عدد الحروف الهجائية فعلا، بينما نجد صندوق الطباعة العربية يحتوي كل حرف على ثلاثة أو أربع صور بحسب كتابته في الكلمة هذا الى جانب الحركات التي تزيد التعقيد في هذا المجال.. مما أدى برجال الطباعة الى إخراج الكتب دون الشكل، وهذا ما أحدث مشكلة أخرى أمام القارىء العربي، لا تواجه القارىء الأوروبي، وهذه حقيقة نقرّها ونقبل تبعاتها وهي أن القارىء العربي يتعين عليه أن يفهم الكلمة قبل أن يقرأها في حين أن الوضع المنطقي السليم هو أن نقرأ لنفهم كما هو الحال في اللغات الأخرى أو في الكتابة العربية المشكولة. وهذا الكلام لا يعني المثقفين المتخصصين، أكثر مما يعني جمهرة القراء ذوي الثقافة المحدودة.. وعن هذه الصعوبة الشكلية التي تعاني منها العربية يحدثنا عميد أدبها الدكتور طه حسين.. حيث قال منذ أكثر من سبعين عاما: «أريد أن تكون الكتابة العربية تصويرا صادقا دقيقا للنطق، لا أن تصور بعضه، وتلغي بعضه، لا أن تصور اللفظ وتلغي نصفه الآخر، أريد أن تكون الكتابة مصورة لما نسميه الحروف، أو ما نسميه الحركات تصويرا لا إهمال فيه من جهة، وتصويرا قوامه اليسر والسهولة والسرعة والاقتصاد في الوقت والجهد والمال من جهة أخرى، هذا النحو من الإصلاح إذا تم أغنى كثيرا وأراح من عناء ثقيل، وما حاجة العامة

الى النحو إذا ضمنت لهم الإجادة، وعصموا من الخطأ حين يقرأون ويكتبون، وهذا النحو من الإصلاح إذا تم ولابد أن يتم، حال بيننا وبين ما التجأ إليه الترك وما يدعو إليه كثير من الناس من إلغاء الصعوبات إلغاء، والإعراض عن كتابتنا العربية الى الكتابة اللاتينية، وهنا أحب أن يعلم المحافظون أني قاومت وسأقاوم أشد المقاومة دعوة الداعين الى اصطناع الحروف اللاتينية لأسباب لا أطيل بتفصيلها الآن ولكن هذه المقاومة لن تغني شيئا ولن يشاركني فيها الناس جميعا، إذا نحن لم نسرع الى إصلاح الكتابة لنبطل هذه الدعوة من أساسها ونلغي حاجة الذين يجهرون بها ويلحون فيها» (1).

وفي حديث آخر عن ضرورة إصلاح الإملاء العربي وهو موضوع متصل بمشكل الكتابة والقراءة والطباعة أيضا يقول في مجلة آخر ساعة في عددها رقم: 1178: «سينتهي العرب جميعا الى الإيمان بأن الكتابة العربية يجب أن تصور النطق أكثر مما تصور الوهم. وإذا فرض التعليم على الشعب كله أن يأخذ منه بحظه دون أن يبحث عن أوهام لا يكاد الناس يعرفون لها أصلا، فمن الحق كل الحق أن تكلف الصبية الذين يتعلمون في المدارس (بل جميع المواطنين) يبحثون عن أصل الألف، أهو واو، أم ياء ليكتبوها مرة ألفا ومرة ياء وإنما أيسر أصول التربية أن يكتبوا الألف كما ينطقونها لا فرق في ذلك بين (سعى) و(دعا) كلتا الكلمتين تنطق ألفا فلتكتب إذن ألفا».

وقد طرح هذا المشكل بجرأة نادرة أحد المهتمين بشؤون اللغة العربية وهو الأستاذ عبد العزيز فهمي (الوزير السابق للمعارف بمصر) حيث قال في تقرير إصلاحي له قدم لمجمع اللغة العربية بالقاهرة: «إن للغة العربية الجميلة آفة خبيثة هي رسم كتابتها، إن هذا الرسم على ما في مظهره الآن من جمال، علة العلل، رأس الداء ورأس البلاء، أنه سرطان أزمن، فشوه منظر العربية،

(1) من كتابه «مستقبل الثقافة في مصر»، ج2، ص 326.

وغشي جمالها، ونفر منها الولي القريب، والخاطب الغريب.. إن قراءة العربية برسمها الحالي أصبحت لغزا من الألغاز، وان قارئها، إن لم يكن لغويا نحويا صرفيا في آن واحد، يعجز أن يكون قارئا أو شبه قارىء (!!)

... ورأيت ألا سبيل سوى اتخاذ الحروف اللاتينية، وما فيها من حروف الحركات، فاعتقدت بضرورتها والضرورات تبيح المحظورات، على أني أتعهد بأن أكافىء جهد استطاعتي، من يصل الى طريقة للكتابة العربية، بالحروف العربية ذاتها، كتابة يؤدي فيها الحرف بذاته صورته الصوتية أداء صادقا. ولكن لم أجد حتى الآن الا اقتراحات لولبية تزيد سوء الرسم الحاضر سوءا.. الى أن يقول في الختام: وما كدت أنطق بهذا الرأي حتى هبت صفوف الخاصة والعامة، ممن يساوي، ومن لا يساوي، جماهير هائجة هيجان جماعات الدير، وأرجال الجراد، تعول وتولول، صاخبة، فهل يا ترى كنت مخطئا ما دامت الجماهير من مخاليق الله تقول أني مخطىء!؟».

ونحن إذا أوردنا – بأمانة – هذا الرأي الجرىء، فليس معنى ذلك أننا نؤيده، وإنما نقصد من ورائه إظهار ما يعنينا في الموضوع، وهو إثبات واقع محسوس، متمثل في هذه الخصوصية التي تتميز بها العربية عن غيرها في مجال الكتابة، ويختلف العرب في درجة التهويل من شأنها وخطورتها، مع العلم أننا لا نوافق بالقطع على البديل، وإن كنا نوافق على وصف الواقع وضرورة البحث في طريقة لتسهيل هذا الصعب الذي لا ينكره أحد، في مسألة رسم العربية وطريقة كتابتها الحالية.

وقد علق أحد الكتاب العرب المناصرين لرأي عبد العزيز فهمي، والداعين الى تغيير الحروف العربية الحالية بقوله: «لقد سبقني الى هذا (أي تغيير الحروف العربية) عبد العزيز فهمي باشا في شرح منطقي واقعي بليغ، جعل أعضاء المجمع اللغوي يقرون علانية، على رؤوس الأشهاد، بأن الكتابة العربية

صعبة مربكة، فوافقوه على تشخيص الداء، ولكنهم خالفوه، فيما وصف له من دواء وهو استعمال الحروف اللاتينية معدلة» (1).

والجدير بالتأكيد أن هذا المشكل ما يزال مطروحا منذ الثلاثينيات الى اليوم وسيظل مطروحا مادام العرب لم يجدوا له حلا، غير أن حدة الخطورة تكمن في أن بعض العرب يطرح المشكل عن نية حسنة، بغرض الإصلاح، وبدافع من الغيرة على لغة الضاد، مثل طه حسين (كما عبر على ذلك بنفسه فيما سبق) والبعض الآخر يطرح المشكل طرحا مغرضا لتبرير هدم العربية من الأساس واستباحة دمها على مذبح الحروف اللاتينية السهلة (!).

وقد عالج الأستاذ محمود تيمور هذه المسألة في تقرير له قدم للمجمع اللغوي بالقاهرة في يناير سنة 1951 وفيما يلي مجمل الحلول كما وردت في التقرير مع نقد لما لا يراه موفقا منها في نظره:

أولا: اتخاذ الحروف اللاتينية التي نادى بها أستاذنا المرحوم عبد العزيز فهمي الذي ما لجأ الى المناداة باتخاذ الحروف اللاتينية إلا بعد أن بحث عن طريقة لتيسير الكتابة العربية، مع استبقاء حروفها الحالية، فلم يظفر بها...

ثانيا: اختراع حروف جديدة تحل محل حروفنا الحالية ذات علامات للضبط ملائمة لها...

ثالثا: الابقاء على الحروف الهجائية القائمة، مع اختراع علامات للضبط، يلاحظ في اختراعها أن تكون ميسورة على المطابع، واضحة للقارىء، ثم تلحق هذه العلامات بتلك الحروف، ولا ريب أن حروفنا العربية إذا لحقت بها تلك العلامات على حروف برسمها الحالي المتعدد سيزيد الاشكال تعقيدا وقبحا، كما ظهر ذلك في عدة مقترحات أهمها مقترح عضو المجمع اللغوي المرحوم علي الجارم الذي لم يقره المجمع.

(1) نقلاً عن عثمان صبري، «نحو أبجدية عربية جديدة»، مطبعة الأسكندرية 1964، ص 190.

وهذا المنحى يلتقي هو والحلان، الأول والثاني، في ضرورة الاتفاق بادىء ذي بدء على أن نتنازل عن حروفنا العربية، فيما ألفنا من صورها، وما عرفنا من علامات ضبطها.

رابعا: الابقاء على الحروف العربية وعلامات ضبطها، على أن تصب علامة الضبط مع الحروف في بنية واحدة، حتى لا تحيد عنه، ولا تفلت منه، فتبدو الحروف المطبعية مع ضبطها متصلا بها، ليس بينها من تفاوت، وهذا المنحى تقوم في وجهه عقبتان كلتاهما كأداء: أولاهما فنية والأخرى اقتصادية(*).

خامسا: وضع علامات الضبط بجانب الحروف، منفصلة عنها كالشأن في الحروف اللاتينية لا كما توضع العلامات الآن فوق الحروف أو تحتها، وهذا الحال يقتضي أن تغير أوضاع الكتابة العربية في تركيب الكلمات لكي يكون بعد كل حرف منفسح، تحل به علامة الضبط، وأن يفصل بين حروف الكلمات بهذه العلامات...

سادسا: الاقتصار على الحروف الحالية منفصلة عن بعضها، تسهيلا لوضع علامات الضبط عليها...

سابعا: (وهو مقترح الأستاذ تيمور نفسه) ويتمثل في الاختصار من صور الحروف على صورة واحدة، وبذلك يكون لصندوق الحروف المطبعية عيون لا تتجاوز الثلاثين عينا، فنخلص من تلك العيون التي تزيد على ثلاثمائة...[1].

هذا مجمل المقترحات المقدمة من طرف المجتهدين العرب لحل هذه المعضلة الشكلية، وكما نلاحظ فان جميعها ينقصه الكمال، ولا نجد بدا من إيراد النقد الموجه الى اقتراح الأستاذ محمود تيمور نفسه، وقد قال فيه أحد دعاة

(*) إن هذا الوضع الذي كانت عليه الكتابة العربية في السابق، كما هو معروف، قد تجاوزته التكنولوجيا الحاسوبية الإلكترونية الحديثة وفصلت فيه فصلا تاما ، وقد طُبِّق على كتابة القرآن ذاته بشكل كلماته وضبطها وتلوين حروفها تسهيلا لقراءته لدى العامة قبل الخاصة...

(1) محمود تيمور، «مشكلات اللغة العربية»، المطبعة النموذجية، القاهرة 1956.

إصلاح الكتابة العربية.. «يؤسفنا القول أن مقترح الأستاذ تيمور لا يسعفنا بالحل المنشود لإصلاح الكتابة العربية، وذلك للأسباب التالية:

1 – نبادر بتسجيل عدم رضاء الأستاذ تيمور نفسه عن مقترحه هذا رضاء تاما حيث أن أقواله نفسها تنم عن اعتبار له حلا مؤقتا أو نصف حل...

2 – ان مثل داء الكتابة العربية الحالية كداء يستدعي القيام بجراحة استئصال عاجلة...

3 – ان الأستاذ تيمور يقول: إن مقترحه سينزل بعدد عيون صندوق الحروف المطبعية من نيف وثلاثمائة الى ثلاثين فقط، ويدهشنا منه هذا القول... ان كل حرف سيستدعي لطبعه قوالب بعدد ما سيصيب الحرف الواحد، من شكلات، وهي أولا ثلاث من علامات الاعراب الأربع يضاف إليها ثلاث علامات اعراب منونة، ثم ثلاث علامات أخرى للتضعيف (التشديد) فتكون في مجموعها تسعا، فإذا ما ضربنا هذا العدد في عدد الحروف الثلاثين كان المجموع 270 حرفا!!

4 – وفيما يختص بأمر الكتابة اليدوية فأننا لا نجد مفرا من وصل حروف الأستاذ تيمور لبعضها في الكتابة اليدوية لأنه من غير المعقول أن تكون هناك كتابة يدوية منفصلة الحروف لما تسببه من صعوبة في الرسم وضياع في الوقت، بدليل أن اللاتين أنفسهم لم يتمكنوا من الاستغناء عن إلصاق الحروف بعضها ببعض في الكتابة اليدوية[1] (...)

وهكذا نلاحظ من كل هذه الوجوه التي عولج بها المشكل، أن الوصول فيه الى حل سليم غير ممكن ونعتقد أننا ما دمنا في النقص دائما فمن الأحسن أن نتفادى الأخطر بالخطر والأصعب بالصعب، كما نعتقد في النهاية بأن هذه المشكلة التي تتميز بها العربية، هي ليست بالخطورة التي ينظر إليها بعض

(1) عثمان صبري، «نحو أبجدية عربية جديدة»، المصدر السابق، ص 200 – 207.

المغرضين ولا تعيق النشىء عن التعلّم والقراءة والتقدم العلمي إذا خلصت نيات الناطقين بها، بدليل أن مشكلة الطباعة العربية، ليست بالمشكلة، إذا قيست بمشكلة الطباعة لدى الكوريين، واليابانيين، ومع ذلك فلم يمنع الصينيين، ولا اليابانيين مانع من تحقيق التقدم المذهل في جل الميادين التكنولوجية، وباختصار يمكن القول أنه ليس في الإمكان أحسن مما كان، وإذا كان نشدان الصحة الكاملة مطلبا مشروعا فان تفضيل الزكام على الربو، وتفضيل الربو على السل، وتفضيل السل على السرطان أمر مشروع أيضا وضروري للبقاء.

ونكتفي بعرض هذه المشاكل التي لا مراء فيها من طرف حماة الضاد وسدنته، وإذا كان مشكل الرسم مستعصيا على الحل الكامل الشافي والخالي من المضاعفات الخطرة في الوقت الحاضر، فان حل المشاكل الثلاثة السابقة كلها في يد العرب وبأيسر الطرق إذا ما صحت العزائم، ولعل حلها سيكون له دور كبير في تقبل وتحمل هذا العيب الرابع الذي لم يكن منه بد.. ولندخله في اعتبار المميزات اللغوية التي تميز اللغات الحية عن بعضها البعض، حيث أن لكل لغة خصائص شكلية وبنيوية، فلسفية ونفسية، فلا تكون تلك اللغة كذلك إلا بها، فلنعتبر اللغة العربية متميزة بهذا الرسم كمثيلاتها في الصين واليابان، وباكستان، وإيران، التي لم تمنعها حروف العربية التي تكتب بها لغتها القومية (الفارسية) أن تخصّب اليورانيوم مثل الصين بالصينية وإسرائيل بالعبرية (وكلا اللغتين لها حروف خاصة بها ليس لها علاقة بالحروف اللاتينية التي ينصح أعداء اللغة العربية باستبدال الحروف القرآنية بها) ونعود هنا لنؤكد مرة أخرى بأن العبرة في الإنسان وليس في اللسان!!

وإن أملنا لكبير بأن التقدم العلمي والالكتروني بالذات، سيحسم هذه المشكلة المطبعية في المستقبل باختراع الآلات الدقيقة للكتابة المشكولة وللتصوير الالكتروني، بدلا من الكتابة العادية المتعبة لأولى الكسل من الشعوب!!

ومن أهم الردود على ادعاءات هؤلاء الأعداء الأجانب (والأقارب) حول مجمل التهم المذكورة آنفا، عن صعوبة النحو العربي واستبدال الحروف اللاتينية بحروف الجزم العدنانية وحروف الرسم القرآني (العثماني) الحالية... نورد هذه الباقة من الردود العلمية لبعض أئمة اللغة العربية وسدنتها المدافعين عنها بالقلم واللسان.

يقول إبراهيم اليازجي:«إن السبب الواقعي في هذه الحركة الداعي الى أحداث هذا الانقلاب العظيم في الأمة هو السبب المذكور آخرا، وهو ما يجده الأجنبي في اللغة المكتوبة من الألفاظ التي لا يفهمها إلا المتعلمون وحينئذ كان يجد نفسه أنه لابد له من تعلم اللغتين جميعا، لأنه لو تعلم اللغة العامية وحدها بقيت اللغة الفصحى مبهمة عليه ولو تعلم الفصحى وحدها سمع من الفاظ العامة ما لا يفهمه لأن أدنى تغيير في صورة اللفظة يقف حجابا بينه وبين فهم معناه. والقوم لا يستغنون عن كلتا اللغتين إحداهما للمفاوضات اللسانية والمصالح اليومية والأخرى لفهم ما يكتب ولاسيما في الجرائد السياسية...

ثم يضيف قوله في مكان آخر: «وأما مسألة الكتابة وعدم وجود صور لأصوات الحركات في رسم الهجاء العربي، فمما لا يبالي به بالقياس إلى الأمة نفسها إن كان النظر إليها مجردا ولو كان من أصعب العقبات بالقياس الى الأجنبي الذي يروم تعلم اللغة والقراءة في كتبها. وهذا على الحقيقة من المشاكل التي يعسر حلها لأن للحركات عندنا مقادير لاتتعداها فإذا رسمت بالحروف كما هو الشأن في اللغات الأوروبية جاء لفظ الكلمات منكرا وربما التبس بعضها ببعض فلم يبق فرق بين سلم مثلا وسالم وسليم، إذ يكون بعد السين ألف، وبعد اللام ياء في الكل وقد يجيء ما هو أنكر من ذلك، كما في مثل قتل وقاتل لما هناك من الاختلاف الفاحش في المعنى وحينئذ لا يبقى

(1) مجلة «الضياء» القاهرة. ج9، س3، يناير 1902.

غنى عن وضع علامات تميز الحركة من الحرف فعاد الأمر إلى الشكل وهو يغني وحده بدون الحروف وذلك فضلا عما في التزام التحريك في الرسم سواء كان بالحرف العربي أم اللاتيني من إطالة هجاء الكلمات واقتضاء الكتابة زمنا أطول الى ضعف آخر في الأقل، فجملة ما يقال أن الحركات في العربية لا تكتب إلا بصورة حركات لأن لفظها ليس لفظ الحروف الكاملة ولا هي داخلة في بنية الكلمات وإنما الغرض الأصلي منها الانتقال من مقطع الى مقطع»[1].

ثم يضيف قوله: «بقي أنه على تقدير خروج هذا الرأي الى الفعل فإن ما يتخلص منه الأجنبي يقع فيه الوطني، ونعني بالوطني هنا المسلم الذي هو العنصر الغالب في البلاد، فإنه مع تعليمه قواعد اللغة العامية لايستغنى عن تعلم اللغة الفصحى لإحكام قراءة القرآن وتلقي الحديث وفهم نصوص الشرع المبنية عليهما، ولابد لبلوغ هذه المنزلة من قراءة كتب النحو والبيان واللغة وسائر علوم الأدب، وهذه كلها إن لم يتعملها في مدارس البلاد لزمه أن يتعلمها في مدارس أخرى خاصة، أو يدرسها في منزله وكلاهما لايستطيعه إلا الأغنياء فضلا عما فيه من المشقة وإضاعة الوقت، وكذلك يلزمه أن يتعلم قراءتين إحداهما بالحرف العربي لتلاوة القرآن، لأنه لايجوز له أن يكتبه بحرف أجنبي[*] (إلا عند الضرورة على خلاف) والأخرى بالحرف اللاتيني المصطلح عليه في البلاد لمطالعة ما ينشر فيها من الكتب والجرائد ولدراسة العلوم العصرية التي يرام كتابتها باللغة والحرف المذكورين على ما أشير إليه

(1) مجلة «الضياء» القاهرة. مرجع سبق ذكره.

(*) لا يمكن لأي حرف أعجمي أ يستوعب مخارج القرآن الكريم، وليحاول أي واحد منكم كتابة عبارات قرآنية مثل ﴿**وغيض الماء**﴾ (هود/ 44)، أو ﴿**الآن وقد عصيت قبل**﴾ (يونس/ 91)، أو ﴿**إن بعض الظن إثم**﴾ (الحجرات/ 12) بالحروف اللاتينية أو غيرها... ثم ليعرض ما كتبه على أي قارئ في العالم، وليقارن نطقه لها مع ما نزل به الروح الأمين ، وسيجد الجواب المقنع والمعجز الذي لا يجده في غير لغة الضاد على الإطلاق!!

في التأليف ولا نخال التسليم بذلك كله من الأمور المستسهلة. ومن هنا يعلم المؤلف وغيره أن العربية لا تقاس في ذلك إلا بالطليانية واليونانية إذ ليس في هاتين اللغتين شيء من الأمر الديني الذي أشرنا إليه بل فيما حدث أخيرا في أمر ترجمة الإنجيل إلى اليونانية الحديثة عبرة كافية مع انتفاء المحظور الذي ذكرناه. وبقي وراء ذلك كله ما يترتب على هذا الانقلاب من الخسران الجسيم بضياع ما لا يحصى من كتب العلم والتاريخ وغيرهما، بحيث يتعذر نقل هذه الكتب بأسرها إلى الحرف الجديد ولا يبقى سبيل للأعقاب إلى تناول ما فيها إذا تغير الحرف الذي يقرأون به. ولذلك فالذي نراه لواضعي هذه الطريقة أن يقتصروا فيها على تعليم الأجنبي لغة البلاد ولا يتجاوزوا إلى ما وراء ذلك من التبديل في شؤون الأمة،فإن محاولة هذه الأحداث فيها ليس في شيء من الحكمة ولا هو من الأمورالتي يساعدها الإمكان»[1].

ونظرا لأن أعداء اللغة العربية هم كلهم متفقون فيما بينهم، مشرقا ومغربا، وشمالا وجنوبا، مكونين جبهة واحدة في شنهم للحرب عليها دون هوادة، فقد سعى الاستعمار الفرنسي في بلدان المغرب العربي عموما والجزائر على وجه الخصوص، ومايزال يسعى إلى الآن، بواسطة بعض «وكلائه» إلى وضع الفصحى في المتحف وتفصيح اللهجات الدارجة بما فيها اللهجات البربرية، التي يعتبرها اللغة الحية هي الأخرى، والهدف الأساسي من كل تلك المحاولات الدؤوبة هو تقويض الركن المركزي للأمة أولا على المدى القريب، وإبعاد الناس عن لغة القرآن، وبالتالي تقويض، أو على الأقل إضعاف الوعي الديني والثقافة الإسلامية على المدى البعيد، لما للإسلام من علاقة خاصة بالفصحى، ذلك لأن المسيطر الأجنبي كان يعلم أن اللهجات العامية العربية والبربرية مختلف بعضها عن بعض، وأنها تزداد اختلافا مع انتشار الأمية

(1) مجلة «الضياء» القاهرة. مرجع سبق ذكره.

والتخلف، والاستعمار ذاته الذي حال دون التعريب وازدهار الفصحى لتغذي اللهجات العامية بالمفردات الفصيحة.. فتضطر تلك اللهجات (في حالة الاستقلال عن الفصحى) إلى أن تأخذ مفرداتها من لغات المحتل ذاته، كالفرنسية التي أخذت منها اللهجة العامية الجزائرية ما أخذته الإسبانية من العربية، أو اللهجة المصرية من الإنجليزية والتركية... أو اللهجة الليبية من الإيطالية لتصبح تلك اللهجات بعد جيل أو جيلين أشبه باللغة المالطية بالنسبة إلى اللغة العربية الحالية(!!!).

وتأكيدا لما قاله إبراهيم اليازجي في رفض استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية، ، يقول حسن أفندي رياض: «أما استبدال الحروف العربية الاعتيادية بالحروف الرومانية(الإفرجنية) فلا نرى له نتيجة سوى زيادة التعقيد بتطويل الكلمة وتلبك قراءتها وعندنا أن الرجوع إلى رسم الحركات في الكتابات الاعتيادية أهون من هذا الاستبدال. فضلا عن أن كتابة اللغة بأحرف لغة أخرى لا يكون بالتواطؤ إلا في الأمم التي ليس للغتها قلم تكتب به، ويغلب أن يقع ذلك في لغات الأمم المتوحشة مثل سكان أواسط إفريقيا وأستراليا وأما اللسان العربي فيكفيه شرفا أنه من أرقى لغات العالم إن لم يكن أرقاها كلها. وزد على ذلك أن القلم العربي مابرح منذ بضعة عشر قرنا وسيلة الكتابة في عشرات من اللغات المشهورة في الهند وفارس وتركستان والمغرب وغيرها من البلاد الإسلامية نذكر منها اللغة الفارسية وفروعها وأخواتها مثل الكشمير لغة بلاد كشمير والكومبيكية لغة داغستان والكردية في كردستان وغيرها واللغة التركية وأخواتها وفروعها مثل لغات القرم والتك وقازان وسائر تركستان وماوالاها. واللغات الهندية وأشهرها اللغة الأوردية الشائعة في الهند الأنكليزية واللغة الداخانية في مدراس والملقية في ملقة والسندية في السند وغيرها من لغات الهند الإسلامي. ناهيك بلغات البرابرة في المغرب الأقصى

ومنها اللغة الشلحية والبربرية وغيرهما. ولغات أواسط إفريقيا وسواحلها ولغة كل مدينة إنتشر فيها الإسلام – فكيف نرى الناس يتخذون القلم العربي قاعدة لكتابة لغاتهم ونعدل نحن عنه إلى الحروف الإفرنجية بغير أن نرى داعيا إليها ولا فائدة منه. وأقل ما يقال فيه أنه مخالف للعدل العام ومناقض لمجاري النواميس الطبيعية ومجهز على الأمة العربية.»[1].

وفي رده على جريمة كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية، يقول الباحث إلياس عبده القدسي: «اللغة مستقلة تمام الاستقلال عن صور الحروف التي تكتب بها، فالعربية مثلاً قد كُتبت بالخط الحميري والكوفي والبغدادي والسرياني والمغربي وكلّ من هذه الخطوط قد تحوّل على صوَر شتى كما هو معروف إلى يومنا هذا ولم يضرّ ذلك باللغة ولا استنكف منه أهلها.

والإفرنج الذين كتبوا الكلمات العربية بحروف إفرنجية لم يعتمدوا على طريقة واحدة في كتابتها، بل جروا على طرق شتى وقد تفحصنا طرقهم فوجدنا أنها كلها لا تفي بالغرض لسببين كبيرين الأوّل أن ما يصطلح عليه الانكليزي ويحسبه موافقًا للنّمط العربي لا يوافق الفرنسي والايطالي لأن لفظهما يختلف عن لفظ الانكليز. خذ مثلا لذلك كلمة بَيْرُوت فالفرنسيون يكتبونها Beyrouth فإذا أراد الانكليز أن يلفظوها لفظوها بَيْرَوْت ولذلك يحذفون حرف h منها لكي لا يلفظون التاء ثاء بحسب قوانين اللفظ في لغتهم أو يكتبونها Beirût وهذه يلفظها الفرنسيون بَيْريت. وقس على ذلك أعلاما أخرى كثيرة لا يتفق في كتابتها كاتبان من كتّاب الإفرنج ولو كانا من أهل لغة واحدة وهذا سبب التحريف في الأعلام العربية المنقولة إلى لغات الإفرنج.

والسبب الثاني أن للعربية حروفا لا وجود لها في اللغات الإفرنجية كالخاء والعين والغين ولذلك اضطرَّ أصحاب هذه الطرق أن يخترعوا لها حروفًا جديدة

(1) مجلة «الهلال»، القاهرة ج/9 السنة 10 – شباط 1902.

وجروا في ذلك على أساليب شتى بعضهم استعار حروفًا من اللغة اليونانية والروسية وبعضهم أضاف إلى الحروف الإفرنجية نقطًا وعلامات أخرى وضعها فوقها أو تحتها أو قاطعها بها مما يضطرُّ أصحاب المطابع أن يصنعوا له أشكالا جديدة.

أما السبب الأول فلا يمكن ملاقاته بوجه من الوجوه، لأن شعوب أوروبا تختلف في لفظ كثير من حروفها. والحروف التي لا تختلف في لفظها مفردة قد تختلف في لفظها مركبة فحرف t إذا أُلحق بحرف h لفظهُ الانكليزي ثاء أو ذالاً والفرنسيون قد لا يلفظونه أبداً وحرف o إذا ألحق بحرف u لفظهُ الفرنسيون أُوَ والانكليز أَوْ فإذا أُريد كتابة العربية بحروف إفرنجية وجب أن لا يُلتفَت إلى اختلاف الإفرنج في لفظ الحروف الإفرنجية بل تعتبر هذه الحروف صوراً أخرى للحروف العربية كما أن الخط الكوفي والحميري هما صورتان أُخريان للخط المصطلح عليه الآن وحينئذ تلفظ الحروف الإفرنجية في الكلمات العربية كما تلفظ الحروف العربية التي أبدلت بها حتى لو كتبت الباءُ بصورة m لوجب أن تلفظ هذه الصورة باءً لا ميمًا وذلك ليس بضائر إذ ليس الغرض أن يقرأ الإفرنج العربية من مجرد نظرهم إلى كتابتها بل أن يتسهل عليهم وعلى العرب كتابة الكلمات العربية بحروف إفرنجية. ألا ترى أن الفرنسوي والانكليزي يكتبان بحروف واحدة لكن الانكليزي لا يستطيع أن يقرأ الكتابة الفرنسوية ما لم يتعلم قراءتها تعلُّمًا وكذلك الفرنسوي لا يستطيع أن يقرأ الانكليزية ما لم يتعلم قراءتها وهذا يتناول قراءة الاعلام أيضًا على غير المنتظر فإنه قلما يوجد عَلَمٌ يلفظهُ الفرنسيون كما يلفظه الانكليز خذ مثلاً كلمة Darwin فإن الانكليز يلفظونها دَارْون بمد الصوت على المقطع الأوّل والفرنسويين يلفظونها دَرْفين يجعل الواو فاء ومدّ الصوت في المقطع الثاني وبين اللفظين بون شاسع. ولم يحاول أحد من علماء الانكليز ولا من علماء الفرنسويين أن يكتب هذا العلَم أو غيرهُ على صورة يكون لفظها واحداً في اللغتين، فمن العبث أن تحاول كتابة العربية بحروف

إفرنجية تلفظ كما تلفظ الكلمات العربية تمامًا[*]، ولكن بما أن لفظ كثير من الحروف الإفرنجية يماثل لفظ كثير من الحروف العربية فالأولى أن تكتب هذه بصورة تلك فتكتب الميم بصورة حرف m والنون n وهلمَّ جرًّا»[1].

وعن رده على دعاة استبدال الحروف اللاتينية بحروف الجزم القرآنية، يقول الأستاذ ضياء الدين أديب: «ينعي المخربون على اللغة العربية تعدد أشكال الحروف منها ويسكتون عن تنوع الحروف اللاتينية بأشكالها وألوانها. وإذا عددنا الحركات العربية نجدها (فتحة، كسرة، ضمة، سكون، شدة،) يجمعها لفظة (محلقات) حروفها ستة، وحركاتها خمسة. وإذا اعتبرنا الحركة حرفًا تبلغ أحد عشر حرفًا.

وبهذه الصورة المختصرة الجميلة تقرأ هذه الكلمة وتلفظ كما يقتضيه اللسان العربي لفظًا ووضعًا بلا حاجة إلى جعل التنوين نونًا، لنكتب (محلقاتن) أما إذا أردنا كتابة هذه الكلمة بالحروف اللاتينية لكانت هكذا:

(Mouhallikaton) عددها 12 حرفًا ولكنها تقرأ (مهلكات) لإعادة معنى هذه الكلمة إلى ما وضعت له يجب أن توضع علامتان للهاء والكاف للدلالة على أنهما، ح، وق. فيكون مجموع الأحرف اللاتينية لهذه الكلمة خمسة عشر حرفًا أي بزيادة 40 بالمائة من عدد الحروف العربية و 50 بالمائة أو أكثر من حيث اختصار الأحرف العربية المتصلة عن الأحرف اللاتينية، منفصلة كانت أو متصلة. فإذا فرضنا أن شخصًا تعلم الحروف اللاتينية بشهر وآخر تعلم الحروف العربية بثلاثة أشهر وكتب الأول مؤلفا على ألف صحيفة ثمنها مائة قرش بمدة خمسة أشهر لاستطاع من يكتب بالأحرف العربية أن يكتب نفس هذا المؤلف على خمسمائة صفحة بمدة ثلاثة أشهر أو أقل... فكم تكون خسارة من يكتب بالأحرف اللاتينية مدة حياته؟ فإذا وفّر تعلم الحروف

---

(1) مجلة «المقتطف»، القاهرة، ج 4 مجلد 13، كانون الثاني 1889.

(*) انظر تعليقنا في هامش ص 168.

اللاتينية شهرين من عمر صبي على تعلم الحروف العربية، نضرب باختصار الأحرف العربية وجمالها عرض الحائط؟

ونستهين بالأوقات والأموال التي تذهب ضياعًا؟

والذين يكتبون بالأحرف العربية يعدون بالملايين، والوقت نقد والثروة لها أهميتها لدى الأمم والشعوب.

ثم إن الحروف اللاتينية التي عددها 24 حرفًا لا حاجة لعشرة منها في اللغة العربية للاستغناء عنها باخوتها وهي y x v u p o g e e فلا يبقى من الأبجدية اللاتينية إلا أربعة عشر حرفًا مع أن الحروف العربية ثمانية وعشرون فعلى هذا يقتضي خلق أربعة عشر حرفًا من جديد ووضع علامات لبعضها ليمكن كتابة الألفاظ العربية بمخارجها الصحيحة. كل هذا التكلف وكل هذه الضجة لأجل الحركات العربية، وهي أخصر وأجمل وأكمل ألف مرة من الحروف التي نضطر لخلقها من جديد وإذا صادف مسعود أفندي رفقاءه يوم سفره إلى الجزائر يكتبون بالأحرف اللاتينية كلمة أو كلمتين في مذكراتهم، فهذا لا يصح أن يكون حجة بأن الكتابة بالحروف اللاتينية أسهل من الكتابة بالحروف العربية»[1].

ونفس الموقف من دعاة استبدال الحروف العربية يتخذه الأستاذ موسى الحسيني، حيث يقول في هذا الخصوص: «تلي قضية الفصحى والعامية في الخطورة والذيوع، قضية الحروف العربية، وضرورة استبدال الحروف اللاتينية بها.

والمشكلة التي ما فتئ الباحثون – أو على الأصح – الداعون إلى هجر الحروف العربية، يثيرونها، ذات شقين: "الأول تعذر ضبط الكلمات حين تكون مجردة من الشكل "علم" و"كتب" و"مصر" إلخ... والثاني اعتماد المعنى على الشكل، الأمر الذي يقتضي فهم قواعد اللغة العربية قبل استنباط المعنى. وقد عبر عن ذلك قاسم أمين بقوله: «في اللغات الأجنبية يقرأ الإنسان ليفهم. أما في اللغة العربية فيجب أن يفهم الإنسان ليقرأ».

(1) مجلة «المرشد العربي» الجزء 1، السنة 1، اللاذقية، 10 نيسان 1929م.

ولا بد من الإشارة إلى أن هذه الصعوبة مبالغ فيها، لأسباب:

أولاً: لأننا حين نضرب الأمثال على تعدد وجوه اللفظ الجائزة ننتزع الكلمة من الجمل ونعرضها في شكل مبهم، مع أن الواقع أن الانسان لا يتكلم ولا يقرأ كلمات متقطعة، منفصلة بعضها عن بعض، والقرينة في الكلام والقراءة تزيل كثيراً من الابهام وتعين على تقرير وجه من وجوه الشكل دون آخر. مثل ذلك لفظة "علم" في الجمل الآتية:

- يتبين لي أن علم الأستاذ واسع.
- علم فلان بمرض أخيه فحزن كثيراً.
- علم الوالد ابنه كيف ينبغي أن يجلس مع الزائرين.
- علم الدولة يرفرف ابتهاجًا بعيد الاستقلال.
- علم أن طائرة سقطت في البحر.

والسبب الثاني من أسباب المبالغة في تقدير الصعوبة، ربط الحركات ربطًا كليًا بفهم المعنى. فقد يُتوهم أنه إن أشكلت الحروف اتضح معنى الكلمات وزال الالتباس. والواقع أن القارئ يفهم ما يقرأ في الغالب دون أن يحسن نطق الكلمات ودون أن يعرف حركاتها الإعرابية. وأكثر المتعلمين اليوم يلحنون، وهم مع ذلك إن قرأوا جريدة أو كتاباً فهموا ما يقرأون، ولم يحُل فقدان الحركات وجهل القواعد دون فهمهم.

على أن تجريد الصعوبة من المبالغة التي ذكرتها لا ينفيها. فإني اتفق مع القائلين بأن الصعوبة موجودة بلا شك، ولكني لا أراها ناجمة عن فقدان الشكل، بل عن عوامل أخرى أجملها فيما يلي على وجه الاختصار:

أولاً: الاختلاف الكبير بين لغة البيئة في أصواتها وألفاظها وتراكيبها ولغة المدرسة، فالطالب يتعلم ويقرأ لغة بعيدة عن استعماله ومألوفه. وبما أن لغته العامية أشد تمكنًا من نفسه ولسانه فإنها تفسد لغة الصنعة فيتولد اللحن وفساد التراكيب.

وعلاج هذه المشكلة لا يتأتى إلا بتوحيد اللغتين. وما نلحظه من ضبط بعض الأوروبيين نطق لغاتهم يعود إلى سماعهم ذلك النطق في بيئتهم الخاصة والعامة، ولو كان لهم لغتان متباينتان تباين لغتينا لحاروا حيرتنا، ولحنوا لحننا»[1].

ثم يضيف قوله: «بقي أن توازن بين الربح والخسارة في هذه القضية.

أولاً: إن من المسلم به أن الحروف اللاتينية كما هي الآن عاجزة عن تأدية الأصوات العربية تأدية تامة. ذلك أن في العربية أصواتاً كثيرة لا مثيل لها في اللغات الأوروبية، ولا رموز لها في الحروف اللاتينية. مثال ذلك ال ح، خ، ق، ص، ط، ظ، ع، غ. ولا بد لأدائها من حروف نلتمسها في غير الحروف اللاتينية.

يضاف إلى أمر أدق، وهو أن الحروف الصائتة (حروف العلة) في اللاتينية لا تميز بين الصوت الطويل والصوت القصير. ولدلك نجد المعاجم الانكليزية ترسم رسماً صوتياً بالإضافة إلى الرسم المصطلح عليه، لإرشاد الباحث إلى طول الصائتات وقصرها، وإلى فروق أخرى بين رسم الصامتات ونطقها[*]. ويظهر أنه ليس لطول الصائت وقصره دلالة لغوية أصلاً. أما اللغة العربية فلطول الصائتات وقصرها فيها دلالة لغوية. مثال ذلك قَتَلَ وقاتل، فالفرق الصوتي بينهما قصر الصائت بعد القاف في قتل ومده بعد القاف في قاتل. وهذا الفرق الصوتي ذو دلالة لغوية، كما لا يخفى، تظهر من الفرق بين فعل (قتل) وفعل (قاتل)، و(كتب) و(كاتب) إلخ.. وبسبب هذه الدلالة رسمت الصائتات الطويلة بما يعرف بحروف العلة وأثبتت في صلب الكلمة، ورمز إلى الصائتات القصيرة بالحركات، وأهمل رسمها في بدء الكتابة، ثم أثبتت. ولكنها ظلت فضلة تستعمل حيناً وتهمل حينا آخر.»

-**ثانيا**: "إن رسم العربية باللاتينية يضيع على القارئ تبين اشتقاق اللفظ الذي يقرأه. فإذا عسر عليه صار اللفظ عنده بمنزلة المجهول الذي لا نسب له، وصار فرضاً عليه أن يعمد إلى رسم المادة الواحدة من اللغة في جميع

(1) كتاب «أزمة الفكر العربي»، دار بيروت، 1954م.

(*) كل كلمة من القاموس الأنجليزي نجد لها صورة لنطقها بطريقة مخالفة لكلمة أخرى مشابهة لها تماما في الكتابة، مثل: Put ، But.، Futur، cultur.

صورها التي تكون في السياق العربي، ثم عليه أن يحاول تقريب الشبه بالذاكرة الواعية، ثم عليه إن يحفظ معاني ذلك كله. فإذا كان هذا شأنه في المادة الواحدة فما ظنك باللغة كلها؟

يومئذ تصبح العربية أجهد لطالبها من الصينية ! نعم، وإذا ضل عن تبين الاشتقاق والتصريف فقد ضل عن العربية كلها، لأنها لم تُبنَ إلا عليهما. وهي من هذا الوجه مخالفة لجميع اللغات التي تكتب بالحروف اللاتينية، لأن الاشتقاق والتصريف يعرضان لها من قِبَل بناء الكلمة كلها، حتى تختلف الحركات على حرف في كل بناء مشتق أو مصرّف، ثم يزيد عن ذلك ما يدخل على الكلمة من جميع ضروب الحروف العاملة وغير العاملة، ثم علل البناء والحذف... إلى آخر ما يعرفه كل مبتدئ في العربية.

مثال ذلك لو كتبنا «كاتابا ياكتوبو، في الماكتابي، كتابن» بدل: كتب، يكتب، في المكتب، كتاباً" لالتبست مادة الفعل، وهي أصل الاشتقاق العمدة في التصريف، وظهرت في صورة تلبس الأصلي بالزائد َ ولهذا كان خيراً أن تشكل الكلمات العربية شكلاً خارجاً عن بنية الكلمة.

ثالثًا: إن الكتابة بالحروف اللاتينية لا تمنع الكتاب المختلفين أن يكتبوا الكلمة على صور مختلفة كلها خطأ وخروج على القواعد اللغوية. ومن هنا يشيع التبلبل في الألسنة ويتقرر بتسجيله في الكتابة والطباعة بدلاً من تركه محتملاً للقراءة على الوجه الصحيح. والخطأ في النطق أهون من الخطأ المكتوب أو المطبوع، لأن كنابة الخطأ تُبقي خطأ النطق وتزيد عليه أنها تسجله ونضلل من عسى أن يهتدي إلى الصواب»[1].

ودفاعا عن الحرف العربي القرآني الرباني الحالي، يقول الأستاذ محمد مسعود: «فإن الحقائق المشهودة متواطئة على أن للحروف العربية ميزة لم تتوافر قط ولن تتوافر في حروف اللغات الأخرى وهي تسهيل النطق بالكلمات

(1) كتاب «أزمة الفكر العربي»، مرجع سبق ذكره.

على ما تقتضيه العوامل التي تنفعل هي بها متى كان القارئ ملمًا إلماما كافيًا بنحو اللغة وصرفها ومتفطنًا إلى الأخذ بأطراف قواعدها لتطبيقها عند المطالعة، وكان مع هذا وذاك وافر المحصول من مفردات اللغة وواقفًا على وسائل ضبطها تبعًا لتلك العوامل..(*) وهذه صفة مفروض توافرها في كل من تلقى العلم ودرس وسائل اللغة لضبط لسانه وتقويم بيانه.

فإذا لم يكن على نصيب كاف من هذه الوسائل فحسبه بعض الحركات توضع على حرف واحد أو حرفين في كل بضع كلمات مرشداً إلى الصواب في النطق وواقيًا على كل حال من مزالق الأخطاء. وتلك الحركات التي لا تعدو حركات الضم والفتح والكسر وما يتبعها من مد وتشديد ويعدلها في اللغة الفرنسية ما يسمونه accent circonflex e, accent grave, accent aigu, tréma . تكفل ضبط النطق بالكلمات طبقًا لقواعد اللغة، فضلاً عن أنها تبقى لهذه الكلمات ميزة الاختصار، بل الاختزال الذي خلت منه الكلمات الفرنجية بسبب أن الحركات فيها تمثل بحروف تجعل الكلمة الواحدة مؤلفة من 21 حرفًا كما في كلمة constitutionnellement الفرنسية التي لو أردت تمثيلها بالنطق العربي لما تجاوز عدد حروفها أحد عشر حرفًا هكذا "كنستتسينلمن" إذ يغنيك عن الحروف العشرة الباقية منها في اللفظ الفرنسي بضع حركات تضعها على ثلاثة أو أربعة من حروفها. وفي هذا مثل مقنع بفساد تلك المحاولات ونذير بما ينتظرها من فشل محقق وخيبة مؤلمة وقاطع بأن الحروف العربية والكلمات التي تتألف منها في غير حاجة إلى ذرة من التغيير والتبديل، وأنها كما طوت القرون حافظة لقوالبها التي أفرغت فيها ستطوى أمثالها وأمثال أمثالها حافظة لكيانها الذاتي الذي هو سر من أسرار جمالها وبقائها على وجه الدهر»[1].

(*) تجدر الإشارة هنا إلى أن الكسل في العقول وليس في اللغة، بدليل أن هذه اللغة لم تعجز قط في تاريخها عن إنجاز حضارة رائدة لعشرة قرون بنفس الحروف والشكل والنحو، فضلا عن أن القراءة من غير شكل تدرب العقل على التفكير، مثل تدريب حفظ القرآن للذاكرة على الحفظ، فكلاهما متكاملان!؟

(1) مجلة الهلال، س 40 ج10، أوت 1940» .

الفصل الخامس
العلاقة العضوية بين الإسلام واللغة العربية

إن أهم وأقوى عامل للمحافظة على أية لغة في العالم وانتشارها، هو الدين المرتبط بها، وإن الحديث عن علاقة اللغة بالدين يتطلب المعالجة في شقين اثنين: الشق الأول يتناول الحديث عن علاقة اللغة بالدين على وجه العموم، كالعبرية بالنسبة للتوراة، واللاتينية بالنسبة للأناجيل، والعربية بالنسبة للقرآن الكريم... والشق الثاني يتناول علاقة اللغة العربية بالإسلام بصفة خاصة، والتي تتميز بها عن علاقة بقية اللغات الأخرى بالديانات المرتبطة بها...

وإن المنهجية العلمية تقتضي منا هنا الانتقال من العام إلى الخاص، أي من الحديث عن علاقة اللغة بالدين عموما، إلى علاقة اللغة العربية بالدين الإسلامي على وجه الخصوص، لخدمة الحقيقة والعلم والتاريخ وحاضر لغة الأمة ووحدتها ومستقبلها.

علاقة اللغة بالدين عموما:

1– إن الأديان مهما اختلفت أنواعها (سماوية كانت أو وضعية) هي عبارة عن مجموعة من القواعد الضابطة لسلوك الفرد مع نفسه ومع الجماعة البشرية التي ينتمي إليها، ومن حيث هي كذلك (أي الأديان) فهي تتطلب بالضرورة الاستعمال اللغوي في الدعوة لها وفي ممارسة طقوسها وشعائرها، بل في اعتناقها، كالتشهد في الإسلام مثلا.

2– يؤثر الدين في اللغة ببعض الخصائص التي يتميز بها، ومن هذه الخصائص الرموز التي تحمل الدلالات، ولا توجد بنفس المعنى في غير النطاق الديني، ككلمة (أحد) التي ترمز إلى الوحدانية وكلمة (الخلود)،

و(الصراط) و (الحساب والعقاب) ... والرموز الحرفية مثل: (ألف، لام، ميم) و(يا سين)، في القرآن الكريم!

فهذا النظام الرمزي في لغة الدين له تأثير ظاهر في النظام اللغوي عموما، حيث يغير مدلول كلمات أو يضيف دلالات جديدة إلى اللغة السائدة، مثلما تفعل السياسة تماما كما هو معلوم[1] ...

3- من خصائص الدين أنه يتعلق بمبادئ وقيم ثابتة، وبكائن علوي أبدي، والاتصال بهذا الكائن العلوي الأبدي أو اتصال الكائن العلوي بالكائنات الدنيا يتم بوسيلة الاتصال التي هي اللغة، ومن ثم يكون الدين من أقوى الوسائل المحافظة على اللغة، ونجد ذلك واضحا في لغة الأدعية مثلا، وأسلوب التضرع إلى الله ... الذي لا يكاد يتغير في جميع الديانات منذ ظهورها، مع أنه كلام بشر، ويجوز الاجتهاد في تغيير أسلوبه (نقصد هنا الكلمات التي تصاغ بها الأدعية إلى الله)، ومن الأمثلة البارزة على ذلك: اللغة العبرية التي زالت من التداول منذ أكثر من عشرين قرنا كما هو معلوم، ولكنها بقيت محفوظة كلغة خاصة بفضل علاقتها بأسفار التوراة التي ظل اليهود يحافظون عليها حيثما حلّوا وارتحلوا في أقطار العالم إلى أن فرضوا وطنا (قوميا) لهم في منتصف القرن العشرين على حساب حقوق أهله الشرعيين (...) فوجدوا وسيلة الاتصال قائمة بين اليهود- على ضعفها- فعملوا على تقويتها، وإثرائها بالمفردات العلمية لتساير العصر، وليجعلوا منها إحدى دعائم القومية اليهودية وإحدى وسائل الاتصال بين أشتات اليهود من سلالات البشر المختلفة، ويمكن القول بأن اللغة العبرية هي اللغة الوحيدة في العالم التي عادت إلى وضعها الصحي الطبيعي بعد جمود أو خمود دام أكثر من عشرين قرنا!

(1) انظر كتابنا «مصير وحدة الجزائر، بين أمانة الشهداء وخيانة الخفراء!!»، دار الأمة، الجزائر 2005.

ونفس الكلام يمكن أن يقال عن اللغة العربية، فلو لم يكن القرآن هو حافظ اللغة العربية لتغيرت كثيرا عما هي عليه الآن، ولو فرضنا أن كتب التوراة أو الإنجيل أو القرآن أنزلت بلغات أخرى (غير ما أنزلت به فعلا) لوجدنا هذه اللغات مستعملة حتى يومنا هذا على أية درجة من الدرجات، أو أية صفة من الصفات.

وعن هذه العلاقة التي تربط بين الدين واللغة يقول الدكتور أحمد أرحيم هبّو: «أما العبرية فإنها بدأت في التراجع والاختفاء كلغة حية من العصر اليوناني الهيليي ولكنها بقيت لغة الدين والمدرسة قرونًا طويلة...»[1].

وعن اللغة الآرامية وعلاقتها بالمسيحية، يقول الدكتور أرحيم هبّو: «وإن كانت لا تزال حية في بعض البقع من شمال العراق وسورية وحول بحيرة أورمية في إيران ولكنها ليست نفس اللغة السريانية الكلاسيكية وإنما تمثل لهجات ابتعدت حتى في الجوهر عن اللغة الأساسية وتشبثت تماماً باللغة العربية وغيرها من اللغات حسب موقعها الجغرافي كجزر صغيرة ولما يتجاوز مشروع إحيائها من قبل المبشرين الأمريكيين بشكل خاص المئة سنة. أما بالنسبة للهجات الآرامية الغربية فإنه لم يتبق منها سوى لهجة يتكلمها حتى الآن سكان ثلاث قرى في سورية قرب دمشق وهي: معلولا، بخعة، جب عدين وهي تشابه نفس اللغة التي كان يتكلمها المسيح وذلك بحكم موقعها النائي عن المدن الكبرى وتمسك متكلميها بتقاليدهم وغيرتهم الشديدة على لغتهم ودينهم»[2].

وأقرب مثال إلينا في هذه الحالة هي اللغة القبطية في مصر، فعلى الرغم من زوال هذه اللغة تماما من التداول اليومي منذ عدة قرون فإننا نجدها باقية

(1) مجلة المعرفة – دمشق– كانون الأول 1976.

(2) المرجع ذاته.

في الكنائس القبطية ومستعملة في الطقوس الكنائسية والأدعية والتراتيل، ويمكن ملاحظة هذا في الاحتفالات الرسمية بعيد الميلاد المجيد وعيد القيامة في التليفزيون المصري كل سنة على المباشر!!.

ويكفي القول (في موضوع المحافظة على لغة الدين) بأن الدين يتعلق بكائن أبدي (خالد). واللغة التي بلغ بها هذا الدين، أو اللغة التي تمارس بها طقوسه، لابد أن تكون بالضرورة باقية ما بقي هذا الدين قائما في المجتمع!

4- تفرض لغة الدين نفسها على معظم فئات المجتمع، لأن الدين يكون عادات وقيما وتقاليد في المجتمع لا يجد الفرد بدا من اتباعها- طوعا أو كرها- ومن الأمثلة التي يظهر فيها فرض الدين للغة على ألسن الناس ترديدهم لبعض التعابير الدينية المختلفة، حتى ولو كان هؤلاء الناس غير متدينين، بل كفرة وملحدين!!

فهم على كفرهم يذكرون الله مثلا، إذ يقسمون بقولهم (والله العظيم) أو يترحمون على الأموات بقولهم (رحمه الله) أو يردون على المتسولين بقولهم (الله يفتح، أو الله كريم) وذلك يصدر منهم- لاشعوريا- بفعل ما للنظام الديني من قوة الجبر والإلزام لأفراد الجماعة على عدم الخروج عن بعض قواعده، وضوابطه العامة، وهو ما يسمى بقوة الضغط الاجتماعي على الفرد!

ويظهر تأثير الدين في اللغة في المناسبات المتعددة كالمواسم والأعياد وترديد الناس للمدائح الدينية بكيفية خاصة، ولغة خاصة، ومن أوجه هذا الارتباط بين الدين واللغة ما يظهر باستمرار من كتابات أدبية أو فلسفية أو فقهية أو علمية... تكتب حول الدين شرحا أو نشرا أو دفاعا عنه.

5- والملاحظ في هذا المثال الأخير أن للغة- أيضا- تأثيرا في نشر الدين بقدر ما للدين من دور في نشر اللغة والحفاظ عليها. فبالقدر الذي كان الدين دافعا للكتاب والفلاسفة والعلماء على التفكير وإنتاج الآثار الأدبية الرائعة

دفاعا عنه ونشرا له، كانت اللغة وسيلة مؤثرة في الدين بوصفها أداة تبليغ للآخرين. وكلما كانت هذه اللغة غنية في بلاغتها، وأجادت التعبير عن التعاليم التي يبشر بها الدين ساعدت على نشره وأرسخت مبادئه ورغبت فيه... ولعل بلاغة القرآن وإعجازه البياني المشهود له الذي يؤثر تأثيرا كبيرا في النفوس لأوضح مثال على تأثير اللغة في نشر الدين.

ولا أدل على ذلك من أن القرآن المترجم لا يجد قارئه أي ذوق أو جاذبية، أو أثر في نفسه أشبه بذلك الذي يستشعره المسلم من بلاغة المعنى وحلاوة التعبير وعذوبته عندما يقرأ القرآن باللغة العربية. ونخلص من هنا إلى الإقرار بوجود علاقة قوية بين الدين واللغة تتمثل في تأثير كل منهما في الآخر بمقادير متفاوتة. وبقدر ما يكون الدين منتشرا في المجتمع بقدر ما تكون علاقته باللغة أقوى تأثيرا وتأثرا، والعكس صحيح في بعض الأحيان: أي بقدر ما يبتعد أفراد المجتمع عن الدين تكون لغة هذا الدين ضعيفة في المجتمع، وأبرز مثال على ذلك ضعف اللغة اللاتينية وتقلصها في أوربا حينما بدأ نطاق الدين المسيحي يضيق مع بداية عصر «التنوير» والثورة التكنولوجية، وهو ما اضطر رجال الدين المسيحي في السنوات الأخيرة إلى الافتاء بجواز إلقاء خطب الوعظ... باللغات المحلية التي يفهمها الجمهور ترغيبا له في الدين، وفي هذه الحالة أيضا نجد أنفسنا أمام مثال واضح لعلاقة اللغة بالدين حيث يعمد إليها كوسيلة لنشر الدين والتبشير به وترغيب الناس في تعاليمه[*] .

ويظهر ذلك جليا في الحملات التنصيرية التي ماانفكت تجوب أقطار العالم، وخاصة إفريقيا مبلغة تعاليم المسيح باللغات المحلية، علما بأن هذا إن انطبق على الإسلام من حيث أسلوب الدعوة وجواز تبليغها (من باب

(*) ومن ذلك مثلا أنه لما انفصلت انجلترا عن روما، وتبنت المذهب البروتستانتي تقرر أن يكون الوعظ والعبادة في الكنائس باللغة الانجليزية بدلا من اللاتينية.

« خاطب الناس بما يفهمون ») باللغات المحلية، فإنه لا ينطبق عليه في تلاوة القرآن الكريم باللغات المحلية أو الدعاء أو التلبية في الحج مثلا، أو تأدية الصلاة خاصة، وهذا ما يجعل اللغة العربية أكثر ارتباطا بالإسلام من غيرها من سائر الديانات الأخرى، كما سنبيّن فيما يلي:

علاقة اللغة العربية بالإسلام خصوصا:

فإذا كانت للغة علاقة تأثير بالدين السائد في المجتمع.. على النحو السابق ذكره بوجه عام... فإن للغة العربية علاقة خاصة بالدين الإسلامي تتميز بها عن علاقة سائر اللغات في العالم بدياناتها السماوية أو الوضعية، ويعود السبب الأول في هذه العلاقة إلى نزول القرآن الكريم (المعجزة البيانية الخالدة) باللغة العربية، وما نجم عن ذلك من تقديس المسلمين لهذه اللغة كتقديسهم للقرآن، ولكونها أيضا جزءاً عضويا لا يتجزأ من القرآن كالإسمنت والرمل في البناء أو اللحم والعظم في الجسم، أو السدا والنسيج في الثوب(...). وتقديس المجتمع لشيء من الأشياء يتطلب بالضرورة فهمه والمحافظة عليه. وهكذا ارتبطت اللغة العربية ارتباطا قويا بالإسلام وستبقى كذلك طالما بقي للإسلام وجود في الوجود، لأنها مفتاح فهم العقيدة الدينية، ووسيلة المحافظة عليها، ما بقي لهذه العقيدة معتنقون في دنيا الناس، وما كان للغة العربية أن تسود ولا أن تكتسح الأقطار المجاورة شرقا وغربا، وتنتشر فيها، وتؤثر في لغاتها، أو تحل محلها بالسرعة والكيفية التي عرفها صدر الإسلام كما هو معروف، لو لم تكن هي لغة القرآن الكريم ولغة فهم الدين الجديد. فالإسلام كان دفعا جديدا لرقي اللغة العربية. وجاء هذا الدفع على يد القرآن نسقا جديدا في التعبير إلى جانب الشعر والنثر، وكان القرآن الرابط الأقوى بين اللغة والدين، فما يقوله القرآن يصبح هو القاعدة والمعيار، وهو الفيصل في الدين واللغة العربية معا. ولو تتبعنا اللغة العربية في العهد الإسلامي لوجدنا كتاباتها متأثرة في المبنى والمعنى بالقرآن

الكريم ويليه الحديث النبوي الشريف، ومن أمثلة الكلمات والتعابير في اللغة العربية التي ترجع في أصلها إلى القرآن: (العروة الوثقى، سنة الله، مثقال ذرة، أسوة حسنة، المثل الأعلى، بكرة وأصيلا، لا يكلف الله نفسا إلا وسعها)، وإلى جانب القرآن يوجد الحديث الشريف الذي ترك آثاره على اللغة العربية أيضا..
ونتج عن حرص المسلمين على فهم القرآن والحديث أن اجتهدوا في وضع قواعد النحو والصرف لحماية القرآن من اللحن في قراءة العديد من آيات القرآن مثل (إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء)، و (إن اللهَ بريء من المشركين ورسولَه)، و (إذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه)، ولولا القواعد النحوية التي تمكن القارئ من قراءة مثل هذه الآيات بكيفية سليمة لوقع فيها خلط وتحريف كبير، كما يسر المسلمون قراءته بوضع النقط والحركات على الحروف، وتعمقوا في دراسة فقه اللغة العربية لتفسيره، وفهم دلالته العميقة، ووضعوا علوم البيان لمعرفة سر الإعجاز البياني في القرآن، وفي هذا المعنى يقول ابن خلدون في المقدمة ما نصه: «اعلم أن ثمرة هذا الفن (أي البيان) إنما هو فهم إعجاز القرآن». ويقول أيضا في هذا الخصوص عن علوم اللسان العربي ما نصه: «أركان اللسان العربي أربعة، وهي: اللغة والنحو والبيان والأدب، ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة، إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة، وبلغة العرب، ونقلتها من الكتاب والسنة عرب، وشرح مشكلاتها من لغاتهم، فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة»[1].

ويؤكد هذا المعنى أيضا ابن حزم الظاهري «الذي روى لنا كيف أن أحد القراء الثلاثة الذين كانوا يقرأون للعامة بقرطبة لم يكن يحسن النحو، وكان ذات يوم يقرئ أحدهم: (**وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد**)(ق/ 19) ولم يخطئ التلميذ في القراءة فرد عليه معلمه قائلا: «تحيد»

(1) المقدمة.

بالتنوين. ولذا ألح على أن الفقيه لا بد أن يتعلم اللغة والنحو لكي يتمكن من فهم القرآن والحديث والفقه عامة. فقال: «ففرض على الفقيه أن يكون عالما بلسان العرب ليفهم عن الله عز وجل وعن النبي صلى الله عليه وسلم، ويكون عالما بالنحو الذي هو ترتيب العرب لكلامهم الذي نزل به القرآن، وبه يفهم معاني الكلام التي يعبر عنها باختلاف الحركات وبناء الألفاظ. فمن جهل اللغة وهي الألفاظ الواقعة على المسميات، وجهل النحو، الذي هو علم اختلاف الحركات الواقعة لاختلاف المعاني، فلم يعرف اللسان الذي به خاطبنا الله تعالى ونبينا عليه السلام، ومن لم يعرف ذلك اللسان، لم يحل له الفتيا فيه، لأنه يفتي بما لا يدري»[1].

وحول هذا الموضوع يقول الدكتور لغزيوي: «يجمع مفكرو الأمة قديما وحديثا على أن إدراك أسرار الإعجاز القرآني عامة، والإعجاز الفني البياني فيه خاصة، لا يمكن أن يتحقق إلا بالبراعة في العربية، وامتلاك حاسة الفصاحة، أما بغير العربية فيظل الأمر مجرد ترجمة لمعاني القرآن الكريم، ولذلك فمعرفة العربية الفصحى والتشبث بها واجب على جميع المسلمين، وهذا الوجوب يلقي على عاتق الأمة العربية مسؤولية تعريب المسلمين من أصل عربي ليتذوقوا الإعجاز الفني الراقي في القرآن الكريم ولتحقيق المزيد من التواصل بين أقطار الأمة»[2].

وعن الموضوع ذاته يقول الدكتور محمد عمارة مؤكدا على أن الإيمان بالإعجاز القرآني «مرهون بازدهار الحاسة الفنية لدى المسلم، وبتحول هذه الحاسة إلى قيمة ملحوظة في الحضارة الإسلامية، ومن ثمَّ فإن البداهة قاضية بأن يكون القرآن داعيا يزكي تنمية الحاسة الفنية لدى المسلمين»[3].

(1) ألبير مطلق، الحركة اللغوية في الأندلس، المكتبة العصرية، 1967، ص 285.

(2) من بحث له في ندوة الرباط حول اللغة العربية إلى أين؟ المملكة المغربية 1– 3 نوفمبر 2002.

(3) الإسلام والفنون الجميلة، مجلة المنهل 581، المجلد 64، أوت – سبتمبر 2002.

وهو ما يؤكد ضرورة إتقان كل مسلم للغة العربية قدر الإمكان، للارتقاء بحسه الفني لإدراك أسرارها وتذوق جمال البلاغ القرآني، وهو ما يتماشى مع ما كان قد ذهب إليه العديد من دارسي الإعجاز القرآني في القديم وفي مقدمتهم الباقلاني (ت 403 هـ)، الذي أكّد «أنه لا يتهيأ لمن كان لسانه غير العربية، من العجم والترك وغيرهم أن يعرفوا إعجاز القرآن إلا بأن يعلموا أن العرب قد عجزوا عن ذلك، فإذا عرفوا هذا بأن علموا أنهم تُحُدّوا إلى أن يأتوا بمثله، وقُرِّعوا على ترك الإتيان بمثله ولم يأتوا به، تبيَّنوا أنهم عاجزون عنه، وإذا عجز أهل ذلك اللسان، فهم عنه أعجز»[1].

وكان للإسلام فضله على اللغة العربية في اشتراط التعبد بها، الأمر الذي جعل الملايين من الشعوب الإسلامية (حتى غير العربية منها) تحاول أن تتعلم اللغة العربية ولو بالقدر اليسير الذي يمكنها من قراءة الدعوات وبعض السور القصار من القرآن الكريم، وهذه الشعوب إن لم تكن تجيد اللغة العربية، فهي دائمة التشوق إليها من غيرها، وهذه الرغبة في تعلمها، والتحدث بها، نلاحظها بكل وضوح لدى الشعوب الإسلامية في العالم. ففي الوقت الذي لا نجد للغة العربية أثرا يذكر في المجتمع الهندوسي مثلا، نجد لها مكانة معتبرة لدى مسلمي الهند، مثل أبي حسن الندوي وغيره، كما نجدها اللغة الثانية في باكستان، ويوجد اتجاه قوي في هذا البلد لجعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية والوطنية بدلا من اللغة الانجليزية لو تلقوا المساعدة الكافية ووجدوا التشجيع من العرب أنفسهم على ذلك!!

وحول هذا الموضوع يقول الدكتور إحسان حقي في مقال له بعنوان: «باكستان.. واللغة العربية» ما يلي: «كانت فكرة تعريب باكستان تراود زعماء هذه البلاد منذ فجر استقلالها، ولم يكونوا يريدون أن يجعلوا العربية

(1) من بحث لعلي لغزيوي في ندوة الرباط حول اللغة العربية إلى أين؟ مرجع سبق ذكره.

لغة البلاد الثانية، بل لغة البلاد الأولى، وأن تكون باقي اللغات لغة محلية كما حدث في مطلع الإسلام، إذ استعرب كثير من البلاد وانصهر في العروبة وأصبحت لغاتها إقليمية، لأن في تعريب البلاد حسم كثير من المشاكل الإقليمية، فمن المعلوم أن باكستان يوم تأسيسها كانت مؤلفة من باكستان الشرقية وباكستان الغربية، وفي البلاد لغات كثيرة منها الأردية والبنجابية والبلوجية والسندهية والبنغالية وغيرها من اللهجات، حيث أن اللغة الأردية هي أشهر هذه اللغات وأوسعها وأكثرها انتشارا، فقد جُعلت هي والبنغالية لغتي البلاد الرسميتين، ولكن ظلت الأردية هي الغالبة، لأن أهل البنغال وأهل شبه القارة الهندية الباكستانية يتكلمون الأردية بينما لا يتكلم البنغالية إلا أهل البنغال.

وانتظر الأمر بعد حرب مريرة إلى شطر البلاد إلى قسمين هما: باكستان وبنغلاديش. فلو كانت اللغة العربية لغة البلاد لما وجد هذا التنافس بين الشطرين، ولما كان الأعداء قادرين على أن ينفذوا إلى الصدور من هذه الناحية، ولكنهم لم يكونوا عاجزين عن إيجاد الوسيلة لتحطيم باكستان بطريقة أخرى.

قلت أن نشر اللغة العربية كان نصب عيون زعماء البلاد، ولكن مشاغل باكستان الكثيرة حالت دون تحقيق هذه الأمنية، ولعل لليد الأجنبية دخلا فيما حدث –كما علمت من مصادر موثوقة– فنامت الفكرة ولكنها لم تمت».

ثم يضيف قوله في الأخير: «هذا هو مختصر الأمور التي اقترحتها وقد نفذ بعضها وأصبحت اللغة العربية إلزامية في المدارس ابتداء من الصف السادس وكتبت كتب لهذه الغاية، ولكن اللغة لم تفرض إلا على طلاب المدارس.

ويسرني أن أعلن بهذه الكلمة أن رغبة الباكستانيين لم تعد محصورة بالزعماء لأسباب سياسية أو غير سياسية، بل أن أهل البلاد جميعا يرغبون في

ذلك، وهناك جمعيات عربية كثيرة تقوم على سواعد بعض أهل الخير والعلم من أهل البلاد. كما أن حكومة الإمارات أنشأت جامعة في كراتشي تمولها وتسعى الآن إلى توسيع نطاقها»[1].

وقد كانت اللغة العربية في موريتانيا والصومال وجيبوتي وجزر القمر... اللغة الثانية من حيث الاستعمال الشعبي حتى قبل انضمام هذه البلدان إلى جامعة الدول العربية. ولا أدل على ذلك من أن موريتانيا كانت تسمى «مدينة الألف شاعر»، وأن الحائز على جائزة أفضل قصيدة «عمودية» في مدح الرسول ﷺ في العالم العربي والإسلامي بمناسبة حلول القرن الخامس عشر الهجري كان من السنغال المسلمة، وليس من السعودية أو اليمن أو الجزائر أو مصر، مع أن السنغال ليس حتى عضوا في جامعة الدول العربية!!

ويلخص هذا المعنى العالم السنغالي الأستاذ إبراهيم ديوب بقوله: «وأعتقد أن بوسع كل مسلم أن يلج العروبة من هذا الباب الواسع الذي فتحه الرسول ﷺ على مصراعيه: فقد روى الحافظ ابن عساكر الدمشقي قال: «جاء قيس بن مطاطية (وهو يهودي) إلى حلقة فيها سلمان الفارسي، وصهيب الرومي، وبلال الحبشي، فقال: هؤلاء الأوس والخزرج قد قاموا بنصرته (يعني النبي ﷺ) فما بال هذا وهذا؟ (مشيرا إلى غير العرب من الجالسين)، فقام إليه معاذ بن جبل رضي الله عنه، فأخذ بتلابيبه، ثم أتى النبي ﷺ، فأخبره بما قاله.. فقام النبي ﷺ حتى أتى المسجد، ثم نودي: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فخطبهم قائلا: «يا أيها الناس إن الرب واحد، وإن الدين واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما هي اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي»، فالنبي ﷺ إنما يرشد بهذه الكلمة إلى حقيقة ارتباط الوعي الإسلامي بفقه اللغة العربية، ويشير إلى حقيقة أخرى، وهي أن العربية –وهي لغة القرآن– يجب أن

(1) مجلة «العربي»، العدد 315 – فبراير 1985م.

تتحرر من الإقليمية والعنصرية الضيقة، لتصبح أداة تفاهم بين جميع المسلمين على اختلاف أجناسهم وألوانهم»[1].

فالإسلام إذن هو الذي أخرج اللغة العربية من جزيرتها لتنتشر في أقطار العالم العربي والإسلامي الحالي، وجعل عباقرة الشعوب الإسلامية، حتى غير الناطقة بالعربية (رغم الدواعي والمثبطات السياسية والقومية والشعوبية...) ينتجون الآثار الأدبية والفكرية الخالدة باللغة العربية (في زمن قياسي)، وما كتب الرازي، وابن سينا، والفارابي، والغزالي، والبيروني، وسيبويه، والطبري، والبخاري، وابن معطي، وابن مالك وأن كلا من الشيرازي والسندي والحلبي، والزنجاني، والأفغاني، والأشموني، والقلقشندي، والصقلي، والقيرواني، والمراكشي، والصنهاجي، والقرطبي، والفيروزآبادي... وغيرهم بالآلاف تدل ألقابهم أنهم من خارج الرقعة الجغرافية للعالم العربي الحالي، وبالتالي فإن اللغة العربية لم تعد لغة إقليمية محصورة بعرق معين، وإنما هي لغة عالمية بفضل الله الذي أنزل بها القرآن الكريم، الذي يؤمن به ويقدسه كل مسلم على هذا الكوكب الذي عمّه نور الإسلام، بدليل أن عدد حجاج بيت الله الحرام هذا العام (2007) هو 189 جنسية وهو عدد يكاد يتطابق مع عدد الدول الأعضاء في منظمة الأمم المتحدة، وأن لغة المسلمين الأولى في العالم هي اللغة العربية لولا السياسة الدولية الحالية!!

فرغم الظروف المتاحة للحملات الصليبية المتعاقبة على العالم الإسلامي، ورغم كل ما بذله ويبذله هؤلاء الغزاة (إلى اليوم) من جهود مضنية للقضاء على لغة القرآن، فقد باؤوا كلهم بالفشل الذريع، وتحطمت كل مساعيهم على صخرته الصلبة، حيث بقيت لغة كلام الله (رغم انتشار اللهجات المحلية وتباينها أحيانا في العالم العربي ...) هي اللغة النموذجية الوحيدة التي تفرض نفسها فرضا على

(1) من بحث له في ندوة الرباط حول اللغة العربية إلى أين؟ المملكة المغربية 1– 3 نوفمبر 2002.

كل اللهجات العربية، والمعين الأول والأقوى الذي أخذت ولاتزال تأخذ منه هذه اللهجات مفرداتها للتعبير عن المعاني الراقية في شتى مجالات الحياة.

ومن أقوى الأدلة على هذه العلاقة الربانية الحتمية بين الإسلام والعربية هو فشل كل المحاولات الظاهرة والباطنة داخل العالم العربي وخارجه، للقضاء على العربية بتغيير قواعدها (باسم التبسيط) أو استبدال حروفها (باسم التسهيل) أو إجراء أي تحويل في بنياتها (باسم الإصلاح) أو أي شعار آخر مستحدث لهذا الغرض. وذلك كله راجع إلى كونها لغة القرآن ولغة عبادة الله، ومن أحبَّ شيئا تقرب منه أكثر ليعرفه!

ولعل هذا ما دفع بشيخ الإسلام ابن تيمية إلى الافتاء بوجوب تعلم اللغة العربية على كل مسلم ومسلمة اعتمادا على قاعدة أصولية مفادها أن معرفة الإسلام مرتبطة بمعرفة اللغة العربية، وعلى ذلك فمعرفتها واجبة على كل مسلم ومسلمة بحجة أن «ما لا يتم الواجب إلا به يعتبر واجبا».

فمن هذا المنطلق إذن، يلتقي الناطقون بالعربية وغير الناطقين بها من المسلمين الحقيقيين في جميع أقطار العالم.

وإن السبب الذي جعل المسلمين يتفقون حول وحدة الدين ويختلفون حول وحدة اللغة هو حساسية موضوع اللغة، وعلاقتها بالجنسية أو القومية وغيرها من المصطلحات المستحدثة في هذا العصر، وقد ظهرت من ثمة دعوى الفصل بين ما هو قومي عربي وما هو مسلم لاقومي، على اعتبار أن اللغة مسألة قومية وعرقية وسياسية، والدين رسالة سماوية تهم كل الذين يدينون به، بقطع النظر عن جنسياتهم وقومياتهم وأعراقهم في سائر أقطار الدنيا. وبدت هذه الحجة كافية- ظاهريا- لبعض المتربصين بالإسلام ولغته كي يدقوا أسفين الخلاف والتعارض بين الإسلام ولغة القرآن، أو بين الناطقين بها كلغة أساسية وغير الناطقين بها من المسلمين!

ويمكن إظهار تهافت هذه الحجة- حسب رأينا- في النقاط التالية:

1- أن اللغة بالفعل، هي أكثر ارتباطا بالقومية من الدين بصفة عامة ومن الإسلام بصفة أخص، لأنه دين للبشرية قاطبة كما هو معلوم، وان الدين واحد، في حين أن لغات العالم متعددة، ولكن هذا الأمر إذا كان صحيحا بالنسبة للغات الأخرى مع الإسلام، فإنه غير صحيح مع اللغة العربية بالذات، لأنها مرتبطة بالإسلام ارتباطا عضويا كما ذكرنا، ومن قبل التخلي عن دينه اليهودي أو المسيحي أو المجوسي أو البوذي من أجل الإسلام وأصبح أخا لسلمان وصهيب وبلال في عقيدة الأمة، ولسان توحيدها ووحدتها... فلماذا لا يتخلى أيضا عن التعصب للغته المحلية أو الوطنية ويتقن لغة التنزيل مثل هؤلاء المسلمين الأفذاذ، ويصبح من آل البيت (مثل سلمان)، بقطع النظر عن منبته وأصله وقارته، وبعبارة أخرى لماذا لا يضحي إن كان مؤمنا حقا من أجل رفعة الإسلام ووحدة المسلمين التي تقوى بها الأمة ويسود الدين كما ساد فعلا، وما يزال كذلك مع لسانه إلى يوم الدين ولو كره الكافرون، كما يقول المولى عز وجلّ: (**يريدون ليطفئوا نور اللّه بأفواههم واللّه متم نوره ولو كره الكافرون. هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون**) (الصف/ 8، 9)!

2- إن الوضع المتميز للغة العربية جعلها ذات وظيفة مزدوجة صيرتها بالمنظور القومي (العلماني) لغة قومية للعرب وحدهم، لكنها بالمنظور الديني الإسلامي هي لغة قومية لسائر المسلمين.. بقطع النظر عن جنسيتهم السياسية... (**إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون**) (الأنبياء/92). ولا وحدة ثقافية حقيقية لأية أمة بدون وحدة حقيقية في دينها ولسانها، كما ذهب إلى ذلك جمال الدين الأفغاني وابن باديس وإننا نقرهما على هذا السبق ونقر لهما تلك النظرة الاستراتيجية الدينية والحضارية إقرارا كليا، وقد أثبتته

الأحداث الجارية في أيامنا الحالية، عالميا ومحليا في باكستان وبانغلاديش والعراق والسودان وتركيا وإيران ...إلخ!!.

3- إن الانتماء القومي لأي شعب في الدنيا لا يرجع إلى كون هذا الشعب منحدرا بالضرورة من عنصر أو عرق واحد، وإنما يرجع إلى الانتماء أو الاندماج الإرادي لهذا الشعب في الثقافة المتبناة كما رأينا. ولا دخل في هذه المسألة المكتسبة اجتماعيا وثقافيا ودينيا لخرافة السلالة والعرق التي أبطلها العلم فضلا عن الدين الإسلامي بالذات، الذي نهى عن حمية الجاهلية، وأثبت بالنص القاطع والصريح ألاّ فرق بين عربي وعجمي إلا بالتقوى و(**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**) (الحجرات/13)!!

4- إن أكثر من 90٪ من أفراد المجتمع العربي الحالي، أي المجتمع الإسلامي الناطق بالعربية هم خارج الجزيرة العربية، ومن ثم فهم مسلمون قبل أن يكونوا عربا لا قوميا ولا عرقيا ولا لونا ولا جنسا، كما قلنا[1].

وبعبارة أخرى فهم عرب لأنهم مسلمون وليسوا مسلمين لأنهم عرب، ولا عروبة- عندهم- بدون إسلام، أي ما كان للعالم العربي الحالي، ولا للحضارة العربية الإسلامية المعروفة في الشرق والغرب أن يوجدا لولا أمثال عقبة بن نافع، وحسان بن نعمان، وموسى بن نصير، وطارق بن زياد، وعبد الرحمن بن رستم، ويوسف بن تاشفين، وابن تومرت وغيرهم من الذين عربهم الإسلام فأوجدوا ما يعرف اليوم بالعالم العربي، وبعبارة أدق العالم الإسلامي الناطق بالعربية مشرقا ومغربا، والدائرة ستظل مفتوحة، وقابلة للاتساع في أي وقت إلى يوم يبعثون(...).

ويلخص هذا المعنى الدكتور حسين مؤنس في كتابه «الحضارة»، حيث يقول: «ومع ذلك فإن العرب لم يضعوا أية سياسة لنشر اللغة العربية، بل كان

(1) انظر كتابنا «الردود العلمية على الأطروحات العرقية وتعدد الهوية»، دار الأمة الجزائر 2005.

القرآن الكريم هو دافع الناس الأكبر إلى تعلمها. ثم تكلفت اللغة العربية بقية التحويل اللغوي بفضل ما امتازت به من فضائل داخلية في صلبها وتركيبها... إن الأمر هنا كان عملية انتشار ثقافي ديني متمثل في الإسلام والقرآن ولغوي فكري متمثل في انتشار اللغة العربية وكتابتها وآدابها شعرا ونثرا»[1].

وهذا ما مكّن من الصمود أمام كل الهزات التي مرت بها، بما في ذلك ظروف الانحدار السياسي والاجتماعي للعالم الإسلامي الناطق بالعربية، والتي وصلت أحيانا الى درجة سيئة للغاية تتمثل في تفكك الكيانات السياسية للأقطار العربية وبصفة خاصة منذ أن وضع الاستعمار الغربي أقدامه على جل أراضي المسلمين، حيث حارب هذه اللغة بحقد دفين، قلما حوربت لغة بمثله في العالم[2]!!

ولئن كانت فترة الانحدار التي أدت إليها السيطرة العثمانية على العالم العربي قد هبطت باللغة العربية في أواخر أيام الخلافة، حتى وصلت إلى الدرك الذي كان يمكن أن تبدأ فيه في الانحدار والزوال مثل اللغات الكثيرة، التي اندثرت، كاللغة المصرية القديمة أو الأرامية أو السريانية أو الفينيقية أو اللاتينية التي كانت الى وقت قريب هي لغة العلم والأدب والفكر والفلسفة في القارة الأوروبية... فإن اللغة العربية، وخلافا لكل هذه اللغات المذكورة التي ماتت الى غير رجعة، قد بقيت العربية محفوظة في وجدان أفراد المجتمع العربي المسلم، بفضل تشبثهم بها كلغة تواصل، وعبادة، ورقيا (أي علاج) في بعض الأحيان!.

وظلت هكذا حية حاملة لكل مقومات النهوض من جديد، وقد نهضت فعلا بمجرد أن انحسرت فترة الركود العثماني والاحتلال الغربي الذي

(1) «الحضارة»، عالم المعرفة، الكويت 1978، ص 60.

(2) انظر كتابنا «التعريب بين المبدأ والتطبيق في الجزائر والعالم العربي، دار الأمة الجزائر، 1996.

أعقبه... وفي هذا المعنى جاء على لسان جورج الكافوري تعليقا على ما قاله (أرنست رنان) بأن اللغات السامية خلدت في التاريخ بما خلفته للعالم من أديان كاليهودية والنصرانية والإسلام، حيث ما تزال لغات هذه الأديان تحيا كلغات كتب مقدسة (كما أسلفنا)... يقول جورج الكافوري تعليقا على ذلك: «... وهذا القول مع ما في ظاهره من الاقرار بفضل الكتاب الذي حفظ اللغة العربية وصانها من التفكك والتحول الى لغات متعددة يصعب التفاهم بين أصحابها، كما أصاب اللغة اللاتينية بعد ذهاب دولة الرومان... يشجينا أن يكون فيه تلميح الى أن اللغة العربية تنحصر مزيتها في هذا، وانها إنما تحيا بالدين، وللدين، مع أنه قد سبق لها أن عبرت بأدوار برهنت فيها على أنها تلك اللغة الغزيرة المادة الرحبة الاكناف التي تصلح لأن تكون لغة الدين والدنيا معا» [1].

ويمضي في مكان آخر قائلا: «... على أن اللغة ترتقي بارتقاء أهلها وتنحط بانحطاطهم كما سبق القول... وما بلغت العربية من الرقي الغاية التي بلغتها إلا لأن الأمة العربية كانت في إبان قوتها ومعظم نهضتها، ولا يخفى أن رقي الأمة السياسي يستتبع رقيها العلمي والاقتصادي، فتجيء نهضة اللغة تابعة للنهضة السياسية والمدنية معبرة عنها، إذ يجتمع للغة حينئذ عاملان من أقوى العوامل التي تعمل على ترقيتها وإحيائها هما عضد الدولة لها، وحاجة الرعية إليها، وقد بلغ إقبال الأوروبيين على تعلم اللغة العربية في عز نهضة العرب الى أن خشي أهل البلاد أن تتغلب على لغتهم، وتحل محلها، كما يدل على ذلك ما كتبه أسقف قرطبة الى بعضهم شاكيا حيث قال ما محصله: «.. ان اللغة العربية قد فتنتنا بعذوبة ألفاظها، وبلاغة إنشائها حتى لا تكاد تجد فينا من يقرأ الكتب المقدسة باللغة اللاتينية، وشبابنا الأذكياء

(1) «اللغة العربية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها»، بيروت 1948، ص: 61.

جميعا لا يعرفون غير لغة العرب وآدابهم. وكلما قرأوا كتبهم ودرسوا آدابهم، ازدادوا إعجابا بها فإذا حدثتهم عن كتاب من كتب اللاتينية سخروا منه، وقالوا: «إن الفائدة منه لا تساوي التعب في قراءته، وهكذا نسي المسيحيون لغتهم وجهلوا كتابها وبلاغتها، وحذقوا اللسان العربي حتى ليكتبونه نثرا ونظما، بأسلوب أنيق يفوقون فيه العرب أحيانا»[1] ولا نملك ما نعلق به على هذه الحقيقة غير القول بأن التاريخ يعيد نفسه مع العرب الآن حيث يتشبث بعضهم باستعمال اللغات الأجنبية حتى في ديارهم وإداراتهم وجامعاتهم واحتقار اللغة العربية (كما بيّنا في الفصلين الأول والثاني)، إما عن جهل لها، وإما عن غلبة الحضارة الغربية التي انتجت تلك اللغة أو للسببين معا!!

ولكن يكفي المسلمين أن يعلموا أن الأوروبيين رغم اتقانهم للغة العربية في عصرهم، لم يثنهم ذلك عن النهوض بلغاتهم وشيدوا بها الحضارات الشاخصة، التي تعقد بعض «ضعفائنا» إزاءها في الوقت الحاضر، والحقيقة أنه إذا كان تأثر الضعيف بالقوي سُنّة لا مناص لنا منها، فلماذا لا نستمد من هذا الضعف القوة ونسلك الطريق الذي سلكه الأوروبيون أنفسهم إزاء حضارتنا ولغتنا، مع تمسكهم بأصالتهم التي تبهرنا اليوم بما أنتجته من حضارة مادية باهرة وقاهرة، ونحن ظللنا نستهلك منتوج تلك الحضارة في غيبوبة، أو مذلة واستكانة أو خيانة!!

إن اللغة العربية اقترنت دائما بالوعي الإسلامي في كل أدواره التاريخية، ولقد أثبت الواقع أنها كانت الدرع الصلبة التي يحتمي بها هذا الوعي في المجتمع العربي الإسلامي، كلما واجهته ظروف تهدد كيانه، ويكفي مثالا على ذلك تشبث المجتمع الجزائري بالإسلام واللغة العربية، خلال عهد الاحتلال الفرنسي، كأحد مقومات الشخصية الوطنية

(1) المرجع السابق ذكره، ص: 63.

والقومية تجاه الغزو الثقافي الفرنسي، وعمليات الاستئصال والمسخ لهذه المقومات (راجع الفصل الأول).

وعن هذا الموضوع يقول مصطفى صادق الرافعي: «وهذه اللغة العربية تمتاز عن اللغات كافة بارتباطها إلى الأصلين العظيمين الخالدين (القرآن والحديث)، وهما على وجه واحد أول الدهر وآخر الدهر، وإليهما مناط العقائد في العالم الإسلامي كله، فقد جعلا هذه اللغة، ولا سبيل للغة غيرها من حيث هي، كما أنه لا سبيل لدين على دينها من حيث هو، وهذا مما يهوّن الخطب فيها أن ضعُفت أو عدت عليها بعض عوادي الاجتماع. فإن قوة الحياة المستكنّة في أصولها لا تلبث أن تشدّ منها تذهب بأمراضها عند أيسر العلاج. وليس يخفى أن الكيان الإنساني قائم على القوى الأدبية، وأصل هذه القوى في العالم الإسلامي هو القرآن، وهو كذلك أصبح من وجوه كثيرة كأنه أصل اللغة. فمادام كل انقلاب اجتماعي فينا لا يأتي على هذا الأصل فهو لن يأتي على تلك اللغة، وإذا كان الحي لا يُبنى إلا من داخله فهو لا يهدم إلا من داخله. فالمسألة إذن من مسائل الضعف والقوة لا مسائل موت اللغة وحياتها، وهاهنا أصلان عظيمان يستند إليهما الباحث في مستقبل اللغة العربية وقلّما يلتفت إليهما أحد. فالأول أن سواد الذين يتكلمون بهذه اللغة هم من أبعد الشعوب أعراقا في تاريخ المدنية وذهابا في عصورها وتغلغلا في طبقات الميراث الإنساني، وذلك أصل عظيم في الاحتفاظ بها، بعد أن صارت قطعة من تاريخهم، وكأنها عناية إلهية بهذه اللغة أن لا تستفيض إلا في تلك الشعوب. والثاني: إن في العربية نفسها نوعا من الاستهواء من جمال التركيب وروعة اللفظ وحسن الأداء، إلى غيرها من المميزات المعروفة، حتى إن غير أهلها ليكونون في حبهم إياها أحق بها وأهلها.

وظاهر أن لكل لغة قوية وجها سياسيا، كما أن لكل سياسة قوية وجها لغويا... فالشعوب قائمة على الاختلاف والتنازع، وهنا موضع الضعف والقوة»[1].

(1) اللغة العربية، القسم الأول آراء ومناقشات، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ص 170.

وعن الإعجاز البياني للقرآن الكريم والمرتبط عضويا به ارتباط الماء بالحياة، يقول الدكتور فاضل السامرائي: «ثم قررت أن أدرس النص القرآني بنفسي، بدأت أجري موازنات بين كثير من الآيات من حيث التشابه والاختلاف في التعبير والتقديم والتأخير، والذكر والحذف وما إلى ذلك من أمور لغوية وبلاغية ومعنوية وأفحصها فحصا دقيقا فراعني ما رأيت من الدقة في التعبير والإحكام في الفن والعلو في الصنعة.

وجدت تعبيرا فنيا مقصودا حُسب لكل كلمة فيه حسابها، بل لكل حرف، بل لكل حركة. وكلما أمعنت النظر والتدقيق والموازنة ازددت بذاك يقينا وبصيرة وانتهيت إلى حقيقة مسلمة بالنسبة إليَّ وهي أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من كلام البشر، وأن الخلق أولهم وآخرهم لو اجتمعوا على أن يفعلوا مثل ذلك ما قدروا عليه ولا قاربوا ...

ثم يضيف قوله حول تحدي الله العرب أن يأتوا بمثله فعجزوا وسيظلون عاجزين كذلك إلى يوم القيامة فيقول: «لقد تحدى القرآن العرب، ثم جميع الخلق بأن يأتوا بمثله ثم أخبر أنهم لن يأتوا بمثله ولو كان بضعهم لبعض ظهيرا (الإسراء/ 88)، فقد تحداهم أولا بأن يأتوا بعشر سور مثله إن كانوا يرون أنه مفترى (هود/ 13، 14)، فلما انقطعوا وقامت الحجة عليهم تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله وأخبر أنهم لن يفعلوا (البقرة/ 22، 24)، ويشمل هذا التحدي قصار السور كما يشمل طوالها، فهو تحداهم بسورة الكوثر والإخلاص والمعوذتين والنصر... أو أية سورة يختارونها، ومن المعلوم أن العرب لم يحاولوا أن يفعلوا ذاك! فقد كانوا يعلمون عجزهم عنه، ورأوا أن سبيل الحرب والدماء وتجميع الأحزاب أيسر عليهم من مقابلة تحدي القرآن.

ومن الثابت أن القرآن الكريم كان يأخذهم بروعة بيانه وأنهم لا يملكون أنفسهم عن سماعه، ولذلك سعوا إلى أن يحولوا بين القرآن وأسماع الناس،

لا يصل إلى الأذن لأنهم يعلمون أن مجرد وصوله إلى السمع يحدث في النفس دويا وهزة عنيفة،وقد حكى الله عنهم هذا الأسلو ب فقال: **(وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القران والغوا فيه لعلكم تغلبون)** (فصلت/ 26) ».

«ولهذا السبب وغيره الكثير من الحقائق المعجزة لم يسع المشركين إلا العجز في زمن نضوج اللغة العربية وبلوغها أوج الكمال. لذلك تراهم قد عدلوا عن المناظرة بالكلام والإتيان بمثله، إلى المقارعة بالسنان والمحاكمة إلى الحسام، لأن هذا أيسر عليهم من أن يصدموا الحق بالباطل. والباطل في كل عصر كان ولم يزل زهوقا، فإذا قامت له دولة فلا يلبث إلا يسيرا حتى تتلاشى وتضمحلّ، ولا تبقى إلا ذكريات للاتعاظ والاعتبار.

فعلى هذا لا نرى مانعا في إظهار عقيدتنا وإعلان رأينا وما ندين به، من أن الطعن الموجه إلى اللغة العربية في عصرنا الحاضر هو طعن في الدين الإسلامي تحت شعارها وستارها، بدافع العداوة والبغضاء، أو لأن الطاعن جاهل أرعن، والجاهل عدو نفسه فضلا عن غيره»[1].

هذا عن الإعجاز البياني الذي بدأ الله يتحدّى به العرب مع أول التنزيل، أما عن أنواع الإعجاز الأخرى التي لا تنتهي... فقد ظهرت أكثر ما ظهرت إلى الوجود في عصرنا الحاضر... ومن الحقائق التي أفرزها التقدم العلمي المذهل الذي شهده الظرف الحضاري الأخير للقرن العشرين، أن العلم أصبح يقتفي آثار الدين بعد أن تأكد لهذا العلم أنه ليس هناك معرفة يقينية خارج ما أخبر به الله، وحدد مجاله بما يناسب قدرات عباده، وأن العلم بعد أن اصطدم بالحقيقة وصحا من غروره عرف أنه لا يستطيع تجاوز الوصف إلى التفسير؛ وأنه لا يخرج من دائرة التساؤل والملاحظة والبحث والاستكشاف!

(1) الدكتور فاضل السامرائي، التعبير القرآني، دار عمار، الأردن 2006، ص.ص 1، 3، 9.

وإن الكلمة الأولى والأخيرة تبقى لخالق الكون ومنزل القرآن بحقائق الخلق التي لا يمكن للإنسان أن يحيط بها إلا تدريجيا، وبما شاء الله، كما هو مشار إليه في دستور الحياة الدنيا والآخرة، هذا القرآن العظيم الذي يقول منزله عنه: **(وما فرَّطنا في الكتاب من شيء)** (الأنعام/ 38)، ويبقى للعقول النيّرة المؤمنة أن تتدبر آيات الله لإظهار الحق بلغة العلم والمنطق انطلاقا من تدبُّر آيات التنزيل المحكم المتعلقة بالعلم والخلق والكون، والتي قد غطت كل المجالات (جمادا ونباتا وحيوانا وإنسانا)، فيما لا يقل عن ألف آية بيّنة، كما هو معلوم في كتب المفسرين، واجتهاداتهم ومقارنة اجتهاداتهم تلك بما توصل إليه العلماء والباحثون التجريبيون في عصرنا الحاضر من اكتشافات هامة في مختلف مجالات الكون المنظور، مما لم يكن يخطر على بال بشر قبل قرن من الزمان!! مصداقا لقوله تعالى: **(وقل الحمد للّه سيريكم آياته فتعرفونها وما ربُّك بغافل عمّا تعملون)** (النمل/ 93).

ومن الطبيعي –والحالة هذه– ملاحظة أن معظم المفسرين للقرآن الكريم، قد ظلوا يجهلون ما توصل إليه التقدم العلمي في المخابر المتطورة من اكتشافات وحقائق مذهلة تفسر العديد من الآيات القرآنية التي كانت قد حيّرت هؤلاء المفسرين قرونًا عديدةً، وعجزوا عن إدراك حقيقتها التي لم يكن أمر الله قد حان بعدُ لتسخير بعض عباده من هؤلاء المؤمنين ومن غير المؤمنين أيضا لاختراع الأدوات الدقيقة والوسائل المتطورة التي غزت الفضاء وسبرت أغوار المادة واستكنهت مجاهيلها المرئية، بدءاً بالذرّة والالكترون والكورك، إلى مكونات الخلية الحية، وأخيراً (وتحديدا سنة 2000) يسّر الله لهؤلاء العلماء فك بعض طلاسم الشفرة الوراثية للكائن البشري المركبة والمرتبة داخل نواة الخلية الحيّة بكيفية تحبس أنفاس كل إنسان له ذرة من عقل سليم قادر على التفكّر والتدبر!!

ومثلما ثبت خطأ بعض المفسرين في اجتهاداتهم تلك... ثبت كذلك جهل العلماء والمكتشفين المعاصرين (من غير المسلمين) بهذه الحقائق القرآنية القاطعة، المطابقة حرفيًا لما اكتشفوه من أمور في فضاءات الكون المنظور، وفي الإنسان ذاته، دون أن يعلموا أن التنزيل الحكيم قد سبقهم إلى ذلك بقرون!! مصداقا لقوله تعالى: **﴿ما فرَّطنا في الكتاب من شيء﴾** (الأنعام / 38) وقوله **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنه الحق﴾** (فصلت /53) .

وعندما يواجَه هؤلاء العلماء والمكتشفون بذلك من بعض المسلمين العارفين يتعجبون ويُنكرون ذلك على القرآن لأول وهلة، ثم لا يلبثون أن يُصدموا بالحقيقة الناطقة، فيدخل بعضهم في الإسلام وهم من كبار العلماء في مختلف الجامعات، ومراكز البحث في كل القارات (ويمتنع البعض الآخر ممن تأخذهم العزّة بالإثم، عنادا ومكابرة) !!

هذا عن الكفار والملاحدة الأجانب الذين لا يعرفون القرآن نصا، ولا يعترفون به تنزيلا، أما «الدُّنْيَوِيون» من المنتسبين اسميا أو جغرافيا، إلى خريطة العالم الإسلامي، والناطقين بلغة التنزيل المبين لسانًا، فإنهم لما أدركوا الخطر المحدق بجحودهم نتيجة الإعجاز القرآني الباهر والفتح الرباني العظيم المحقق للمسلمين عن طريق الاكتشافات المذكورة، وخاصة في العصر الحاضر، راحوا يبتكرون أسلوبا جديدا في التضليل بادعائهم الغيرة على قدسية النص القرآني الثابت الذي أصبح مهددا لربطه بمجال نتائج العلوم والاكتشافات المتلاحقة والمتغيرة باستمرار! فهم –في زعمهم– يخشون من أن يفقد هذا النص القرآني قداسته، وثباته، وإطلاقه... نتيجة ما قد يخبئه المستقبل من بطلان لتلك النظريات التي يربطها العلماء المسلمون بالآيات القرآنية في إطار البحث عن صور «الإعجاز العلمي» ومحاولة فهم القرآن

وتفسيره على ضوئها، وهو ما يتماشى تماما مع ما جاء في الأثر كما ذكرنا، وهو أن هذا القرآن: «لا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الردّ» وأن الشيئين الأساسيين الكفيلين بتفسيره عبر العصور المتعاقبة كما يقول العلماء هما: «لسان العرب ولسان الزمن»(*).

وإن كل هذه الحقائق العلمية أتت مسفهة لأحلام أعداء كتاب الله ولسانه ومحبطة لمخططاتهم بإثباتها القطعي للمعجزة الخالدة ووقوفها حجة قوية ودعامة راسخة في صف الدعاة إلى دين الحق، ونشر الإيمان بوحدانية الخالق وربوبيته المطلقة للكون، بشكل غير مسبوق في تاريخ البشرية، بفضل شبكة الاتصال العالمية والفضائيات التي صيّرت الكون قرية صغيرة في فضاء فسيح، وهذا من فضل الله على دين الحق وأهله العلماء والدعاة المخلصين العاملين في بلاد الغرب (العلماني – الصليبي) الحاقد والجاحد !!

وبفضل هذا التسهيل الإلهي المتمثل في الاختراعات الحديثة وتسخيره لبعض جنوده من العلماء والباحثين الرواد في مختلف الميادين، الذين لا يعلمهم إلا هو تمكّن هؤلاء الباحثون الدعاة المتدبرون في خلق الله من التفرغ لتعقب تلك الاكتشافات والاختراعات المعلن عنها في كل حين من

(*) ويجدر التنبيه إلى أن هذه الخدعة التي ابتكرها هؤلاء «الحداثيون» لا تنطلي على أصحاب النهى وذوي الحجى والبصيرة من دعاة الأمة، لأنها لا تدل إلا على أن ما اكتشفه العلم من حقائق تتطابق فعلا مع النص القرآني تطابقا عجيبا ومعجزا، وإننا لنجزم أنهم لو وجدوا في هذه الاكتشافات العلمية والحقائق الكونية التي أثبتها العلم الحديث أي تناقض، ولو كان بسيطاً، مع آيات القرآن الكريم لكانوا أول السبّاقين إلى الإشارة إليها تشنيعاً وتشهيراً بالقرآن وتشفّياً في أهله، كما عهدناهم دائما في مواقفهم المخزية مع الإسلام في غير هذا السياق وفي غير هذا المجال، كما تدل تلك الخدعة أيضا على مدى ما أصيب به هؤلاء من صدمة وإحباط في أعماق نفوسهم المهزومة والمهزوزة، لما تبيّن لهم أن التقدم العلمي الذي يجادلون به «بغير علم» ويراهنون عليه للدفاع عن طروحاتهم المضللة... يأتي في كل نتائجه القطعية المتقدمة التي ثبتت صحتها بالتجريب والمشاهدة كحقيقة علمية مسلمة ومقرة علميا وعالميا مثل كروية الأرض وقوة الجاذبية وأطوار خلق الجنين في الرحم، وعملية التمثيل الضوئي وأمواج «التسونامي» وتميز الشفرة الوراثية للإنسان عن بقية الحيوان، وتفرد كل إنسان في الوجود بشفرته الخاصة التي تختلف عن شفرة أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه...

مصادرها الأصلية الموثوقة والموثّقة... ثم البحث في المقابل عن الآيات القرآنية الباهرة التي تنطبق عليها بشكل مذهل، وهو ما لا يدع مجالاً للشك في أن هذا القرآن المعجز هو كلام الله المنزل على قلب نبيّه الأميّ محمد ﷺ وأن الإسلام هو دين الحق كما ورد في قوله تعالى: ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون**﴾ (التوبة/ 33).

وسيظل هذا القرآن يتحدى ذكاء البشر وتقدمهم العلمي في مجرد إتقان تقليد صنع الجمادات، فضلا عن الإبداع والخلق والموت والحياة والروح التي تبقى من أسراره الخاصة إلى يوم القيامة كما قال سبحانه: ﴿**ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً**﴾ (الإسراء/85)، كما أن أساس الإيمان الحقيقي هو التعقل والتبصر والتدبر والحدس، وليس المشاهدة واللمس، لأن هذه الخاصية الأخيرة يتفوق فيها الكثير من الحيوانات العجمى على الإنسان ذاته، ذلك الكائن الضعيف جدا عند الولادة والمغرور جدا عند «الكِبَر»، الذي لا يتميز عن كل المخلوقات الحيوانية في هذا الكون، ولا يمتاز عنها إلا بالعقل والذكاء والقدرة على التفكير والتجريد والتعبير اللفظي واستنباط النتائج من المقدمات الموصلة إلى الإيمان بوجود الله الخالق دون رؤية فعلية بالعين المجردة التي لا تصل إلى واحد على الألف من قدرة الإبصار ودقّته لدى البعوضة أو الصقر –مثلا– الذي يرى رزقه من علو شاهق وهو يحلق في الجو بين السماء والأرض، ويبقى دائما العقل والذكاء والتدبُّر هو السيد، والقرآن هو الهادي للعقل ذاته، وعاصمه من الضلال من غياهب ومجاهيل المادة الصماء!![*].

(*) يؤكد العلماء أنفسهم بالملاحظة والتجربة أن الإنسان في هذا الكون لم يكن قط لا الأقوى ولا الأسرع ولا الأكثر تكاثرا من بين المخلوقات الأخرى، فهو لم يكن يستطيع أن يطير كالطيور أو يسبح كالأسماك أو يعدو كذوات الأربع، أو يتسلق الأشجار كالقردة ولا أن يهجم كالحيوانات المفترسة. إذ لم تتوفر لديه لا الفروة ولا المخالب ولا القرون ولا الأنياب ولا السم... للدفاع عن نفسه مثل الحيوانات الأخرى، بل كان دائما وما يزال أعزل أمام العناصر الطبيعية الهائجة والحيوانات المفترسة والأمراض الفتاكة. وقد ظل خلال السنوات الأولى من حياته غير مؤذٍ بتاتا، ودون أية حماية بحيث يمثل حالة فريدة من نوعها بين مخلوقات الله في هذا الكون المرئي!

ولابد من الإشارة هنا إلى أن ما نسميه بالمعجزة الخالدة يعني بالضرورة أن القرآن يظل معجزا بنصه اللغوي البياني والعلمي لكل العقول البشرية في كل عصر حتى قيام الساعة، كما أن القول بالإعجاز العلمي في القرآن لا يعني إطلاقا أنه كتاب فيزياء أو كيمياء أو علوم طبيعية أو ما شابه ذلك...

وإن كان ما فيه من إشارات علمية إلى حقائق الكون وأصل الوجود والخلق كـ: **﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نُصبت وإلى الأرض كيف سُطحت﴾** (الغاشية /17–20) وقوله: **﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾** (العنكبوت / 20)... فيما يربو عن الألف آية، لم يحدث أن تناقضت في أية جزئية من جزئياتها مع ما اكتشفه العلم التجريبي وأثبته ثبوتا قطعيا حتى الآن في أي مجال من مجالات المعرفة!!

ممّا يجعلها حجة للعلماء بصفة خاصة، وهم ورثة الأنبياء المكلفون بتبليغها للناس، وكأن هذه المعجزة القرآنية (العلمية) وقعت في اليوم الذي اكتشفت فيه، مهما يكن عصر ومصر هذا الاكتشاف حاضرا أو مستقبلا، مثل «**ناصية كاذبة خاطئة**»، و«**أنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس**»، و«**في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب...**»، و«**مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان**»... إلى غير ذلك من الآيات المبهرة نقلها البحث العلمي والتقدم التقني من آيات متشابهة قبل قرون إلى آيات محكمة في هذا القرن بصفة خاصّة!![*].

(*) لقد قيّظ الله لهذا الإعجاز العلمي ثلة من العلماء الربّانيين الذي وقفوا حياتهم على هذا الموضوع الهام، ونذكر الأبرز منهم حسب أسبقيتهم في هذا الميدان، وهم: الصيدلي والداعية الإسلامي الكبير الشيخ عبد المجيد الزنداني، وعالم الجيولوجيا الدكتور زغلول النجار، وعالم الفيزياء الدكتور وحيد الدين خان، والدكتور طارق السويدان، والباحث اللامع في الفلسفة وقوانين الطبيعة والبيولوجيا الأستاذ هارون يحيى، والباحث في الإعجاز الطبي والنفسي والكوني الدكتور عدنان الشريف، وحجة الإيمان ومفسر القرآن الشيخ محمد متولي الشعراوي، والدكتور الطبيب سيد الجميلي، والدكتور عبد العزيز العرجاوي، والأستاذ الفذّ في الإعجاز البياني للقرآن الكريم الدكتور فاضل السامرائي، والعلامة المجتهد الدكتور أحمد نوفل، والدكتور قدسي دويك، وغيرهم...

والقرآن بهذا المعنى ليس كتابا علميا مدرسيا أو جامعيا كما يتوهم بعض المجادلين (بغير علم)، وإنما هو كتاب محكم فيه إشارات إلى هذه المجالات وغيرها مما تمت معرفته بالفعل ومما لم يحن بعد وقت تيسير معرفته!!

ولهذا الغرض نجد القرآن يزخر بهذه الآيات الحمالة الأوجه والمعاني دون تناقض، والتي يمكن أن تكتب عشرات المجلدات حولها في ضوء ما أثبته التطور العلمي لبعض معانيها في الوقت الحاضر، وهو ما نحن بصدد الإشارة إليه هنا، وربطه بمفتاح فكّ ألغازه الأولية، وهو اللسان العربي الذي خصَّه الله بهذه المهمة!!

وبهذا يكون كل إنسان مهما يؤت من العلم والمعرفة باللغة العربية يجد في القرآن ما يثبت له بالملاحظة والتجربة أن ما أخبر به النبي الأمي ﷺ حق وكأنه نزل اليوم على العالم المكتشف لأية حقيقة من حقائقه التي لا حصر لها كما قال تعالى: «**قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا**» (الكهف/109).

وقد فتح القرآن الكريم عهدا جديدا في تاريخ الإنسان عن طريق العلم الذي تعد «القراءة» أولى خطواته ثم تليها الخطوة الثانية وهي الكتابة وأداتها القلم، وليس هناك وسيلة أو أداة في مستوى أهمية القراءة والكتابة لتحصيل العلم وتحصينه ونقله إلى الأجيال، ومن ثم وقع التنبيه عليهما من أول نزول الرسالة كعنوان عليها.

وتأكيدا لهذه العلاقة التي لا تقبل الانفصام بين القرآن ولسانه، ودفاعا عنهما في مواجهة أعدائهما الذين يضعونهما في هدف واحد على اعتبار أن إضعاف الإسلام في نظرهم هو إضعاف للسانه والقضاء على لسانه في اعتقادهم هو تجهيل الناس بالإسلام وإضعافه.

وعن عدم إمكان ترجمة القرآن الكريم، وعدم صحة التعبد بغير نصه العربي يقول الشيخ سعيد العرفي: «فعلى هذا لا نرى مانعا في إظهار عقيدتنا وإعلان رأينا وما ندين به، من أن الطعن الموجه إلى اللغة العربية في عصرنا الحاضر هو طعن في الدين الإسلامي تحت شعارها وستارها، بدافع العداوة والبغضاء، أو لأن الطاعن جاهل أرعن، والجاهل عدو نفسه فضلا عن غيره.

فمن ذلك قولهم أن ترجمة القرآن فيها منافع، بها يطلع الناس على روح هذا الدين وتعاليمه ويقفون على حقيقته وما يرمي إليه، فلا يبقى محصورا في الشعب العربي وحده. لا أدري متى انحصر الدين الإسلامي في شعب كما يزعمون؟ وهذه الملايين الكثيرة من شعوب مختلفة وعناصر متعددة، قد دخلت في الدين الإسلامي قبل أن تُخلق فكرة ترجمة القرآن، فضلا عن مجاهرة الدسّاسين بها!

فمن المعلوم أن الترجمان يُعبّر عن فكر المترجم له، فهل في استطاعة أحد من البشر أن يقول: إن هذا المعنى هو مراد الله تعالى؟ فإذا كان الله تعالى قد تحدى العالم كله بأن يأتوا بسورة من القرآن وعجزوا عن ذلك، أفليس من يعجز عن إتيان مثل تركيبه وفصاحته هو أشد عجزا وأبين ضعفا ممن يبتغي الإتيان بمعناه كاملا وفق علم الله تعالى ومشيئته»؟![1].

ثم يضيف قوله: «إن القرآن العظيم صالح لكل عصر، وإنك لتجد المفسرين يوردون وجوها كثيرة لمعنى الآية الواحدة، ولا شك في أن تلك الوجوه التي أتى بها المفسرون لا تناقض تعاليم الدين الإسلامي الأساسية. فهل في استطاعة المترجم أن يقول: إن هذا الوجه هو الذي أراده الله تعالى جزما من بين هذه الوجوه؟ فإن قال نعم، فمن أين له الترجيح؟ لأنه بلا مرجح

(1) كراس اللغة العربية رابطة الشعوب الإسلامية، المكتبة العربية، دير الزور سوريا، ط2 1983.

حتما. وإن قال لا، فإما أن يختار تلك الوجوه كلها، فيخرج عن الترجمة إلى التفسير، والتفسير لا نزاع في جوازه بجميع لغات العالم، وإما أن يتحير فيظهر العجز، وهذا هو المطلوب!

والفرق بين التفسير والترجمة، أن التفسير يحفظ الأصل، ويبقى ذلك الأصل مرجعا لجميع المفسرين الآخرين، فيكون التفسير بمثابة شرح له. وأما الترجمة، فإنها تستعاض عن الأصل، فتصبح أصلا مستقلا مستغنيا عن المترجم منه، ويكون المقصود من الترجمة أن يصيب القرآن ما أصاب التوراة والإنجيل، فإنه بالترجمة قد صار المجاز حقيقة والمتشابه محكما، وكان هذا سبب ضلال أمم كثيرة!

إن الله –سبحانه وتعالى– جعل الدين الإسلامي سمحا وسهلا، رحمة بعباده. ففرض علينا فرائض فلا نضيعها، وحرّم أشياء فلا ننتهكها، وحدّ حدودا فلا نتجاوزها، وهذه هي أصول الدين الإسلامي وضرورياته التي لا يحصل فيها نزاع ولا خلاف إلا بين الضالين أو معهم. ولكنه –سبحانه وتعالى– أبهم أشياء أخرى في القرآن رحمة بنا، ليجتهد كل منا على حسب وسعه. إن كان الاجتهاد في مقدوره. فالمصيب له أجران، أجر السعي وأجر الإصابة، والمخطئ له أجر واحد هو أجر الاجتهاد، لأنه بذل ما في وسعه.

ومن هنا يزول الاعتراض على إعطاء الآية عدة معانٍ، وتبيّن أن من يطلب الترجمة عن حسن نية، يريد الحجز على عباد الله تعالى بإلزامهم اتباع حكم واحد، والمرور على طريق واحد، مع أن الله تعالى قال: ﴿**وما جعل عليكم في الدين من حرج**﴾ (الحج/ 78). ولو أراد الله تعيين ذلك الحكم لعيّنه كما عيّن غيره لأنه كوسيلة ولذا لم يلزمنا إلا بالوصول إلى المقصود، وهو الامتثال والطاعة. وأما الطريق، فقد قال

تعالى: (**فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا**) (التغابن / 16)، فالتقوى حسب الاستطاعة وسيلة، والسمع والطاعة هما المطلب والمقصد»[1].

ويختم الباحث رأيه حول الموضوع بتقديم إجابة افتراضية عن اعتراض محتمل من الأعداء والخصوم، فيقول: «أما الشعوب التي لا تعرف اللغة العربية، فإن دعوتها إلى الهداية تكون بإعلان مبادئ الدين الإسلامي وتعاليمه بأية لغة كانت. حتى إذا قبلها الفرد منها وفهمها كلا أو بعضا، ورضي بها، فعليه أن يتعلم اللغة العربية الجامعة بينه وبين إخوانه المسلمين، كي يدرك بنفسه معاني القرآن، ويجد لذة التدبر، وينال أجره، وإلا فإن انكماشه في بلده، واقتصاره على لغته، وعدم تفاهمه مع أبناء دينه، بعد عن غاية الإسلام، ومناقض لدعامته الأساسية التي هي الاجتماع والاتحاد في الصلوات الخمس في اليوم الواحد، وفي الجمعة والعيدين والحج.

فما دام التفسير بلغة أخرى غير ممنوع ومباحا بل ومطلوبا، وما دام إفهام الدين وغايته بأية لغة كانت، فأي لزوم للترجمة؟! لولا أن وراء الأكمة ما وراءها !!

وعلى هذا فإن في إمكاننا أن نصرح ونقول: من المؤكد الذي لا امتراء فيه لدى المؤمن الحر المدرك، أن مسألة ترجمة القرآن والقول بها، لا يراد منهما إلا هدم الدين الإسلامي من طريق التفريق وتشتيت المجتمع، لأن اللغة العربية هي التي تجمع كلمة المسلمين في كافة الأقطار .

إن أشد الناس عداوة للإسلام ووحدة المسلمين هو من يزعم أن قراءة القرآن بغير اللغة العربية تجوزها الشريعة الإسلامية بعد قول الله تعالى: (**قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون**) (آل/ عمران...) . ثم هو يسعى لإيجاد اعوجاج فيه، والله يقول: (قرآنا عربيا)، وهو يقول: «قرآنا أعجميا»، ويستند في ذلك على أقوال لا شك في أنها معدّة لهذا اليوم العصيب وصادرة من

(1) المرجع ذاته.

زنديق شعوبي أو من مغفل مخدوع، ولا يسلم من هؤلاء عصر من العصور... فقد قصّ الله علينا في قرآنه أعمال كثير من المنافقين وأقوالهم في زمن رسول الله ﷺ فضلا عن غيره!

ولا ينبغي لنا أن تكون شهرة الرجل (أيا كانت قيمته الظاهرة) سببا في قبول قوله المناقض لقواعد الدين الأساسية وأحكامه القطعية... فكيف نقبل ما يرمي إلى تحريف القرآن وإضاعته؟ حتى لا يبقى للمسلمين رابطة، لأنه اليوم يمثل رابطتهم الوحيدة التي لم يبق سواها ما يجمع كلمتهم، فإذا تمكن الأعداء من القضاء عليه –والعياذ بالله تعالى– لم يبق أمامهم قوة يخشونها.

إن الله تعالى أمرنا بالمحافظة على القرآن لأن فيه ذكرنا من حيث إنه نزل بلغتنا، ولهذا اتخذت الشريعة الإسلامية الوسائل التي تحوطه وتحفظه. فقد روى الحاكم (في مستدركه) بسند صحيح عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحسن منكم أن يتكلم بالعربية فلا يتكلمنّ بغيرها فإنه يورث النفاق». ومن المعلوم أن المراد من كلمة (غيرها) هي أية لغة غير اللغة العربية، فإذا تكلم العربي بأية لغة أخرى من غير داع ولا موجب من تعلم أو تعليم أو تفاهم فإن معناه أنه قد رجحها على اللغة العربية، لغة القرآن، وهذا هو النفاق بعينه!

وهذا الحديث كما هو واضح يمثل سياجا قويا للغة العربية لو عمل به أبناؤها، وهو يدلنا على اهتمام الشارع بها لأنها رابطة الشعوب الإسلامية، ورابطة كتاب الله تعالى»[1].

ومما يثبت هذه العلاقة الربانية بين الإسلام والعربية ويؤكد هذه القداسة التي تتميز بها اللغة العربية، هو ارتباطها بالقرآن ارتباطا عضويا لا يقبل الانفصام (شكلا ونطقا ولفظا وحرفا)، وبالتالي فإن القرآن لا يقبل الترجمة إلى أية لغة أخرى لا منطقا ولا شرعا، ولا يقبل الله التعبد بغير

(1) المرجع ذاته.

نصه العربي الأصيل ولا يقبل حتى تغيير حروفه الحالية التي كُتب بها منذ نزل، وقد تميّز بها لحكمة إلهية من بينها (والله أعلم) أن لهذه الحروف مخارج لا توجد مجتمعة كلها في أية لغة أخرى من لغات العالم. غير لغة آدم عليه السلام التي نزل بهاهذا الكتاب الأول، كما قال منزله: ﴿**إئتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين**﴾ (الأحقاف/ 4)، وتأكيدا لهذه العناية الربانية باللغة القرآنية المحفوظة في القرآن وبالقرآن يقول الأستاذ ضياء الدين: «إن لكل حرف من الحروف العربية مخرجاً مخصصاً مثل الظاء والضاد والذال وهي كثيرة الورود في القرآن الكريم. وقراءة القرآن موقوفة على السماع لا تصح صلاة المسلم بتغيير مخارجها . ولا يوجد حرف باللاتينية أو الأرمنية يقوم مقام هاته الحروف إلا بوضع علامة مخصوصة له. فإذا أردنا أن نكتب بالأحرف اللاتينية أو الأرمينية قوله تعالى: (**إن بعض الظن إثم**) كانت هكذا Inna Badazzanni Ismon تقرأ (إن باد الذن إسم) بحيث لا يمكن فهم شيء من هذه الآية الكريمة ففي هذه الحالة لا يمكن للمسلمين ترك تعصبهم بالبقاء على الأحرف العربية لأن استبدالها باللاتينية أو بسواها يهدم ركناً من أركان دينهم وهو الصلاة»[1].

وتأكيداً لهذه العلاقة من الناحية الشرعية والثقافية والتاريخية أيضا بين الإسلام والعربية يقول الأستاذ مازن المبارك: «إن ارتباط الإسلام باللغة العربية ارتباط عضوي متلاحم لا يمكن معه فصل العربية عن الدين، لأنّ القرآن الكريم كتاب الإسلام نزل بلسان عربي مبين، فالعربية مفتاحه، والعربية أداة فهمه، والعربية الباب إلى كنوزه. ونبي الإسلام محمّد ﷺ

(1) مجلة المرشد العربي الجزء 1، السنة 1، نيسان 1929.

عربي قُحّ، وسنّتُه –وهي التشريع الثاني للإسلام– لا تُفْهَمُ ولا يُعْلَم ما فيها من تشريع ومبادئ وآداب وأخلاق إلاّ باللغة العربية المسطّرة بها، فلا إسلام –إذن– بلا عربية، ولا عربية بلا إسلام، وإذا أُصيب القوم بضعف في لغتهم العربية، اسْتَتبَعَ ذلك ضعفَ صلتهم بالإسلام، وفقدهم لأداة الدخول إلى رحابه والاغتراف من معينه، ولذلك فإِنّ التّقصير في حقّ اللغة، والتّهاونَ في إنقاذها من ورطتها، تفريطٌ نُحاسَبُ عليه، وتقصيرٌ ندان به، لأنّ ما لا يتمّ الواجب إلاّ به، فهو واجب. وقد رُويَ عن عمر (رضي الله عنه) قوله: «تعلّموا العربية فإِنّها من دينكم»[1].

وقد فَطن علماؤنا القدامى لعلاقة الإسلام المتينة باللّغة العربية، فأتقن المفسّرون والمحدِّثون والفقهاء والمؤرّخون والأدباء وغيرُهم علوم اللّغة غاية الإتقان، وتمكنوا من معرفة خصائص اللغة وأسرارها غاية التمكن، وكانت إجادتُهم للّغة خيرَ وسيلةٍ للفهم الصّحيح لكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، وخيرَ عونٍ لهم على استنباط الأحكام واستخلاص المبادئ والخوض في أعماق النّصوص، ورَوْعة الكتابة شعراً ونثراً، والأمثلةُ على ذلك أكثرُ من أن تُحْصَى. ولابدّ لعلمائنا المحدَثين من أن يَحْذو حَذْوَ أسلافهم في إتقان اللغة العربية، وحسن التّعامل معها، وإجادة استخدامها في فهم نصوص الإسلام، وإبراز محاسنه وفضائله، والنّهْل من مناهله التي لا يَنْضُبُ لها معين، والرّدِّ على أعدائه ومُثيري غُبار الفتنة والشُّبَه من حوله، إذ لا يَصْلُح آخرُ هذه الأمة إلا بما صَلَحَ به أوّلُها.

الضّعف في اللغة العربية يدفع بعض الناس إلى الزّيغ في العقيدة، والانحراف عن منهج الدّين والتّعسُّف والضّلال في الحكم على النّصوص الإسلامية، وليِّ عُنُق الآيات القرآنية والأحاديث النّبويّة بسوء الفهم للّغة، والجهل بخصائصها وطرق تعبيرها، والقول فيها بالهوى والعناد.

(1) مقالات، لمازن المبارك، دار البشائر (بدون تاريخ)، ص 180.

ذكر ابن جنّي في كتابه الخصائص: «أنّ أكثر من ضلّ من أهل الشّريعة عن القصد فيها، وحاد عن الطريقة المثلى إليها، فإنّما اسْتَهْواه واسْتَخَفَّ حِلْمُه ضعفُه في هذه اللغة الكريمة الشّريفة... وقال: ولو كان لهم أنْسٌ بهذه اللغة الشريفة أو تَصَرُّفٌ فيها، أو مُزاولةٌ لها، لَحَمَتْهُم السّعادةُ بها ما أصارتهم الشِّقوةُ إليه، بالبعد عنها.. ولذلك قال: رسول الله ﷺ لرجل لَحَن: «أرشدوا أخاكم فإنّه قد ضلّ» فسمَّى اللّحنَ ضلالاً، وقال عليه الصّلاة والسّلام: رحم اللّه امرأً أصلح من لسانه، وذلك لما علمه صلّى اللّه عليه وسلّم ممّا يُعقِب الجهلُ لذلك من ضدّ السّداد وزَيْغ الاعتقاد»[1].

وقد علّق محقّق (الخصائص) الأستاذ/ محمّد علي النّجّار، على الحديث الأخير بقوله: «حدّث بهذا الحديث عمر (رضي الله عنه)، وكان مرّ على قوم يُسيئون الرّمي فقرّعهم، فقالوا: إنا قوم متعلّمين، فأعرض عنهم وقال: واللّه لخطؤكم في لسانكم أشدّ عليّ من خطئكم في رميكم، حيث سمعت رسول اللّه ﷺ يقول، (فذكر الحديث).

وقد رُوِيَ عن الخليل بن أحمد الفراهيدي قوله: «إنّ أكثر من تزندق بالعراق لجهلهم بالعربية».

وتأكيداً لهذا المعنى يقول الدكتور عز الدين إبراهيم: «ومسلمة رابعة تخص موقع اللغة العربية من دراسة ديننا الإسلامي الحنيف، والتعامل مع تراثه وحضارته والعالم الإسلامي. فهي التي وسعت كتاب الله تعالى، وسنة نبيه الكريم «ص»، والتراث الفقهي والحضاري للمسلمين. وباللغة العربية نتعبد فلا صلاة إلا بأم الكتاب وهي عربية الألفاظ. وما من مسلم إلا ويعرف التكبير، والحمد، والتسبيح، والتسليم والاستغفار، وأقدارا من القرآن الكريم والأدعية، وما إلى ذلك باللغة العربية. وطلاب العلوم الشرعية يدرسون ويبحثون باللغة

(1) الخصائص، دار الهدى للطّباعة والنّشر، ج3، ص 145 و146.

العربية. وعلماء المسلمين في كل مكان يتعاملون مع اللغة العربية ومراجعها ومع أن الترجمات إلى اللغات الأخرى مطلوبة ومفيدة، فإن معرفة العربية هو من مقتضيات التخصص في الدراسات الإسلامية» (1).

وربما كان من دلالات الأمر الإلهي في أول كلمة من الوحي المنزل على النبي الأمي في غار حراء ﴿**اقرأ باسم ربك**﴾ (العلق- الآية 1) بعض من هذا المعنى، ونعتقد أن من أسرار حفظ القرآن، وحث الله على تلاوته كما أسلفنا هو ضرورة الانطلاقة إلى القراءة، بعد الأمية والرواية السماعية. هذه الأمية التي تتطلب الرواية الشفهية، وخاصة بالنسبة للمسلمين من غير الناطقين بالعربية ثم تأتي بعدها القراءة التي تتطلب الكتابة والتدوين لتشييد الحضارة بتحقيق التراكم المعرفي خلفا عن سلف، نقول: ربما كانت هذه النقلة الثنائية المزدوجة بين النقلي والعقلي، وبين السمعي والبصري، وبين الشفاهي والكتابي، هي (والله أعلم) من بين الأسرار التي حفظ بها العزيز الحكيم كلامه الكريم من الضياع والنسيان والتحريف والتزييف، لأنه ثبت بالتجربة أن أي إنقاص لكلمة أو تحريف أو خطأ أو تغيير متعمد من أعداء الله لكتاب الله، يكتشف في حينه، ويكمل الناقص أو يصحح الخاطئ أو المحرف بفضل الحافظين، الأميين منهم والمتعلمين على حد سواء، ويبقى هذا الحفظ المعجز، والسر القائم، هو الحكم الدائم، في هذه النقطة إلى يوم الدين!!

وإننا نعتقد أن تزويد القرآن الكريم بهذه الأجهزة والأدوات العجيبة من صمامات الأمان ضد الزوال والنسيان، هي التي حالت دون تمكين الأعداء من تحريفه في الكتابة للأجيال القادمة بسبب حفظ المسلمين للقرآن في الصدور قبل السطور، سواء من أجل التعبد به في الصلاة، أو حتى قراءته على الأموات... وتتمثل مصداقية الحفاظ على اللغة

(1) مختصر الكلم الطيب لابن تيمية، دار القرآن الكريم بيروت 1999. من المقدمة.

العربية، والمحافظة على القرآن باللغة العربية، في ما يسخره الله لهذه اللغة وكتابها من أسباب ووسائل الانتشار في كل الأقطار، بفضل الاختراعات المتطورة جدا في مجال الاتصال والإرسال الفضائي (السمعي – البصري) الذي صير العالم بأسره مسجدا واحدا (بالنسبة للمسلمين) ووفر على العلماء والدعاة والقراء والمجودين... مشقة الضرب في الأرض، إلى أقاصي الدنيا، من أجل إسماع كلام الله لعباد الله، وأصبح بإمكان أي مقرء في أي مكان من العالم أن يسمع كل عباد الله أنغام لغة الجنة إلا من أبى منهم!

وعطفا على آية «إقرأ» السالفة الذكر، نقول إن القرآن الكريم حافل بالآيات التي تدعو إلى التعلم عن طريق القراءة والكتابة، وبالآيات التي تبين شمولية العلم وسعته في المنظور الإسلامي وعدم قصوره على الماديات وما يخضع للمس والمشاهدة فقط.

ومن هنا ندرك سر كثرة استعمال العلم في القرآن الكريم وتنوع سياقاته، فهو تارة يطلق على الحقائق الدينية من وجود الله والوحي واليوم الآخر... أو معرفتها، وتارة أخرى يطلق على استكناه أسرار الكون المادي وما يحكم الحياة من سنن، وما يتخللها من آيات شاهدة على الله، والقرآن يعرض ذلك في شكل مترابط متماسك لا انفكاك لجزئياته ومكوناته، ولا صراع ولا تناقض بينها .

ويكفي أن نضع هذه الحقيقة في معادلة بسيطة، وهي أن لا حياة للإنسان بلا دين، ولا دين غير الإسلام **(إن الدين عند الله الإسلام)** (آل عمران/ 19) **(ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه)** (آل عمران/ 85)، ولا إسلام بلا قرآن، ولا قرآن بلا لسان، ولسان القرآن هو العربية، والعربية باللسان فقط، كما قال ﷺ: «فمن تحدث العربية فهو عربي»(*) .

(*) الحديث سبق ذكره بنصه وسنده في هذا الفصل، (انظر صفحة: 189).

وهو ما يعطي صفة الديمومة والتجدد لهذه المعجزة عبر كل العصور، لأن القرآن لا تنقضي عجائبه كما هو معلوم في إظهار حقائقه مع التطور البشري تمشيا مع كل الاكتشافات التي يعترف أهلها دائما وبكل تواضع أنهم ما يزالون يسبحون على ضفاف بحر العلم لمعرفة ما في هذا الكون من قوانين وعجائب المخلوقات، وأن ما يعرفونه منه حتى الآن لا يتجاوز العشر أو الثمن عند أكثر تقدير ممّا يجهلونه من أسرار!!

ومن آيات هذا القرآن العجيبة حقا والتي تؤكد هذا القول، أنها تأتي في لفظها الواحد جامعة للعديد من المعاني التي تصلح لمخاطبة العقل البشري حسب تطوره في الزمان، مثل الإشارة الضمنية إلى كروية الأرض: «**والأرض بعد ذلك دحاها، أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعاً لكم ولأنعامكم**» (النازعات / 30) و«**الأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج**» (ق / 7) والتي تعني بكل تأكيد أن كل ماء الكون خرج من الأرض، كما أن الجبال راسية مثل البواخر السابحة فوق الصُّهارة التي تبطن قشرة الكرة الأرضية الصالحة للزراعة، ولتوفير الغذاء للإنسان والحيوان...، كما تعني أيضا عند التمعن فيها أن الأرض كروية الشكل، لأنها في كل مكان ممدودة أمام البصر، وهو ما يعني بالضرورة انتفاء وجود حواف لها، ولا شك أن امتداد الشيء مع خلوه من الحواف لا يكون إلا في الشكل الكروي، وبهذا خاطب القرآن الكريم، كما هو واضح كل العقول في كل العصور بالحقيقة كما هي دون تناقض، وأننا نجزم أنه لو صرّح القرآن الكريم في أول وهلة للعربي الأميّ في الجزيرة العربية أن الأرض مكوّرة (كالبطيخة) لما دخل أحد من هؤلاء البدو في الإسلام وقتها! لأن مثل هذا القول الصريح قبل اختراع التليسكوب في

القرن السادس عشر يتناقض مع المشاهدة الحسية المباشرة لذلك العربي الأميّ تناقضا صارخا !!

ومثلها أيضا آية الحديد الباهرة «**وأنزلنا الحديد فيه بأسٌ شديد ومنافع للناس، وليعلم الله من ينصرُه ورسُلَه بالغيب إن الله قويٌّ عزيز**» (الحديد/ 25) التي تعني الخلق والإنزال في الوقت نفسه، ولقد ظل المفسرون طوال 14 قرنا يشرحون الإنزال بالخلق... حتى منتصف الثمانينيات من القرن العشرين، عندما أثبت العلماء أن كل ذرّة من ذرات الحديد الموجود في جسم الإنسان (داخل الكريات الحمراء) وفي باطن الأرض، وفي كل طبقاتها، هو منزَّلٌ من مسافة تقدر بملايير السنوات الضوئية، حيث تكوَّن في حرارة تقاس بمئات الملايين من الدرجات وفي أحقاب تُعَدُّ بملايين السنين، وبهذا يأتي العلم التجريبي ليؤكد المعنى الحرفي الثاني للآية، دون أن يتناقض مع المعنى الأول، السائد منذ قرون في لسان العرب، وفي التفاسير المختلفة (...).

ولهذا الغرض نجد القرآن يزخر بهذه الآيات الحمالة للأوجه والمعاني العديدة دون تناقض، والتي يمكن أن تكتب عشرات المجلدات حولها في ضوء ما أثبته التطور العلمي لبعض معانيها في الوقت الحاضر... ومثلها كلمة: «**الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون**» (يس/ 80) و«**والسماء ذات الرَّجع، والأرض ذات الصَّدع، إنه لقول فصل، وما هو بالهزل**» (الطارق/ 11– 14) و«**فلينظر الإنسان ممّا خُلق، خُلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب**» (الطارق/ 5– 7) و«**إن الله فالقُ الحبِّ والنَّوى، يُخرج الحيَّ من الميّتِ ويُخرج الميّتَ**

من الحيِّ، ذالكم اللَّه فأنَّى تُؤفكون» (الأنعام/95) وما إلى ذلك من الآيات المعجزة الباهرة .

ولعل من أروع ما يتجسد فيه نموذج هذه الآيات العلمية الجامعة وبشكل مذهل قوله تعالى: «**إنما يخشى اللَّه من عباده العلماء**» (فاطر/ 28)، والداعي إلى التدبر أن هذه الآية الوحيدة والفريدة من نوعها في القرآن، أتت مباشرة بعد آية معجزة تشمل أهم العلوم الوضعية والتجريبية كالكيمياء، والفيزياء، والجيولوجيا، والبيولوجيا، والجغرافيا، والفلك، والفضاء، والزراعة، والمناخ، وأصل الحياة وعلم الإنسان والحيوان والنبات، حيث تقول الآية: «**ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانُها ومن الجبال جُدُدٌ بيضٌ وحُمرٌ مختلف ألوانُها وغرابيبُ سود، ومن الناس والدوّابّ والأنعام مختلف ألوانُه كذلك إنّما يخشى اللَّهَ من عباده العلماء**» (فاطر/ 27 – 28)، فخشية العلماء هنا مرتبطة بالعلوم الكونية، وليست العلوم الدينية والشرعية فقط كما هو واضح صراحة في الآية، وهي إشارة قطعية الدلالة إلى ما نقول، فالعلم فضيلة والجهل رذيلة، كان هكذا وسيظل كذلك في كل العصور، ونحن نصف عصرنا الحاضر بأنه عصر العلم والتكنولوجيا... وكل الأجيال القادمة ستصف عصرها بهذا الوصف، لأن القدرة البشرية على الاكتشاف والاختراع في مجال الكون المرئي ليس لها حدود إلا ما حدده الله صراحة (كالعجز عن رؤيته أو إدراك ذاته أو معرفة سر الروح...) والتي أردف قوله في شأنها بعبارة: «**وما أوتيتم من العلم إلا قليلا**» (الإسراء/ 85). واعتبارا لذلك فإن الآية المذكورة لم تقل: إنما يؤمن بالله العلماء وإنما قالت: «**إنما يخشى اللَّهَ من عباده العلماء**»، ولو كانت العبارة بغير هذه الصيغة لاعترض بعض الذين في قلوبهم مرض من الذين يبتغون الفتنة بقولهم: يوجد العديد

من العلماء الكبار الملاحدة في العالم، والذين لم يؤد بهم علمهم بحقائق هذا الكون إلى الإيمان بالله، ولكن الآية تؤكد الخشية التي تنتج عن التعمق في العلوم الكونية والدقيقة، فَمَن من العلماء في العالم اليوم يتجرأ على الادعاء بأنه لا يخشى الكوارث الطبيعية، وآخرها كارثة «تسونامي» الذي هزّ الدنيا بأسرها وشمل بفواجعه وأهواله العديد من الشعوب والدول في القارات الخمس وفي وقت واحد تقريبا هو يوم 2004/12/26، وقد جعل كل علماء وساسة العالم صغاراً عاجزين، وجهلة حائرين أمامه دون أي حول أو قوة، وهو ما ينطبق على المؤمنين من هؤلاء وغير المؤمنين على حد سواء، والذين لا ينكر عليهم أحد صفة العلمية، وربما يكون بعض هؤلاء حائزا على جائزة نوبل للعلوم، غير أنهم جميعا نراهم في الهلع والخشية سواء!

فالمؤمنون لا يزيدهم علمهم بمطلق القدرة في خلقه كما قلنا، إلا خشية منه ومعرفة به سبحانه، لأن العاقل لا يخشى الوهم، أي لا يخشى شيئًا لا يؤمن بوجوده أصلا! والملاحدة منهم سيزيدهم علمهم وتعمقهم في دقائق الكون خشية من ألغاز هذا المجهول المفاجئ والمباغت لهم دوما الذي قضوا معظم سنوات حياتهم في المخابر والمقابر يبحثون له عن تفسير مادي لإيجاد البديل الذي ينقذهم من المصير الحتمي الرهيب و«المرعب»، ولن يجدوا هذا المنقذ أبدا بل سيجدون الله عنده! إنفاذا لقوله تعالى: «**وجاءت سَكْرَةُ الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد، ونُفِخَ في الصُّور ذلك يوم الوعيد، وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد، لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرُك اليوم حديد**» (ق / 15– 26). وإن علمهم المادي لم يؤمّنهم ولن يؤمّنهم أبدا من قدر الله

المتحدي لهم دائما والقائل بأوضح عبارات البيان العربي المعجز لفظا ومعنى: «**أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون، أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضُحًى وهم يلعبون، أفأمنوا مكر الله، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون**» (الأعراف/ 97– 99).

ويكفي دليلا على ذلك خشيتهم المطلقة للطبيعة القاهرة باعترافهم هم أنفسهم وبدون استثناء بأن قوانينها هي الغالبة دائما والمنتصرة على الإنسان حتى الآن، وعلى رأسها قانون الشيخوخة والموت، وهو قانون مجرب صحيح! وقد عبّر عنه ستالين بقوله: «إن الإنسان في صراع أبدي من أجل الحياة ولكن الموت هو المنتصر دائما!!».

وحتى لو كان إِلَهُهُم الذي يخشونه هو قانون الشيخوخة والموت والعواصف والبراكين والزلازل والصواعق و«التسونامي» كما يصرحون، فإن خشية هذا «القانون» نفسه يدل في حقيقة الأمر على خشية الله، مع اختلاف في التسمية والمصطلح كما قلنا، فهم يخشون الله رغما عنهم، حتى ولو لم يؤمنوا به وبرسله وببعثه، واستبدلوا به إيمانهم بوجود القوانين الطبيعية المخيفة لهم والقاهرة لهم تماما كما نؤمن نحن بقدرة الواحد القهار دون أن نراه جهرة كما يؤمنون بوجود قوانين «الطبيعة» الهائجة دون أن يروها أو يتحكموا فيها!! ويظل الفارق بين هؤلاء هو الفرق بين الجنة والنار وساكنيهما من المؤمنين والكفّار!!

وفي الختام نؤكد بأن هذا القرآن هو معجزة كل العصور، كما قلنا، ولئن مات المنزل عليه محمد ﷺ آخر الأنبياء والمرسلين، تطبيقا لسنة الله في الخلق «**إنك ميت وإنهم ميتون**» (الزمر/ 30) وقوله: «**كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام**» (الرحمن/ 26)، فإن القرآن المعجز كان لا بد له

من أن يظل حيًا مهيمنًا على العقول البشرية في كل زمان ومكان، ويظل ناطقا بالحق المبين كما نزل به الروح الأمين دون تحريف أو تزييف مصداقا لقوله تعالى: «**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**» (الحجر/ 9).

والحفظ هنا كما أجمع عليه كل المفسرين والعلماء هو حفظ للقرآن ولسان القرآن معا، ذلك أن القرآن لا يسمّى كذلك إلا إذا قرئ، ولا يقرأ القرآن بدون إنسان، ولسان، وبيان، في أي زمان وفي أي مكان!!

الفصل السادس
وحدة اللغة ووحدة الأمة

وكما أوردنا في مستهل مقدمة هذا الكتاب، بأن اللغة هي المعيار لبيان حدود أية أمة وهوية أي شعب في العالم... فلأن خاصية كل لغة تترك أثرها على نفسية الشعوب وطريقة تفكيرها وهي الذكريات المشتركة للأمة، وإذا اندثرت ضاعت معها معالم القومية، ويمكن القول بأن اللغة والدين المرتبط بها (كما بيّنّا في الفصل السابق بالنسبة للإسلام واللغة العربية) تعتبر من العناصر الأساسية التي تكون الثقافة والشخصية القومية في أي أمة من الأمم.

فاللغة –إذن– من أهم المقومات والأسس الضرورية في تكوين الأمم القوية الموحدة، وضمان بقائها(*). وان المحك الحقيقي لفاعلية أي عنصر من عناصر الانتماء القومي لدى المجتمع (سواء كان في اللغة أو الدين أو المشيئة أو المصلحة الاقتصادية)، يتمثل في مدى قدرته على الربط بين أفراد المجتمع ومدى مقاومته للتحلل أو الذوبان في مجتمع آخر أقوى منه ثقافة أو عددا... خاصة وأن المجتمعات القومية في الوقت الحاضر تتعرض لتيارات متعددة لا تنفك تستهدف اذابتها بشتى الطرق، ولعل الوطن العربي والإسلامي أشد تعرضا في وقتنا الحاضر لهذه الهجمات التذويبية ماديا، وثقافيا، مما يلزمه بالتمسك الشديد، بكل عوامل الربط بين أفراده، وتأتي اللغة العربية في مقدمة هذه العوامل بدون منازع، ويكفي أن نعلم مدى قيمة اللغة المشتركة التي تربط بين أفراد المجتمع الواحد، أن ننظر الى المجتمعات القومية المكونة حديثا والتي لا تتوافر لديها لغة مشتركة توحد أفكار ومشاعر

(*) مثال ذلك الأمة الألمانية التي ظلت موحدة رغم تمزيقها جغرافيا إلى دولتين بعد الحرب العالمية الثانية، وكذلك الأمة الكورية والفيتنامية...

وثقافة أفرادها، إنها تلجأ الى تبني لغة حية من الخارج، للعمل على الربط بين أفرادها على المستوى الرسمي على الأقل، والأمثلة على ذلك كثيرة بين عدد من القوميات المستجدة في إفريقيا، حيث تلجأ تلك الدول الى استعمال الفرنسية أو الأنجليزية مؤقتا حتى تمسك بيد لغاتها الوطنية والقومية، لتحل محل اللغة الأجنبية المتبناة (...).

ولذلك نقول: إن هناك لغات عالمية حية أثبتت الظروف التاريخية والتقلبات الحضارية أن لها العديد من خواص الصمود، ومن سرعة الانتشار داخل منطقة، وبين مجموعة بشرية معينة، ومن الممارسة الحضارية على مر الأطوار التاريخية... ما يجعلها مؤهلة لكي يتبناها مجتمع جديد لغة قومية له، فضلا عن تمسك أبناء اللغة أنفسهم بها، كعامل ربط لا تعوضها فيه أية لغة أخرى جديدة مهما تكن راقية.

وهذا بالضبط هو شأن اللغة العربية في المجتمع العربي الإسلامي عموما، فقد أثبتت هذه اللغة جدارتها في أن تكون نقطة الاتفاق بين جميع الناطقين بها منذ أن تبنوها لسانا قوميا لهم مع مطلع التاريخ الهجري، وأصبحت لغة مشتركة لكل أبناء المنطقة التي ينتشر فيها أفراد المجتمع المتحدث باللسان العربي في الوقت الحاضر، وفي هذا الصدد نجد التاريخ يثبت لنا عدة حقائق لا يجادل فيها عاقلان اثنان!!

الحقيقة الأولى:

إن اللغة العربية تجعل من جميع أفراد الأمة الإسلامية الناطقة بها جماعة لغوية واحدة (كما بيّنا في الفصل السابق)، والجماعة اللغوية هي عبارة يطلقها علماء اللغة على وحدات اجتماعية تستعمل لغة واحدة، بقطع النظر عن حجم هذه الوحدات أو التكتلات الإقليمية أو السياسية أو القانونية التي تحددها... فلدينا على سبيل المثال ما يمكن أن نطلق عليه تجاوزا اسم

(الأمة) الجزائرية، أو (الأمة) الليبية أو (الأمة) العراقية أو (الأمة) المصرية... من الناحية السياسية أو الإقليمية، ولكن هناك أمة تجمع كل هذه الأمم السياسية في كيان واحد، هي الأمة التي تمتد مع امتداد الجماعة اللغوية الواحدة. فعلماء اللغة لا يهتمون بالتقسيمات السياسية الموضوعية، ولا بالخواص اللغوية الفرعية التي قد تتميز بها لهجة كل قطر أو إقليم، أو شكل سياسي، أو قومية فرعية (كما يمكن أن يسميها البعض) وإنما الفيصل الأول لعلماء اللغة في تحديد الجماعة اللغوية هو وحدة اللغة الفصحى التي تسمو فوق اللهجات المحلية، والتي كونت الجامعة العربية (السياسية) التي تكونت في العصر الحاضر كانعكاس طبيعي للجامعة اللغوية، تلك الجامعة التي ربطت بين أفراد الجماعة اللغوية، برباط متين جعل من معارف كل الأقطار العربية الشاسعة الأرجاء والمختلفة الأنشطة السياسية والقوانين الوضعية... تراثا واحدا ذا طابع واحد تتماسك حلقاته وتتكامل مدارسه، وينتقل علماؤه كيفما شاؤوا، من قطر الى قطر، في أرجاء هذا الوطن الكبير... وطن الجماعة اللغوية العربية، فيتجادل هؤلاء العلماء ويحاضرون ويدرسون ويتولون مختلف مناصب الافتاء والتدريس والإعلام، دون أي عائق يمنعهم، غير قوانين المواطنة والجنسية والإقامة التي يعرفها عصرنا الحاضر... وقديما تولى علماء كثيرون من المغرب العربي مناصب علمية وقضائية، في المشرق العربي كابن خلدون وابن العنابي اللذين توليا مناصب قضائية في مصر، وكثير من علماء المغرب كانوا أساتذة بارزين في الأزهر الشريف كالشيخ الرّزقي الشرفاوي والشيخ مولود الحافظي، والشيخ الخضر حسين، أو في سوريا مثل الشيخ مبارك الجزائري والشيخ طاهر الجزائري، والشيخ محمد البشير الإبرهيمي... وفي العصر الحاضر يتولى كثير من علماء المشرق العربي مناصب التدريس والتربية في بلدان المغرب العربي، وما يقال عن العلماء والدارسين في حركتهم

داخل الجماعة اللغوية العربية يصدق على الأدباء والفنانين والسياح والتجار الخ... فكل قطر من الأقطار العربية بلد كل عربي في الواقع، رغم كل الاعتبارات السياسية التي قد تفصل الأجساد، ولكن هيهات أن تفصل الأفكار والثقافة المشتركة ما بقيت اللغة العربية هي لغة الجماعة اللغوية في العالم الناطق بالعربية كما هو الحال في الوقت الحاضر حتى بين أهل السنّة والشيعة في العراق، فقد جمعتهم اللغة العربية في جبهة وطنية واحدة ضد الاحتلال الأمريكي، في حين أدى الاختلاف اللغوي إلى تمزق أبناء الشعب الواحد والمذهب الواحد بين السنة الأكراد والسنة العرب! ونفس المثال ينطبق بكيفية مسطرية على واقع العرب الشيعة في إيران من منطقة الأهواز (أو عرب ستان) الذين يطالبون بالانفصال عن طهران لاختلافهم عنها في اللغة مع أنهم كلهم يجمعهم مذهب ديني "شيعي" واحد!!.

وقد يعترض بعضهم على هذا التحديد للجماعة اللغوية قائلا: إن هناك فوارق حضارية، واقتصادية، وبيئية شاسعة بين جماعات كثيرة في هذا العالم لا يمكن معها اعتبار هذه الجماعات المتباينة (في درجات البداوة والتحضر) جماعة واحدة بصرف النظر عن استعمالهم لغة واحدة...

والجواب كما قلنا يكمن في ان علماء الاجتماع المهتمين بدراسة الظاهرة اللغوية في المجتمع لا يعيرون اهتماما للتقسيم الطبقي أو السياسي أو الجغرافي للجماعات البشرية، وان ما يعنيهم هو التقسيم اللغوي، فما دامت هناك جماعات بشرية تتحدث لغة ثقافية واحدة تعتبر جماعة لغوية واحدة، ومن هذا المنطلق يعتبر كل العرب أفرادا في جماعة واحدة لا فرق بين عرب البداوة وعرب الحضر، وبين عرب المال وعرب الأعمال أو عرب الجنوب وعرب الشمال... كما يعتبر المتحدثون باللغة الأنجليزية كلغة تعليم وثقافة واحدة مشتركة، أفرادا في جماعة لغوية واحدة سواء كان هؤلاء الأفراد ينتمون

الى بريطانيا أو أستراليا أو نيوزيلاندا، أو كندا، وأن دول الكومنويلث أساسا نشأت على هذه الفكرة، وكذلك جامعة الدول العربية، ودول أمريكا اللاتينية الناطقة بالإسبانية التي شكلت اتحادا في الوقت الحاضر...

وهنا – أيضا – قد يعترض بعضهم بشدة قائلا: إذا كانت كل جماعة تتحدث لغة بذاتها تعتبر جماعة لغوية واحدة... فكيف نعتبر العرب جماعة لغوية من المحيط الى الخليج... ونحن نعلم أن هناك جماعات متفرقة في مختلف بلدان المشرق والمغرب العربيين، تتحدث لغات (غير عربية) كالبربرية أو النوبية، أو الأشورية أو القبطية، أو السريانية...؟

ويكون ردنا على هذا الاعتراض كالتالي:

أولا: صحيح أن هذه الأقليات التي تستعمل (في بعض الأقطار الإسلامية المستعربة) في حديثها اليومي لغات تختلف عن اللغة العربية هي تعتبر – تجاوزا– جماعات لغوية بحكم المعيار الذي حددناه لتعريف الجماعة اللغوية... ولكن هذه اللغات المستعملة على نطاق ضيق، في الحياة العملية محليًا، ليست إلا رواسب، أو هياكل عظمية لكائنات منقرضة من عهد بعيد، فقدت مقومات الحياة بفقدانها عناصر الاستقلالية الثقافية، بمعنى أن الذين يستعملون هذه اللغات المحلية لا يمكنهم أن يحققوا بها الاستقلال الثقافي، بحيث يستغنون عن استعمال اللغة العربية أو لغة أخرى مماثلة في المجالات الفكرية والأدبية والعلمية والإعلامية والدينية والتعليمية... ففيما عدا التعبير عن الحاجات البسيطة، والضرورية للحياة الجسدية لأفراد هذه الجماعات تقف تلك اللغات عاجزة، كل العجز، عن تسجيل التراث القومي ونقله، فضلا عن استيعابه والتعبير عنه، لأن التراث الثقافي الضخم الذي صنعته تلك الجماعات ذاتها لم يكن بتلك اللغات (الشفاهية) المحلية، وإنما كان باللغة العربية الفصحى، لغة العلم والدين والثقافة الراقية التي اختارها الله من بين كل

اللغات لتكون لسان وحيه للعالمين، ومن ثمة أصبحت تلك اللغات تعد من ضمن أو في عداد اللهجات المحلية التي تستعمل في الحياة اليومية دون الارتقاء الى مستوى التعبير الكتابي عن المناحي المختلفة لثقافة الجماعة، فضلا عن أن تلك اللغات المحلية قد مزجت مزجا كبيرا، بالمفردات العربية الفصيحة كما هو معلوم[1]!

ثانيا: لا تملك الجماعة اللغوية خصائص الأمة، إلا إذا كانت لغتها قادرة على أن تجعل الجماعة تستغني بها عن أية لغة أخرى في مختلف مناحي الحياة، لأن لغة الثقافة والفكر هي التي تجمع بين شعور الأفراد وأفكارهم، على الصعيد المعنوي، وليست لغة الحديث اليومي السوقي المرتبط بالجوانب الحيوانية والنباتية في الإنسان... وعليه فالجماعة اللغوية، بالمعنى الحقيقي للكلمة، هي الجماعة التي تربط بين أفرادها لغة التعبير عن الجوانب الفكرية والعاطفية الراقية، وبهذا الاعتبار لا نجد لغة تجمع أفراد الأمة بجماعتهم اللغوية (الضيقة) على هذا الأساس... غير اللغة العربية، بدليل أننا نلاحظ الأخوة التوارق أو الشاوية أو القبائل أو الميزابيين عندنا في الجزائر عندما يلتقي أفراد من هذه الجماعة مع أفراد في جماعة أخرى، لا يتفاهمون فيما بينهم إلا باللغة العربية أو أحيانا بالفرنسية أو الأنجليزية (للأسباب التي شرحناها في الفصل الأول)!!

ثالثا: إن أفراد هذه الجماعات اللغوية القليلة، والمشتتة التي تتحدث بغير العربية على الصعيد الشفهي العامي في الوطن العربي، ليست متجانسة مع بعضها، بحيث تمثل جماعة واحدة (ذات لغة واحدة) من الناحية الجغرافية، والديمغرافية من جهة، كما أنها ليست متجانسة في داخل كل واحدة منها بحيث يتحدث كل أفرادها لغة واحدة من جهة أخرى... ففي الواقع نجد كل

(1) انظر كتابنا «فرنسا والأطروحة البربرية» دار الأمة الجزائر، 1996.

جماعة لغوية فرعية (إن صحت تسميتها كذلك) تتحدث لغتين، حتى على صعيد الحياة العملية. فالفئات المتعلمة، أو شبه المتعلمة، تتحدث باللغة التي تلقت بها تعليمها، سواء كانت عربية أو لغة أخرى أجنبية (كما أسلفنا)، والفئات الأمية تتحدث اللغات أو اللهجات المحلية، ممزوجة بالعامية المتفرعة عن الفصحى... ومن هنا لا يمكن أن نتحصل على جماعة ذات خصائص ثقافية مشتركة وموحدة أو متقاربة في أي قطر من الأقطار الإسلامية المستعربة، إلا الجماعة اللغوية العربية!

رابعا: إن كل فرد من أفراد هذه الجماعة اللغوية (الفرعية) في الوطن العربي (بصفته مسلماً) يتشوق الى معرفة اللغة العربية، لأنها اللغة المشتركة التي تمثل مفتاح الاتصال بأبناء وطنه الصغير، فضلا عن وطنه الكبير، وهي وعاء تاريخه وتراثه الوطني، وطالما يوجد هذا التوقان الشديد لمعرفة اللغة العربية بدافع وطني أو ديني لدى أفراد هذه الجماعات اللغوية المذكورة، فيكفي أن تتاح لها فرص التعلم لتصبح هذه الشعوب عربية بأتم معنى الكلمة، كما حصل للأغلبية الساحقة التي تعربت على مر التاريخ الهجري، في نفس الأقطار التي توجد بها تلك الجماعة اللغوية، وذلك إن لم تتدخل في ذلك أيادي الاستعمار المتربص دوما بوحدة الديار، كما بينا، وسنبين في الفصول اللاحقة من هذا الكتاب!!

الحقيقة الثانية:

إن اللغة العربية هي اللغة المشتركة بين جميع العرب على اختلاف لهجاتهم المحلية، ويمكن تعريف اللغة المشتركة لأية جماعة بشرية بأنها هي اللغة التي تخلصت من كل الخصائص التي تعوق التفاهم بين الفرد وسواه، ممن لا ينتمون الى نفس الجماعة اللغوية التي ينتمي هو إليها... وبمعنى آخر: اللغة المشتركة هي التي لا يعرف سامعها أو قارئها المنطقة الأصلية التي ينتمي إليها المتكلم بها... ومثال ذلك أننا لو قرأنا لكاتب بالعامية، أو استمعنا الى

شخص يتكلم باللهجة العامية الجزائرية، أو المغربية أو الليبية... فأننا نعرف على الفور الى أي قطر من الأقطار العربية ينتمي هذا المتحدث.

ولكن لو كتب أو تحدث هذا الشخص باللغة العربية الفصحى بقواعدها النحوية والصرفية السليمة، فانه يستحيل معرفة المنطقة التي ينتمي إليها الفرد المتحدث أو الكاتب، وكمثال على ذلك نذكر شعراء الملحون وشعراء الفصحى العرب، وكذلك مذيعي ومذيعات القنوات الفضائية العربية التي تلتزم الفصحى في الوقت الحاضر. ففي الوقت الذي نميز مذيعي القنوات العامية ونميز شعراء الملحون بمجرد القراءة أو السماع لا يمكن أن نحدد المنطقة التي ينتمي إليها أي مذيع فصيح أو شاعر من شعراء الفصحى إذا تقيد في الكتابة أو القراءة بقواعد العربية، في الوقت الذي نستطيع أن نميز الأسلوب الشخصي للكاتب أو الشاعر فنقول: هذا أسلوب المنفلوطي، أو جبران أو شوقي أو خليل مطران أو محمد العيد أو الإبراهيمي أو محمد فريد، أو... وهكذا تتضح قيمة اللغة المشتركة لدى الكتاب بصفة خاصة، وذلك لأن القارىء أمام الكاتب ليس مثل السامع أمام المتكلم، ولهذا فلو استطاع المتكلم أن يعدل من نطقه، لبعض الحروف، بما يلائم سامعه (كحرف الجيم والظاء والذال في بلدان المشرق العربي...) فانه لا يمكن للكاتب أن يغفل ذلك فيما يخطه من نثر أو شعر.

ولقد واجهت هذه الصعوبة الكتاب الفرنسيين والإنجليز في أوائل القرن السادس عشر قبل نضوج اللغة المشتركة في انجلترا وفرنسا. وعلى هذا الأساس تكون اللغة المشتركة هي الرابطة بين أفراد الجماعة اللغوية، مهما اختلفت المناطق اللغوية التي ينتمي إليها كل واحد منهم. فهي تأتي نتيجة اتساع الأفق المعرفي والاجتماعي للفرد، والذي يتطلب تحقيق الانسجام بين الفرد وجماعته، وهو ما لا يمكن تحقيقه إلا بواسطة اللغة المشتركة.

ومن المعلوم أنه من المحبذ لكل فرد في البلدان العربية أن تتحدث إليه بلهجته المحلية ولكن عندما لا يمكن أن نتحدث بهذه اللهجة، فان أفضل طريقة للتفاهم معه هي أن نستعمل اللغة الفصحى المشتركة، وتكون حينئذ اللهجة المحلية في المقام الأول، واللغة المشتركة في المقام الثاني... ولكن لو فرضنا أننا نكتب كتابا أو نتحدث في إذاعة عربية أو قناة فضائية موجهة لكل العرب، على اختلاف لهجاتهم المحلية... فان اللغة المشتركة في هذه الحالة تكون في المقام الأول، وهنا تكمن علاقة اللغة بالثقافة القومية المشتركة في عمومياتها وقيمها الجوهرية والأدب الرفيع، الذي لا يمكن للهجات المحلية احتواؤه فضلا عن نقله، والتعبير عنه!

الحقيقة الثالثة:

إن اللغة العربية هي لغة الأدب الرفيع على امتداد رقعة المتحدثين بالعربية، حتى أننا لا نجد في الكتب (غير المغرضة) شيئا اسمه الأدب الجزائري أو الأدب الليبي، أو الأدب المصري، وإنما نجد بدلا من ذلك اسم الأدب العربي في الجزائر أو في ليبيا أو في المغرب أو في مصر، أو في عُمان أو موريطانيا... في حين نجد في المقابل: الأدب الانجليزي أو الألماني أو الفرنسي، أو الروسي، كأدب متميز بخصائص اللغة التي يتحدثها الشعب الانجليزي، أو الشعب الألماني، أو الشعب الفرنسي، أو الشعب الروسي... وذلك لأن الأدب العربي تعاون على إنتاجه كل الأدباء المبدعين باللغة العربية بقطع النظر عن الأقطار التي ينتمون أو كانوا ينتمون إليها بجنسياتهم السياسية من بخارى الى قرطبة قديما أو من مَسْقطْ الى نواقشط حاليا!

ومن ثمة لم يكن الأدب العربي الذي هو نتاج لكل المبدعين بالعربية، غريبا على أي موطن من مواطن الجماعة اللغوية العربية، على امتداد التاريخ رأسيا وعلى امتداد الجغرافية أفقيا.

فعندما بدأت النهضة الأدبية في العصر الحديث وترعرت وجدت في اللغة العربية وسيلتها الوحيدة لتحقيق هذه النهضة، وعندما يريد أي قطر عربي أن يلبي رغبته في إحياء التراث الثقافي والفكري يجد في الأدب العربي ما يكفي حاجته الفعلية، وهكذا تم إحياء الأدب العربي في لبنان على يد جبران ومطران وميخائيل نعيمة، وفي مصر تم إحياؤه على يد البارودي والعقاد وشوقي وطه حسين وغيرهم، وقد ساعد على ذلك أن الفرق بين العربية الفصحى لغة الأدب العربي، واللهجات المحلية فرق لا ينهض حاجزا بين أبناء هذه اللهجة المحلية، وبين لغة الأدب العربي مع انتشار التعليم، واستقلال الأقطار العربية من قبضة الاحتلال الأجنبي المباشر. فاللهجات الدارجة لأفراد الجماعة اللغوية العربية ليست بعيدة عن الفصحى، بل هي منها وإليها، حتى كاد يزول الخيط الفاصل بين الفصحى والدارجة في حديث المتعلمين، من أبناء الأمة أو الجماعة اللغوية الواحدة الى جانب أن أي عربي (حتى وإن كان غير متعلم) يستطيع أن يفهم بكل سهولة ما يقرأ عليه باللغة المبسطة، ومن المعلوم أن الكتاب والأدباء في عصرنا الحاضر يميلون الى تبسيط لغتهم الفصيحة والابتعاد عن الغريب من الألفاظ، بكيفية من شأنها أن تضيق المسافة بين الفصحى والعامية الى حد بعيد، وللصحافة المكتوبة والمنطوقة في هذا المجال دور جدير بالذكر، غير أن الأمر ليس كذلك في أوروبا، فقبل تكوين اللغة المشتركة في إنجلترا أو فرنسا أو ألمانيا، كانت اللاتينية في هذه البلدان لغة غريبة عن اللهجات المحلية، ولذلك لم تكن في متناول السواد الأعظم، من أفراد الشعب، بل كانت لغة الخاصة، وعصر القوميات الذي نعيشه هو عصر الشعوب، ولهذا لم تجد هذه البلدان بدا في استبدال لغة الشعب باللاتينية التي تختلف عنها اختلافا بينا، لا يقترب من اختلاف اللهجات العربية من الفصحى بأي حال من الأحوال، فضلا عن أن هذا الاختلاف هو

في الانحسار مع انتشار التعليم، وتطور وسائل الإعلام العصرية، وخاصة الفضائيات الرقمية، والشبكات العنكبوتية العجيبة!!.

وللأدب العربي تأثير كبير في نشأة اللغة المشتركة والمحافظة عليها على طول امتداد التاريخ الهجري، فقد كان للأدب العربي الفضل الأول في توحيد اللغة الفصحى في الجزيرة العربية، ثم في الأقطار الإسلامية الأخرى بعد ذلك، ويعتبر الغناء في عصرنا الحاضر (وهو نوع من الإنتاج الأدبي) بمثابة الشعر في العصر القديم، بحيث نجده يلعب الدور الكبير في المحافظة على اللغة العربية المشتركة.

ولا شك أن معظم الأغنيات رواجا وانتشارا في الأقطار العربية، هي الأغاني ذات الشعر الفصيح مهما كان محتواه، وما مأثورات أم كلثوم وفيروز وعبد الوهاب وصباح فخري وعبد الحليم حافظ وفريد الأطرش ومارسيل خليفة ووردة الجزائرية الا ما كتب بالفصحى، كالنهر الخالد والأطلال والثلاثية المقدسة وقارئة الفنجان، بالإضافة الى الموشحات...

وقل الشيء ذاته بالنسبة للمسرح والسينما، فان معظم المسلسلات التلفزيونية والأفلام السينمائية التي تجد إقبالا من طرف كل أفراد المجتمع العربي هي التي كتبت بالفصحى، وذلك لأن المشاهدين العرب (الذين يتحدثون في حياتهم اليومية لهجات مختلفة) لا تجمعهم إلا الفصحى، وأذكر مثالا للدلالة على ارتباط الحس العام بالفصحى، وابتعاده عن اللهجات المحلية، وهذا المثال من تجربتي الشخصية، فقد كنت أتحدث مع بعض العوام في قريتي بجبال القبائل الجزائرية، عن البرامج التي تعجبهم في التلفزة الجزائرية بعدما شرعت الدولة في تعريب برامجها الثقافية (في أوائل السبعينيات)، وكان الإنتاج الوطني من الأفلام ضئيلا لا يغطي الاحتياجات، مما اضطر المسؤولين عن هذا القطاع في ذلك الوقت الى استيراد أفلام عربية من لبنان وسوريا ومصر بالدرجة الأولى...

وقد كانت الأفلام اللبنانية كلها ناطقة بالفصحى، في حين أن الأفلام المصرية في معظمها (عدا المسلسلات الدينية) ناطقة باللهجة المصرية، وعلما بأن اللهجة المصرية هي من أسهل اللهجات العربية وأكثرها انتشارا، إلا أن الجماعة الذين سألتهم قالوا لي بأن اللغة اللبنانية والسورية هي التي تعجبنا ونفهمها أحسن من اللغة المصرية، وكان تعبيرهم في غاية العفوية لأنهم لا يفرقون بين اللغة العربية واللهجة اللبنانية أو السورية، وظنوا أنها هي لغة اللبنانيين، فوجدوها مفهومة لديهم أفضل من اللهجة المصرية، مع أن اللهجة اللبنانية والسورية من أصعب اللهجات العربية، ولو فرضنا أن اللبنانيين والسوريين كتبوا إنتاجهم الفني بالعامية لما وجد من يتقبله في الجزائر، اللهم إلا إذا ترجم الى اللغة الفرنسية، مثلما يترجم كلام بعض الجزائريين والمغاربة (الكبار) إلى اللغة العربية الفصحى في قناة الجزيرة في الوقت الحاضر، حتى يفهمهم كل العرب!! وقس على هذا المثال كل ما كتب بالعامية، إذا وجّه إلى خارج الأقطار العربية التي أنتج فيها...

الحقيقة الرابعة:

إن اللغة العربية هي لغة الثقافة المشتركة لكل أفراد المجتمع العربي، وكما تبينا علاقة اللغة العربية بالأدب العربي، وهو جزء من الثقافة، وتأثير كل واحد منهما في الآخر، فأننا نجد اللغة الفصحى هي وسيلة التعبير عن كل المظاهر الثقافية لأفراد المجتمع العربي، ومن ثمة فهي لغة الماضي والحاضر والمستقبل... فهي لغة التاريخ والتراث والحضارة ذات الطابع العربي الإسلامي، ذلك أننا عندما نتحدث عن اللغة العربية والثقافة العربية لا نقصد الألفاظ والعبارات المنطوقة، كما هي مستعملة في الأدب العربي بأنواعه المختلفة، وإنما نقصد باللغة معناها الأبعد من ذلك، لأن خاصية كل لغة تترك أثرها البين على نفسية الشعوب، وطريقة تفكيرها، وهي الذكريات المشتركة

التي يمثل اندثارها ضياع الشخصية المتميزة للأمة، وضياع معالم مقوماتها، وهذا ما جعل قوات الغزو الأجنبي للأقطار العربية تعمد إليه، لطمس معالم الشخصية العربية الإسلامية، الوطنية والقومية في هذه البلاد والقضاء على لغة الشعب المحتل، باستبدال لغتها بها... ومثال الاستعمار الفرنسي في الجزائر والمغرب وتونس أشهر من أن يذكر في هذا الخصوص (راجع الفصل الأول)، وقد حاول الروس استخدام الأسلوب نفسه مع بولندا، غير أن بقاء اللغة البولندية كلغة حديث بين أفراد المجتمع البولندي ظل يمثل أقوى العوامل المحافظة على الروح القومية البولندية، ودفعها بالتالي الى العمل على التحرر من قبضة المحتل الأجنبي، وتكوين الدولة القومية البولندية، بعد أكثر من قرن من الرزوح تحت حكم الاحتلال...

ونلاحظ في بعض الأحيان أن الحكم الأجنبي قد ينجح في طمس المعالم القومية لشخصية شعب من الشعوب إذا تم القضاء على لغته القومية مثلما حدث للسلافيين في ظل الحكم النمساوي، والذي دفع رواد القومية في هذه الأقطار الى العمل على بعث اللغة القومية التي كادت تندثر ليضمنوا بها تكوين الشعور القومي والحفاظ عليه.

والدليل الآخر على علاقة اللغة بالثقافة يتمثل على الخصوص في المناطق التي تشترك فيها الثقافة والواقعة بين أمتين كبيرتين... فان الفيصل الأول لضم هذه الفئات الى هذه الأمة أو تلك، هو نوعية اللغة التي يتحدث بها السكان، وكثيرا ما يكون ذلك سببا لاندلاع حروب طاحنة بين أمتين، ومن أبرز الأمثلة لنا على ذلك داخل الأمة الإسلامية هي مقاطعة الاسكندرونة المسلمة الوجدان العربية اللسان التي توشك اللغة العربية فيها أن تندثر، نتيجة عمل الحكم التركي على استبقائها خاضعة له، باتباع سياسة التتريك اللغوي والثقافي بها... والمثال ذاته ينسحب على وضع إقليم أو مقاطعة

عربستان (الأهواز) الناطقة بالعربية في إيران(. . .) وكذلك ما قام به البلغار في الثمانينيات إزاء الأتراك، والصرب في التسعينيات إزاء الألبان في كوسوفو، وكذلك ما يقوم به المقدونيون إزاء الألبان في الوقت الحاضر!

والمثال نفسه ينطبق على مدينة القدس بفلسطين المحتلة التي تحاول (إسرائيل) أن تزيل معالمها الثقافية العربية، لاحتوائها ثقافيا ضمن «الدولة العبرية» مثلما فعلت من قبل على تهويد المدن العربية الواقعة داخل الأراضي المحتلة سنة 1948، وعلاقة اللغة العربية بثقافتها الجامعة تظهر لنا بجلاء في الأدب العربي (الذي يعتبر مرآة هذه الثقافة) فعندما يبحث المواطن العربي في الجزائر أو المغرب أو العراق أو مصر في تاريخ الثقافة العربية، يتتبع تطور الأدب العربي وانتشاره من شبه الجزيرة العربية ثم دمشق وبغداد ويتابعه في الأندلس وبلدان المغرب العربي، بنفس الدرجة من الاهتمام، دون أن يتوقف عند تراث ثقافي محدد بحدود أي إقليم سياسي من الأقاليم الإدارية التي تقسّم إليها أقطار الأمة الواحدة سياسيا في الوقت الحاضر.

وفي سياق حديثنا عن اللغة العربية التي نعتبرها العمود الفقري لوحدة الوطن والأمة، بعد الإسلام الذي نشرها وحماها من الزوال، نذكر ما خطه الدكتور زكي نجيب محمود في وحدة اللغة حيث يقول: «إن هذا التأثير القوي للغة في ايجاد الأمة المترابطة ناشيء علميا عن أنها أداة لعدوى الأفكار، وعدوى الشعور، فالمجتمع الذي تسيطر عليه لغة واحدة كالمجتمع العربي، لابد أن تطبعه وتصهر أفراده جميعا في بوتقة ثقافتها، من حيث أن اللغة أفكار وأحاسيس في ألفاظ نقرأها أو نسمعها، فنشعر بانجذاب إليها، كما هي تاريخ الأفكار والانفعالات التي مست أجدادنا بتياراتها من قبل ثم اتصلت بنا» [1].

(1) جريدة الأهرام، الصادرة بتاريخ 1988/10/25.

وبالنسبة لموضوع «دور اللغة في وحدة الأمة» فإن أبرز من تناوله باستراتيجية فذة، ونظرة ثاقبة للمستقبل... هو العالم المصلح جمال الدين الأفغاني، وتجدر الإشارة الى أنه كان أول من فكر وجاهد من أجل توحيد أجزاء الأمة الإسلامية بتأصيل الإسلام في العرب، ونشر العربية وترسيخها في حياة المسلمين على امتداد رقعة سماع الآذان، وذلك إدراكا منه بأن بقاء الأمم القوية في التاريخ يتطلب بالضرورة عاملين اثنين يعلوان فوق كل العوامل ألا وهما قوة الإيمان الدافع ووحدة اللسان الجامع!

فلا وجود للمسلمين بدون قوة الإيمان ووحدة الأوطان، ولا حضارة لهم بدون وحدة اللسان الـمُعْرِب عما في الوجدان، والمكسر للحواجز المصطنعة بين الأوطان، فعن هذا القانون الحضاري يقيم جمال الدين البرهان فيقول: «إن الأمم المحكومة إذا تيسر لها المحافظة على جامعاتها من دين ولسان وتاريخ، ولم تستحل وتنحل في غير عنصرها، فهي أقرب الناس للفرص، وأعلق الخلق بإعادة مجدها، وتجديد وإعادة سيرتها الأولى، ولن تثنيها أشد العوامل عن المطالبة بها»(1).

وبعد أن وضع هذا القانون العام الذي لابد منه لقيام الحضارات وبقائها والمتمثل في وحدة المعتقد ووحدة اللسان، المعبر عنهما في النص بالجامعات المتكاملة والمتفاعلة في التاريخ، وبالتاريخ، كعنصر ثالث، يرمز ويحافظ على سيرورة بقاء الأمة في بوتقتها الثقافية الصاهرة... يستنطق التاريخ ويستشهد وقائعه الحية على صحة قانون البقاء هذا، فيقول في مكان آخر: «هذه شبه جزيرة البلقان التي افتتحها العثمانيون وبقيت في حوزتهم وتحت سلطانهم الأجيال، فماذا أحدثت في تلك الممالك من آثار العمران؟... وإذا كان الجواب «لاشيء» حينئذ يضطرنا الإنصاف الى أن

(1) محمد عمارة، الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر 1981، ص: 10.

نقول: إن الدولة العثمانية في فتوحاتها، وماشاهدناه من تفريطها لم تكن لتحسن الاستعمار، بل بقيت سدا منيعا للأمم المحكومة منها، يحول بينها وبين الأخذ بأسباب الحضارة ومجاراة الأمم الراقية في مدنيتها وعلومها وصنائعها.

وشعوب من ذكرنا من ممالك البلقان يزيدون عن السبعة عشر مليونا، ولكل أمة ومملكة جامعات، ومميزات، من تاريخ ودين ولسان وعادات وأخلاق، وهي في كل هذا على نقيض مع العثمانيين الأتراك، فلو أخذت الدولة بالحزم بعد الفتح، وعملت بصائب الفكر والرأي، لعلمت أن بقاء تلك الممالك (البلقانية) في حوزتها يحتاج لايجاد جامعات تجمعها مع شعوبها، فتعمد الى وسائل تعميم لسانها بإحداث دور علم وغيرها، حتى إذا استطاعت، وتسنى لها في ظرف جيل أو جيلين أن تعمم لسانها، كان لها إحدى العوامل الكبرى للبقاء، ولعدم سرعة الانفصال والتفكك، إذ يكونون أتراكا باللسان مثلا أو بالدعوة الدينية كما تفعل اليوم دول الاستعمار ببث المبشرين... فإذا انتشرت الدعوة الدينية وقبلتها الأمة المستعمرة، اشتركوا بجامعة ثانية وهي اللسان والدين، فكان الارتباط أشد وأوثق... أما الدولة العثمانية فلم تفعل في ممالك البلقان ما ذكرنا ولم تفكر فيه، فضلا عن أن تسعى إليه، فكان خروج تلك الممالك من حوزتها واستقلالها أمرا محتما وقوعه»[1].

ونجده في مكان آخر من استشهاداته المفحمة يذكر بلدا من ممالك البلقان، أصبح «نموذجا» فيما بعد ليتخذ منه الحجة على ما يقول: فيستدل الأستاذ ببلغاريا، تلك الدولة الشيوعية سابقا "القومية" حاليا والتي ضربت الرقم القياسي في استئصال جذور التوحيد، ليس من قلوب وأذهان وألسنة الموحدين من أبناء وطنها (من غير أبناء ملتها) فحسب، بل حتى من أوراق

(1) محمد عمارة، المرجع السابق، ص: 13.

بطاقات التعريف (الوطنية) بتغيير الأسماء الإسلامية للكهول والشيوخ، فضلا عن المواليد الجدد كما هو معلوم، وجاري به العمل منذ سنوات، على مرمى ومسمع من العالم الصليبي «الحر» وغير الحر!

فعن هذا البلد النموذج يقول مهندس وحدة أمة الخلافة الضائعة أو (المضيعة) بعبارة أدق ما نصه: «افتتح السلطان مراد الثاني بلغاريا سنة 1382م، وبقيت تحت حكم العثمانيين في حوزتهم نحوا من أربعة أجيال... ولم يفقد البلغاريون استقلالهم أربعة أجيال إلا مع العثمانيين، وماذا فعلوا مع البلغار مدى تلك الأجيال، وأي أثر تركوا في بلغاريا؟ لا شيء... بلى.... تركوا لهم جامعاتهم الكبرى (أي مقومات وحدة أمتهم) من دين ولسان وتاريخ، يسيرون مع الحضارة والمدنية مع السائرين وحكامهم الأتراك من القاعدين!»[1].

وبعد أن شخّص هذا المهندس الفذّ ما كان سببا للزوال والضياع لأمتنا في تلك البقاع، نجده في مكان آخر يحدد لنا ما كان ينبغي أو يجب أن يكون عليه المسلمون في أي وطن أو قطر من أقطار أمة الإسلام، وهو ما يهمنا أن نذكره ونركز عليه الحديث في هذا المقام لكونه متعلقا بما هو حاضر وما هو آت أو مستقبل من أيام هذه الأمة أو أية أمة أخرى في العالم، كقاعدة وليس كاستثناء، فيقول في هذا السياق «ولننظر في فتوحات الدولة (أي العثمانية) للممالك الإسلامية، من مصر، والشام فحلب، فبغداد، وتونس، وسائر الممالك العربية فنراها قد تمكنت من الفتح مع قليل من المقاومة والحروب، وكان لجامعة الدين التأثير العظيم في قبول الحكم العثماني، ولو أن الدولة قبلت من يوم استقلالها وعملت بالفكر من عهد السلطان محمد الفاتح أو السلطان سليم بأن يتخذ اللسان العربي، وهو لسان الدين لسانا رسميا، وتسعى بكل قوتها وجهدها لتعريب الأتراك لكانت في أمنع قوة وآمن حصن

(1) محمد عمارة، المرجع السابق، ص: 11.

من الانتقاض والخروج عن سلطانهم، ولكنها فعلت العكس، إذ فكرت بتتريك العرب وما أسفهها سياسة وأسقمه من رأي، لأن تدين الأتراك بالدين الإسلامي، على جهل باللسان العربي، جعل له في القلوب منزلة، ساقت وتسوق الأمة العربية للعطف عليهم مع سائر المسلمين. فما قولك لو تعربت، وانتفت من بين الأمتين النعرة القومية وزال داعي النفور والانقسام بين الترك والعرب وصاروا أمة عربية بكل ما في اللسان من معنى، وفي الدين الإسلامي من عدل، وفي سيرة أفاضل العرب من الأخلاق، وفي مكارمهم من عادات.

لاريب لو تيسر ذلك لكان إعادة عصر الرشيد للمسلمين ميسورا. وجمع شتات الممالك الإسلامية تحت لواء سلطان عادل همام، مثل الفاتح أو السلطان سليمان أو السلطان سليم غير عسير، ولكن مع الأسف، عدم قبول فكرة السلطان الفاتح أو السلطان سليم لتعميم اللسان العربي خطأ بين لا يضارعه إلا توغل العثمانيين في أوروبا وشبه جزيرة البلقان، وجعل القسطنطينية عاصمة للسلطنة والخلافة...»[1].

ويؤكد هذا الخطأ الاستراتيجي المميت والمقلص لظل آخر دولة للخلافة على يد أحد «آباء» القوميين الأتراك (مصطفى كمال أتاتورك) كنتيجة حتمية للخطوة الأولى التي خطاها بعض أسلافه من قبله فيقول جمال الدين الأفغاني في ذلك ما نصه: «لقد كاشفت السلطان عبد الحميد في أكثر هذه المواضيع في خلوات عديدة، فكان يسمع بكل إصغاء، ولكنه في النتيجة كان قليل الاحتفاء بكل ما قلته له، وفهمت من أوضاعه وأسارير وجهه، أنه لا يعتقد أن قبول اللسان العربي، وفكرة الفاتح والسلطان سليم صوابا، وكذلك لا يحب أن يعترف أن توغله في أوروبا وفتح جزيرة البلقان كان خطأ»[2].

(1) محمد عمارة، المرجع السابق، ص: 13.

(2) نفس المرجع، ونفس الصفحة.

ثم يورد جمال الدين الحجج الدامغة والناطقة للبرهنة على نفاذ بصيرته (وشديد أسفه) على ضياع، بل تضييع وحدة الأمة المحمدية في جغرافيتها (ثوابتها الطبيعية) فيقول: «فلو أنصف الأتراك أنفسهم وأخذوا بالحزم واستعربوا وترأسوا ذلك الملك وعدلوا في أهله وجروا على سنن الرشيد والمأمون – على الأقل – ولا نقول، على سنن وسيرة الخلفاء الراشدين، فمن كان من دول الأرض أغلى منه مملكة؟ أو أعز جانبا؟ وأمنع حوزة؟ من؟؟ ولكن مع الأسف، ان اخواننا الأتراك لم يحسنوا من أعمال الدنيا غير (الحرب) وهم فيما عدا ذلك وفيما يختص بشؤون العمران، أقل رؤية وعملا من سواهم، يسوؤني وأنا ممن يحبهم وأتأثر كلما تذكرت ما ارتكبوه من الخطأ في عدم قبولهم اللسان العربي، لسان الدين الطاهر، والأدب الباهر، وديوان الفضائل والمفاخر، باللسان التركي!! ذلك اللسان الذي لو تجرد من الكلمات العربية والفارسية لكان أفقر لسان على وجه الأرض، ولعجز عن القيام بحاجيات أمة بدوية، ولولا أنه خليط من ثلاثة ألسنة لما رأينا للأتراك شعرا يقرأ أو منثورا يفهم، أو بيانا يترجم عن جنان... فكيف يعقل تتريك العرب وقد تبارت الأعاجم في الاستعراب وتسابقت وكان اللسان العربي لغير المسلمين، ولم يزل من أعز الجامعات وأكبر المفاخر؟!... وهذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان بما لا يحتاج معه الى دليل أو برهان»[1] ويؤكد هذا المعنى في مكان آخر بقوله: «لا جامعة لقوم لا لسان لهم ولا لسان لقوم لا آداب لهم، ولا عز لقوم لا تاريخ لهم، ولا تاريخ لقوم إذا لم يقم منهم أساطين تحمي وتحيي آثار رجال تاريخها»[2].

ويتخذ الأستاذ جمال الدين أمثلة حية عن عدم نجاح أي استعمار لأية ديار في العالم إذا لم يتمكن من صهر المستعمرين عقيدة ولسانا فيقول: «إذا كان هذا العدل لا يوافق أذواق المتفقين معهم في الجامعات السابقة (ويقصد

(1) محمد عمارة، المرجع السابق، ص: 13.

(2) نفس المرجع، صفحة 16.

هنا مقومات الأمة التي تجمع انجلترا بايرلندا من دين ولغة وثقافة مع اختلاف في المذهب الديني فقط) فكيف ترجى ملاءمته لأذواق الذين لا نسبة بينهم، ولا صلة تجمعهم، لا في لغة ولا جنس ولا دين؟! »[1] الى أن يضيف في مكان آخر قوله: « هذا بعض ما لآداب اللسان من التأثير المادي، أما التأثير المعنوي فيكفي أنه من أكبر الجوامع التي تجمع الشتات وتنزل من الأمة منزلة أكبر المفاخر، فكم رأينا من دول اغتصب ملكها الغير، فحافظت على لسانها محكومة، وترقبت الفرص، ونهضت بعد دهر فردت ملكها، وجمعت من ينطق بلسانها إليها، والعامل في ذلك إنما هو اللسان قبل كل ما سواه، ولو فقدوا لسانهم لفقدوا تاريخهم ونسوا مجدهم، وظلوا في الاستعباد ما شاء الله »[2] وكم يصدق هذا القانون (الأفغاني الرباني) عندما نطبقه على واقع بلاد المسلمين فنجد –مثلا– أن بلاد الموحدين في مغرب شمس الله (أقصد بلاد المغرب العربي) كادت تصبح (أندلسا) ثانية في هذا القرن على أيدي الغاصب الفرنسي لولا استماتة الأحرار من أهل الديار في التمسك بمقومات وجود وبقاء الوطن والأمة، وفي مقدمتها المحافظة على اللسان المرتبط بالأذان والوجدان كما قلنا.

ويؤكد هذا المعنى الأستاذ «جبر ضومط»، بقوله: «كان لنا أي المتكلمين بالعربية جامعتان جامعة اللغة وجامعة الدين وهما جامعتان أساسيتان ومن أشد الجامعات لتكوين الأمة والمملكة ثم ربطتنا (أكثرنا) الجامعة الدينية بالعثمانيين الأتراك فتألفت من ذلك الممالك العثمانية في أوروبا وآسيا وشمالي إفريقيا. ولسوء الطالع تغلب العثمانيون على أقوام وألحقوهم بممالكهم وهم يربطهم بالعثمانيين من الأتراك والعرب جامعة ما

(1) محمد عمارة، المرجع السابق، ص: 49.
(2) نفس المرجع، صفحة 148.

غير جامعة التغلب والقهر فكانوا سببا في ضعف الدولة العثمانية وما زالوا أشواكًا ومناخس في جسمها يثورون عليها ويمالئون أعداءها حتى انفصلوا عنها أخيراً »[1].

ثم يضيف تأكيده على أهمية جامعتي الدين واللسان وسبب انفصال العرب وغيرهم من الأقوام عن آل عثمان، فيقول: «ولم يقتصر الأمر على ذلك فقط بل كانوا علة لانفصال كثير من البلدان العربية عن العثمانية رغم الرابطة الدينية الشديدة التي كانت تربطهم بالعثمانيين الأتراك. وذلك لبعدهم عن مركز العصبية العثمانية في آسيا الصغرى، وبما كان حصل للدولة من ضعف وانحطاط بتوالي الثورات التي قام بها أولئك الأقوام من اليونان والبلغار والرومان والصرب... أقوام أدمجوا في دولة الخلافة العثمانية وليس ثم رابطة تربطهم بها إلا رابطة التغلب والقهر.

ثم قام أقوام أفسدوا الجامعة الدينية التي كانت تربطهم بالأتراك العثمانية وكان بها عزمهم وعليها بنيت دعائم مجدهم فسقط بسقوطها بناء الدولة العثمانية الشامخ إلى الحضيض وتفككت أوصالها وأصبح المتكلمون بالعربية أشتاتًا بعد أن كانوا عصبة واحدة.

وغاية ما أريد الوصول إليه وتمكينه في النفوس إنه كان للمتكلمين بالعربية جامعتان جامعة من الدين والسياسة وتسمت مؤخراً بالجامعة العثمانية وجامعة من اللغة العربية فانفكت الجامعة الأولى بفضل أولئك المنفصلين "من كانوا" ولم يبق لنا إلا الجامعة الثانية جامعة اللغة. فإذا لم نحرص عليها ونبذل غاية مجهودنا في إحيائها ورفع علمها فوق كل علم بقي لنا فقل على العرب وعلى التضامن العربي السلام إلى أن يتأذن الله بانقلاب الطبائع والأحوال!!»[2].

(1) مجلة «الهلال» القاهرة، جزء 30، سنة 1921.

(2) المرجع ذاته.

ونظرا لأن وحدة الأمة تنشأ دائما عن وحدة الهوية، ووحدة الهوية تنشأ أساسا عن وحدة الثقافة، وبالتالي وحدة اللغة، وهو ما يجعلنا نجزم بأن الكثير من الحروب الحالية والمستقبلية ترتد في جانب منها إلى عوامل ثقافية ولغوية، كما أشرنا في مقدمة هذا الكتاب.

وإن ذلك أصبح من المسلّمات المنطقية أو المصادرات الرياضية وأن اللغة –من حيث إنها ملكة فطرية في الإنسان تحيا وتدوم وتبقى بفضل التوارث الثقافي المكتسب داخل الجماعة البشرية التي تتحدثها (كما أسلفنا في الفصل الثاني). وهو ما يتضمن النفي القطعي لمبدإ الوراثة الطبيعية في الظواهر اللغوية لأن أي مولود إذا نقلته في سنواته الأولى من بيئته الاجتماعية وأسلمته إلى بيئة أخرى فإِنه ينشأ على اللغة التي يتداولها من حلّ بينهم كما لو أنها لغة أمه أو أبيه، فأمر اللغة مشدود بالكلية إلى قانون الاكتساب الذي هو ركن متين من أركان النسق الثقافي بكل نوامسه المجردة، وبكل آلياته الإنجازية الفاعلة.

ومن الحقائق العلمية التي لها أن تتألق الآن في ضوء الشطرنج الكوني الجديد الحقيقة التي تصف الرابطة المعقدة القائمة بين اللغة والفرد والجماعة، ومدارها أن اللغة سابقة للفرد، باقية بعده، لا تحيا إلا بتداول الأفراد لها، ولكنها تموت وتنقرض إذا ما أعرض الأفراد عن تداولها. من هنا ينفتح باب كبير لدراسة أبعاد هذه العلاقة الجدلية حين يتناولها علم اللغة الاجتماعي من زاوية الهرم المجتمعي وكيف تنتظم الصلة بين قمة الهرم فيه وهي سلطة القرار وقاعدته وهي جموع الجماهير.

إن اللغة هي التي تحوّل الأفراد من جماعة بشرية إلى مجموعة ثقافية، وهذا على وجه التمحيص، يعني أن الرابطة اللغوية أقوى من الرابطة السياسية، لأن الجماعة البشرية إذا ترابطت سياسيا كونت مجموعة وطنية، وهذا لا يقتضي

بالضرورة أن يكون التجانس الثقافي قد قام فعلا بين أفراد المجموعة بمجرد الانضواء تحت الرابطة السياسية الواحدة، والتاريخ (القديم منه والمعاصر والحديث) مليء بالشواهد الدالة. ويكفي أن نتبين كيف انفلقت كيانات مصطنعة سياسياً كان يظن أنها التحمت بمجرد انصهارها في سياج الدولة السياسية. ولكن سلطة الثقافة كانت أقوى فتطايرت المنظومة إلى دول ثقافية شأن ما حصل في يوغسلافيا وفي تشيكوسلوفاكيا وفي ما كان يسمى بالاتحاد السوفياتي وسيقع ذلك مستقبلاً في بلجيكا وكندا وإسبانيا وكوسوفو والعراق والسودان وتركيا... أما الشاهد المضاد والذي يبرهن على أن السياسة والاقتصاد والإيديولوجيا هي جميعا أضعف من الثقافة المتجانسة ومن اللغة المشتركة ومن التراث الفكري الواحد فهو توحد اليمن وفياتنام وألمانيا يوم سقط جدار برلين، وسيتوحد شطر الكوريتين مستقبلا بمجرد نزع القبضة الحديدية الأمريكية عليهما ولو بعد قرون، مثلما سيحصل الشيء ذاته للشعب الفلسطيني الممزق سياسيا والموحد ثقافيا في كل مكان!!

وعن اللغة المشتركة لكل الشعوب العربية يقول مراد كامل: «واللغة الفصحى هي اللغة المشتركة بين الشعوب العربية، وهي لغة قريش التي تستلزم الضرورة الاجتماعية المحافظة على وحدتها. وقد واجهت الشعوب العربية فترة من الزمن اضطرتها إلى التفكك، مما أدى إلى تفتت اللغة تفتتاً ازداد مع الظروف التي مرت بها، وجعلت الشعوب العربية المختلفة تترك اللغة وشأنها دون أن تتصل فيما بينها اتصالاً وثيقاً. غير أن هذا التفريق ما لبث أن وجد سبباً حيوياً أوقفه في الطريق، وبدأ التعاون والاتصال من جديد بين الشعوب العربية، فشعرت بقيمة اللغة كوسيلة للتفاهم، وانتهت الفرقة فاتجه الناس إلى المحافظة على وحدة اللغة المشتركة. ولولا مقاومة المجتمع العربي

الواعي للتفكك اللغوي لأصبح العالم العربي أمام حشد من صور التكلم التي لا تزيدها الأيام إلا تفرقًا»[1].

وعن كيفية انتشار هذه اللغة مع الفتوحات الإسلامية في كل أقطار الأمة يقول سليمان عز الدين: «انتشرت اللغة العربية في صدر الإسلام في شمالي إفريقيا ففعلت في السكان الأصليين فعل الكهرباء قوةً وسرعةً فمزجت البربري والقبطي والسوداني بالعربي الصميم فأصبحوا شعبًا واحداً كأنهم من أصل واحد. وشاد الأمويون في الأندلس ملكًا عظيماً ومدنية راقية فجارتهما اللغة العربية رقيا. على أنه لما أخذت روابط القومية الأندلسية في الانحلال والملك الأموي في الاضمحلال انحدرت اللغة العربية في سبيل الانحطاط»[2].

وعن حتمية بقاء اللغة العربية المشتركة بين عرب المغرب وعرب المشرق، رغم بعض الاختلاف البسيط في الاستعمال الدارج، يقول المستشرق الأمريكي رتشرد كوتهيل: «ومن الممكن أن يتشعب عن اللسان العربي على مر الأيام لهجات متعددة. فالفاصل القديم بين العربية الشرقية واللسان المغربي لن يزول، ومع ذلك فالتباين الجزئي الذي يقلق خاطر المغربي وهو مسافر من مصر إلى فلسطين وسوريا، ومن هناك إلى بلاد ما بين النهرين (وهو تباين لا يزيد على التباين الكائن بين لانكشير ويوركشير في اللغة اللاتينية) لابد أن يزول إلا القليل منه، وعليه فسيكون لدينا منطقة عربية تتكلم لغة واحدة شاملة في إفريقيا الشمالية، ولا يصدها عن الجنوب سوى الأنجليزية والفرنسية من إفريقيا الوسطى إلى الشمال، مع كل جزيرة العرب حتى جبال طورس، حيث تصدها الألسن الإيرانية العجمية، ومن هناك إلى بلاد ما بين النهرين حتى الخليج... ولولا قيام الأمة الأرمينية الحديثة لما كان

(1) مجلة اللغة العربية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 2004، القسم الرابع، ص 102.

(2) مجلة اللغة العربية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 2004، القسم الأول ص 205.

عندي شك في أن العربية تتمكن من الانتشار تدريجيا في آسيا الصغرى والقيام مقام التركية، فإنها تفضلها بنشاطها وإمكان تكيفها»[1].

وعن تكون هذه اللغة المشتركة في العديدمن أقطار العالم الإسلامي نتيجة الدين الواحد والثقافة المتجانسة في عمومياتها يقول الدكتور حسين مؤنس: «وأبرز مثل لفتح ثقافي فكري هو ماحدث عند قيام الإسلام وخروج العرب من جزيرتهم لنشره في نواحي الأرض، فقد قامت الدعوة له على أساس القرآن المكتوب بلسان عربي مبين فانتشر الإسلام وإنتشرت اللغة العربية معه، والإسلام عقيدة شاملة جامعة لأمور الدين والدنيا، وهو آخر رسالات الله الى البشر ورسالة الله الى البشر في صميمها واحدة وقد جاء القرآن حاملا للبشر نص الرسالة الإلهية في آياته، فلقيت هذه العقيدة القبول الواسع في كل مكان وصلت إليه واتجه الذين أمنوا بها الى قراءة القرآن فكان لا بد أن يتعلموا العربية، والعربية لغة كاملة، خرجت الى الدنيا– خارج الجزيرة– مكتملة النمو بنحوها وصرفها وبلاغتها وكتابها أيضا، فغلبت على غيرها من اللغات لأنها لغة القرآن أولا ثم بفضائلها الذاتية ثانيا، فأصبحت لغة الناس في العراق والشام ومصر المغرب والأندلس، وقرب نهاية العصر الأموي كادت اللغة العربية تقضي تماما على كل اللغات التي كان الناس يتكلمونها في إيران، ولكن الفتن التي قامت بين العرب في إيران ثم قيام الدولة العباسية على أكتاف عرب خراسان ، وإنتقال معظم هؤلاء الى العراق، جعل أعداد العرب الباقين في إيران قليلة لا تكفي لأحداث التعريب الشامل، لأن العرب هم خميرة التعريب، وبدون عرب فلا تعريب، وبينما ظل عرب مصر في مصر وعرب المغرب في المغرب وعرب الأندلس في الأندلس فصارت اللغة العربية لغة أهل البلاد جميعا،توقفت عملية التعريب في إيران ...

(1) مجلة اللغة العربية، القسم الأول، مرجع سابق، ص 154.

ومع الإسلام واللغة العربية أخذت الشعوب التي أستعربت تقاليد العرب وأخلاقهم وعاداتهم وأمثالهم وأساليب تفكيرهم فأصبحوا مسلمين وعربا في نفس الوقت وهذا أكبر مثل للفتح الثقافي عرفه التاريخ، فإن ثقافات هذه البلاد كلها تلاشت مع لغاتها أمام الإسلام والعربية »[1].

وعن سبب انتشار هذه اللغة التي أصبحت هي اللغة المشتركة في جميع أقطار الأمة، وضرورة بقائها كذلك لسان كل الموحّدين في العالم، يقول الأستاذ محمد سعيد العرفي: «جاءت الشريعة الإسلامية رحمةً للبشر عامة شاملة. فلم تخص بنور هدايتها أمةً دون أخرى، ول دعت شعبًا دون آخر، ولا كانت لإقليم دون غيره. فليست مقيدةً في موطن، ولا محصورةً في بلدٍ، وإنما وطنُها الكرةُ الأرضيةُ بأسرها. وهذا ما يفيده قول الله تعالى: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين**﴾ (الأنبياء/ 107).

ومما لا نزاع فيه، أن هذا الوطن الواسع المشتمل على أمم كثيرة، ولغات مختلفة، وقبائل متعددة، وأقاليم متباينة، وبلدان متسعة، وأرجاء شاسعة. ولا بد لهؤلاء -طبعا- من لغة تجمع هذا المتفرق، وتقرِّبُ هذا المتباعد، وتسهّل التفاهم مع جماعات يدينون بدين واحد، ويؤمنون بعقيدة واحدة، ويصدقون بكتاب واحد، ويتبعون رسولا واحدا. لأن معرفة لغات المسلمين كافة لشخص واحد، ليست بالأمر الهيّن أو الشيء السهل، بل تكاد تكون غير مقدور عليها، نظرا لعمر الإنسان القصير، إذ أنه لا يفي بتعلُّم تلك اللغات كلها تعلُّم إتقان وإحاطة وإجادة، فاختار الشّارع لهم لغة واحدة يتعارفون بها ويتفاهمون، هي لغة عاصمة ذلك الوطن العظيم، اللغة العربية. اختارَها لما تشمل عليه من البلاغة والفصاحة اللتين لا توجدان في غيرها من اللغات، بمقدار تفاوتهما فيها ووصولهما إلى حد الإعجاز، ولما فيها من التعبير عن

(1) الحضارة، عالم المعرفة، الكويت 1978، ص 60..

الشعور الإنساني، والأمور الذوقية، والدقائق النفسية، والحقائق المعنوية، بصورة بزَّت غيرها من اللغات، فضلا عن إمكان مجاراتها أو مضاهاتها أو مزاحمتها في ميدان هذه الفضيلة»[1].

وتأكيدا لكلام جمال الدين الأفغاني عن وضع اللغة العربية في الأقطار المشرقية أثناء الحكم العثماني، ودعما كذلك لرأي سعيد العرفي السالف الذكر، يقول سليمان عز الدين: «وإنه لما يوجب الأسف أننا منذ سبعين سنة كنا أرقى حالاً من هذا القبيل، لأن مدرسة عبيه الأمريكية كانت تدرس العلوم والفنون حينئذ باللغة العربية كما يرى المطلع على ترجمة المرحوم الدكتور دانيال بولس حيث ورد في هذا الصدد قولُه: «فقد كانت الجغرافيا والجبر والهندسة وحساب المثلثات والأنساب والفلسفة الطبيعية من ضمن الفروع التي يدرسونها. وكان التدريس في كتب عربية أعدها الدكتور فانديك نفسه». والكلية في بيروت وليدة مدرسة عبيه حذت حذوها فكانت اللغة العربية لغة التدريس في جميع أقسامها في أول نشأتها.

بهذه المناسبة أذكر حديثًا يدل على الأهمية والقوة التي تكتسبها اللغة بنقل العلوم والفنون إليها، دار هذا الحديث في سنة 1908 على أثر نشر الدستور العثماني، ما بين عبيد الله الكاتب التركي المشهور الذي كان يجيد العربية أيضًا وبين أحد السوريين. فقال السوري إن الأولى بالدولة العثمانية أن تجعل اللغة العربية لغتها الرسمية لأن نشر العربية بين جميع العثمانيين في حيز الإمكان لأنها لغة القرآن الذي يدين به القسم الأكبر من العثمانيين غير العرب ويمكن نشرها بين المتكلمين بالتركية من غير المسلمين لأن اللغة التركية فيها الشيء الكثير من الألفاظ والتعابير العربية. فأجاب عبيد الله ربما هذا ممكنا قبلا أما الآن قد سبقت اللغة التركية اللغة العربية في التآليف

(1) مجلة اللغة العربية، القسم الأول، مرجع سابق، ص 257.

العلمية والفنية التي تستعمل للتدريس في المدارس العثمانية بينما اللغة العربية تكاد تكون خالية منها»[1] .

وعن اللغة المشتركة يضيف مراد كامل قوله: «أما اللغة المشتركة فإن الظروف الخارجية هي التي تحددها. ثم هي ترجع في وجودها إلى انتشار قوة سياسية منظمة، أو إلى تأثر طبقة اجتماعية غالبة، أو إلى تفوق أحد الآداب. واللغة المشتركة مدينة في بقائها إلى أسباب سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية. فالمدينة وحدها هي التي تستطيع أن تنشر اللغة بين مجموعات كبيرة من الناس – وهذا ما حدث للغة العربية منذ ظهور الإسلام، واللغة المشتركة لا تتفكك ولا تتفتت إلا إذا تراخت العرى الاجتماعية التي كانت تمسكها»[2] .

وعن قيمة اللغة في الأمة ودور الإسلام في المحافظة عليها حفاظا على ما تبقى من وحدة المسلمين السياسية والثقافية التي سادت لعقد من القرون المجيدة، يقول الأستاذ أسعد حكيم: «وخير إرث تركوه لأحفادهم يجمعهم على إختلاف مذاهبهم، ويوحد كلمتهم على تضارب آرائهم، يبعث فيهم روح القومية كلما فسدت قلوبهم،ويهديهم سبل المجد كلما أضلتهم عنها الأيام، هو اللغة، فاللغة هي البقية الصالحة من تلك الكنوز العظيمة التي خلفها لنا الآباء، عاشت مع السلف فكانت أطول منهم عمرا وعاركتها الليالي فكانت أصلب منها عودا، استنفدها الدهر فلم تنفد، وتنتشر كلما طويت أخبارهم، صينت بها حياتهم، وحفظت آثارهم فهي الوطن، وهي القومية وهي الحياة، وهي العصبية... مما جعل اللغة بحرا فيه لكل طامح مركب ولكل غائص جوهر، فنقل المترجمون من اليونانية والكلدانية والقبطية والسنسكريتية والفارسية واللاتينية جميع العلوم الدخيلة على إختلاف

(1) اللغة العربية، القسم الأول، مرجع سابق، ص 206.

(2) مجلة حوار، بيروت، العدد 7 تشرين الثاني 1963.

موضوعاتها ولم تتفاوت تعابيرهم، ولم تتباين إصطالاحاتهم، ولم تختلف مسمياتهم، مما ينطق بغزارة المادة ووحدة الجوهر،وإذا أنعمنا النظر قليلا فيما يتطلبه إنجاز عمل واحد من تلك الآثار العظيمة التي تركوها من الجد والعناء والسعي والثبات، والتفتيش والتنقيب، والرحل والأسفار، وسعة العلم، وكثرة الاختبار والزمن الطويل والصبر الجميل والمال الجزيل، تتجسم لأعيننا النفوس العظمى التي كانت تحرك تلك الأجسام النحيلة والهمة العليا التي كانت تتأجج في قلوب أولئك الرجال العظام مما لو أتيح لهذا الجيل معشار معشاره لجارى أعظم الأمم المتمدنة في مضمار الرقي، والحضارة كيف لا والأمة العربية بأجمعها في هذا العصر عصر البخار والكهرباء، عصر القراطيس والمحابر، عصر النور والمطابع، تحجم عجزا وتتقاعس هونا عن الإتيان بما أتاه الفرد الواحد في ذلك العصر المقفر، لا بل عن طبع ما ألفه الفرد وسودته الأنامل مما تدمى له القلوب، وتحمر منه الوجوه خجلا.

ولم يكتف السلف بضبط اللغةمن حيث الألفاظ والقواعد بل أجهدوا النفس أيضا في جمع تراجم الرجال النابغين فيها، وتدوين أقوالهم وأشعارهم وكتاباتهم علما منهم أن اللغة كالأمة لاتحيا إلا بتاريخها وذلك ليقتدي بهم وينسخ على منوالهم، وإذا كان في أبناء الضاد في هذا الجيل من يحسن النطق والكتابة في اللغة العربية فما ذلك إلا بفضل تلك القواعد ودواوين اللغة وكتب الأدباء وتاريخ الأداب مما يثبت لنا أن إصلاح المنطق لا يتم إلافي أمرين: حفظ اللغة الصحيحة وضبط قواعدها، ودرس الأداب وتاريخها، وهذا ماأردت طرق بابه، لا أملا بالولوج بل طمعا بفتح الباب فأقول:

ليس كاللغة مرآة تتجلى بها الأمة في جميع حالاتها، إن عظيمة فعظيعة وإن وضيعة فوضيعة،إن مدنية فمدنية، وإن بدوية فبدوية، إن عالمة فعالمة وإن جاهلة فجاهلة، لأنها مرآة مواهبها الروحية والجسدية تعبرعن أفكارهاوشعورها

وأذواقها وأخلاقها، وعلومها ومداركها، وما تاريخ اللغة إلاتاريخ الأمة التي تنطق بها نسبة اللازم للملزم،مما يجعل الوقف على أحوال أمة من الأمم ملما بحال اللغة التي تتكلم بها وهو يجهلها، والعكس. فالواقف مثلا على أحوال العرب في الجاهلية وما كانواعليه من بداوة وفروسية، وكرم وحرية، وذكاءباهر على مافيهم من أمية، يحكم حكما صائبا أن لغتهم كانت لغة بكرا لاتشوبها عجمة ولايخامرها دخيل فصيحة صريحة بليغة، سهلة مرسلة، يندر فيها الإصطلاح وتتجلى فيها الطبيعة، والمطلع على لغة العرب وآدابها في القرن الثاني للهجرة، وعلى مافيها من أسماء الممالك وألقاب السلطنة والألفاظ العلمية ، والإصطلاحات الفنية يجزم بأن الأمة التي نطقت بها كانت أمة ذات حول وطول ومدنية وحضارة وعلوم وفنون وثروة وسلطان، كما أن من يسمع رطانتنا العامية وما فيها من غريب ودخيل، وركاكة وعجمة ولحن وخطأ، وتكلف وتصنع لايشك في أننا أمة فقدت جامعتها، وإنحلت عصبيتها، ضعيفة خاملة جاهلة إلى غير ذلك من صفات الأمم المغلوبة على أمرها، الخاضعة لغير سلطانها، ومن هذه النسبة المبسوطة ما بين اللغة والأمة، يتضح لنا أن في إصلاح الأمة إصلاح اللغة، كما أن في صلاح اللغة صلاح حال الأمة التي تتكلم بها، لأنها روح عصبيتها وقوام قوميتها وهل يعيش جسم بلال روح، وتقوم روح بلا جسد وهذا ما حدا بجميع الأمم المتمدنة إلى تأسيس المجامع العلمية، وبذل الأموال الطائلة، والجهود العظيمة في سبيل إصلاح لغاتهم، وضبطها وتعليمها ونشرها بكل الوسائل المادية والأدبية فكانت الغاية من تأسيس الجمعية اللغوية الفرنسية، تهذيب اللغة الفرنسية وضبطها ووضع الموسوعات فيها، وكذلك كان القصد من مجمع كورسيكا في إيطاليا والجمعية الملكية في بريطانيا وغيرها في سائر الممالك، وما هذا المجمع العلمي العربي الموقر، إلا هدف تلك الغاية السامية الشريفة التي

ترمي إلى إصلاح المنطق وإنقاذ اللغة العربية الحسناء، مما يفتك في جسمها من جراثيم اللحن وطفيلات العجمة والعامية وإعادتها لغة فصحى كاملة شاملة مستقلة ناجزة»[1].

إن الضعف اللغوي العام يؤدّي بالتدريج إلى ذَوَبان الشخصية، وفَقْدان الهُوية، وانقطاع الصّلة بالرابطة التي تُوَحّد الأمّة، وتَشُدُّ كيانَها، وتُحقّق لها استقلالها، وتبوِّئ لها المكانة المحترمة بين الأمم الحيّة. إنّ الحفاظ على اللغة حِفاظ على الأصالة والانتماء القوميّ وتضييعُها تضييع لهذه الأصالة وهذا الانتماء.

هكذا تنظر الأمم الحيّة إلى لغاتها: تعبيراً عن الكيان، وشعاراً للذاتية، ورابطة للقومية، ورمزاً للكرامة الوطنية، وحاميًا للوحدة والاستقلال.

وتحضُرني في هذا المقام قصة واقعية طريفة قرأتُها في إحدى المجلاّت الجزائرية، وقد نقلتها عن صحيفة ألمانية[*]، ومُفاد القصة أن طالبةً ألمانية في شهادة ما يسمّونه (الباكالوريا) قد نجحت بتفوق وامتياز في كب مواد الامتحان، ولكنّها رَسَبَتْ ولم تُمنَح الشهادة لأنها كانت ضعيفةً في اللغة الألمانية، ولم يشفع لها تفوُّقها في كلّ المواد الأخرى لدى الجهة التعليمية المسؤولة. ورفعت الطالبة أمرها إلى محكمة (فرانكفورت) مطالبةً بإلغاء قرار رسوبها، والحكم لها بالنجاح وحقّها في الشهادة، مستندةً إلى تفوقها في كل المواد، ومدعيةً أنّ ضعفها في اللغة الألمانية ليس مسوِّغًا لرسوبها.

(1) مجلة العرفان صيدا – الجزء الأول، المجلد العاشر، 1924.

(*) الجريدة هي «ديفالت» وصاحب المقال في المجلة الجزائرية هو الكاتب والباحث الأستاذ مولود قاسم نايت بلقاسم، والعنوان الذي كانت المجلة الألمانية المذكورة قد وضعته بحروف بارزة في صفحتها الأولى هو: «لا بكالوريا مع ضعيف في اللغة الألمانية!!»

ولكن المحكمة رفضت طلبها، وأيّدت قرار الجهة التعليمية المختصّة في قرارها برسوب الطالبة، ولم تيأس الطالبة، فرفعت أمرها إلى درجات التّقاضي الأخرى التي رفضت دعواها وصادقت على قرار رسوبها، إلى أن وصلتْ بقضيّتها إلى المحكمة الفدراليّة التي هي عندهم أعلى درجات التّقاضي، فرفضتْ هي أيضًا دعوى الطالبة، وأقرّت الحكم برسوبها، موردة في حيثيات حكمها أنّ اللغة الألمانية هي التعبير عن الفكر الألماني المستقلّ، والمترجم عن شخصية الألمانيين وهُويَّتهم، وهي أهمّ مادّة في الامتحان، والضّعف فيها لا يُغطّيه التفوُّق والامتيازُ في الموادّ الأخرى.

وعن حرص الأمم على إصلاح لغاتها والاحتفاظ بها قوية رشيدة متطورة مزدهرة يقول الأستاذ أسعد حكيم: «يولد الغربي في الممالك الراقية فتطرق مسامعه مع النور والهواء ألفاظ فصحى ولهجة صحيحة تألف سماعها أذناه، ويتهيأ للنطق بها لسانه، ثم يدرج ويهتم شأن جميع الأطفال بمعرفة كل ما يقع عليه بصره من الأشياء وما يحدث حوله من حوادث الطبيعة فيسمي له أبواه كل شيء باسمه الحقيقي القصيح ويشرحان له كل حادث طبقا لقوانينه الحكيمة بصورة تتناسب مع فهمه ومداركه، فيحفظ ذلك كله ويشب على معرفته، ثم يترعرع ويدخل المدرسة فيشاهد فيها معلما يتكلم باللغة التي ألف سماعها والتكلم بها في حضن أبويه ويقرأ في كتاب لاتختلف كلماته عن الألفاظ التي ينطق بها ، فينصرف ذهنه للمعاني بدل الأشتغال بالألفاظ، ثم يدرس العلوم والفنون في كتب لغتها واحدة، وإصطلاحاتها واحدة ، وإذا تعذر عليه فهم كلمة علمية يجد في جانبه كتابا يفسرها له بمعانيها الحقيقية والإصطلاحية، حتى إذا أتم هذا الطالب علمه وصار إستاذا يؤلف الكتب

ويلقي الدروس لايحتاج في وضعها لإتعاب فكر أو إجهاد قريحة من حيث الألفاظ فيشتغل بالجوهر دون العرض لأنه مهيء متوفر لديه.

أما الطفل العربي فإنه من حين دخوله هذا العالم تنهال على مسامعه أسماء مشوهة ، وكلمات محرفة، وتعابير فاسدة وألفاظ دخيلة، تنطبع في صفائح دماغه اللين رسومات فيألفها سمعه، ويرددها لسانه، ثم ينمو هذا الطفل والطفل فضولي بالطبع فسيتوضح عن كل ما تتأثر به حواسه الخمس فيجاب إلى ذلك بأسماء عامية أو دخيلة أو محرفة، وأحيانا عند جهل إسم الشيء بأسماء مركبة أو جمل مبهمة، وتؤول له الحادث الطبيعية بخرافات متنوعة ما أنزل الله له بها من سلطان تتكيف بحسبها مداركه وملكاته العقلية ثم إذا قيض اللّه أن ينشأ ويدخل المدرسة، والمدرسة سجنه الممقوت، يلقى فيها معلما يتكلم بغير اللغة التي يقرأها في كتابه ويقرأ في كتاب كلماته غير التي ألف سماعها والتفوه بها في بيت أمه وأبيه، ثم يصادف علوما لم تتهيأ قواه العقلية لفهمها.»[1].

وهو ما يؤكده الدكتور إبراهيم مذكور الرئيس السابق لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، إذ يقول: «الفصحى تراث الماضي ومجد الحاضر، بقيت على الدهر، وسارت مع الزمن، بحيث أضحت لغة قديمة حديثة، تجمع بين التالد والطارف، وتربط الناطقين بها بأوثق رباط، وقل أن تلتقي معها في هذا لغة أخرى»[2].

وعن هذه المعاني كلها التي تمثلها اللغة في الأمة، والمقصود هنا هي اللغة العربية في الأمة المحمدية، يقول شاعر الثورة الجزائرية مفدي زكريا في قصيدة بعنوان «إقرأ كتابك».

(1) مجلة العرفان صيدا، المجلد العاشر، 1924.

(2) إبراهيم مذكور، في اللغة والأدب، ص: 54، سلسلة إقرأ العدد: 337، دار المعارف بالقاهرة، جانفي: 1971.

«تلك العروبـة إن تثـر أعصابهـا وهن الزمان حيالها وتضعضعا
الضاد في الأجيال خلد مجدها والجرح وحد في هواها المنزعا»[1]

هذه اللغة التي تعبر عن وحدة الانتماء والتفكير والشعور، إنها لغة عانت كثيرا تماما مثلما عانى الشعب الجزائري من تعذيب حيث يقول الشاعر في قصيدة أخرى بعنوان «أيها المهرجان هذا نشيدي»، ألقاها في حفل افتتاح المؤتمر الرابع للطلبة الجزائريين الذي انعقد في 26 جويلية 1960 بتونس جاء فيها:

«واتقوا الله في العروبة والفصحى فكـم صوبـوا إليهـا النبـالا
لغة العز والكرامـة والمجـد تهادي على الدهور اختيـالا
تتحدى العصر الجديد وتغـزو أفـق الفكـر قوة وكمـالا
(بالموسيقى) ألفاظها عازفات تسكر الروح، رقة وجمالا
والمعانـي (باللانهايـة) تسمـو لواء الغيوب، تبغـي انسلالا»[2]

إلى أن يقول في قصيدة أخرى:

«نحن في هذه الجزائر إخـوان جراحاتنـا الثخينـة (حمـرا)
لحمة الضاد، والعروبة والتاريـخ والديـن: آي ربك كبـرى»

هكذا كانت الضاد وستبقى اللحمة التي توصل العلاقة بين أبناء هذا الشعب العربي أو ذاك في الأمة المحمدية الذي منحها حرمة... يقول الشاعر في قصيدة ألقاها في مهرجان الشعر بدمشق يوم 23 سبتمبر 1961جاء فيها:

«قدس العروبة - والأبيات شاهـدة ما انفك تغمره، حبا طوايانـا
وحرمة الضاد، في الأجيال ما فتئـت يرتاش من نبل معناها جناحانا»[3]

---

(1) نظم الشاعر هذه القصيدة بسجن البرواقية بمناسبة الذكرى الرابعة لاندلاع الثورة التحريرية المجيدة، انظر ديوان «اللهب المقدس».

(2) ديوان «اللهب المقدس».

(3) القصيدة بعنوان «رسالة الشعر في الدنيا»، من ديوان «اللهب المقدس».

ويقول في قصيدة أخرى دفاعا عن حصن الأمة الحصين ومقوم وحدتها المتين:

كم رماها ذوو الجهالة، بالعقم سفاهـــا وخســـة وضــــلالا
مسخوهـــا، وشوهوهـــا انتهاكـــا وابتغوها سخافـــة وابتـــذالا
حملوها فأنكروها وطعم الماء مر لمن يئـــن اعتـــلالا
واسترق المستعمرون عقـــولا يوم شدوا عن البلاد الرحالا
باقيات (عيونهم) راصـدات في حمانا تصلي البلاد وبالا
أنزلت بالنفوس، وهما وشكـا وأشاعت في الناشئين انحلالا
قل شعب لم يتخذ لغة الأجداد حصنا... ورام عنها انفصالا

ويتجلى لنا من خلال هذه الأبيات أن أعداء وحدة الأمة كثيرون، فمنهم القدامى ومنهم المحدثون، بعضهم مغرض وبعضهم جاهل، والاثنان أنكروها وبالتالي أضمروا لها الحقد ورموها بالعقم والسخافة والتخلف، وقد جهلوا حقيقتها،،، وكم في الجهل من ضرر، حيث إن الجاهل قد يفعل في نفسه ما لا يفعله العدو في عدوه، كما يقول المثل!!.

و في الختـام نقول ألا يكفي هذا دليـلا قاطعاً علـى أن للغة العربية مكانة حضارية مرموقة بين أهم لغات العالم حاضراً ومستقبلا، رغم الوضع المتردي الذي يوجد عليه المنتمون «جغرافيا» إلى هذه اللغـة وأمتها رغم أنفهم، ورغم أنفها، ليمثلوا بهذا الوضع الشاذ حالة فريدة من نوعها في تاريخ البشرية قديما وحديثا!!

وفي هذا يقول العلامة السنغالي إبراهيم ديوب: «إن اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم، ولسان التنزيل، وأساس الإسلام، وترجمان عباداته، ومفتاح

كنوز السنة المطهرة، ورباط الروح، ووشيجة القربى بين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

وهي اللغة الثرية ذات القابلية العجيبة للتطور، وهي الوعاء الأمين للتراث الإسلامي والعربي، وهي اللغة التي وصفها البروفسور «هنري باستيد» أستاذ الحضارة المغربية بمدرسة اللغات الشرقية بباريس بأنها: «أكثر لغات الوجود روحانية»[1] (جريدة لوموند الفرنسية، 1966/08/06).

(1) من بحث له مقدم في الندوة العالمية التي نظمتها المنظمة الإسلامية للثقافة والعلوم بالرباط، نوفمبر 2002، تحت عنوان: «اللغة العربية إلى أين ؟».

الفصل السابع
خصائص ومميزات اللغة العربية

تعتبر اللّغة العربية الحالية (العدنانية) إحدى اللهجات العربيات، وتمتّد بتاريخها الى قرون عديدة قبل ظهور الاسلام، ولكن إذا كانت لها نظيرات عديدات من اللغات التي تشترك معها في الأصل، فإنها تميزت بتغلبها على تلك اللغات جميعا بالمحافظة على أقوى الروابط التّي تصلها باللّغة الأصل، ويرجع ذلك الى بقاء العربية في حالة عزلة ـ شبه تامّة ـ في الجزيرة العربية، التّي ظلّت الى حين الدّعوة المحمدّية غير ذات صلات قوية بالعالم الخارجي، مما يمكن أن ينتج عنه تأثير في اللّغة العربية، وبعد انتشار الإسلام الذي كانت اللغة العربية أقوى وسائل تبليغه للشعوب المختلفة، عرفت هذه اللغة أول احتكاك فعلي لها باللغات الأجنبية، وكان من المفروض أن تتأثّر بتلك اللغات لما كانت عليه من رقي في ذلك الوقت، كالفارسية والقبطية والرومانية.. الا أنها لم تتأثر بأكثر مما أثرت هي في تلك اللغات، مع المحافظة على بنياتها بكيفية تبعث على الاستغراب لولا معرفة السر في ذلك، وهو ارتباطها بكلام الله المقدس الذي حفظها كما حفظته، وجعلها تؤثر ولاتتأثر الا بالقدر العملي أو الطبيعي الذي لم يمس جوهرها وبنياتها الأساسية، على الرغم من الصراعات العنيفة التي وقعت بينها وبين تلك اللغات التي كانت سائدة في البلدان المفتوحة.. وقد أكد هذه الحقيقة أحد العلماء الألمان هو يوهان فك بقوله: «ان العربية الفصحى لتدين حتى يومنا هذا بمركزها العالمي لهذه الحقيقة الثابتة، وهي أنها قامت في جميع

البلدان العربية وما عداها مـن الأقـاليم الداخلـة في المحيـط الاسـلامي رمـزا لغـويـا بوحـدة عـالـم الاسـلام في الثقـافة والمدنيـة.

ولقد برهن التراث العربي الخالد على أنه أقوى من كل محاولة يقصد بها زحزحة العربية الفصحى عن مقامها»[1] ويكاد يجمع الباحثون في اللغات السـامية (وأقـواهـن العـربية) على أنـها تنفرد بخصـائص تميـزها عن كـافة اللّغـات الاخـرى ومـن ذلك:

1) تعتمد على الحروف وحدها، ولاتعتمد على الأصوات، ولذلك لا نجد فيها علامات للاصوات كما هو الشأن في اللغات الأخرى، والغريب أن خلو اللغة العربية من علامات الأصوات لا تقابله كثرة في الحروف حيث نجد لغات أخرى كالروسية مثلا يصل عدد حروفها الى خمسة وثلاثين مع أن هذه الزيادة لا تبلغ العربية في الوفاء بالمخارج الصوتية على تقسيماتها الموسيقية[2] وفضلا عن ذلك تتميز العربية بثبات أصوات الحروف على مدى العصور، حيث نلاحظ انه على الرغم من التشويه والتغيير الكبير الذي طرأ على الحروف في اللهجات العامية العربية فإن حروف الفصحى ماتزال تلفظ كما نزل بها القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا، وحتى المصريين واليمنيين الذين يتميزون عن العرب بعدم تعطيش الجيم نجدهم لا يقدمون على ترتيل القرآن، والقاء الخطب العصماء الا بالجيم المعطشة.. على طريقة النطق العربي الأصيل في الصعيد وباقي البلاد العربية.

2) تتميز العربية بأن غالبية كلماتها ثلاثية الأصل، يضاف الى أولها أو آخرها حرف أو أكثر فتتغير دَلالات اللفظة تغيرا جذريا، وفي بعض الحالات نكتفي بمجرد تغيير حركات الحروف من اللفظة الثلاثية كي يتغير معناها

(1) يوهان فك، العربية، ترجمة د. عبد الرحمن النجار، دار الكتاب العربي، القاهرة 1951، ص 234.
(2) عباس محمود العقاد، اللغة الشاعرة، بيروت 1977، ص 7.

كلية، وفي ذلك يقول أحد علماء اللغةالعرب: « .. ان مفردات اللغة العربية تتكون من مجموعات كثيرة، وكل مجموعة منها ترجع الى أصل واحد وتشترك في جزء من مادتها، وجزء من معناها، في حين أن اللغات اللاتينية يغلب عليها الفردية، وان الأصول المشتركة فيها ضائعة، ففي العربية نجد أنّ كلمة أخ وأخت في مادة (أخَوَ) في المعاجم العربية، أما في الفرنسية أو الانجليزية فنجدهما في مكانين مختلفين لا رابطة بينهما»[1]. وقس على ذلك آلاف الكلمات العربية ذات المادة الواحدة، ولعل هذه العناصرالثابتة في اللغة العربية من أقوى العوامل المسهلة للمتعلم على سرعة الادراك لدلالة اللفظة، بعد ارجاعها الى الأصل الثلاثي، كإرجاع كلمة مكتبة أو كاتب أو كتاب أو مكاتبة أو مكتب أو كتابة... الى مادتها الاصلية وهي (كَتَبَ) ومن الطريف أن بعض الباحثين[2] قد ذهبوا في استنتاجاتهم الى أن أصل الكلمة العربية التي تعود الى المادة الثلاثية (فعل) وهي الغالبة كما هو مؤكد ... هو الذي جعل العقلية العربية تصطبغ بالصبغة الفعلية (...) والحقيقة أن الواقع الذي نعيشه لا يؤكد صحة هذا الاستنتاج الطريف، ان لم يكن يدل على العكس من ذلك، أي على الجمود وعدم الفعل، ولكن مهما يكن من أمر فاللغة ليست مسؤولة على ذلك بأي حال من الأحوال لأن اللغة كالظل تكون دائماً تابعة وليست متبوعة ، ولا يستقيم الظل والعود أعوج على الإطلاق(!!).

3) تتميز اللغة العربية بمحافظتها على الأصوات الأصلية، وزادت عليها بأصوات جديدة كالثاء والذال والغين والضاد كما تنوعت قواعد النحو والصرف فيها وتشعبت في دقة متناهية حتى بزت في هذا المجال كل اللغات الأخرى في المنطقة، وانفردت عنها بصيغة التصغير.

(1) محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، دار الفكر الحديث لبنان (بدون تاريخ)، ص 26.
(2) إسرائيل ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، ص 14.

4) وتتميز العربية بأبرز خاصية بين اللغات وهي الاشتقاق، وهو على أنواع مختلفة، تصل الى عشرات الكلمات المشتقة من فعل واحد، فنحن نستطيع أن نشتق من فعل (علم) مثلا: معلم، ومتعلم ، وعالم، وعلامة، ومعلومة، ومعلمة، ومستعلم، ومتعالم. كما نشتق عن الاسماء ذاتها كقولنا: استرجلت المرأة، أي أصبحت تشبه الرجل، واستأسد الرجل، واستفحل الأمر، واستحجر الطين، أي أصبح يشبه الحجر.. ويلاحظ أن كل اشتقاق جديد ينفرد بمعناه الخاص به الى جانب اتفاقه في المعنى العام مع الكلمات التي تشتق معه من نفس الأصل.. فكلمة مدرس، ومدرسة، ودراسة.. كلها ترجع الى أصل واحد هو (دَرَسَ) في اللغة العربية، بينما لا نجدها تعود الى أصل واحد في اللغة الفرنسية أو الانجليزية، ففي الفرنسية تقابلها: (ENSEIGNANT) و(ECOLE) و(ETUDES)، وفي الانجليزية تقابلها: (TEACHER) و(SCOOL) و(STUDY) وهذا التشابه الملاحظ في اللغة العربية له فوائد جمة في عمليات التعلم، لأن معرفة معنى كلمة واحدة من الكلمات المشتقة من أصل واحد يمكّن المتعلم من الفهم التقريبي لِمعظم الكلمات الأخرى[1].

5) وتتميز العربية أيضا عما عداها من اللغات، بخاصية التضاد، وهو أن يطلق اللفظ على المعنى المقصود وضده، مثل كلمة (بصير) التي تعني الشخص الأعمى، وتعني المبصر في ذات الحين، وكلمة (شرى) التي تعني البيع والاشتراء في الوقت نفسه، وكلمة (رغب) التي يتغير معناها من النقيض الى النقيض بعد ادخال حرف الجر (في أو عن) عليها[2]..

6) ويلاحظ في العربية وجود انسجام وتناسق صوتي بين الكثير من الألفاظ ومعانيها. ومن ذلك اننا نجد الكثير من الالفاظ الدالة على صوت أو فعل تشابه

(1) انظر مقالاً بعنوان «خواطر حول اللغة العربية» للمستشرق الفرنسي جاك بيرك في مجلة «الفكر» التونسية، السنة الخامسة.

(2) انظر «المحاسن والأضداد» للجاحظ، و«فقه اللغة للدكتور عبد الواحد وافي»، ص 188.

أصواتها أصوات الظواهر التي تعبر عنها في الطبيعة مثل: الوَلْوَلة، والقَهْقَهَة، والدَّنْدَنة، والمَهْمَهة، والتّأوّه، والتّأفّف، والبَسْمَلة، والحَوْقَلة، والشَّهيق، والنَّهيق، والزَّفير، والشَّخير، والخَرير، والطَّنين، والأنين، والمُوَاء، والعُوَاء [1]..

7) كثرة المفردات، والاتساع في الاستعارة والتمثيل مع الدقّة المتناهية في التعبير بكيفية لا يوجد لها نظير في كل لغات العالم فيما نعلم[*] (راجع الفصل الثاني).

ويؤكد هذه الحقيقة الشيخ محمد سعيد العرفي بقوله: «ويظنُّ من لا معرفة له باللغة العربية، أنها مشتملة على كثير من المترادفات حقيقةً، فتمشدقَ بالنقد الباطل وتمحَّك بالاعتراض الفاسد مع أنه لو درى الصواب، لعلم أنها خلو عن ذلك كله، وإنما هو تباين دقيق أفقده مرور الأيام وعدم التدوين مكانته تلكَ. ولم يزل أثر ذلك الفرق الدقيق شاهداً في بعض الكلمات عند البدو، الذين لا زالت في لغتهم بقيةٌ حافظت على مادة الكلمة، وإن فسد الشكل وتطورت اللهجة وإعراب الألفاظ...»[2].

8) الإعراب، وهو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ، وبه نستطيع التمييز بين الفاعل والمفعول، وبين التعجب والاستفهام، والنعت والتأكيد[3].

---

(1) انظر «فقه اللغة للثعالبي»، ص 214 – 224.

(*) كمثال على ذلك نذكر قَسَطَ (فَعَلَ) إذا كان مضارعه على وزن (يَفعِلُ) يعني الظلم، وإذا كان على وزن (يَفعُلُ) يعني العدل، واسم الفاعل من الثلاثي يقسط (قاسط) فهو قاسط ومعناه جائر وظالم، وإذا دخلت ألف الكف على هذا الفعل يصبح على وزن (أفعَلَ)، أي (أقسط)، واسم الفاعل من الرباعي يصبح (مُقسطٌ) فيكون المعنى حينئذ (عادلٌ) كما تبينه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿إن الله يحبُّ المقسطين﴾ (المائدة/42)، أما المعنى الأول قبل إدخال آلف الكف، فتعبر عنه الآية الكريمة: ﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا﴾ (الجن / 15)، وقس على ذلك معنى قَدَرَ وأقدرَ، وطاقَ وأطاق، وخَفِيَ وأخفى، وهذا الجهل بدقة اللغة العربية، كما حاولنا أن نبيّن بهذه الأمثلة الواضحة، هو الذي جعل بعض المستشرقين والمستغربين المغرضين والجهلة يتوهمون أن في القرآن تناقضا، والتناقض الحقيقي يكمن في نفوسهم وعقولهم وليس في القرآن المنزَّه أبدا!!

(2) انظر كتابه: كراس اللغة العربية، رابطة الشعوب الإسلامية، المكتبة العربية –دير الزور– سورية – ط 2– 1983.

(3) انظر المزهر للسيوطي، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، ص 321–337، وكتاب «اللغة العربية» للدكتور إبراهيم السامرائي، ص 56.

9) التعويض وهو اقامة كلمة مقام كلمة بنفس الوظيفة كإقامة المصدر مقام الأمر، والفاعل مقام المصدر، مثل (ليس لوقعتها كاذبة) والمفعول مقام المصدر مثل (بأيكم المفتون) واسم الفاعل مقام اسم المفعول كقول الشاعر الحطيئة:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد، فأنت الطاعم الكاسي

والطاعم والكاسي هنا بمعنى المطعم و المكسي

10) التقديم والتأخير، كتقديم الخبر على المبتدأ وتقديم المفعول على الفاعل مثل: (كاذب من يدعي العلم في كل شيء) أو (**إنما يخشى اللّهَ من عباده العلماء**).

وقد تحدث الكثير من العلماء العرب والمستشرقين عن خصائص اللغة العربية ومميزاتها بين اللغات العالمية، ومن بين هؤلاء الأستاذ أحمد أمين الذي يقول: «إنها أرقى اللغات السامية كما يقول دارسو تلك اللغات، فلا تعادلها الارامية ولا العبرية ولا غيرها من هذا الفرع السامي، وهي كذلك أرقى لغات العالم، فهي تمتاز حتى عن اللغات الارية بكثرة مرونتها وسعة اشتقاقها.. ومافيها من مجاز وقلب وإبدال ونحت، هو الذي مكنها من أن تكون لغة القرآن والحديث، وما فيهما من معان في منتهى السمو والرفعة، ومافيهما من تعبيرات دينية واجتماعية وتشريعية لا عهد للعرب بها في جاهليتهم، كما استطاعت فيما بعد أن تكون أداة لكل ما نقل من علوم الفرس والهند واليونان وغيرهم.. وفي نحو (80) سنة من بدء العهد العباسي كانت خلاصة كل هذه الثقافات مدونة بالعربية، والعرب الذين لم يكونوا يعلمون شيئا من مصطلحات الحساب والهندسة والطب و لا شيئا من منطق أرسطو وفلسفته أصبحوا في قليل من الزمن يعبرون عن أدق نظريات أقليدس، ونظريات بطلموس وطب جالينوس وحكم بزر جمهر..»[1] ويقول مصطفى

(1) «ضحى الإسلام، الجزء الأول، ص 289–295.

صادق الرافعي في هذا الخصوص أيضا: « ..وان من أقصى شروط التمدن الاجتماعي: الحرية والنظام والنمو، وهي التي تتخلف عن معانيها الاجتماعية آثار المدنية التي تدل على حضارة الأمم الخالية كالأبنية والمخلفات الأدبية والعلمية والفلسفية، ثم الثروة الاعتيادية التي تدير حركة العمران من التجارة والصناعة والزراعة، ثم الشرائع، وهذه الشروط هي كذلك من أخص مميزات اللغة العربية، فهي حرة في أوضاعها بما يطابق الحرية الشخصية والسياسية، منتظمة في أجزائها بما يماثل نظام القوانين والشرائع، حتى أمكن أن يحصى منها كل كلمة جاءت شاذة في بابها نامية في مجموعها، بما فيها ثروة الاوضاع التي تكافئ معاني الاقتصاد السياسي، على أتم وجوهها » [1].

وعن دقة اللغة العربية السالفة الذكر يقول الدكتور عبد الوهاب عزام: « ان العربية لغة خالدة أنضجها الزمان المتطاوع في البقاع الشاسعة من الجزيرة العربية، وأخرجتها الفطرة السليمة والاحساس المرهف والادراك النافذ لغة كاملة معجبة عجيبة تكاد تصور ألفاظها مشاهد الطبيعة، وتمثل كلماتها خطوات النفوس، وتكاد تتجلى معانيها في اجراس الألفاظ ونبرات الحروف، كأنما كلماتها نبضات القلوب ونبرات الحياة. فالمعاني المحسة والمعقولة مبنية في ألفاظ تدرك الفروق الدقيقة بين الأشياء المتشابهة، فتضع للشبيه لفظا غير ما وضعته لشبيهه، إدراكا للفرق الدقيق بينهما... » [2].

ويؤكد هذا القول علماء آخرون منهم العرب كالأمير مصطفى الشهابي ومصطفى جواد، ومحمد رضا الشيبي... ومنهم المستشرقون أيضا.. واذا كنا نأخذ على كلام العرب في لغتهم بعضا من المبالغة الناتجة عن العاطفة الدينية أو القومية.. فان كلام المستشرقين (الموضوعيين) حول اللغة العربية

(1) «تاريخ آداب اللغة العربية، الجزء الأول، ص 169.
(2) د. عبد الوهاب عزام، مهد العرب، (بدون تاريخ)، ص 16.

(التي درسوها وتمعنوا فيها عن قرب، بالمقارنة مع لغاتهم المختلفة) تكون له قيمة خاصة لدينا في هذا المجال، ولذلك نورد هاهنابعض أقوال هؤلاء المستشرقين المتضلعين في اللغة العربية، ومن ذلك قول (وليم مابي) «هناك ميزة خاصة باللغة العربية تسهم في الأخذ بنصيب من هذا العنصر الأساسي للشعر ألا وهي: أن الحروف الساكنة في هذه اللغة هي من قوة الواقع بحيث لا شيء يحجب أصول الكلمات عن المتكلم وسامعيه، ولهذا السبب تنقشع الكلمة دائما في هذه اللغة عن الجذور التي تحدث منها، وربما كان الشعور بالجذور أشد من الشعور بالكلمة، كل جذرعربي هو اذن غيثارة لا يمس وتر من أوتارها إلا خفقت للمسه سائر الأوتار، وكل كلمة تبعث بالإضافة الى وضعها الخاص تواقيع خفية لأخواتها من الكلمات، وانها تتخطى حدود معناها المباشر موقظة في أعماق النفس موكبا من المشاعر والصور... والتركيب العربي غني بالوقع الموسيقى الى أبعد حده. فالتطور الشكلي لهذه اللغة يقوم أكثر ما يقوم على فقرات منتظمة قصيرة وطويلة. فاللغة هي إذن في حد ذاتها موسيقية إن صح التعبير...» [1].

وعن اللغة العربية يحدثنا أكبر المستشرقين الروس وهو الدكتور شارباطوف بقوله: «...اللغة كائن اجتماعي قبل كل شيء، وهي كأداة اتصال لأفراد المجتمع تستعمل في مختلف ميادين الحياة... وان اللغة العربية تتوفر على مايمكنها من مسايرة تطورات الحياة والعلوم، كما أنها قابلة للتعبير عن جوانب التقدم العصري.. وان كل لغة تحظى باهتمام أصحابها بها قابلة لمسايرة التطور الاجتماعي، وقد أظهرت اللغة العربية قوتها في القرون الماضية، وتستطيع هذه اللغة اليوم بفضل ثراء أصلها التاريخي، وبما اكتسبته

(1) من مقال له بعنوان «اللغة العربية» نُشرت في مجلة «باريس» العدد الأول من السنة الأولى، انظر أيضا في نفس المعنى كتاب زكي الأرسوني «العبقرية العربية في لسانها، وكتاب ماكس منكافو «المعجزة العربية» ترجمة رمضان لاوند، وكذلك العقاد «اللغة الشاعرة».

من الظواهر الجديدة مثل كثرة المصطلحات العلمية والفنية الجديدة، ومثل تيسير بعض القواعد والتراكيب اللغوية المعقدة.. أن تساير التطور في جميع مراحله ومجالاته..» [1].

وبالنسبة لقوة التحدّي الحضاري لهذه اللغة المعجزة وكذلك عن دقتها المتناهية في التعبير عن المعاني، نورد هذه الفقرات من مقال للأستاذ سمير عطا الله تحت عنوان: «رقائق اللغة» يقول فيه:

«... وقد خطر لي بعد ذلك كيف أن اللغة العربية، في حركة صغيرة، أو في تحريك صغير، تعطي الكلمة الواحدة ألف لون وألف معنى وألف غنى، فاذا كان الانسان القديم قد حفر في الصخر علامات الرجولة والأنوثة، واذا كانت اللغات العريقة قد تطورت الى ما نعرف الآن من رقي التعبير، فان اللغة العربية تظل ملكة اللغات، كمثل ملكة النحل في عالم القفير.

ففي أي لغة أخرى في الكون (غير اللغة العربية)، يقال مثلا «امرأة حامل» لأن الرجل لا يشاركها في حمل البطن، في حين يقال «امرأة حاملة»، اذا ما حملت شيئا ما على ظهرها أو رأسها لأن الرجل يشاركها آنذاك في مثل هذه الحمولات؟

ليس في اللغات التي أعرفها مثل هذه الدقة والعبقرية في التعبير، وقد سألت بعض المستشرقين، بريطانيين وفرنسيين، كيف يترجمون كلمة (NUANCES) فوجدت أن الفرنسيين، حيث أصل الكلمة، يميلون الى ترجمتها «لطائف» اللغة، ويترجمها المستعرب هنري ماكلو «دقائق» اللغة، أما أنا، فإني أتمنى أن تصبح «رقائق» اللغة، ليس فقط بمعنى «الرقة» اللغوية الساحرة، بل «الرقائق» بمعنى رقائق السيلوفان التي يتكون منها «الكومبيوتر» اليوم، فقد قال لي أحد خبراء الخط حين سعى الى تطعيم الحرف العربي في

(1) وقد أدلى بهذا الحديث، في حوار مع جريدة «الشعب» الجزائرية بتاريخ 1971/12/18.

الآلة الحديثة (الحاسوب)، انه اكتشف أن مكونات اللغة العربية بالمقارنة مع اللغات الاخرى كأنما هي وضعت لعصر الالكترون. فقد استوعبها الكومبيوتر بثلاث محاولات بدلا من ست وعشرين!!

وكلما أبحر المرء في اللغة العربية كلما اكتشف أنه لا يزال على الشاطئ ملوحا. والآن أفهم لماذا أعطيت بعض القواميس أسماء مثل «محيط المحيط» أو «المنجد»، وفي الماضي كنا نأخذ على كتابنا الكبارالمبالغة في الحرص على الصحة اللغوية، أما الآن فنعرف أنهم انما كانوا يحترمون معرفتهم، فانها لبئر ذهبية يغترف منها المرء كما يغترف صبي من محيط، أو كمن يقتطع سنبلة من غابة صنوبر.

ففي إمكان الكلمة الواحدة أن تكون أكثر من دليل الى أكثر من شيء. فإذا قلت مثلا الضعف (بفتح الضاد) كان الضعف في العقل. أما اذا ضمت الضاد فيكون الضعف في الجسد!!»[1].

ويؤكد هذا المعنى المستشرق البولوني الدكتور يانوس دانتسكي في حوار له مع جريدة «القبس» الكويتية بتاريخ 1988/12/03 بقوله عن هذه الخصوصية والتميز: «إن الكتابة العربية هي من تلك الكتابات النادرة في العالم التي هي منسجمة مع بنية اللغة، أقصد بنية اللغة العربية، بنية صوتية، لكل صوت في لغتكم حرف واحد مع بعض الاستثناءات مثل كتابة الهمزة، ولكنها استثناءات قليلة.

فعندما ننظر إلى اللغة الفرنسية أو اللغة الأنجليزية أو حتى اللغة البولونية نلاحظ أنه لأداء صوت واحد نستعمل عدة حروف، فكيف نستعمل النظام الأوروبي اللاتيني الذي هو أسوأ بكثير من هذه الكتابة العربية؟!

هذا فيما يتعلق بحروف الكتابة، أما فيما يخص سؤالكم عن إمكانية أن تصبح اللغة العربية لغة العلم، كما كان ذلك طوال القرون الوسطى... فأقول:

---

(1) جريدة الشرق الأوسط، بتاريخ 1989/06/28.

لماذا لا؟! إن اللغة العربية لغة حية، لكن هناك مشكلة في عدم وجود التنسيق بين مجامع اللغة العربية المختلفة في البلاد العربية في وضع المصطلحات العلمية. فلا بد من هذا التنسيق، فهو أمر أساسي بالنسبة لضمان سير اللغة العربية وازدهارها وتكيفها مع العصر لمسايرة التقدم والتطور العلمي والتقني في جميع مجالاته المختلفة».

وعن قدرة اللغة العربية على مسايرة عصر التطور العلمي والتكنولوجي هذا، يقول العالم المصري الدكتور نبيل علي في كتابه «اللغة العربية والحاسوب»، وقد جاء عنه في مقال بجريدة «الأهرام»: «هذا الكتاب يطرح لأول مرة، برنامجا علميا، يسمح بمعالجة اللغة العربية بالحاسوب معالجة مباشرة متحررة من إخضاع العربية لمنطق ونظام اللغة الأنجليزية... ويضم الكتاب فصلا ختاميا خاصا عن «المعجم العربي» وقواعد «ميكنته» أي قواعد إدخاله في الحاسوب واستخدامه (لتخزين المعلومات واسترجاعها وتوظيفها بالوفرة المطلوبة) ويعد هذا الفصل الأخير تمهيدا ضروريا لوضع قواعد التصريف الآلي للغة.

وترجع خطورة الكتاب أساسا، ليس فقط إلى الأهمية القصوى لموضوعه (اللغة التي هي عقل الأمة وأداتها الوحيدة للتعلم والتعليم والتفكير، والحاسوب الذي هو أداة التطوير وأداة «ضبط» التنمية في كل مجالاتها) وإنما ترجع إلى طموح الكتاب إلى إبداع أساس علمي (نظري وتطبيقي) للاستقلال العربي في مجال هذه الأداة الخطيرة الأثر وفي مجال التفكير في لغتنا ذاتها واستخداماتها، لمقاومة التبعية العلمية والتكنولوجية»[1].

وعن غنى اللغة العربية بالمفردات وتميزها عن العديد من اللغات في العالم، يقول الدكتور أحمد أرحيم هبّو: «لو أمعنا النظر في قواميس كل من

(1) جريدة «الأهرام» 1988/12/30.

اللغات السامية وأحصينا مفرداتها لوجدنا العربية من أغناها على الإطلاق بل تفوق كل مفردات اللغات السامية الأخرى مجتمعة وتكاد تتفوق على أخصب لغات العالم لما تحويه من مفردات وألفاظ تشمل كل مستلزمات الحياة وتعبر عن كل ما يجول في خاطر الإنسان.صحيح أن العربية كانت في الجاهلية وقبل خروج العرب إلى خارج حدود شبه جزيرتهم محدودة الأفق والغايات ولكن خيال البدوي الشاعر كان يتفتق عن أوصاف للطبيعة المحيطة به قلما يستطيع إنسان آخر أن يجاريه في ذلك... صحيح أن العربية في تلك الفترة كانت محدودة الأفق، والمواضيع التي تشغل بال متكلميها معدودة، ولكن ما أن خرج العرب إلى العالم بموجاتهم العارمة حتى سارعوا إلى استعاب كل ما هو غريب عنهم.

لم يكن العرب هم وحدهم الذين استأثروا بالكتابة باللغة العربية وتأليف الرسائل العلمية فيها وإنما شاركهم فيها أبناء الشعوب الأخرى التي كانت تخضع لسيادتهم وخاصة الفرس كما هو معروف، ولكن علينا أن لا نبالغ في التشديد على ذلك كما يفعل أعداء العرب بقصد الإساءة إليهم والتقليل من شأنهم أنه بغض النظر عن بعض الشعوبيين الفاشلين فإن أولئك العلماء الفرس وغيرهم لم يكونوا في اعتقادهم الشخصي سوى مسلمين بالدرجة الأولى محبين للدين الإسلامي ولأصحابه وغيرتهم عليه وبالتالي على لغته المقدسة كانت تفوق غيرة العرب أنفسهم. وكلمة الزمخشري في مقدمة كتابه المفصل تكفي للدلالة على ذلك، ولولا تلك الغيرة الشديدة لما توصلت العربية إلى هذا الشأن من ضبط قواعدها وحفظ تراثها من الضياع والفوضى وحسبنا في ذلك ذكر كتاب سيبويه في أساس القواعد العربية المعروف باسم (الكتاب) لشهرته الواسعة، أو المفصل للزمخشري كما ذكرنا ناهيك عن القواميس العربية مثل الصحاح للجوهري الفارسي الأصل أو القاموس المحيط للفيروز ابادي... إلخ»[1].

(1) مجلة المعرفة –دمشق– العدد 178 – كانون الأول 1976م.

وعن تفرد اللغة العربية بخاصية الاشتقاق، وتميُّزها عن شقيقاتها «الساميات» وعن سائر لغات العالم، يضيف الدكتور أحمد أرحيم هبّو: «ليست اللغة العربية أغنى اللغات السامية تلفظًا وتعبيراً كما رأينا فحسب وإنما لو وضعنا الشكل اللفظي الأساسي للغات السامية مقياساً للتطور والاشتقاق لوجدنا العربية قد قطعت مراحل لم تصل إليها أية لغة سامية أخرى إذ أنها لم تترك وسيلة أو إمكانية يمكن الاستفادة منها إلا واستغلتها فوصلت إلى مرحلة لا يمكن أن تكون بعدها مرحلة أخرى يمكن تصورها، وهذا يعود فقط إلى مرونة اللغة العربية وإلى متانة بنائها السليم المنطقي. إننا لو قارنا بين صيغ الأفعال فقط الواردة في أية لغة سامية أخرى تقارب اللغة العربية نيبيًا تطوراً وكتابة، السريانية مثلاً لوجدنا العربية تحتوي على 10 صيغ أساسية هي: فعل، فعل فاعل، أفعل، تفعل، تفاعل، أنفعل، أفتعل، أستفعل، تضاف إليها خمس صيغ أخرى أقل استعمالاً: أفعال، افعوعل، إفعول، افعنلل، افعنلي. وهذا لا يعني أن العربية تحتوي 10 صيغة للأفعال فقط وإنما علينا أن لا ننسى صيغ الأفعال المبنية للمجهول التي تخص كلاً من هذه الصيغ الأساسية تقريبًا مثل: فعلَ فعل .. إلخ. بينما لا يزيد عدد صيغ الأفعال الأساسية والمبنية للمجهول معًا في السريانية أو العبرية عن الستة أو السبعة»[1].

وعن موضوع ميزة الاشتقاق ذاته، يقول الأستاذ جبر ضومط «إذا لم تكن الألفاظ المفردة ولا الجمل المفردة ولا علامات الإعراب ولا هذه الهيئة التركيبية أو تلك بينها من مقوّمات اللغة العربية ولا من صفاتها الجوهرية الثابتة والتي ينبغي أن تثبت وترقى وتتكيف مع الأيام فما هو إذن ذلك الشيء الذي تميزت به العربية وجعلها تتفوق على غيرها من اللغات ولا يزال باقيا بل وينبغي أن يبقى ولا تخلق جدته مع الأيام. الجواب على ما أرى. هو الاشتقاق

(1) نفس المرجع السابق ذكره

والقياس. الاشتقاق على ما ينبغي أن يُفهم منه، والقياس على ما ينبغي أن يُفهم منه في كل أنواعه وفي كل نوع من أنواع الكلم العربية والدخيلة المعربة أيضا إن كانت..

إن الاشتقاق ضروري في كل لغة لا تستقل لغة عن غيرها إلا به ولا تترقى إلا به، فإن استقل وترقى استقلت اللغة عن غيرها وترقّت، وإن تميّز الاشتقاق وانفرد في كل لغة من لغتين تميزت اللغتان وانفردت كل منهما عن غيرها، وإلا فإن تشابه واشترك تشابهتا واشتركتا. مثاله اللغة التركية فإنها على كثرة الألفاظ المفردة المستعارة من العربية وعلى كثرة الجمل التامة المأخوذة كما هي منها، أي من العربية، لا تزال لغة مستقلة عن العربية متمايزة عنها تمام التمايز.إن في التركية مئات وألوفا من الألفاظ العربية كما أن فيها مئات وألوفا من العبارات والجمل التامة والمستعارة رأسا من تلك اللغة، يعلم ذلك من يعلمه، ومع ذلك هي في غاية البعد والتمايز عن اللغة العربية بخلاف العبرانية فإنها مع بعدها بحسب الظاهر عن العربية حتى يخيل للناظر أن التركية أقرب منها إليها بمرات، فمع ذلك هي والعربية أختان بينهما من المشابهة والاشتراك في الخصائص والقفيات الشيء الكثير كما يعلمه علماء اللغات المحققون الذين يؤخذ بقولهم، وكل ذلك لاشتراك الاشتقاق وقرب شبهه في الواحدة بما هو في الأخرى.

الاشتقاق في كل لغة هو الأمر الجوهري فيها. هو عماد اللغة وأقوم مقومة من مقوّماتها. وبعبارة أخرى هو حياتها، وعليه يتوقف ارتقاؤها أو انحطاطها. تقدمها أو تأخرها. وإذا أردنا التمثيل قلنا هو من اللغة كالحيوان أو الناطق في تحديد الإنسان، بل ربما هو الأكثر من ذلك، وقد لا يخطئ من يقول أن اللغة هي الاشتقاق. واللغات النامية المرتقية هي ما كانت مواليد ألفاظها أكثر من وفياتها. والعاقل المتأمل يعلم أن كثرة مواليد الألفاظ وقلّتها في اللغة يتوقف

على الاشتقاق فإن كان الاشتقاق مرتقيا نشيطا كثُرت مواليده وعاشت وإلا قلّت وماتت. وعليه فأرقى اللغات وأكثرها حياةً هي ما كان الاشتقاق فيها أتم منه فيما سواها داخلا في كل فرع من فروعها.

إن سرَّ تفوُّق اللغة العربية، وأنها من أشرف اللغات القديمة والحديثة وأنها أحق لغة بأن تحيا كما قال بعض علماء الأمريكان المحققين هو لأنها لغةُ باب الاشتقاق والقياس فيها واسع جدّا لا يضيق عن أن يسع العقل أن يدخل منه مهما طال قوامه واتسع صدره بل كلٌّ من الاشتقاق والقياس فيها يفسح مجالا للعقل أن يدخل منه إلى باحات هذه اللغة الشريفة »[1].

وعن صور هذا الاشتقاق وأوزانه ومعانيه وسعة مادته وموضوعه في كتب اللغة العربية، يقول جبر ضومط: « في اللغة العربية أربع عشرة صورة وهي أفعل وفاعل وتفعَّل وتفاعل وانفعَل وافتعل وافعلَّ وافعالَّ واستفعل وافعوعَل وفعلل وتفعلل وافعللَّ وكلٌّ منها تأتي لعدة معان. وإشباع الكلام فيها لا يكفيه مجلد ضخم فأنّى لي أن أتخيّل تخيُّلاً أني استوعبت الكلام فيه بما يجلي لأذهانكم أهمية هذا الاشتقاق في العربية وأنها من هذا القبيل تفوق كل لغة من لغات الغربيين والشرقيين لا أستثني لغة أصلا ومع ذلك يزعم بعضهم أنها لغة ميتة أو أنها شاخت وقاربت الهلاك »)[2].

وعن القدرة العجيبة للغة العربية على استيعابها للمعاني الجديدة وقدرها على التكيف مع متطلبات أي عصر، بما تتميز به من قواعد محكمة وطرق الإثراء اللامحدود لقاموسها بالتعريب وبالاشتقاق، والنحت والتركيب وغيره، يقول أحد أساطينها في عصره وهو الأستاذ أسعد داغر: « خلافا للغة الفصيحة فإنها تحاشت عن أن يكون فيها شيء مما ذُكِر، بل واسعة المتون، عجيبة الفنون، غريبة الشجون، مضبوطة القواعد، محكمة الأساليب، وفيها من

(1) مجلة المعرفة، نفس المرجع السابق.

(2) كتاب الفلسفة العربية وتطورها، جبر ضومط – مطبعة المقتطف والمقطم – القاهرة 1929.

أبواب الاشتقاق والتصريف والنحت والتعريب والإعراب ما تحسدها عليه بقية اللغات، ولها من الاختصاصات والاستعارات والكنايات وغير ذلك من الآداب ما يهتز منه طربا أولو النهى ويحار له ذوو الألباب، فصرنا بها في استطاعة على مجاراة العلم أكثر من غيرنا وعندنا أدوات الاشتقاق والنحو والتعريب التي تكفيها مؤونة التعب في اختلاق ألفاظ جديدة تقتضيها الضرورة »[1].

ويؤكد ما ذهب إليه الدكتور أسعد داغر، أحد كبار المستشرقين الموضوعيين وهو يوليوس جرمانوس بقوله: « إن من تتبع ماينشر إلى اليوم من الأثار الأدبية باللغة العربية لايسعه إلا التسليم بوفرة الثروة الأدبية التي أضافها أدباء هذا العصر إلى اللغة العربية، وكيفما قلبنا الطرف في المؤلفات الأدبية تجد ألفاظا جديدة منحوتة قد حلت محل الفاظ قديمة وأخذت مكانها من اللغة. خذ كلمة « شريط » مثلا فهي مشتقة في الأصل من كلمة « شرط » ومعناها شق وهي تعني الآن خيطا يشبه الخط الذي يحدثه الحجام عندما« يشرط » الجلد أي يبزغه. ويستعملونها للدلالة على الشقة التي توضع على معاطف الجنود، وقد إقتبسها الفرس والأتراك بهذا المعنى، إلا أنها أكتسبت في اللغة العربية معنى آخر وهو« الخيط » ثم توسع الكتاب فألبسوها معنى آخر وهو « الخطوط » أو « القضبان » التي تسير عليها القطارات الحديدية، ومنها تدرجوا أيضا إلى قولهم « شريط الصور المتحركة » ومعناها معروف اليوم لدى كل من يقرأ اللغة العربية.

فالنحت أو الاشتقاق إذن مصدر ثروة كبيرة للغة العربية لامثيل له في غيرها من اللغات الأجنبية التي كثيرا ما تضطر إلى إقتباس ألفاظ أجنبية للدلالة على معان جديدة وهي تدخل تلك الألفاظ في معجم لغتها،ولا تخفى أن أهم ما يجب مراعاته في الاشتقاق هو المحافظة على معنى الكلمة الأصلي مع التوسع

(1) المقتطف، ج9، س6، شباط 1882.

فيه وإلباس اللفظ المشتق معنى جديدا أعم .وقد يكون في هذا التوسع كثير من التكلف في اللغات الأوربية، وأما في اللغة العربية فإنه طبيعي ينطبق على روح اللغة فضلا عن كونه ممكنا ومباحا من وجه قواعد اللغة والاصطلاح، ولذلك يجب أن ننتفع بهذه المزية الفريدة التي تمتاز بها اللغة العربية ونعني بها مرونتها ، وأن نلجأ إليها كلما أدرنا التعبير عن معاني الاختراعات الجديدة بأن نشتق ألفاظًا جديدة من كلمات معروفة في اللغة للدلالة على تلك المعاني .

ولإيضاح مزية اللغة هذه نقول إنك لا تجد أية لغة من لغات العالم(ماعدا اللغتين التشيكية والهنغارية) تستطيع التعبير عن كلمة تياترو اليونانية، ولذلك اقتبست تلك اللغات هذه الكلمة، أما العربية فقد حلت فيها « دار التمثيل » محل تلك الكلمة فأدت المعنى المراد على أفضل وجه .

كذلك ترى أنه ما من لغة أوربية تحتوي على كلمة للدلالة على آلة التصوير المسماة(Photographic Camera) ولذلك عمدت تلك اللغات إلى التعبير عن هذه الألة بكلمتين مستعارتين إحداهما من اللغة اليونانية والأخرى من اللغة اللاتينية أما اللغة العربية فقد استغنت عن اللغات الأجنبية وعبرت عن المعنى المطلوب بكلمتي "مصورة شمسية" »[1] .

وعن هذا التأثير العالمي للغة العربية وتشييدها لحضارة شامخة أبد الدهر، يقول المستشرق الأمريكي رتشارد كوتهيل : « قلّ منا نحن الغربيين من يقدر اللغة العربية حقّ قدرها من حيث أهميتها وغناها، فهي بفضل تاريخ الأقوام التي نطقت بها وبداعي انتشارها في أقاليم كثيرة واحتكاكها بمدنيات مختلفة قد نمت إلى أن أصبحت لغة مدنية بأسرها بعد أن كانت لغة قبيلة واحدة . . . ومع أن اللسان المغربي يختلف عن اللسان المصري، بقدر ما يختلف اللسان المصري عن الحضرمي والحضرمي عن البغدادي فاللغة واحدة والخط واحد .

(1) مجلة الهلال، القاهرة، ع5، س 42، مارس 1934.

فالعربية من هذا القبيل أشبه بالأنجليزية التي اجتازت البحار وقطعت القارات وغدت أساسا لمدنية جامعة.»[1].

وعن هذه المميزات التي تنفرد بها اللغة العربية وتأكيدا لما سبق يقول الأستاذ إبراهيم اليازجي: «وقد اختصت هذه اللغة بمزية عزّت أن توجد في غيرها، وهي أن أكثر ألفاظها مأخوذ بالاشتقاق اللفظي أو المعنوي، بحيث صارت إلى ما صارت إليه من الاتساع الذي لا تكاد تضاهيها فيه لغة، على كونها من أقل اللغات أوضاعا، إلا أنها من أكثرهن صيغا وأبنية، وهو السر في قبولها هذا الاتساع العجيب، فضلا عمّا فيه من تشعب طرق المجاز»[2].

وتفنيدا لادعاء الأعداء بضعف اللغة العربية وعجزها عن مسايرة التطور العصري في مختلف المجالات، يقول: «إن من تتبع كلامي عن اللغة العربية يدرك من غير عناء أن العربية لم تكن في حاجة إلى غيرها من اللغات بفضل اتساع اشتقاقها وقياسيته ووضوح المعنى المراد مما اشتق من الألفاظ وفقا له سواء كانت تلك الألفاظ أفعالاً أو أسماء فإن من يعرف معنى القشعريرة يفهم حالا الفعل المشتق منها، أعني اقشعر وهكذا من يفهم معنى استحق فإنه يفهم حالا معنى المصدر واسم الفاعل والمفعول المشتقات منه قياسيا. ومن يعلم أن تميم علم لقبيلة من قبائل العرب وأن بيروت علم لمدينة يفهم من قولنا رجل تميمي أو بيروتي إنه من بني تميم أو من أهل بيروت فهماً يتسارع إلى الذهن كتسارع الصوت إلى الأذن أو النور إلى العين.

ونضرب لذلك -مثلا- إن علماء العربية أخذوا علم المنطق عن علماء اليونان إما رأسا أو نقلا عن السريانية ولكنهم لم يأخذوا ألفاظ هذا العلم كما هي عن اليونان بل قالوا موضوع ومحمول وقضية وقياس واستنتاج ومقدمة صغرى ومقدمة كبرى ونتيجة والمقولات العشر وقول الشارح وتصور وتصدير

(1) اللغة العربية، القسم الأول آراء ومناقشات، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 2004، ص 153.

(2) مأخوذة عن مقالة لإبراهيم اليازجي في مجلة البيان -القاهرة- عام 1897.

وكلي وجزئي وقضية كلية وقضية كلية مهملة. وقضية كلية مصورة وهلم جرا من مصطلحات هذا العلم.

وأخذ العلماء الغربيون هذا العلم عن اليونان كما أخذها علماء العرب، لكنهم أخذوا الحدود عن اللغة اليونانية بألفاظها بخلاف العربية فإنها استغنت عن ألفاظ تلك الحدود اليونانية بألفاظ من ألفاظها أدت معانيها تمام التأدية من غير صعوبة ولا التباس.

وما قيل في المنطق يقال في علوم الفلسفة، فإنهم أي علماء العربية أخذوا هذا العلم عن غيرهم، أما لغتهم فلم تحتج إلى لغة القوم ورأت فيها من الألفاظ ما يؤدي معاني ألفاظ ذلك العلم. فقالوا وجود ومعدوم وعرض وجوهر وحال وكسر وانكسار وتأثر وأثر وماهية وهوية ومقتضي ومانع... وأنتم ترون أن كل هذه الألفاظ من صميم الألفاظ العربية والعارفون منهم هذه المصطلحات بالفرنساوية أو الإنجليزية يعلمون أن أغلب هذه الألفاظ مأخوذة عن اللاتينية أو اليونانية بل يعلمون أن علماء هاتين الأمتين ما زالوا يؤلفون في اللغة اللاتينية إلى عهد قريب لعدم استطاعة لغاتهم أولا أن تتحمل هذه العلوم بنفسها بخلاف العربية فإنها تحملتها حالا فأصبحت تلك العلوم كأنها موضوعة فيها ابتداء وكان من علماء اللاتين والجرمان أنهم ترجموا في بادئ أمرهم أكثر تلك العلوم عن اللغة العربية.

وهكذا كان الأمر أيضا في علوم الطبيعة كالطبيعيات والطب والكيمياء والفلك والنبات والحيوان، فإن اللغة العربية لم تحتج في هذه العلوم إلا إلى الألفاظ التي تستعمل استعارة لأن مسمياتها من نبات وحيوان لم تكن معروفة في البلاد العربية لأنها لا تعيش فيها وتعيش في غيرها من البلدان، فأخذوا الاسم بأخذ المسمى وهكذا الحال فيها لو كان اللفظ المأخوذ اسما لآلة مخصوصة صنعها صنّاع تلك الأمم قبل أن يعرفها العرب والعربية بمئات من السنين»[1].

(1) المرجع السابق ذكره.

ويختم جبر ضومط قوله حول هذا الموضوع الهام بحجة قوية وهي: «لماذا احتملت لغتنا العربية الشريفة في أيام العباسيين مثلا علوم اليونان والفرس والسريان بدون أن يظهر عليها عجز أو ضعف ولا تستطيع اليوم أن تحتمل علوم الأوروبيين على ما يزعم الأكثرون مع أن هؤلاء كانوا يترجمون كتب العلم والفلسفة عنها منذ بضعة قرون»[1].

وعن هذه القدرة العجيبة على صياغة الألفاظ الجديدة من ألفاظ عربية قديمة بفضل خاصية الاشتقاق الذي تتميز به اللغة العربية كما قلنا، يقول الدكتور جرمانوس: «فصوغ ألفاظ ذات معان جديدة من ألفاظ عربية قديمة يتيح لهذه اللغة أن تستغني عن ألفاظ أجنبية وأن تحفظ بصياغتها العربية، وقدرة اللغة العربية على "ازدراد" الألفاظ المنحونة عظيمة جدا بحيث أنها لا تتسامح بقبول ألفاظ أعجمية (أجنبية) تقتحم اللغة وهي بثوبها الأصلي، والألفاظ الفارسية، واليونانية التي دخلت اللغة العربية ألبست صيغا لا يمكن تمييزها عن الصيغ العربية، وفي الواقع أن تعريب الألفاظ الأعجمية يقضي بالباس تلك الألفاظ ثوبا عربيا لا شك فيه. وفي كتب اللغة العربية ألوف من الألفاظ المعربة عن اللغات. وماكلمة «قاموس» نفسها (ومعناها البحر) سوى مثل واحد منها ولا يقرأها قارئ إلا وبذكر كلمة أوقيانوس اليونانية ومعناها البحر العظيم»[2].

وتأكيدا لهذه الحجج التاريخية والعلمية عن قوة اللغة العربية وقدرتها على الصمود، يقول الدكتور إبراهيم السامرائي: «أريد أن أخلص من هذه المقدمة التاريخية إلى أن العربية في أوائل تطورها وذلك في مطلع العصور الإسلامية قد حفلت بالثروة العلمية، وهذه الثروة العلمية كان لها مصطلح يكاد يكون مكتملا ناضجا، لقد توفرت في علوم العربية مادة إصطلاحية ضخمة ودقيقة.

(1) كتاب الفلسفة العربية وتطورها، مرجع سبق ذكره.
(2) مجلة الهلال، القاهرة، ع5، س 42، مارس 1934.

لقد كان للنحاة الأوائل مصطلحهم الدقيق الذي عبر عن نضج كبير وإدراك تام لسمو هذه اللغة بحيث لم تستطع القرون المتلاحقة أن تضيف إلى المعجم النحوي شيئا من مصطلح جديد، ومثل هذا ينطبق على سائر علوم اللغة العربية...

أقول: إن العربية الفصيحة استطاعت أن تكون لغة العلم خلال قرون عدة وقد كتب بها المختصون من عرب وغير عرب مسلمين،ولقد وجد غير العرب ومن غير المسلمين أنها أمثل لغة للتعبير عن الفكر الفلسفي وأن فيها مكتبة تمد الباحث المتخصص بطائفة عن الألفاظ الإصطلاحية. ومن أجل ذلك نقل إليها التراجمة النصارى فلسفة الإغريق وعلومهم، ذلك أنهم وجدوا أن سريانيتهم لا تؤدي هذه الأغراض الجديدة»[1].

ثم يضيف قوله عن فضائل اللغة العربية ومميزاتها الفريدة في الاستيعاب والاشتقاق بصفة خاصة: «وما أراني إلا مكررا الكلام على غنى العربية ووسائلها الخاصة في توفير المصطلح لقد كثر القول في هذا وكثرت الدراسات فأشيرمثلا الى قدرة العربية الاشتقاقية وأنها تتسع في الاشتقاق إلى حد الاشتقاق من أسماء الأعيان كالماء والهواء والحجر والحديد والخشب وما إلى ذلك.

وإن لها من أبنيتها مايعين على توفير مسائل كثيرة كالمصدر الصناعي الذي صنعت به النسبية والمادية والكهربائية والحيوية والديمقراطية والوجودية ومثل هذا كثير.

وأن لها من أبنية أسماء الآلة وسائر المشتقات ماهو كفيل في توفير مادة اصطلاحية كبيرة.

ولقد دل الاستقراء على أن في العربية أبنية لم يلتفت إليها الصرفيون ولم يقيدوها في مصنفاتهم وهي تصلح أن تؤدي أغراضا علمية.

(1) كتاب: مقدمة في تاريخ العربية، د. إبراهيم السامرائي، بغداد 1979.

من ذلك مثلا مادة «فِعال» بكسر الفاء وهي من أبنية أسماء الألة في اللغة القديمة وهي أسهل وأولى من المشتقات القياسية.

وقد ورد مما جاءعلى هذه الصيغة مئات من الألفاظ التي تستعمل أدوات وآلات من ذلك:

العيار والصمام والعفاص والخياط والرباط والوكاء والنقاب والقناع واللجام ومثل هذا كثيرا لا يأتي عليه إلا الإستقرار الوافي في أمهات كتب العربية.

ومثل هذه الأبنية التي لم يفطن إليها المحدثون ماجاء على «فُعلة» بضم الفاء مرادا به اسم المفعول القديم، قبل أن تكون له قاعدة «مفعول» من الثلاثي، ومنه اللمزة أي الملموز واللقمة أي الملقوم والضحكة أي المضحوك منه، وكان أهل الاقتصاد مصيبين كل الإصابة حين قالوا« العملة» بالمعنى المعروف.»[1].

ويرجع الفضل في هذا المستوى الراقي الذي وصلته اللغة العربية والحضارة التي تجسدت فيها وبها يقول الدكتور إبراهيم السامرائي: «أرى أن الظاهرة القرآنية وحدها تعد المثال البليغ الناطق بقدرة اللغة وإستيعابها للفكر بل قل لدقائق من الفكر العامر بالأسرار البليغة والمعاني النيرة، وليس من شك أن العربية الجاهلية على فخامتها ونصاعتها وإشتمالها على النافع والجميل من ألوان القول، لسيت شيئا بالإضافة إلى البيان المشرق المفضي لطائفة من المعاني البليغة مما ندركه في كتاب الله.

إن عصر الإسلام الأول شهد حضارة جديدة هي حضارة الإسلام وما جاءت به الشريعة من أحكام ومبادئ تتصل بالعقيدة والعبادة وسائر الرسوم الدينية وأخرى تتصل بالحياة والسلوك والمعاملة ومايتصل بذلك من قوانين وأحكام.

وأنت ترى أن العربية في هذا العصر قد أربت على الحاجة فكانت لغة العلم ولغة الفكر ولغة الفلسفة، وفي هذا العصر المتقدم كانت الأسس الأولى

(1) مقدمة في تاريخ العربية، مرجع سبق ذكره.

لعلوم الإسلام وعلوم العربية، ومن ثم كانت الإتقالة الأولى لهذه اللغة من لغة الأدب والشعر إلى لغة العلم والمصطلح العلمي، فهل لنا أبلغ من هذه التجربة الصادقة؟ وهل تستطيع لغة بدائية أن تفي بهذا الرافد الحضاري الزخار؟

ثم كانت تجربة القرون التي تلت القرن الأول الهجري، تلك التجربة التي جعلت من العربية لغة الحضارات المتقدمة في كثير من المراكز الحضارية في العالم الإسلامي الواسع وفي غيره من الأصقاع التي تأثرت بما شارك به المسلمون عامة عربا وغير عرب.

وإذا عرفنا أن العربية فرضت نفسها على غير المسلمين كتبوا في الحكمة والفلسفة وسائر العلوم البنيوية أدركنا قوة هذه اللغة التي أتيح لها أن تملك مالم تملكه لغات العالم القديم.

أفبعد هذا، أليس من الغريب أن يشك أصحابنا من أهل العصر الحديث في قدرة العربية وإستيعابها للعلم الجديد، ولما أسموه «تكنولوجيا»»!

ذلك ماملا نرضاه لهم ، ولو عرف هؤلاء هذه اللغة وثقفوا منها ما ثقفوه من اللغات الغربية لغيروا من رأيهم ورجعوا إلى الصواب.

ومن الغريب أن يكون أهل العلم من هذا النفر الذي لم يحذق العربية وعلى معرفة حسنة بالإنكليزيجة أو غيرها من اللغات الأعجمبية غربية كانت أم شرقية أنهم يباشرون هذه اللغات حديثا وكتابة وهي وسائل عمل لهم ولا يبيحون لأنفسهم أن يخرجوا على قواعدها وأسسها، ولكنهم يتساهلون مع أنفسهم حين يرتكبون الخطأ في العربية وحجتهم أن العربية صعبة وهي لغة لا تناسب العصر.

هذا خطأ كبير بل جهل مخيف! فإلى أين المصير؟

إن العمل على رعاية العربية الجديدة بمصطلحاتها واستعمالاتها ينبغي أن نؤمن به ونخطط له نحن معاشر العرب ولا أخص قطرا واحدا»[1].

(1) مقدمة في تاريخ العربية، مرجع سبق ذكره.

وعن فضل اللغة العربية على كثير من اللغات والأمم في العالم، يقول الأستاذ جبر ضومط: «وأما ما أعطته العربية لغيرها من اللغات والأمم فكثير ومن ذلك:

1) أنها أعطت حروفها الهجائية لملايين من الشعوب في بلاد الترك والهند وجزائر البحر ، فإن المورو في جزائر الفيليبين يكتبون لغتهم بالحروف العربية لحد هذه الساعة.

2) أعطت نفسها لكثير من الأمم الذين تغلبوا على أهلها أو تغلب أهلها عليهم مئات من السنين فكانت لهم ما كانت اللغة اللاتينية لشعوب أوروبا فإن الأتراك والتتر والفرس ما زال علماؤهم يؤلفون مؤلفاتهم في اللغة العربية إلى عهد قريب ولا يزال كثير من علمائهم إلى الآن يؤلفون في العربية فقد أهدي إليّ منذ بضع سنين مؤلف تاريخي في العربية لزين الدين الرسولي أحد علماء قازان من روسيا.

3) أعطت لغات الأتراك والتتر والفرس والاردو (إحدى لغات الهند) المئات والألوف من ألفاظ المعاني ومئات وألوفا من الجمل التامة، بل أعطت أكثر هذه اللغات ولا سيما التركية كل مصطلحات علوم اللغة والبيان والبديع والعروض وأكثر مصطلحات العلوم والفلسفة حتى بدء القرن التاسع عشر وما بعده أيضا.

4) نفتخر أنا أعطينا لغات أوروبا الأرقام العربية وكثيرا من أسماء المعاني والمصطلحات العلمية التي تزخر بها قواميسهم باعتراف علمائهم.»[1].

وعن تداول الأيام بين اللغات، وهو أمر طبيعي، للأسباب التي ذكرناها، وهي تدخل في سنن التاريخ وظهور الحضارات وضعفها، التي ترتبط بها اللغات ارتباطا كاملا، ظهورا وزوالا وقوة وضعفا، يقول إبراهيم حلمي العمر: «لما كان العرب فاتحين قابضين على زمام السيادة والسياسة والعلم على عهد العباسيين في بغداد، كانت تعابير لغتهم وكلماتها وكثيرا من مصطلحاتها متغلغلة بين ألسنة

(1) كتاب الفلسفة العربية وتطورها، مرجع سبق ذكره.

الفرس والترك والهنود وهم أقرب الشعوب إلى بغداد من حيث الصلة الجغرافية والأدبية والدينية. كما كانت مفرداتها شائعة في إيطاليا وصقلية على عهد الفاطميين والأدارسة وبني تغلب في برقة وفاس والقيروان والقاهرة، وقد نفذت مصطلحاتها العلمية في قلب اللغة الفرنسية والإسبانية لما كان العرب ذوي الحول والطول في الأندلس. وليس شيوع المفردات العربية في اللغات الفارسية والتركية والإيطالية والفرنسية والأنجليزية إلى اليوم إلا مثالا من أمثلة تأثير لغة الأقوياء على الضعفاء والمتقدمين على المتأخرين والغالبين على المغلوبين»[1].

وعن فضل اللغة العربية على العديد من لغات العالم، كما سبق، وخاصة تأثيرها في لغات الشعوب الإسلامية، يقول الدكتور يوليوس جرمانوس: «لقد كان لمرونة اللغة وبلاغتها أكبر الأثر في نفوس الفرس ومن بعدهم الأتراك، حتى أنهم اقتبسوا طائفة من الألفاظ العربية حلّت محل ما يقابلها من الألفاظ الفارسية والتركية، وقد أصبح وجود الألفاظ العربية في تينك اللغتين من متممات الفصاحة والبلاغة، فكلما كثرت تلك الألفاظ كان الكلام أفصح وأبلغ. ولما وقعت النهضة الفارسية والتركية وتجددت روح الوطنية أخذ القوم يستعيضون عن الألفاظ العربية بما يقابلها من الألفاظ الفارسية والتركية القديمة، ولكن روح الاقتباس الذي استمر عدة قرون لم يكن من السهل القضاء عليه، ولذلك تجد كتاب القوم. وهم مدفوعون بروح العصبية القومية، يستبدلون في مواقع كثيرة بألفاظ عربية ألفاظا أخرى يزعمون أنها تركيةوهي في الواقع عربية الأصل وإن تكن في صورة جديدة، وفي وسع هذا الكاتب أن يورد مئات من الأمثلة على ذلك ولكنا نكتفي بمثل واحد منها هو كلمة «الفلك» العربية، فقد دخلت هذ اللفظة في عدة لغات شرقية وغربية ودخل معها عديد من المصطلحات البحرية، وإستبدلها الأتراك بكلمة« فلوكه» وقد

(1) اللغة العربية، منشورات وزارة الثقافة السورية، القسم الأول آراء ومناقشات، ص 193.

صاغها الإيطاليون من اللفظ العربي الأصلي، فما فعله الأتراك إذن من هذا القبيل ليس دليلا على الرقي بل هو بالعكس جمود وتأسن[*]»[1].

ويؤكد ذلك الدكتور علي فهمي خشيم بتلخيصه لمميزات وخصائص اللغة العربية التي أتينا على ذكر أهمها آنفا، فيقول: «يا للروعة! مئات الآلاف من المفردات والألفاظ، أسماءً وأفعالاً وصفات، يُشتق بعضها من بعض ويرتبط أحدها بالآخر في سلسلة محكمة جعلها لغة فريدة بين لغات العالم. ولن أفيض في بيان مزاياها وتعداد خصائصها، فقد تكفَّل بهذا العلماء الأجلَّة من قبل، ولا ينكره إلاّ مكابر معاند.

ثم يضيف قوله: «اتَّسعت العربية للمعرفة اتساعًا لم تعرف مثيله لغة غيرها، وكاتنت وعاءً للفكر في كل مجالاته وأداةً للعلم في متباين صوره. وعنها أخذت أوروبا –في نهضتها الحديثة من عصورها المظلمة– ما نعرف من علوم وفنون تعبّر عنها بلفظ عربي أُعْجم حتى كاد أثره يختفي. وقد بذلَ العلماء جهداً كبيراً ليظهروا العدد الوفير من الكلمات المأخوذة عن العربية في اللغات الأوروبية»[2].

وسردا لآراء العلماء حول مميزات اللغة العربية وخصائصها الفريدة التي جعلتها تقوى على الصمود عبر العصور، كما أسلفنا، يقول الدكتور منصور فهمي: «أرى أن اللغة العربية لايعوزها سبب من الأسباب التي ترفع بها إلى كمال اللغات، فهي تقبل التصريف في الألفاظ والنحت منها والإشتقاق، وقد وجدت فيها عبارات تصور أدق المعاني،وهي ككل لغة من اللغات التي تتأثر

(*) ومثال هذه الحالة نجده متكررا بالمئات في اللغات المختلفة، كاللاتينية مثلا، التي نجد فيها كلمة «صفر» العربي تصير (زيرو)، و«الكحول» أو «الغول»، كما ورد في القرآن الكريم: (لا فيها غول...) تصبح (لالكول)، وتعود مرة أخرى لتدخل إلى اللهجة العامية الجزائرية من باب «هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا»، ولكنها مستهلكة وفاسدة. والمثال ذاته ينطبق على كلمة «أولاش» التي يطلقها بعض من يدعون الأصالة (الأمازيغية) لتعني كلمة (صفر) وهي في الحقيقة ليست إلا مسخا للكلمة العربية المكونة من حدَّين: «لا» و«شيء»، وهي نفي شيء، فيصبح الأمر صفرا، أي لا شيء، والصفر في معناه العربي يعني (العدم) أي الفراغ، أو لا شيء!! ولم يخرج من المثل العربي «الحاج موسى، موسى الحاج»!!

(1) مجلة الهلال، القاهرة، ع5، س 42، مارس 1934.

(2) رحلة الكلمات، دار إقرأ للطباعة والنشر، ليبيا 1986، ص 19.

برقي متكلميها تخضع لناموس التقدم العام،فلا بد أن المعاني والمكتشفات الجديدة والتشبيهات التي تأتي بها سنن الرقي والتحضر قد تحتم على اللغة العربية ألفاظا وأساليب غير ما عرف منها وما ألف بها ، على أنني لا أقصد بذلك التيسير لكل دخيل من الألفاظ أو من الأساليب من غير قيد ولا شرط، إنما الذي أقصد إليه قبول مالا يتسع له باب التعريب أو النحت وما يقبله ذوق الزمن من التشابيه والأوضاع والأساليب »[1] .

وعن سعة اللغة العربية وكثرة مفرداتها وقدرتها العجيبة على الاستيعاب والتكيف مع مستجدات الحياة في جميع المجالات، يقول أحمد زكي أبي شادي: «سمعنا تكرار أن كلام العرب «لا يحيط به إلا نبي» وأن أبنية اللغة العربية تتجاوز الأثنى عشر مليونا من الكلمات، على ماذكر الخليل بن أحمد، وأن الزبيدي قدر أن العدد المستعمل من الكلمات العربية الكائنة فعلا يربو على ستة ملايين ونصف المليون من الكلمات» .[2] .

وعن ميزة الثبوت في معاني اللغة العربية لقرون عديدة لا تضاهيها فيها أية لغة في العالم، يقول الدكتور يوليوس جرمانوس: «والذي أراه أن للغة العربية بهذا الاعتبار مقاما ممتازا بين جميع لغات العالم فإن تاريخها متصل غير منقطع منذ ألف وأربعمائة سنة، وكل من درس هذا التاريخ وتخرج في آداب اللغة العربية في العصور التي تعاقبت يستطيع أن يفهم لغة الصحف التي تنشر في هذا العصر من دون أن يشعر بمشقة، وفي الواقع أن طالب اللغة العربية قد يجد في فهم مفردات اللغة القديمة وإدراك تعابيرها صعوبة أعظم بما يجده في تطبيق المعاني الحديثة على مفردات منحوتة من مصادر أو مفردات قديمة...

(1) مجلة الهلال، القاهرة. ج3 س 42، يناير 1934.

(2) مجلة المقتطف، القاهرة، ج2، م75، جويلية 1929.

ماذا عسى أن يكون رأي ابن خلدون لو بعث اليوم وما رأي غيره من المفكرين في مثل كلمة «القاطرة» و«الباخرة» وغيرهما من الألفاظ التي لم يتعملها العرب ولا هي في شيء من لغة العيس والجمال؟ «فالقاطرة» تشير إلى «قطرة» في سلسلة الرتل المعروفة بالقافلة، وهي ترجمة بديعة للمركبة التي تتقدم سائر المركبات التي يتألف منها «القطار» وكلمة (Train) بالإنجليزية والفرنسية والإيطالية مشتقة من كلمة (Trahere) اللاتينية. ومعناها جر« والباخرة» منحوتة من كلمة البخار،وما من أحد يجهل اليوم أن معناها السفينة التي تسير بقوة البخار...»[1].

«... إن تاريخ اللغة العربية متصل غير منقطع منذ ألف وأربعمائة سنة، وهذه المزية التي يتمتاز بها العربية هي متأصلة في روح اللغة متغلغلة في مبناها. فاليونانية واللاتينية والتوتونية القديمة والسنسكريتية مثلا قد تشعبت فنشأت عنها لغات أخرى بفضل مرونتها وسهولة تكييفها . أما اللغة العربية فقد ثبتت على عاديات الزمن وإحتفظت بكيانها كأنها أثر من أثار القدم. وفي الواقع أن «بناءها» هو أثر فني يقوم على قواعد دقيقة تحدد الشكل الخارجي، والصيغة الظاهرة. ولكن روح اللغة متجدد أبدا. فهي بهذا الاعتبار تمتاز على سائر اللغات وتفوقها لأن تلك اللغات لم تستطع أن تساير نشوء التقدم الفكري، وقد عجزت قواعد صرفها ونحوها عن الثبات بإزاء التجدد الفكري ، فإذا أردنا أن نوسع نطاق التعبير في اللغة العربية لكي ينطبق على المقتضيات الجديدة فيجب ألا تعزب عن بالنا المزية المشار إليها وهي مزية تشترك فيها اللغة العربية مع شقيقاتها اللغات السامية، أما« تقليد» اللغات الأخرى ففيه تفريط في اللغة وفي روحها وآدابها»[2].

وعن قدرة اللغة العربية على استيعابها للدخيل مهما يكن هذا الدخيل، وذلك عن طريق خاصية ما يُعرف «بالتعريب»، أي إدخال اللفظ الأجنبي إلى اللغة العربية بعد إخضاع الحروف الأجنبية إلى مخارج النطق

---

(1) مجلة الهلال، القاهرة، ع 5، س 42، مارس 1934.

(2) المرجع ذاته.

العربي(*)، يقول الدكتور لويس عوض: «ولست أتحدث هنا عن عشرات الآلاف من مصطلحات العلم والحضارة والفنون والصناعات التي استعارها الناطقون بالعربية من اللغات الأوروبية بصورتها الأصلية أو بصورتها الأصلية معدلة تعديلا طفيفا لكي تستقيم مع صور الكلام العربي والمورفولوجيا العربية...

ومع ذلك فكل هذه الألفاظ المستوردة لاتغير من بنية اللغة العربية ولو بلغت مائة ألف لفظ، فاللغة العربية لم تتغير بنيتها لأنها استوردت من المصرية القديمة ومن اليونانية ومن اللاتينية إلخ... فالبرغم من أن اللغة العربية قد امتصت هذه الألفاظ الأجنبية وهضمتها حتى جعلتها جزءا منها لا يتجزأ، فإن هذه الألفاظ الأجنبية كمئات غيرها من ألفاظ الحضارة كانت مجرد إضافات إلى ذخيرة اللغات من المفردات، إضافات في الألفاظ وفي المعاني»(1).

وعن ميزة النحت والاشتقاق وغيرها من الخصائص المذكورة آنفا، يضيف الدكتور لويس عوض قوله: «... ولكن أصحاب العربية استطاعوا أن ينحتوا بنجاح عظيم عشرات الآلاف من المصطلحات الحضارية الحديثة من جذور عربية صحيحة وسليمة دخلت كلها عمود اللغة العربية، وقد بلغ من ضخامة عددها وشيوع تداولها أنها غيرت من نسيج اللغة العربية الذي ورثناه عن الأوائل بحيث يمكن أن يقال أننا بإزاء لغة جديدة»(2).

ثم يلخص رأيه في هذا الموضوع بقوله: «... وقد تعلمنا أن نترجم مقطع «إيزم» Ism وما يشيهه من اللغات الأجنبية بمقطع «أية» في اللغة العربية قياسا

(*) ينبغي التنبيه هنا على وقوع بعض الخلط لدى (المعربين) القدامى الذين درجوا على استبدال حرف V بالواو حرف P بالفاء، فيعلق على ذلك الأستاذ بشير فارس بقوله: «ونحن اليوم نستبدل الأول بالفاء فنقول « فولتير» والثاني بالباء فنقول« أوربا» ثم أن العرب عربت الحروف الأعجمية بغير واحد من حروفها، فاستبدلت مابين الكاف والجيم– مثلا– بالجميم أو الكاف أو القاف، والذال اليونانية بالدال والذال. فيجدر بنا اليوم أن نتدارك هذاالخلط، فنستبدل الحرف الأعجمي بحرف واحد متواضع عليه». (انظر مجلة الهلال، القاهرة، ج1، س 42، نوفمبر 1933).

(1) لويس عوض، ثقافتنا في مفترق الطرق، دار الآداب 1983، ط1.

(2) نفس المرجع السابق.

على العرف العربي القديم الذي ترك لنا قوالب مثل« الروحانية» وإستخرج الأسم المجرد من صيغة الصفة المؤنثة أوعلى الأصح من صيغة «النسبة» المؤنثة كقولنا «نصرانية» من «نصراني» و«يهودية» من « يهودي» و«الصوفية» من (صوفيا) Sopohia أي «الحكمة» لا من «الصوف» إلخ... كل هذه الألفاظ مشتقة من جذور عربية لا شبهة فيها ولكنها صبت في هذا القالب الموحد للدلالة على تجريد الإسم بحيث يصبح فكرة مجردة كلية المدلول، فالعرب لم تكن تقول «المعتزلية» وإنما كانت تقول «المعتزلة» أو«فرقة المعتزلة» ولم تكن تقول «الأشعرية» (إسم النسبة لا الصفة وإنما كانت تقول« الأشاعرة»، ولم تكن تقول «القرمطية» وإنما كانت تقول «القرامطة»، والقرآن يحدثنا عن «النصارى» و«اليهود» و«الصابئة» و«أهل الكتاب» ولا يحدثنا عن «النصرانية» و«اليهودية» و«الصابئية» و«الكتابية»، فاللغة العربية أصلا لا تعرف «اسم النسبة» للدلالة على المذهب مجردا وأنما نعرّف المذهب باصحابه وأتباعه، وظهور صيغة «أسم النسبة» متأخر من تاريخ العربية ومقترن بالنهضة الثقافية الكبرى أيام بني العباس كما نجد في مصطلحات مثل «صوفية» و«روحانية» وحتى هنا نلاحظ أن الكلام عن «المتصوفة» أقرب لروح التعبير العربي من الكلام عن«الصوفية»[1].

وعن قدرة اللغة العربية على التكيف، يعطي الدكتور لويس عوض العديد من الأمثلة، نذكر منها ما يتعلق بسك المصطلحات الجديدة، حيث يقول: «أيا كان الأمر فقد توسعت العربية الحديثة في سك المصطلحات في كل علم وفن من «أسم النسبة» بتأثير اللغات الأجنبية إلى حد بلغ مبلغ الثورة اللغوية، فالنقاد يتحدثون عن «الواقعية» و«الطبيعية» و«الإتباعية» و«الإبداعية» و«المستقبلية» إلخ.... والفلاسفة يتحدثون عن «المادية» و«المثالية»، و«الجوانية» و«البرانية» و«الموضوعية» و«الذاتية» إلخ... حتى إستجد في اللغة العربية ألف مصطلح مشتق من إسم النسبة، ولا شك أن ذلك قد أضاف إلى مرونة اللغة العربية وإلى قدرتها على التجريد في التعبير مع الإيجاز

(1) نفس المرجع السابق.

والأحكام بل أن إستخدام اسم النسبة قد أدى الى ظهور ألفاظ عديدة في اللغة العربية مثل قولنا « خلفية » bachground Fond و « أرضية » Terrain iground لا تشير إلى مذاهب أو حالات مزمنة مجردة وإنما تشير إلى مدلولات لا تعبير عنها في اللغة العربية، بل أن هذه المرونة المكتسبة في التعبير قد مكنت اللغة العربية من أن تباري اللغات الأوروبية باجتهاداتها الخاصة »(1).

وتأكيداً لهذه القدرة الفائقة التي تتميز بها اللغة العربية، وتلخيصا لكل ما سبق من آراء حول خصائص ومميزات اللغة العربية وعبقريتها الفريدة في القدرة على الثبات والتطور والصمود بما تتوفر عليه من قواعد وآليات يقول الدكتور عز الدين إبراهيم: «إن اللغة العربية غنية ومطواعة، مما يهيئها لمواجهة المستجدات، بما فيها من ثروة لفظية، وبما وضعه علماؤها من قواعد وآليات لتطويرها باستمرار، أما الثروة الذاتية فهي معروفة وتشهد بها معاجم اللغة. وأما قواعد التطوير وآلياتها فنشير إلى أهمها بما يلي:

أ – التعريب: وهو أخذ كلمة غير عربية شائعة، وقبولها إما بذاتها وإما بتحويرها لتوافق الأقيسة العربية والنطق العربي. فمثلا (التلفزيون)، عربت فبقيت على حالها ولا حرج، وعربت مرة أخرى بتحويرها إلى (تلفاز)، وهو وزن عربي ولابأس بذلك. ومن العرب من يستعمل لفظ (المرئي)، وهو لفظ وفقا للمعنى وهو حسن.

ب – الاشتقاق: وهو غير الاشتقاق القياسي المعتمد في الصرف. ويقصد به أخذ لفظ من آخر، مع تناسب بينهما في المعنى أو الأحرف أو الترتيب. وقد عدد العلماء منه أربعة أنواع هي الاشتقاق الصغير، الاشتقاق الكبير، والأكبر، والكبّار، ومن اشتقاقات السنوات الأخيرة لفظ (العولمة) و(العلمنة) أو العلمانية الأول من (العالم)، والثاني والثالث منه أيضا أو من (العِلْم).

(1) نفس المرجع السابق.

ولذلك تُقرأ بفتح العين إذا نُسبت إلى العالم، وبكسرها إذا نُسبت إلى العِلم، وكذلك «التأميم»، ومعناه رد ملكية الشيء إلى الأمة بمجموعها...

ج – النحت: هو ابتكار كلمة بالأخذ من كلمتين أو أكثر، وهو إما فعلي مثل: (بسمل) بمعنى: قال بسم الله، وإما اسمي مثل (جلمود) مأخوذ من (جمد وجلد)، وإما نسبي مثل (درعمي) مأخوذ من (دار العلوم). وعلى هذه الوتيرة نحتت كلمات (الحوقلة والفنقلة والحيعلة) مأخوذ من قولهم لا حول ولا قوة إلا بالله، وقولهم في الجدال: فإن قلت قلت، ونداء المؤذن أو غيره: حي على الصلاة أو غير ذلك.

د – القياس: وقد استعمله مجمع اللغة العربية مع كلمات مثل (سمّاعة) و(خرّاطة) و(غسّالة) كلها بالقياس على صيغة المبالغة (فعّال) لإفادة كثرة السماع، أو الخراطة أو الغسيل.

ه – التوليد: وهو توليد كلمة جديدة من أصل عربي، لتوصيف آلة أو غيرها، مثل: هاتف من هتف، وهي كلمة محدثة بالتوليد لتسمية (التليفون). وقد استقرت كلمة (الهاتف) ونسيت الأخرى تقريبا. والعبرة في الكلمات المولدة أو المرتجلة أو المترجمة بالشيوع وقبول الناس باستعمالها.

و – الارتجال: وهو ابتكار كلمة جديدة لمعنى جديد، «الاستحلال»، «الانتفاضة»، «الشيئية»، «الاستقطاب»، «العولمة».

ز – الترجمة: وهي مفهومة وقد ترجموا مؤخرا عملية (التناتج اللا جنسي)، بالاستنساخ وقد أشاعت وسائل الإعلام الكلمة الثانية، مع أن الأولى أدق علميا. ومن المتخصصين من يستعمل (الكلونة) تعريبا للفظ الأجنبي وهو Cloning.

ح – المجاز: وهو باب واسع، ولعل منه كلمة (سيارة)، وأصلها اللغوي القديم بمعنى (القافلة)، وإذ أنها تسير بجمالها فقد استعير لفظها لما يستعمل له الآن، ووجه الشبه واضح، وكذلك «القاطرة» كما أسلفنا...[1].

---

(1) تلخيصا عن بحث له مقدَّم في ندوة الرباط حول اللغة العربية إلى أين 3/1 نوفمبر 2002.

الفصل الثامن
مكانة اللغة العربية بين اللغات العالمية

وبناء على ما تتميز به اللغة العربية من خصائص ومميزات فريدة من نوعها أحيانا كما بينا في الفصل السابق، من حيث إنها وسعت كلام الله، لفظا وغاية، (كما قال شاعر النيل حافظ إبراهيم)، ووسعت كل متطلبات الحياة البشرية، منذ فجر التاريخ من حيث أسبقيتها في الوجود[1]، فكانت بذلك، ولذلك لغة عالمية، بكل المقاييس، وهو ما سجله مجمع اللغة العربية، فضلا عما سردناه من آراء مختلفة لعلماء كبار، عرب ومستشرقين في الفصل السابق، فعن عالمية اللغة العربية، إذن، ورد في مجمع اللغة العربية بعنوان: «اللغة العربية لغة عالمية»، ما نصه: «.. تساءل الناس منذ ربع قرن أو يزيد عن موقف العربية من اللغات العالمية الكبرى فعدها قوم واحدة منها، وأنكر عليها ذلك أقوام آخرون، وسبق أن أثبتنا أنها كانت في الماضي ولعدة قرون اللغة الوحيدة للعلم والفلسفة في العالم بأسره (من القرن الثامن الى القرن الثاني عشر الميلادي) ثم انضمت اليها اللاتينية فأخذت منها واتجهت عن طريقها الى كنوز الحضارات القديمة.. وبرهنا على أنها جديرة على أن تستعيد مجدها، وليس في طبيعتها ما يعوق مطلقا دون أن تؤدي كل متطلبات العلم والحضارة، ومنذ النصف الأخير من القرن الماضي أخذت تجدد نشاطها وتتدارك ما فاتها، وحظيت أخيرا بإنتاج وفير ومتنوع... وأقامت العربية الدليل على حيويتها وعلى قدرتها على البقاء.. ولم تجد

(1) انظر كتابنا «حقيقة اللغة العربية من خلق الإنسان إلى نزول القرآن»، دار الأمة، الجزائر.

الهيئات الدولية بدا من أن تعترف بها وتقدرها قدرها.. وقد بقي هذا القرار لسنوات عديدة بين تأييد ومعارضة(...) الى أن أخذ به في المدة الأخيرة وأصبحت العربية في المؤتمرات والاجتماعات الدولية على قدم المساواة مع اللغات العالمية الكبرى... وهناك دول افريقية حديثة في بلبلة من أمر لهجاتها المتعددة، وفي وسع العربية أن تحل محل كثير من هذه اللهجات برغم النزعة الانجلوسكسونية أو الفرانكوفونية، ويفد الآن على الجامعات العربية عدد غير قليل من الشباب الأفارقة لتعلم اللغة العربية ولهم دون نزاع شأن في نشرها في بلادهم، واستطاعت اللغة السواحلية منذ زمن أن تكون همزة وصل بين كثير من شعوب افريقيا وقبائلها، وهي لغة تربطها بالعربية وشائج كثيرة» [1].

وحول هذا الموضوع أيضا يقول الأستاذ أحمد بهاء الدين: «إن الأمة العربية ليست ككيان سياسي فقط، بل ككيان حضاري أيضا، لديها فرصة نادرة لأن تكون لغتها سلاحا من أمضى أسلحتها، في كل معاركها، ووسيلة خلاقة للمساهمة في صراع الحضارات العالمية الراهن.. ففي الصومال استقرت اللغة الإطالية وأريد لها أن تمحو اللغة العربية تماما كما حاولت فرنسا في الجزائر ادراكا من تلك الدول الأروبية أن إقامة حاجز اللغة هو إقامة الساتر الحديدي الطبيعي النهائي، بين شعب وجيرانه، وصار من قبل ذلك الصومال صومالا إيطاليا وصومالا فرنسيا وصومالا انجليزيا، وصومالا اثيوبيا..وبعد الحرب العالمية الثانية أضيف لاثيوبيا فوق الاوقادين إرتيريا، وعادت فرنسا الى الصومال المفرنس (جيبوتي) ووضع الصومال الرئيسي الايطالي تحت وصاية الأمم المتحدة، ومثلت الأمم المتحدة بلجنة ثلاثية

(1) كلمة الدكتور إبراهيم مذكور، في الدورة الثانية والأربعين لمجمع اللغة العربية المنعقد بالقاهرة في 1976/02/23.

(مصري وايطالي وانجليزي .) . وأهم معركة دارت خلال وصاية الأمم المتحدة كانت حول اللغة، فتقرير نوع اللغة التي سيتحدث ويتعلم بها الشعب هو من تقرير هويته واتجاهه الحضاري وتكوينه النفسي، وكان من هم الغرب أن يختار الصوماليون اللغة الإيطالية فهي لغة اروبية على أي حال . . وبصماتها بعد الاحتلال كانت قوية (مثل اللغة الفرنسية في الجزائر وبلدان المغرب العربي عموما) وكل شباب الصومال كانوا لا يتعلمون الا في جامعات ايطاليا، ولكن الرغبة الشعبية العارمة كانت اختيار اللغة العربية (لارتباطها بالعقيدة الإسلامية المتأصلة في هذا الشعب) ولأن مندوب مصر في لجنة الوصاية الدولية كشف كل المناورات، فقتل اغتيالا(*) ، وكانت مطاردة اللغة العربية هدفا أهم، فأوجد الغرب من يدعون الى اللغة السواحلية، تحت ستار إثارة نعرة اقليمية، ورغم أن الاستفتاء دل على تفضيل الشعب للغة العربية، فقد أثر الغرب تقديم اللغة السواحلية آملا في انقراض العرب هناك ذات يوم . . وحين دخلت الصومال جامعة الدول العربية كان يجب أن يطلب منها الارتباط ببرنامج تعريب، لأنها جامعة دول (عربية) . . ومن اتصل بهذه الحركات وقابل زعماءها، وشبابها المثقف يعرف أن اللغة العربية كانت بالنسبة لهم أحد أقوى الروابط والوشائح وحوافز الأمل في التحرر واسترداد شخصيتهم . . ويضيف الكاتب قوله : واني أسمح لنفسي أن أروي أنني منذ سنوات . . قلت لبعض زعماء الدول العربية أن هناك خدمة بسيطة جدا، ولكن اثرها الاستراتيجي بالنسبة للأمة العربية . . لا يقدر بثمن، وهو الاتفاق، والنضال من أجل نشر اللغة العربية على طول الحزام الإسلامي في افريقيا ، وحيث لا توجد لغات محلية متكاملة مثل : السنغال، ومالي، ووسط افريقيا، وتشاد، وغينيا، وشمالي غانا، ونيجيريا، وجنوب السودان المسيحي، والصومال بفروعه

(*) هو السفير كمال الدين صلاح، وقد أقام له الصوماليون بعد ذلك تمثالا في العاصمة مقديشيو.

المبعثرة.. فاللغة العربية أقرب اليهم وأسهل لهم، ولم تفرض يوما بالقوة عليهم مثلما فرضت عليهم الإيطالية والفرنسية والانجليزية.. وقد حاولت بعض الدول العربية محاولات محدودة في هذا المجال ولكن وجه الخطأ كان في أنها ركزت على تدريس اللغة فقط.. ولكن من زارهذه البلدان يجد أن هذه الشعوب على درجة من التخلف تجعل الناس فيها محتاجين أكثر الى ما يغير حياتهم، ومن هذه الزاوية دخلت اسرائيل في تلك الايام بسهولة ويسر: فقد كانت تعلم الناس حرَفا يديوية تلائم البيئة أو طرقا حديثة بسيطة لزراعة الأرض.. فيتغير مستوى الفرد ودخله ووضعه، (بينما من تعلم اللغة فقط دون ربطها بالحياة العملية، والتكنولوجيا لا يستفيد شيئا، حيث لا يجد في هذه اللغة ما يحقق به كل حاجاته، اذ يضطر الى اللجوء الى تبني لغة أخرى تتجاوب مع متطلبات الحضارة العصرية، (وهنا يكمن جوهر البعد الحضاري للغة على المستوى القومي والعالمي الذي تحدثنا عنه في الفصل الثاني).. ويضيف أحمد بهاء الدين قوله: لا يكفي أن نستصدر قرارات من الأمم المتحدة ومنظماتها باعتماد اللغة العربية لغة رسمية من بين اللغات العالمية فالمهم أن نجعل هذا واقعا أقوى... وأقوى كل يوم وهذا كله وجه واحد من وجود سلاح اللغة، هو واجب، وهو مسؤولية أيضا، وهو عمل حضاري فوق كل شيء»[1].

وحول هذا الموضوع الحضاري والاستراتيجي بالنسبة للغة العربية في إفريقيا، عقدت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم والمعهد الثقافي الإفريقي بالسنغال، الملتقى الإفريقي – العربي حول العلاقات بين اللغات الإفريقية واللغة العربية بداكار في الفترة من 01 إلى 12 أفريل 1984، شارك فيه نخبة من المفكرين والعلماء الأفارقة والعرب من أهل الاختصاص في التاريخ واللسانيات، والعلوم الاجتماعية، بحضور مراقبين عن منظمات واتحادات

(1) أحمد بهاء الدين، «اللغة العربية»، مقال في مجلة «العربي»، العدد 233 أبريل 1976.

إفريقية وعربية وإسلامية وقارية ودولية... وخلال أربعة أيام من المباحثات والمناقشات توضحت جملة من المفاهيم التي تثبت أن اللغة العربية هي لغة إفريقية وأنها لغة وطنية وقومية لما يقارب نصف مجموع أعضاء جامعة الدول العربية، وهو ما يمثل، من حيث عدد السكان، ثلثي مجموع سكان العالم العربي الحالي، ويفوق عدد المتكلمين بها في القارة السمراء عدد المتكلمين بأية لغة أخرى في القارة كلها (بما في ذلك اللغات الأوروبية الحديثة التي وفدت مع الاحتلال الصليبي الأبيض)، وأنها باعتبارها وعاء الدين الإسلامي، (كما بينا في الفصل الخامس)، يطلبها المسلمون للوقوف على تعاليم عقيدتهم في مصادرها الأصلية، كما أن حرفها كان له دور متقدم في تدوين اللغات الإفريقية مما أنتج أثارا ثقافية وعلمية إفريقية تتمثل في المخطوطات الكثيرة التي تزخر بها المكتبات وتعبر عن الإسهام الإفريقي الكبير في الثقافة العربية الإسلامية والثقافة العالمية[1].

ولقد أجمع المشتركون في الملتقى على أن الإسلام في إفريقيا (بصفته دينا عالميا)، لم يؤد إلى مسخ الشخصية الإفريقية ولا إلى إزالة أو إذابة مقوماتها الأساسية التي لا تتعارض مع شريعة السماء التي تبناها الشعب الإفريقي عن قناعة وتمسك بها منذ أن عرفها ونشرها في الأقطار المختلفة داخل القارة وخارجها، بما يثبت أن الفرد الإفريقي قد اعتنق هذا الدين وتمثل قيمه السمحة والسامية لتصبح جزءً من مقوماته الحضارية، وأن حملات التشويه وغرس المفاهيم الخاطئة عن الذاتية الإفريقية والعربية وحضارتهما، وعلاقاتهما الوثيقة التي يعمل الاستعماريون بواسطة عملائهم داخل القارة وخارجها من أتباع

(1) حول هذا الموضوع يمكن الاطلاع على بحث مفصل بعنوان «الحرف العربي واللغات الإفريقية للدكتور يوسف الخليفة أبو بكر، منشور في «المجلة العربية للثقافة» الصادرة عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مجلة نصف سنوية، السنة الثالثة، العدد الرابع، مارس 1983.

الديانات الأخرى على دق إسفين الخلاف والشقاق بين المسلمين فيما بينهم من جهة وبينهم وبين غيرهم من أبناء الديانات الأخرى في أوطانهم من جهة أخرى، (كما هو واقع في رواندا والكونغو الديمقراطية والصومال وأثيوبيا وأريتيريا وساحل العاج والسودان...) مما يثبت أن هذه الحملات لم تزد مسلمي هذه الدول إلا تمسكا بالإسلام وثقافته ولغته المقدسة... التي ستسود معظم أقطار إفريقيا الإسلامية في المستقبل، وستحل محل اللغات الاستعمارية الحالية (الأنجليزية والفرنسية)، مع استرجاع الحرية وتعميم الديمقراطية الحقيقية (غير الصورية الحالية) وانتشار الإسلام وسيادته الحتمية، مصداقا لقوله تعالى: ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون**﴾ (التوبة/33). وحينئذ ستتعايش لغة القرآن مع اللغات الإفريقية المحلية مثل الهاوسا والسواحلي والفولاني واليوربا...».

وانطلاقا من هذه الحقائق كلها، فقد أفرد علماء اللسانيات في هذا الملتقى أحد عشر بحثا حول العلاقات بين ست لغات إفريقية ذات الانتشار الواسع في القارة مما ذكرناه آنفا، وبين اللغة العربية، واستخلصوا أن الاتصال بين اللغة العربية واللغات الإفريقية المذكورة قد أظهر النتائج التالية:

1- في مجال الصوتيات ووظائف الأصوات، فإن اللغات الإفريقية قد أثرت نظمها الصوتية باكتسابات جديدة وتكييفها في نظمها الصوتية.

2- في مجال المفردات، اقتبست اللغات الإفريقية ألفاظا عربية كثيرة في مجالات الدين والتربية والحياة الاجتماعية والإدارة والتشريع والتجارة وأسماء الأدوات الثقافية الجديدة التي احتفظت بمدلولاتها الأصلية كما تُلفَظ في اللغة العربية.

3- وفي مجال النحو، لوحظ أنه قد حدث إلحاق الافتراضات العربية في بعض الصيغ الصرفية، كما حدث في الهوسا والماندينكا والسواحلي واليوربا.

كما أكد أعضاء الندوة بالإجماع على اعتبار اللغة العربية لغة إفريقية أصلية نافين عنها أية صفة تجعلها لغة غريبة عن القارة أو أجنبية عن شعوب القارة كما هو واقع اللغات الأجنبية المستعمرة لشعوب القارة التي تمزقها الآن بين انتماءين كبيرين يسودان القارة بقوة الحديد والنار ومخططات الاستعمار، ألا وهما ما يصطلح على تسميتهما بـ «مجموعة الدول الفرنكوفونية» و«مجموعة الدول الأنجلوفونية» على الساحة الإفريقية «الإسلاموفونية» أصلا وفصلا، كما تستحق أن تسمى بالفعل ويعمل أبناء القارة المخلصون من أجل تحقيق ذلك حاضرا ومستقبلا، وقد صدرت عن الندوة قرارات نذكر منها ما يلي:

1- السعي لإقامة هيكل مؤسس دائم يجمع الباحثين الأفارقة والعرب المتخصصين في المجالات اللغوية وعلوم التربية والتاريخ والعلوم الاجتماعية وعلم الأجناس.

2- تشجيع ودعم أقسام الدراسات العربية في الدول الإفريقية وأقسام الدراسات الإفريقية في الدول العربية.

3- جمع المخطوطات العربية والمخطوطات المكتوبة باللغات الإفريقية بالحرف العربي، وفهرسة ما وجد منها في أوروبا وإفريقيا وغيرهما، باعتبارها جزءً من التراث التاريخي والثقافي واللغوي للشعوب الإفريقية والعربية.

4- تنظيم ندوة حول تطويع الأبجدية العربية (حرف الجزم) لكتابة اللغات الإفريقية بطريقة علمية.

5- تنظيم ملتقيات مشتركة بين علماء أفارقة وعرب في مختلف ميادين العلوم الاجتماعية والإنسانية.

وعن هذا الموضوع يقول الدكتور عبد الرحمن الماحي (رئيس الجامعة الإسلامية بالتشاد) في حوار له حول انتشار الإسلام واللغة العربية في إفريقيا جاء فيه: «لقد كان انتشار الإسلام في إفريقيا عامة والغربية خاصة عدة مؤثرات

على المجتمعات التي اعتنقت الإسلام، وكذا على اللغات المحلية المنتشرة في القارة الإفريقية، فكان من أبرز آثار استخدام اللغة العربية كلغة للشعائر الدينية بين الشعوب الإفريقية المسلمة، أن تأثرت اللغات المحلية بالعديد من ألفاظ القرآن الكريم واستخدام الهجائية العربية في كتابة هذه اللغات المحلية وتحويل أغلبها من لغات شفوية إلى لغات مكتوبة، ولا شك أن لغة «الهوسا» هي أكثر اللغات الإفريقية انتشارا (فيها نسبة 30٪ من الكلمات العربية) حيث يتحدث بها أغلب شعوب غرب إفريقيا، وكذلك لغة «الفلاني» ثم لغة «السنغاي» التي انتشرت من ساحل المحيط الأطلسي حتى داخل النيجر، وكذلك لغة «الوولوف» كما تأثرت لغة «البرنو» و«اليوربا» وغيرها... ويتحدث بالسواحلية أكثر من عشر دول إفريقية في شرق إفريقيا، فهذه اللغات الإفريقية كلها استعارت من اللغة العربية أكثر من سبعة آلاف لفظ عربي»[1].

ثم يضيف عن محاربة الاستعمار للغة العربية في إفريقيا قوله: «على الرغم من المحاولات الاستعمارية والتنصيرية لقطع الصلة بين المسلمين وتعلم اللغة العربية، إلا أن الإفريقيين تمسكوا بدينهم وباللغة العربية وحفظ القرآن الكريم وتعلم القراءة والكتابة العربية، ومنذ أن حصلت الدول الإفريقية على استقلالها، سرعان ما عملت على إحياء اللغة العربية، فاتخذت مكانتها التعليمية بين المسلمين، وبدأت سياسة التعليم العربي، ومثال ذلك نجده واضحا في التشاد ونيجيريا والنيجر ومالي والسنغال وسيراليون، حيث تتجه هذه الدول جميعها إلى إيجاد المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية والمعاهد ودور المعلمين والأقسام الجامعية المتخصصة في الحضارة الإسلامية واللغة العربية...».

(1) جريدة «الشعب» الجزائرية بتاريخ 1988/02/06.

ثم يستطرد في تفصيله الحديث حول هذا الموضوع قائلا: «ونحن نعلم أن الاستعمار قد رحل عن القارة الإفريقية (شكليا) لكنه يحاول البقاء فيها أو العودة إليها بخدمات مشبوهة، سواء اقتصادية أم ثقافية، كما لا يمكن أن يغيب عن بالنا أن الشعوب الإفريقية التي استقلت ما زالت في مرحلة البحث عن منهج لبناء مستقبلها، والدول الإفريقية الإسلامية مازالت تعاني من غياب النظرة المتكاملة للإسلام كشعيرة ومنهاج رغم تمسك المسلمين بشعائر دينهم الحنيف»[1].

وحول وضعية اللغة العربية بالذات في التشاد، يقول الدكتور الماحي في بحث له حول هذا الموضوع: «بينما الإمكانات غير متكافئة في الواقع العملي.. فتشاد فريدة شكلا ومضمونا بالنسبة للدول الإفريقية الواقعة جنوب، فهي الدولة الوحيدة التي اعتمدت اللغة العربية لغة رسمية إلى جانب الفرنسية دستوريا، وهي خارج جامعة الدول العربية حتى الآن، واللغة العربية هي القاسم المشترك بين جميع القبائل التشادية المختلفة التي لا تقل عن 120 لهجة محلية. فالتخاطب والتفاهم في المعاملات التجارية والاجتماعية كلها بالعربية بنسبة 90٪ من سكان البلاد البالغ عددهم سبعة ملايين نسمة»[2].

وفي نفس السياق يذكر الدكتور م. حجازي أن نشر اللغة العربية وتأثيرها على اللغات الإفريقية أمر حتمي، لا سيما الهوسا، إذ يقول: «أن المغيلي العالم الجزائري الجليل قام بزيارة لهذه البلاد وتعلم على يده الكثيرون منهم الشيخ عبد الله الذي يحظى بثقة كبيرة في ولاية «كانو»، والذي كان الفضل في إدخال بحور الشعر العربي في شعر الهوسا، وكان من تلاميذه أيضا العالم «مرنا»، وكان لهذا الإمام الجليل وتلاميذه فضل في إدخال العربية إلى هذه

(1) نفس المرجع السابق.

(2) الندوة العالمية حول اللغة العربية إلى أين؟ الرباط 1–3 نوفمبر 2002.

البلاد، والآن وبعد أن تعربت الجزائر يمكن أن تقوم بهذا الدور الذي قام به المغيلي العالم الجزائري، خاصة أنها أقرب الدول العربية بحكم العمق الكبير في الصحراء»[1].

وحول استعمال الحروف العربية في اللغات الإفريقية كوسيلة لمواجهة المساعي الاستعمارية لمحاربة هذه اللغة، يضيف الدكتور حجازي: «إن من أهم وسائل نشر اللغة العربية هو إعادة كتابة اللغات الإفريقية بالخط العربي مثلما كانت من قبل، وهذا كان موضوع اجتماع الدول الإفريقية الناطقة بالهوسا، وبالتنسيق مع اليونيسكو، فقد كان لعثمان من مدينة «فوديو» وأتباعه فضل في كتابة الهوسا بالحرف العربي، وذلك حتى يتسنى للهوسيين قراءة الخط العربي، وترتب على ذلك سهولة تعلم اللغة العربية، لقد سمعت هذا بنفسي عندما كنت أدرس اللغة العربية في مدينة «كانو» في السبعينيات. إن الطالب الذي يجيد تعلم الهوسا بالخط العربي يختصر الوقت في تعلم العربية إلى النصف!

وقد أدرك الأوروبيون ذلك فأنشأوا دارا للنشر في مدينة «زاريا» وقاموا باستعمال الحروف اللاتينية للقضاء على الحرف العربي، وبالتالي القضاء على العربية، إلا أن نجاحهم في ذلك كان محدودا، وتقوم الآن حركة في جامعة «أحمدو بيلو» بمدينة «زاريا» بإعادة استعمال الحرف العربي.

ويمكن تفادي التراجع عن هذه العملية بتنشيط حركة النشر بهذا الخط (القرآني المقدس) بإمداد دور النشر بآلات الطباعة العربية..»[2].

وفي مقابلة مع الدكتور أحمد إسماعيل شيلاب حول وضع اللغة العربية في السودان، جاء في رده على أحد الأسئلة قوله: «إن اللغة العربية وجدت في

(1) جريدة «الشعب» الجزائرية بتاريخ 1988/02/06.

(2) نفس المرجع السابق.

السودان قبل الإسلام وانتشر فيها الإسلام وانتشرت هي بالإسلام، وحوربت في حقبة مختلفة ولا تزال تحارب حربا شديدة حتى الآن، لا لكي تنتهي هذه الحرب بفصم أو إضعاف الصلة بين السودان والأمة العربية فقط بل ليحال بينها وبين أن تكون اللغة السائدة في إفريقيا لأنها هي اللغة الإفريقية فعلا. هناك في إفريقيا لغات عديدة بل في السودان نفسه حوالي 120 لغة كل منها لا يفهم الآخر إطلاقا. فاللغة المشتركة بين السودانيين جميعا جنوبا وشمالا وشرقا وغربا التي تتفاهم بها القبائل والأفراد هي اللغة العربية، طبعا ليس في مستواها الفصيح وإنما في مستواها الدارج والعام»[1].

وعن سؤال آخر حول مكانة اللغة العربية بين اللغات واللهجات الإفريقية، يجيب محاوره بقوله: « امتازت ثقافتنا العربية الإسلامية بلغة جميلة متألقة دقيقة يتصل حاضرها بماضيها فلا نحتاج إلى أن نترجم ما كان يقال في الجاهلية من شعر امرئ القيس وعنترة وأصحاب المعلقات وغيرهم كما يحتاج الأوروبي أن يترجم له أدب شكسبير في الإنكليزية أو أدب غوته في الألمانية، فاتصال الحاضر بالكلاسيكي في اللغة العربية من مميزات الثقافة العربية. وأصبحت هذه اللغة ظرفا ووعاء للوثيقة الإلهية الوحيدة المعتمدة علميا أنها لم يدخلها التحريف ولم تنقل من لغة إلى لغة، فالإنجيل كتب بعد مئات السنين من حياة السيد المسيح (عليه السلام) بلغة غير لغته ومن البداية كان هناك أربعة أو خمسة أناجيل. التوراة كتبت بعد قرون من نزولها وبلغة غير التي تكلم بها سيدنا موسى عليه السلام. لا توجد وثيقة إلهية في لغة من اللغات كما توجد الوثيقة الإلهية التي هي القرآن الكريم في اللغة العربية حيث أن القرآن عربي وحيث أن الله متعهد بحفظه.«إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» فحفظ اللغة العربية بالقرآن وعلى القرآن جعلهما متلازمين إلى يوم

(1) مجلة «العالم»، العدد 179، بتاريخ 18 تموز 1987.

الدين. من هنا كانت الثقافة العربية واحدة ولكن الثقافة الغربية ليست ثقافة واحدة إلا في التعميم المجازي وكذلك الثقافات الإفريقية ليست ثقافة واحدة لأنه لا توجد أمة إفريقية إنما هناك أمم إفريقية لكل منها لسانها وتراثها وتاريخها وتكوينها. وذلك موجود في السودان، الذي تستعمل فيه حوالي 120 لغة شفاهية... هذه اللغات جميعها (كما يقول) ليس فيها أية لغة ذات حرف... فشرق السودان لها لغة بيجاوية تمت إلى العنصر الحامي – كما يقولون –. وهناك في الجنوب أيضا لغات متعددة وقبائل متعددة لا يجمع بينها لسان واحد وعندما تتخاطب تتخاطب باللسان العربي»[1].

ونبقى في هذه القارة مع بحث آخر للأستاذ إبراهيم ديوب من السودان الغربي (السنغال) تحت عنوان «اللغة العربية في غرب إفريقيا»، يقول فيه: «إن لغة القرآن موجودة في جميع أنحاء إفريقيا بدون استثناء، والشعوب المسلمة فيها يحبون العربية ويهتمون بها على ما بينهم من تفاوت لا يصعب تفسيره. ويلاحظ أن العربية دخلت إفريقيا قبل أن تستنير المدينة بهجرة الرسول ﷺ، وذلك حين وجّه سيد الخلق صحابته المضطهدين ببطن مكة في فجر الإسلام إلى أن يهاجروا إلى الحبشة، والقصة معروفة موثقة ومليئة بالدروس والعبر، والعربية لغة إفريقية بكل معنى الكلمة، لأننا لو أحصينا العرب لوجدنا أن أغلبيتهم الساحقة يقطنون داخل القارة التي فيها موريطانيا، والمغرب، والجزائر، وتونس، وليبيا، والسودالن، ومصر، وما قوم الصومال المسلمة ببعيد.

ويمكن القول –مع الدكتور خديم سعيد أساكي–: «أن اللغة العربية هي اللغة الأولى لإفريقيا، باعتبارها لغة تستخدم أكثر من غيرها كلغة قومية» وذلك للحقيقة المشار إليها في الفقرة السابقة.

---

(1) نفس المرجع السابق.

إن الإسلام قديم في السنغال، إذ ما كاد يستقر في شمال إفريقيا وفي المغرب الأقصى (في القرن الهجري الأول) حتى بدأ شعاعه ينير بعض الأفارقة، ثم انتشر الإسلام فعلا انتشارا كبيرا منذ ما لا يقل عن ألف عام، ولم يسجل التاريخ الإفريقي حدثا أهم ولا أسعد من إشراقة الإسلام في ربوعنا...

ويسجل تاريخنا المكتوب والمروي أيضا أن اللغة العربية التي وصلتنا في ركاب القرآن الكريم، وعلى أفواه الدعاة الزهاد والتجار المتواضعين، دخلت كما قلت بمعية الإسلام، والإسلام أهم عامل لتحرير العقل والضمير، وتفجير طاقات الروح بالتوحيد والعبادة والخلق الرفيع، إنها إذا مخالفة للغات من جاؤونا بعد ذلك من المستعمرين، ومن يسعون للهيمنة والسخرة والاستغلال، إن العربية أول لغة حية دخلت السنغال (فيما أعرف) وكانت هي لسان الحوار والتفاهم بين زعمائنا الوطنيين، وبين الجنرال الفرنسي (فيد هرب) أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، وبواسطة مترجمين جاء بهم الجنرال الفرنسي لضرورة التفاهم.

وفي السنغال وثائق تثبت أن العربية ظلت حاضرة في دواوين الحكام الفرنسيين، يكاتبون بها الأمراء والأعيان، ويستعينون بها لتعميم بعض ما كانوا يريدون إعلام الشعب السينغالي به، من قرارات وتوصيات، أو بلاغات عمومية.

وفي السنغال اليوم علماء وفقهاء، وأدباء، وشعراء، وكتاب ومفكرون تمكنوا من العربية وأحبوها حبا جما، وخدموها واعتزوا بها وفاخروا.. فمنهم من درسها في السنغال على أيدي أساتذة وعلماء تلقوا العلم أيضا في بلادهم في ملحمة حدث عن مصاعبها وعن طرائفها فلا حرج، ومنهم من تعلم اللغة العربية وآدابها في معاهد وجامعات في البلاد العربية، ولا سيما بعد استقلال السنغال عن فرنسا عام 1960م.

والسنغاليون –مثل كثير من إخوانهم في إفريقيا– يتعلمون العربية وعلومها وآدابها:

– في المساجد والجوامع.

– وفي مجالس العلماء في المدن والقرى، حتى القرى النائية..

– وفي المدارس العربية الإسلامية الحديثة، وهي تكون غالبا تابعة للجمعيات الإسلامية. أو تكون المدارس لأفراد لا ينتمون إلى جمعية، أو يكونون أعضاءً في جمعيات ولكنهم يفضلون الاستقلال في عملهم التعليمي الحر، لأسباب تتعلق إما بالطبائع أو فرارا من تكرار تجارب غير مشجعة.

– ويدرسون العربية.. في عدد من المعاهد الحديثة في أمهات المدن، وخصوصا في العاصمة.

– وفي مدارس الدولة «العمومية» أيضا على التفصيل الآتي:

● اللغة العربية مقررة في المرحلة الابتدائية. ولكنها اختيارية، وهذا الوضع ألزمنا مشاكل ما زال أهل الغيرة والخبرة يسعون لحلها أو التخفيف منها(...).

– والعربية موجودة رسميا في المرحلة الثانوية. وهي في الأقسام الأدبية إلزامية. وعلى قدم المساواة –رسميا– مع اللغة الإنجليزية.

– وتدرس العربية في كلية خاصة بإعداد المعلمين في دكار العاصمة.

– وللعربية قسم في كل من الجامعتين الحكوميتين في دكار، وفي مدينة سانلوي التي تعتبر –تاريخيا– من مسالك العربية نحو أعماق السنغال. وتمنح الجامعتان درجات البكالوريوس والماجستير، والدكتوراه في في الدراسات الإسلامية والعربية.

ولا يفوتني أن أشير إلى أن التعليم العربي في مدارس الدولة مقصور على اللغة وقواعدها ومادتها، وليس معها شيء من (التربية الدينية) وذلك منذ أربعين عاما!!

وقد تلقى الشعب –في هذا العام– نبأ سارا مفاده أن الدولة تعتزم إدراج التربية الدينية في المدارس العمومية، والمسلمون ينتظرون بفارغ الصبر بداية

التنفيذ، فلعل ذلك يكون بداية الحل العملي لمشكلة الخريجين من المعاهد والجامعات العربية الإسلامية الذين قلما يجدون وظيفة تمكنهم من خدمة الوطن في مجالهم الذي كلفهم سنين طويلة من الجد والمعاناة»[1].

وعن انتشار اللغة العربية، في القارة الإفريقية منذ الفتح الإسلامي وحتى الغزو الصليبي الراهن، يقول الدكتور الودغيري (رئيس الجامعة الإسلامية بمالي): «فكل الممالك والدول الإسلامية الأفريقية جعلت من اللغة العربية لغتها الثقافية والتعليمية والدينية والإدارية ومعاملاتها التجارية ومراسلاتها ومكاتباتها الرسمية وأبلت البلاء الحسن في نشرها وتعليمها. وفي ظلها وبتشجيع منها نبغ كبار العلماء والشعراء والأدباء والمؤرخين الذين أغنوا التراث الإسلامي ومكتبته بجليل أعمالهم ومؤلفاتهم التي لم ير النور منها إلا النزر القليل جدا.

لقد أصبح للإسلام انتشار واسع في هذه المنطقة التي تحولت في العصر الحديث إلى مجموعة دول ذات أسماء مختلفة، وأصبحت اللغة العربية تبعا لذلك هي لغة القراءة والكتابة ولغة التواصل المشترك بينها في مجالات شتى. وظل أمرها كذلك إلى حين دخول الاستعمار»[2].

وتأكيدا لكلام الدكتور الودغيري عن مملكة غانا الإسلامية وغيرها يقول الدكتور إبراهيم طرخان: «كانت اللغة العربية هي لغة العبادة والثقافة الوحيدة في البلاد، وهذا بجانب كونها لغة التجارة المستعملة في التبادل التجاري والمكاتبات. واحتلت هذه اللغة في غانة، وفي غيرها من بلاد السودان الغربي والأوسط، المكانة التي احتلتها اللغة اللاتينية في أوروبا في العصور الوسطى، بل زادت عليها، إذ بقيت اللغة العربية بتلك البلاد لغة الدين والثقافة حتى في العهد الاستعماري، بينما زالت اللغة اللاتينية تدريجيا أمام زحف اللغات

(1) ندوة الرباط، حول اللغة العربية إلى أين؟ 1–3 نوفمبر 2002.

(2) عن بحث له مقدم في ندوة الرباط، مرجع سبق ذكره.

الجرمانية القومية بأوروبا في العصور الوسطى. بل أكثر من هذا: شهد بعض المكتشفين والمستعمرين في مطلع العصور الحديثة بأن إلمام سكان غربي أفريقيا باللغة العربية يفوق إلمام أوروبا باللغة اللاتينية في العصر الوسيط.» [1].

ومصداقا لذلك يقول الرحالة الأنجليزي فرنسيس مور الذي زار موطن الفلانيين على نهر غامبيا سنة 1731م: «إنهم يشبهون العرب، ومعظمهم يتكلمون العربية لأنهم يتعلمونها في مدارسهم.»[2]. كما يذهب إلى ذلك (توماس أرنولد) كذلك في حديثه عن وضع اللغة العربية في البلاد، فيقول عنها بأنها: «أصبحت لغة التخاطب بين قبائل نصف القارة الأفريقية» [3].

ويتحدث أحد علماء نيجيريا عن العربية في عهد الدولة العثمانية التي أسسها الشيخ عثمان بن فودي في القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) فيقول: « وقد كانت اللغة الوحيدة التي دون بها جميع تقارير الأمبراطورية في القرن التاسع عشر، كما أن جميع الأحكام في المحاكم الشرعية حتى بعد سطو الاستعمار البريطاني كانت تسجل بها العقود في كثير من الإمارات الإسلامية في وقت قريب، ثم بدلت باللغة القومية وهي لغة الهوسا. ولكنه بالرغم من ذلك، فقد بقيت المكاتبات بين الأمراء باللغة العربية إلى يومنا هذا». (أي سنة 1967 م). ثم يقول: «إنه رغم الضغط الاستعماري فإن ولاية كانو لم تستعمل محاكم الإمارة فيها غير العربية إلى غاية سنة 1960م» [4].

ويُجمل الدكتور الودغيري رأيه حول انتشار لغة القرآن في إفريقيا قبل الغزو الصليبي وبعده، بقوله: «أصبحت اللغة العربية إذن، مع توالي الأحقاب

---

(1) «إمبراطورية غانة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970، ص: 82.

(2) شيخو أحمد سعيد غلادنثي، «حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا»، المكتبة الإفريقية، دار المعارف، دون تاريخ، ص 38.

(3) الخليل النحوي، «إفريقيا المسلمة»، دار العالم الإسلامي، ط1، سنة 1993، ص 31.

(4) علي أبو بكر، «الثقافة العربية في نيجيريا»، نقلا عن بحث للدكتور عبد الغني الودغيري مقدم في ندوة الرباط حول اللغة العربية إلى أين؟، 1 – 3 نوفمبر 2002.

والأزمان، ومع انتشار المدارس القرآنية ومعاهد التعليم، وتكاثر العلماء والمؤلفين والمبدعين، واستعمالها في كل مجالات الحياة الثقافية والإدارية والاقتصادية و الدينية، لغة أفريقيا الأولى بامتياز، ولاسيما أنها لم تنتشر في غرب القارة ووسطها فقط، بل كذلك انتشرت في شرقها وشمالها كما هو معلوم. وبعبارة أخرى ، لقد أصبحت اللغة المشتركة الوحيدة بين شعوب القارة كلها يوم لم تكن لهده القارة لغة للدين والثقافة والتعليم والإدارة سواها. ولم تكن قناة للتواصل المشترك بين المجموعات الإسلامية فقط، بل كانت لغة تواصل بين الأفارقة جميعا، على الأقل في المجالات الاجتماعية والسياسية والتبادل التجاري»[1].

ومن المعروف أن اللغات الأفريقية كثيرة جدا، يقدر الدارسون عددها ما بين 600 و 1000 لغة [2]. فلم يكن التواصل بين الشعوب والقبائل المتكلمة بهذه اللغات، ولاسيما بين المسلمين منهم، سوى بلغة القرآن التي تجمع بين سائر المسلمين. على أن أغلب هذه اللغات كانت لغات شفوية ليس لها تراث مكتوب. وأما اللغات المكتوبة منها، وهي حوالي ثلاثين لغة[3]، فكانت كلها تصطنع الحرف العربي في كتابتها[*].

(1) نفس المرجع السابق ذكره.

(2) انظر: د. يوسف الخليفة أبو بكر: مكان اللغة العربية في لغات أفريقيا وثقافتها، ضمن كتاب: اللغة العربية المعاصرة، منشورات الألكسو، تونس 1990، وانظر: الخليل النحوي في : أفريقيا المسلمة، دار الغرب الإسلامي ط1، 1993.

(3) انظر بالإضافة إلى المرجعين المذكورين في الهامش السابق : د. يوسف الخليفة أبو بكر: الحرف العربي واللغات الأفريقية، و د. سيد حامد حريز في: اللغات السواحلية واللغة العربية، ضمن كتاب: العربية في اللغات الأفريقية، منشورات الألسكو، تونس 1992م.

(*) من أشهر هذه اللغات التي كانت تكتب بالحرف العربي: لغة الهوسا واللغة الفلانية واللغة السواحلية، واللغة الأمازيغية، واللغة الأفريكانية، وهي لغة جنوب إفريقيا التي كان يتكلمها حوالي مائة ألف إفريقي.

وعن الحروف العربية وصراعها المرير مع الحرف اللاتيني الذي فرضه الغزاة الصليبيون وما يزالون يفرضونه فرضا إلى اليوم على الأهالي الأفارقة المغلوبين على أمرهم من حكّامهم العملاء للغرب وثقافته ولغته في معظمهم... يقول الدكتور الودغيري: «وبذلك أصبح الحرف القرآني العربي، قناة أخرى أساسية للتواصل بين الشعوب الناطقة بهذه اللغات المكتوبة. وقد ظل الأمر كذلك إلى عهد قريب جدا، أي إلى حين سيطرة الاستعمار على مختلف أنحاء القارة، فناهض الحرف العربي مناهضة لا تقل ضراوة وشراسة عن مناهضته لتعليم القرآن ولغة الضاد نفسهما، وأحل بالقوة محل الحرف القرآني حروفه اللاتينية، فأصبحت هذه اللغات تكتب باللاتينية بعد أن كتبت قرونا طويلة بالعربية. وقد اضطر الاستعمار في المرحلة السابقة لفرض الحروف اللاتينية أن يتعامل مع الواقع الموجود إذ ذاك، فكان لا يجد مناصا من كتابة بعض اللغات المحلية بالحرف العربي حتى يستطيع التواصل مع الأهالي»[1].

وفي نفس السياق نورد هنا قول بول مارتي في كتابه: (الإسلام والقبائل في مستعمرة النيجر): «بما أن اللغات المحلية (في النيجر) لا تكتب، فقد كنا لمدة طويلة أمام مشكلة صعبة. ولكن هذه المشكلة قد حلت بإيجاد هيئة من المحررين، أو بالأحرى من الأشخاص الذين كانوا يقومون بكتابة الهوسا والزرما بالحروف العربية. فكانت مهمة الواحد منهم، عندما يريد قائد الموقع (الفرنسي) أن يكتب إلى أحد شيوخ الأهالي، أن يكلف بترجمة الرسالة إلى اللغة المحلية وكتابتها بالحرف العربي. وحين تصل الرسالة إلى مبعوثها يقوم الكاتب بتلاوتها بصوت عال..»[2].

ويؤكد الدكتور الودغيري قوله حول هذا الموضوع: «وهذا الحضور القوي للحرف العربي في أفريقيا وتعلق الناس به إلى اليوم، هما اللذان أقنعا العديد

---

(1) من بحثه المقدَّم في ندوة الرباط، مرجع سبق ذكره.

P. Marty. L'Islam et les tribus dans la colonie du Niger p. 195. (2)

من المنظمات في العقود الأخيرة، بضرورة استعمال هذا الحرف في حملاتها وبرامجها الخاصة بمحو الأمية، وعلى رأسها منظمة اليونسكو التي وقعت مع البنك الإسلامي للتنمية اتفاقية لتمويل مشروع لمحو الأمية في أفريقيا باستعمال الحرف العربي، وتعاون معهما في ذلك كل من منظمتي الإيسيسكو والألكسو وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية.

ولم يقف تأثر اللغات الأفريقية بالعربية عند حدود الكتابة واستعمال الحرف القرآني، بل تعداها إلى ما هو أبعد وأعمق. فقد اقتبست هذه اللغات، ولاسيما الكبريات منها مثل السواحلية والفلانية والهوسوية، من المعجم العربي عددا كبيرا من المفردات المختلفة وخصوصا الألفاظ الدينية والحضارية والاقتصادية»[1].

وينقل الدكتور الودغيري في بحثه هذا عن الدكتور علي أبو بكر قوله عن الحروف العربية في إفريقيا، فيقول: «وفي هذا يقول الدكتور علي أبو بكر «وعلى الرغم من أن كلا من الحوسوية والفلانية لا تمت إلى العربية بصلة من حيث الأصل، إلا أنهما قد استعارتا منها ما لا يقل عن خمس كل واحدة منهما، ولا شك أن الخمس كثير، إذ لا أعرف لغة أخرى خارج نطاق اللغات السامية استعارت من العربية أكثر من هذا المقدار إلا اللغة الفارسية، ولا أعتقد أن اللغة السواحلية السائدة في شرقي أفريقيا نفسها استعارت من العربية أكثر من هاتين اللغتين اللتين تعدان أكثر اللغات انتشارا في أفريقيا الغربية واللتين تبدأ منطقة انتشارهما من جمهورية موريتانيا غربا إلى جمهورية وسط أفريقيا شرقا»[2].

وقد استخرج الدكتور علي أبو بكر من لغة الهوسا قاموسا بالمفردات العربية التي استعارتها بلغ ألف وخمس مائة كلمة» [3].

(1) ندوة الرباط، مرجع سبق ذكره.

(2) نفس المرجع.

(3) نفس المرجع.

وحول تأثير اللغة العربية في اللغات الإفريقية الكبرى المذكورة، يذهب الدكتور الودغيري إلى تأكيد ما سبق أن ذكرناه لكل من الدكتور عبد الرحمن الماحي والدكتور م. حجازي حول هذا الموضوع فيقول: «ثم تجاوز التأثير العربي في اللغات الأفريقية هذا الأمر أيضا، فاستعارت اللغات الثلاث الكبرى في أفريقيا، وهي السواحلية والهوسوية والفلانية، من العربية أوزانها في الشعر وأنماطها في القافية، فنجد في أشعارها الطويل والكامل والوافر والبسيط والمتقارب والرجز وغيرها، كما نجد فيها القصائد البائية والرائية والنونية..ألخ، وذلك تماما كما حدث مع اللغة الفارسية»[1].

وعن دور الغزاة الصليبيين في محاربة اللغة العربية في عموم بلدان القارة ومقاومة الأهالي له، يؤكد ذلك بقوله: «ومما لا شك فيه أن التعليم العربي الإسلامي في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كان قد وصل إلى مرحلة التراجع والانكماش بسبب الأوضاع العامة للمسلمين الأفارقة التي كانت هي الأخرى في أسوأ أحوالها سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا، ولكنه على كل حال لم يكن قد لفظ أنفاسه بالمرة، فالإحصائيات المتوفرة لدينا –على قلتها– تثبت بما لا مجال فيه للشك بأن المسلمين الأفارقة ظلوا متمسكين بلغة القرآن وبالتعليم الديني إلى آخر لحظة، بل إنهم حين لمسوا ما يشكله الغزاة من المنصرين والمستعمرين من أخطار على دينهم وعقيدتهم ولغة قرآنهم، أصبحوا أشد تمسكا بهذه اللغة وبمدارس تحفيظ القرآن وتعليم الأساسي من أمور الدين، وقاموا في وجه الاستعمار وحركة التنصير بكل ما استطاعوه من قوة، ورفضوا إدخال أبنائهم إلى المدارس الأجنبية، ومنهم من ظل متشبثا بذلك إلى يوم الناس هذا، رغم أنهم أدوا من أجل موقفهم هذا ثمنا باهظا، فحوربوا وهمشوا وحوصروا من كل جانب وأقصوا من كل المجالات الحيوية.

---

(1) المرجع ذاته.

لقد حارب الاستعمار بتعاون وثيق مع الكنيسة المسيحية لغة القرآن والتعليم الإسلامي محاربة لا هوادة فيها، واتخذت هذه الحرب أشكالا متعددة:

منها: فرض الحصار على المدارس القرآنية والدينية ومنع انتشارها وتقليص عددها وفرض قيود شديدة عليها.

ومنها: منع استعمال اللغة العربية وتداولها في كل المجالات الإدارية والسياسية والاقتصادية والقضائية والتشريعية والثقافية، وإحلال الفرنسية محلها في كل ذلك.

ومنها: محاربة الحرف العربي الذي كانت تكتب به اللغات المحلية، وإحلال الحرف اللاتيني محله.

ومنها: التشنيع على اللغة العربية وشن حملات إعلامية تضليلية لتشويهها وتنفير الأفارقة منها، واتهامها بكونها لغة عقيمة ومتخلفة ولا تصلح لمواكبة العصر ولا يمكن أن تساعد على تطوير هذه الشعوب التي يراد تحضيرها وتمدينها في زعمهم.

ومنها: وضع مخططات رهيبة لفرنسة التعليم والإدارة والحياة العامة، وتخصيص ميزانيات ضخمة لفتح المدارس الفرنسية الحكومية والأهلية والمتخصصة ذات الأشكال العديدة المتنوعة[*]، وإغداق الأموال الطائلة عليها.

ومنها: إطلاق يد البعثات التنصيرية لفتح مدارسها في كل أنحاء أفريقيا وتوفير كل أشكال الدعم والتشجيع والحماية التي تطلبها لمزاحمة المدارس الإسلامية وتنشئة أجيال جديدة من الأفارقة على غير دين الآباء وثقافتهم»[1].

(*) من هذه الأنواع من المدارس: مدارس أبناء الأعيان، ومدارس بنات الأعيان، والمدارس المزدوجة (فرنسية – عربية) ..إلخ. ومن أغرب هذه الأنواع مدرسة الرهائن (Ecole des otages) وهي خاصة بتعليم أبناء رؤساء القبائل الذين وقفوا موقف المعارض من سياسة الغزو الفرنسي. أنظر: د. الهادي المبروك الدالي و د. عماد هلال في:الإسلام واللغة العربية في مواجهة التحديات الاستعمارية بغرب أفريقيا، بيروت 1996م. ط1 ص 126.

(1) ندوة الرباط، مرجع سبق ذكره.

وعن القوانين الجائرة التي أصدرها الغزاة ضد لغة الشعوب الإفريقية المسلمة ودينها الحنيف، يقول الدكتور الودغيري: «ابتداء من النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي صدر عن المكلفين بتنفيذ السياسة اللغوية الفرنسية في أفريقيا الغربية عدد من التوصيات والتقارير المرفوعة إلى الحكام تحثهم على ما ينبغي اتخاذه من خطوات لتنفيذ سياستهم، كما صدرت قرارات ودوريات عدة من ممثلي الحكومة الفرنسية في المنطقة توصي وتأمر بتنفيذ التعليمات التي من شأنها إنجاح خططهم هذه. وعلى سبيل المثال لا الحصر، نشير إلى بعض هذه التوصيات والقرارات فيما يلي:

– في سنة 1856 م، كتب حاكم السنغال السيد فيدريب إلى وزير المستعمرات الفرنسية تقريرا جاء فيه« إن الرغبة التي يبديها الزنوج في تعلم العربية لهي مصيبة بالنسبة إلينا، ويجب علينا أن نحذر. بل يجب علينا أن لا ننمي هذه الرغبة بأي حال من الأحوال. فاللغة الفرنسية هي التي يجب علينا أن نعلمهم إياها وهذا لمصلحتنا الخاصة.»

– في مايو 1856م كتب المسؤول السامي للبعثات التنصيرية السيد باربيي (Barbier) إلى مدير المستعمرات الفرنسية تقريرا جاء فيه « يجب أن نفرض رقابة شديدة على معلمي اللغة العربية في السنغال على مختلف أنواعهم ونزعاتهم الدينية»[1].

– في يونيه 1857م أصدرت الإدارة الفرنسية في السنغال قانونا ينص في جملة ما ينص عليه، على:

– إلزام جميع معلمي القرآن الكريم بإرسال تلاميذهم الذين بلغوا الحادية عشر فما فوق إلى فصول الدراسة الفرنسية أو إلى المدارس الكاثوليكية لمدة ساعتين كل يوم.

(1) الإسلام واللغة العربية في مواجهة التحديات الاستعمارية بغرب أفريقيا، مرجع سابق، ص: 108.

– ضرورة حصول معلمي المدارس القرآنية على تصريحات خاصة عند إرادة فتح أية مدرسة جديدة(*) في 8 مايو 1911م صدرت عن وليام بونتي حاكم فرنسا في أفريقيا الغربية دوريته الشهيرة التي جاء فيها: «إن العربية لم تدخل البلاد الأفريقية إلا مع الدعوة الإسلامية، وهي اللغة المقدسة في نظر الأسود». ويختمها موجها كلامه إلى مرؤوسيه من الحكام في غرب أفريقيا: «إني إذن مضطر لآمركم بأنه من الآن فصاعدا يجب أن تحرر الأحكام الصادرة عن القضاء الأهلي بالفرنسية وحدها، وكذلك نسخ الأحكام التي تسلم إلى من يهمهم الأمر أن تكتب بلغتنا. وعليكم أن تعطوا هذه التعليمات نفسها عند كتابة الوثائق الإدارية ؟ كيفما كانت طبيعتها ؟ التي من شأنها أن ترفع إلى علم الأهالي سواء كانت رسائل أو ملصقات. وفي السياق نقسه عليكم أيضا أن تدعوا حكام الدوائر إلى إخبار المحكومين من الأهالي بأن طلباتهم وملتمساتهم التي لا تحرر بالفرنسية لن يتلقوا عنها أي جواب»[1].

وفي سنة 1912م كتب روبير أرنو رئيس مصلحة الشؤون الإسلامية لمدينة دكار تقريرا يقول فيه« يجب أن تكون سياسة فرنسا صارمة في أفريقيا الغربية، ويجب وضع حد لنشاط معلمي الكتاتيب القرآنية والمرابطين (رجال الدين) في البلاد»[2].

بهذه اللغة وما يربط بها من دين وثقافة، رغم ضعفهم وقلة حيلتهم. فقد كتب بول مارتي أحد كبار رجالات فرنسا الذين اعتمدت عليهم في تنفيذ سياستها اللغوية بأفريقيا الغربية، يقول بمرارة شديدة« إن نسبة الإقبال على

(*) وهذا ما فعله الغزاة الفرنسيون تماما مع الشعب الجزائري العربي المسلم غداة الغزو الفرنسي سنة 1830، راجع الفصل الأول.

(1) عبد العلي الودغيري، الفرنكفونية والسياسة اللغوية في المغرب، سلسلة (العلم) الرباط 1992م، ص 80– 81.

(2) الإسلام واللغة العربية في مواجهة التحديات..مرجع سابق. ص: 109.

مدارسنا، على مستوى القطر السنغالي، تدعو للسخرية. وإنه لمن المؤسف أن لا يرتاد مدارسنا المنتشرة في الريف سوى بضعة تلاميذ، بينما تستقطب المدارس القرآنية مئات الطلاب..». ثم ينهي كلامه بالقول «لا بد من فعل شيء بطريقة غير مباشرة، لأن أي تدخل حكومي قد يأتي بنتائج وخيمة»[1].

هذا عن تاريخ محاربة الغزو الصليبي للإسلام واللغة العربية في القارة المسلمة، أما عن مواصلة هذه الحملة الفرنكوفونية والأنجلوفونية، بعد الخروج العسكري من القارة، فيقول الدكتور الودغيري: «انطوت صفحة الاستعمار الاستيطاني المباشر في أفريقيا الغربية ومنطقة جنوب الصحراء، وبدأت مرحلة الاستقلال منذ أوائل الستينات تحمل معها بشائر خير عن مستقبل اللغة العربية والتعليم الإسلامي. فما إن انزاح كابوس الاستعمار حتى سارع المسلمون في كل مكان من هذه المناطق إلى التنافس في فتح المدارس العربية الإسلامية مجددا وإرسال البعثات من أبنائهم إلى البلاد العربية للتكوين، وبدت أفريقيا التي أريد لها نسيان ماضيها الإسلامي وثقافتها العربية، وكأنها أصبحت أشد حنينا واشتياقا إلى استعادة هويتها الحقيقية. ولو نظرنا الآن إلى واقع التعليم العربي الإسلامي في هذه المنطقة، لوجدناه، رغم شوائبه ومشاكله العديدة التي سنعود إليها فيما بعد، يتعافى يوما عن يوم وينمو ويزدهر في خطوات ثابتة تبشر بكل خير. ورغم أننا لا نتوفر على إحصاءات وافية ودقيقة عن أحوال التعليم العربي في وضعه الراهن بكثير من دول المنطقة، إلا أن واقع الحال الذي نعيشه كل يوم، يشهد بنمو هذا التعليم وازدهاره وتطوره ولو بإيقاع بطيء شيئا ما.

(1) انظر: اللغة العربية وصراع الثقافات في السنغال، مهدي ساتي، ضمن: دراسات أفريقية ع 26 يناير 1995 نقلا عن : بول مارتي في كتابه: La Medersa de Saint

ولو أخذنا حالة النيجر –على سبيل المثال وهي لا تمثل النموذج المتقدم للتعليم العربي الإسلامي في المنطقة مقارنة مع ما وصله هذا التعليم في تشاد والسنغال ومالي – لوجدنا من خلال إحصائيات قام بها أحد الخبراء المحليين سنة 2001م، أن عدد المدارس النظامية (الحكومية والأهلية) قد بلغ 310 مدرسة منها 23 إعدادية و 6 ثانويات، وأن عدد تلاميذ المدارس الابتدائية وحدها قفز ما بين 1995م و 2001م من 22.940 إلى 48.855 تلميذ »[1].

وعن الجهود المبذولة في الوقت الراهن من طرف بعض الدول الإسلامية، وكذلك منظمة المؤتمر الإسلامي، والمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، في نشر التعليم العربي والثقافة الإسلامية في القارة، رغم الضغوط الأنجلوفونية والفرنكفونية الجارية حتى هذه اللحظة على قدم وساق بإمكانياتها الهائلة... يضيف قوله: «ومما عزز وضعية التعليم العربي في النيجر خلال السنوات القليلة الماضية، وجود الجامعة الإسلامية بالنيجر التابعة لمنظمة المؤتمر الإسلامي، فهي تقوم منذ أنشئت سنة 1986م بدور هام في تكوين الأطر التعليمية المقتدرة والمؤهلة لتدريس العربية والعلوم الإسلامية في جميع مراحل التعليم ولاسيما المرحلة الثانوية. وإلى جانب ذلك هناك جهود كبيرة يبذلها عدد من الدول والمنظمات والجمعيات الخيرية الإسلامية، كمنظمة الإيسيسكو، وجمعية الدعوة الإسلامية، ولجنة مسلمي أفريقيا، ورابطة العالم الإسلامي، والهيئة الخيرية الإسلامية العالمية، ومنظمة الدعوة الإسلامية، بالإضافة إلى الجهود الخاصة بالأفراد والجمعيات الأهلية المحلية. كما قام البنك الإسلامي للتنمية ابتداء من سنة 2000م بتمويل برنامج خاص لدعم التعليم العربي الفرنسي بقرض قيمته 1.4 مليار دولار، بهدف تدريب الكفاءات التعليمية والزيادة في أعدادها وبناء الفصول الدراسية وتوفير المناهج

---

(1) ندوة الرباط، مرجع سبق ذكره.

والمقررات ووسائل العمل والتجهيزات الضرورية وتحسين وضعية التعليم العربي بصفة عامة.

وإجمالا، يمكن تلخيص الملامح العامة لما يعرفه التعليم العربي في منطقة جنوب الصحراء من تطور ونمو يبشران بمستقبل جيد للغة العربية، في النقط الآتية:

– إدخال اللغة العربية في مناهج التعليم النظامي رسميا في عدد من دول المنطقة ابتداء من مرحلة الاستقلال كم هو الشأن في كل من تشاد وغينيا والسنغال ومالي والنيجر ونيجيريا، ويشمل ذلك كل مراحل التعليم.

– تزايد عدد المدارس الأهلية الخاصة التي يرعاها الأفراد والجمعيات الإسلامية [1]، وبعض البعثات التعليمية العربية والإسلامية.

– تزايد ملحوظ ومتنام لأعداد المدارس القرآنية وانتشارها في كل المناطق من أنحاء القارة.

ومن المؤشرات الأخرى التي تدعو للتفاؤل ظهور صحافة عربية لأول مرة في عدد من دول المنطقة خلال السنوات الأخيرة وإن كان ظهورها في السنغال أسبق، فقد صدرت بعد الاستقلال مجلة حكومية سنغالية بالعربية تحمل اسم (المسيرة)، ثم مجلة (الأفكار) الناطقة باسم الاتحاد الوطني للكتاب والصحافيين الناطقين بالعربية، وتوالت بعدهما صحف ومجلات أخرى [2].

وفي النيجر ظهرت منذ سنة 1995م إلى اليوم صحيفتان ومجلة ناطقة كلها بالعربية، وهي صحيفة (الوطن) التي ظهرت سنة 1995م وصدرت منها ثلاثة

---

(1) يذكر مهدي ساتي على سبيل المثال أنه في سنة 1962م قام الاتحاد الإسلامي في السنغال بفتح 6000 مدرسة مزدوجة (عربية فرنسية) . انظر مقالته: اللغة العربية وصراع الثقافات في السنغال، مجلة: دراسات أفريقية ع. 12، يناير 1995.

(2) انظر حول الصحافة العربية في السنغال: مهدي ساتي: الصحافة العربية والإسلامية بالسنغال، مجلة دراسات أفريقية، ع 4 سنة 1408. ومقالته : اللغة العربية وصراع الثقافات في السنغال، وقد أشير إليها في هامش سابق..

أعداد ثم توقفت لظروف مالية، ومجلة (الواحة) التي صدرت منها بضعة أعداد ثم توقفت أيضا للسبب نفسه. وأخيرا صحيفة التواصل التي تواصل الصدور حاليا، وقد ظهر منها إلى حين كتابة هذه السطور تسعة أعداد.

وفي مالي تصدر حاليا صحيفتان على الأقل باللغة العربية، الأولى بعنوان (الصحافة) [1]، وصحيفة (المستقبل)[2].

أما المجالات والدوريات الأكاديمية باللغة العربية، فيصدر الكثير منها عن عدد من الجامعات في شمال نيجيريا، فضلا عن الكتب والدراسات المختلفة. كما تصدر عن الجامعة الإسلامية بالنيجر منذ 1995م دورية أكاديمية سنوية بعنوان: حوليات الجامعة الإسلامية بالنيجر [3].

أما حظ العربية من الإعلام المرئي والمسموع في دول المنطقة، فهو ضعيف، وإن كان موجودا على كل حال، إذ تخصص له حصص أسبوعية قصيرة كما هو الشأن في النيجر التي تعتبر العربية فيه لغة وطنية من بين اللغات الوطنية الأخرى المعترف بها رسميا، ولهذا السبب نجد جوازات السفر الصادرة عن حكومة النيجر تكتب باللغتين الفرنسية والعربية.

وأخيرا، فقد كان بنك أفريقيا الغربية شيصد قد أصدر سنة 1926م على الورقة النقدية من فئة 100 فرنك كتابة عربية تدل على قيمتها [4]، ولكن ذلك لم يدم طويلا، واليوم ما تزال العملة الورقية في نيجيريا تحتفظ بالكتابة العربية إلى جانب الحروف اللاتينية.

---

(1) تصدر عن حمعية خريجي جامعات المملكة العربية السعودية منذ 1998م

(2) تصدر عن جمعية خريجي جمهورية مصر العربية.

(3) صدرت منها إلى غاية 202 سبعة أعداد.

(4) انظر: بكاري درامي، في : Présence de la langue arabe dans les pays francophones d'Afrique subsahariènne: المنشور بحوليات الجامعة الإسلامية بالنيجر، ع7 سنة 2001م

ويؤكد ما قلناه في بداية هذا الفصل بأن غالبية المسلمين الناطقين بالعربية هم في القارة الإفريقية، فيقول بلغة الأرقام ما يلي: «لو نظرنا اليوم إلى حاضر اللغة العربية على مستوى القارة الإفريقية جمعاء، لوجدنا أن نحو ربع سكان هذه القارة (أي حوالي 125 مليون نسمة) يتكلمون العربية باعتبارها لغتهم الأولى، وهم سكان أفريقيا الشمالية والسودان وقبائل عربية منتشرة في منطقة جنوب الصحراء، ولوجدنا أيضا أن حوالي 10 ٪ من الأفارقة الآخرين يتكلمونها باعتبارها لغة ثانية، أي أن «متكلمي العربية في المجموع تزيد نسبتهم على الثلث من سكان القارة» [1].

وفي إحصائيات سابقة لرابطة العالم الإسلامي نجد أن في أفريقيا حوالي 230 مليون مسلم، أي حوالي نصف سكان القارة، وكلهم يهمهم أمر اللغة العربية [2]. ومن أجل هذا يقول الدكتور يوسف الخليفة أبو بكر: «فإذا أردنا أن نختار لغة من اللغات الأفريقية الكثيرة لكي نرشحها لتكون لغة أفريقيا الرسمية لوجدنا العربية على رأس اللغات الثلاث الكبرى التي يمكن أن تحظى بهذا الشرف [3].

ويقصد باللغات الثلاث الكبرى: العربية والسواحلية ولغة الهوسا. وسواء أصبحت العربية في يوم من الأيام لغة رسمية للقارة الأفريقية أم لم تصبح، فهي الآن تحتل بلا منازع المرتبة الأولى بين اللغات الأفريقية، ليس فقط لكونها اللغة التي يتكلمها نحو ثلث سكان القارة، أو يتبناها نصف سكانها باعتبارها لغة قرانهم، ولكن أيضا لكونها أعرق هذه اللغات كتابة وتراثا وأغزرها عطاء، ولكونها الوحيدة التي دون بها تاريخ أفريقيا القديم والوسيط ولولاها لكانت أفريقيا بدون تاريخ ودون حضارة.

---

(1) د. يوسف الخليفة أبو بكر، «مكانة اللغة العربية في لغات إفريقيا وثقافتها»، مرجع سابق.

(2) المرجع نفسه.

(3) المرجع نفسه.

وإذا كانت العربية في حاضرها اليوم، تعرف تقدما ملموسا في منطقة جنوب الصحراء، وتشهد من إقبال المسلمين عليها ما يثير الدهشة ويبعث على التفاؤل والإطمئنان(*)، فإنه لا مناص من القول مع ذلك بأن الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن تخدم هذه اللغة وتعمل على تطويرها وتحسين وضعها هي وسيلة التعليم الذي مهما قلنا عن انبعاثه ونموه يبقى في حقيقة الأمر دون المستوى المطلوب، ويحتاج النهوض به إلى جهود كبيرة تبذلها كل الأطراف الغيورة على مستقبل لغة القرآن في المنطقة، من دول ومنظمات وهبئات وجمعيات وأفراد »[1].

هذا إذن ما يمكن أن يقال باختصار عن وضعية «اللغة الإسلامية» في القارة الإفريقية التي لم تعرف في تاريخها كما أسلفنا، لغةً حضاريةً غير اللغة العربية، أما عن البلاد الإسلامية الأخرى في العالم، فيمكن القول: «أن امكانية اللغة العربية في الانتشار.. ليس مقصورا على البلدان الافريقية ذات الاغلبية المسلمة أو التي ليس لها لغات حية موحدة فحسب، بل تمتد هذه القابلية للانتشار الى بلدان اسلامية أخرى في آسيا، وأروبا.. ففي إيران وافغانستان وباكستان واندونيسيا وماليزيا (التي تأسست بها في كوالا لامبور جامعة إسلامية سنة 1994 تدرس العديد من المواد باللغة العربية) وتعتبر اللغة العربية في هذه البلدان ذات مكانة مفضلة بين جميع اللغات الأجنبية، كما انها تدرس في جميع مراحل التعليم العام، في بعض تلك الأقطار، وخاصة باكستان، والجميع يذكر رغبة هذا البلد اثر انفصاله عن الهند في اتخاذ اللغة العربية لغة أصلية الى جانب الاردية، و لو أعانتها البلاد العربية حينئذ لكانت اللغة

(*) يعلق الباحث على هذا الوضع بقوله في الهامش: «لقد دفعني ما رأيته من شدة إقبال الأفارقة المسلمين على تعلم العربية، وكذلك ما نسمعه ونقرأه عن إقبال المسلمين عليها في مناطق أخرى من العالم، إلى أن أقول يوما إن ذلك لا يوازيه ولا يقابله من جانب آخر إلا تخلي العرب عن لغتهم واحتقارها والتنكر لها في عقر دارها بالبلاد العربية».

(1) ندوة الرباط، مرجع سبق ذكره.

العربية هناك هي اللغة الأولى، مع العلم أن باكستان ما تزال الى الآن تعمل لتحقيق ذلك، وهي دائمة المطالبة من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم لإمدادها بالخبراء والمعلمين قصد مساعدتها على نشر اللغة العربية وتحقيق التعريب الشامل في ربوعها [1] هذا مثال عن الدول الإسلامية الآسيوية، أما عن الدول الأروبية فنذكر يوغسلافيا، سابقاً (البوسنة والهرسك حاليا) حيث ورد (في تحقيق أجرته مجلة العربي حول هذا الموضوع) على لسان مفتي الاسلام الشيخ «حمدى يوسف شباهتش» قوله «... يكفي أن أذكر لكم أننا شيدنا في مختلف انحاء يوغسلافيا أكثر من ستمائة مسجد جديد منذ 1960 حتى اليوم (وكان ذلك سنة 1978) هذا غير المساجد التي تم ترميمها وتجديدها وهي التي كانت موجودة قبل هذا التاريخ ويزيد عددها على الألفي مسجد، وفي كل منها مدرسة أو (كُتَّاب) لتعليم القرآن باللغة العربية... ومن هنا تبرز الحاجة الملحة الى نشر العربية لغة القرآن الكريم» [2] وعلى لسان الدكتور أحمد اسماعيلوفيش أحد القيادات الدينية في البلاد ورد ما نصه: «أن الحضارة الإسلامية العربية في يوغسلافيا قديمة.. وهي ليست غريبة ولا جديدة على أروبا.. قبل ضياع الأندلس كانت أروبا كلها تتجه للعرب وحضارتهم. وقد أثرت هذه الحضارة في النواحي الفكرية والمادية في أروبا حتى بعد خروج العرب من الأندلس.. وعندما زار الرئيس تيتو القاهرة (وكنت حينذاك مديرا للمدرسة اليوغسلافية في القاهرة) سألني عما اذا كان أبناؤنا يدرسون اللغة العربية في برنامجهم الدراسي فأجبت بالنفي، فقال تيتو لا بد اذن من أن تكون ضمن البرنامج، لانني أريد أن يتعلم أبناؤنا اللغة العربية لأنها لغة المستقبل» [3].

(1) انظر كتاب مجمع اللغة العربية، الدورة 43 القاهرة، طبعة الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية 1978، ص 6.
(2) مجلة «العربي»، أفريل 1978.
(3) المرجع نفسه.

وعن اللغة العربية في ألمانيا وروسيا يقول الدكتور ابراهيم مذكور «فقد قدر لي أن أزور ألمانيا الشرقية عام 1969 وقضيت بعض الوقت في احدى مدنها الكبرى.. وهي مدينة لا يبزج، فلاحظت الاهتمامات في قسم الدراسات العربية بجامعتها، منصبة فيها على اللغة العربية المعاصرة، وما يتصل بها من لهجات.. ويضيف قوله: وتعمر بعض الجامعات الأروبية والأمريكية بنفرمن الأساتذة العرب يقومون على أمر الأدب والثقافة الإسلامية.. ولست في حاجة أن أشير الى تلك المعجمات الثنائية الكثيرة التي ظهرت في روسيا في العشرين سنة الأخيرة، وهي تجمع بين الروسية والعربية، وتنصب على اللغة تارة أو على العلم والتكنولوجيا تارة أخرى» [1]
ويقول في مكان آخر: ".. وعلى الصعيد الدولي استعادت العربية مكانتها، وبرهنت على أنها جديرة بأن تقف في مصاف اللغات العالمية الكبرى. فهي لغة علم وأدب وفن وحضارة اتسع صدرها لكل جديد، وقد استخدمت الحاسبات الإلكترونية في دراستها.. ولا يفوتني أن أشير الى أن النهوض باللغة ليس مقصورا على المجامع وحدها بل هوقبل كل شيء من صنع الكتاب والأدباء والعلماء والباحثين ورجال الثقافة والاعلام» [2].

وعن اللغة العربية في فرنسا ورد في جريدة «الصباح» التونسية مقال للكاتب الصحفي صالح الحاجة بعنوان «كلمات عربية لجاك شيراك» جاء فيه: «في باريس ذهب جاك شيراك بنفسه وافتتح مهرجان الثقافة العربية واللغة العربية وأكد مرة أخرى على ضرورة التواصل مع هذه اللغة العبقرية بوصفها أداة حضارة وبوصفها أيضا لغة قوة بشرية وحضارية لا يستهان بها، فالعرب وإن انتهكوا

(1) كتاب مجمع اللغة العربية، الدورة 47 القاهرة، ص 6، وانظر في هذا الموضوع (أيضا) كتاب «لغتنا والحياة»، للدكتورة عائشة عبد الرحمان بنت الشاطئ.

(2) كتاب مجمع اللغة العربية، الدورة 43 القاهرة، مرجع سبق ذكره، ص 16.

وانهزموا حضاريا فهم ما زالوا يشكلون أمة واحدة، تحمل بذور فكر جديد، وحضارة جديدة وقد يستولون على المستقبل مثلما فعلوا في الماضي البعيد.

ومن يقرأ تصريح جاك شيراك عن العرب، وعن اللغة العربية ولابد أن يصاب بالدهشة، لا بد أن يتساءل: هل نحن فعلا مثلما وصفنا شيراك، أم أن المسألة لا تعدو أن تكون مجاملة غايتها مواساة أمة تعددت جراحها وكثُرت أحزانها وجفّت مياه أنهارها».

ويضيف قوله في المقال ذاته: «إن جاء شيراك ليس عربيا بالتأكيد، فهو فرنسي الجنسية والعقلية ولكن كلماته كادت أن تكون عربية، فهي مطمئنة وتجعلك تتفاءل في زمن الرداءة، وتنظر إلى المستقبل وفوق وجهك إشراقة الربيع، وفي صدرك إيمان لا يتزعزع بخلود هذه الأمة»[1].

وعن اعتراف أوروبا لما تدين به إلى الحضارة العربية الإسلامية، يقول الرئيس الفرنسي السابق، (فرانسوا ميتران) في خطاب له بمعهد العالم العربي بباريس: «ذكر البعض محقين أسماء بعض أعلام المعرفة العرب الذين نقلوا القيم إلى ثقافتنا، ومن المجدي أن نذكر ما تدين به أوروبا والحضارة الغربية للفلاسفة والرياضيين والأطباء العرب ولاكتشافاتهم التي خلّدها التاريخ، انتهاءً باستيعابهم الجزء الإغريقي من ذاكرتنا الفلسفية، وهو جهد أنقذ هذا التراث من النسيان.

منذ زمن طويل ونحن نخالط بعضنا البعض، ولقد ظهر في بلدنا على مر العصور رجال شغفوا بحضارتكم أنتم يا أصدقاءنا العرب!

قرأت مؤخرا أن المعهد الفرنسي (كوليج دو فرانس) كان يضم في عهد فرانسوا الأول، أي منذ القرن السادس عشر كرسيا لتدريس اللغة العربية، ولا شك في أننا تقدمنا كثيرا في هذا المضمار، منذ ذلك الحين، سواء من حيث الكم أو من حيث الكيف، ومن الواجب علينا أن نفعل دائما أكثر وأفضل»[2].

(1) جريدة «الصباح» التونسية، عدد 1985/01/23.

(2) مجلة «اليوم السابع» عدد 301 بتاريخ 1990/02/12.

ومن أوروبا إلى آسيا الوسطى، وفي هذا الخصوص نورد هذا التصريح للشيخ محمد صادق (مفتي آسيا الوسطى، التي تضم الجمهويات الإسلامية الخمس)، في مقابلة صحفية جرت في شهر ديسمبر 1992[1] جاء فيه: «الإدارة الدينية تشرف على المساجد والمدارس في الجمهوريات الخمس، ولدينا الآن محاكم شرعية إسلامية في كافة المناطق. وقد أصبحت المدارس الإسلامية ومدارس اللغةالعربية منتشرة في كل مكان وملحقة بكافة المساجد... وقد عاد المسلمون هنا إلى كتابة لغاتهم بالحروف العربية... إن اللغة العربية تدرس الآن بشكل مكثف باعتبارها المدخل الرئيسي لتفهم الدين الإسلامي والقرآن الكريم».

ويضيف المحقق الصحفي في نفس المقابلة قوله تحت عنوان فرعي «عودة الأسير إلى أهله، أو البعد الإسلامي لمسلمي آسيا الوسطى»: «كما أن روسيا وأوكرانيا وغيرهما من الجمهوريات السوفياتية المستقلة التي تنتمي جغرافيا وتاريخيا إلى أوروبا لم تتوان أو تتردد في تدعيم انتمائها وارتباطها بالحضارة الأوروبية الغربية المسيحية، فإن جمهورية كازاخستان وباقي جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية لم تنفك أن دعمت أواصر الدين واللغة والتاريخ التي تربطها بباقي العالم الإسلامي غداة استقلالها، خاصة منها تلك المتواجدة في آسيا، وبالأخص جمهورية إيران الإسلامية وتركيا وأفغانستان.

ومن المشاريع التي سارعت كازاخستان إلى تنفيذها والتي لها انعكاسات اقتصادية إيجابية لا تقدر للمسلمين في آسيا، هو حصولها مع جمهورية إيران الإسلامية، على اتفاق ثنائي ناجح، والذي تقوم بمقتضاه جمهورية إيران الإسلامية بإنشاء طريق بري يربط بين عاصمتي البلدين (طهران – آلما آتا)،

(1) جريدة «الجزائر اليوم»، الثلاثاء 09 فيفري 1993م.

هذا الطريق البري الذي سيربط كازاخستان بإيران عبر جمهوريتي أوزبكستان وتركمنستان الإسلاميتين».

ثم يضيف في مكان آخر تحت عنوان فرعي «البعد العربي لمسلمي آسيا الوسطى» قوله: «بالرغم من الحقبة الحديدية الشيوعية الحمراء، التي مرّت بها جمهوريات آسيا الوسطى في زمان ما كان يعرف بالاتحاد السوفياتي، إلا أن ذلك لم يمنع هذه الجمهويات من تدعيم ارتباطها التاريخي والحضاري بالعالم العربي، وقد تجلى هذا الارتباط الحضاري في التبادل الثقافي الإسلامي المتكرر بين دول العالم العربي وبين الجمهوريات الإسلامية بآسيا الوسطى، وقد لعب جامع الأزهر الشريف ودول الخليج دورا مميزا ورائدا في هذا الميدان، سواء بالدعم المادي، أو الدعم الثقافي الديني.

ولتأكيد الارتباط الثقافي بين العالم العربي والجمهوريات الإسلامية السوفياتية، فإنه لا يخفى على أحد أن اللغة التي تتكلم بها كازاخستان وأوزبكستان وتركمانستان وكرخيزيا، هي اللغة (الجفكانية – التركستانية)، والتي تحتوي على قدر معتبر من الكلمات العربية الأصيلة، كما أن اللغة الطاجيكية التي يتكلم بها جزء غير قليل من سكان طاجيكستان، هي قريبة من بعض اللهجات الإيرانية، وهي تحتوي على ما يقدر بـ 45٪ من الكلمات العربية الأصيلة، أضف إلى هذا أن لغات بلاد آسيا الوسطى كانت كلها تكتب بالحروف العربية، إلى سنة 1949، حيث فُرضت عليها الكتابة بالحروف الروسية، وردّا للاعتبار للحرف العربي وللانتماء الإسلامي، فقد أعلنت جمهورية طاجيكستان غداة استقلالها إلغاء كتابتها بالحروف الروسية والعودة للكتابة بالخط القرآني العربي المقدس، كما أن باقي الجمهوريات الإسلامية عازمة أمرها كلها على العودة إلى الكتابة بهذا

الحرف الأصيل الجميل الذي لم تعرف لغاتهم حرفا آخر غيره قبل حملة المسخ الإلحادي الروسي التي ذهبت إلى الجحيم من غير رجعة إلى هذه الحياة الدنيا إن شاء الله».

ونختم حديثنا عن حضور اللغة العربية في إحدى أهم الجمهوريات الإسلامية المستقلة عن الاتحاد السوفياتي البائد، وهي البلاد التي أنجبت أهم وأشهر صاحب كتاب في الحديث النبوي الشريف، ألا وهو البخاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، نسبة إلى «بخارة» التي تسمى اليوم أوزبكستان، فعن وضعية اللغة العربية في هذا البلد المسلم العريق، ورد في تحقيق أجرته مجلة «منار الإسلام»، وحوار مع أحد العلماء الطاجيك جاء فيه ما نرى أهمية ذكره في هذا السياق، والتحقيق مع الحوار هما من إعداد الصحفي عبد الرحيم النقي الذي يقول: «إن وقوع أوزبكستان وجارتها طاجيكستان تحت وطأة الاحتلال السوفييتي الشيوعي، أدّى إلى طمس معالمها الإسلامية والقضاء على العلوم الشرعية، وإلغاء كل ما هو إسلامي، إلا أن العلماء ظلوا يورثون العلم لأبنائهم وتلاميذهم في الخفاء خشية أن ينالهم بطش المستعمر الشيوعي، فتفنن أهل أوزبكستان وطاجيكستان في أساليب الاستخفاء لتدريس علوم الدين الحنيف من دون أن يشعر بهم السوفييت....

وكانت أساليب العلماء وطلبة العلم في هاتين الدولتين ضربًا من الخيال للبقاء على المسيرة العلمية من دون انقطاع، وقد كان العلم والعلماء في هذه الحقبة بين مطرقة الشيوعية وسندان الفقر وقلة الموارد المالية.

التقينا بالعلامة الشيخ المحمدي الحائطي (88 عاما)، أحد علماء طاجيكستان وأحد المراجع الفقهية فيها، حيث ظل يدرس علوم الدين الإسلامي منذ ما يقارب الستين عاما، قضى 20 عاما منها في دول آسيا الوسطى وأمضى الباقي في بلدته (قمسن جر)

ومن خلال هذا الحوار سنتعرف إلى جهوده العلمية، وعلى الوسائل التي كانوا يتبعونها لتوصيل العلم الشرعي في فترة الهيمنة الشيوعية، وكيف صار وضع التعليم الديني الآن في البلاد بعد أن تحررت من القبضة الشيوعية»[1].

السؤال: هل من الممكن أن تعطونا فكرة عن التعليم في أيام الاحتلال الشيوعي؟

الجواب: التعليم أيام الهيمنة الشيوعية، يتميَّز بطابع السرية، فكنّا نقوم بالتعليم في وسط الليل أو آخره عند هدوء الجند والعناصر الأمنية، حيث لم يترك لنا المجال للتعليم علانية، فكان يُقاد العالم إذا عرفوا عنه أنه يدرس العلوم الإسلامية إلى غياهب السجون ويتم التحقيق معه.

أما بعد استقلال البلاد ومنذ 16 عامًا، فنقوم بالتعليم علنًا من خلال نظام يُسمَّى (نظام الحجرات) الذي ظهر بعد سقوط بخارى.

السؤال: كيف كان نظام الحجرات التعليمي؟

الجواب: بدأ هذا النظام إثر سقوط الحكم الإسلامي في بخارى، منذ ما يقارب 85 عامًا، بعد أن تعرّض العلماء للتنكيل والسجن والتشريد، حيث كان طلاب العلم سابقا يذهبون إلى بخارى من كل مكان، حتى من طاجيكستان، فكانت تنظم حلقات تعليمية، ثم تحولت إلى حلقات سرية في العهد الشيوعي، وعادت بعد ذلك إلى العلن بعد استقلال البلاد وانهيار الشيوعية.

والملاحظ أن دعم الأهالي لطلبة العلم وإمدادهم ببعض المواد التموينية التي تعينهم في معيشتهم كان سلوكًا متبعًا في ظل الاحتلال الشيوعي –سرا بالطبع– ولا يزال موجودا حتى الآن.

(1) مجلة «منار الإسلام» الصادرة في دولة الإمارات العربية المتحدة، عدد جمادى الآخرة، 1428 هـ.

السؤال: كيف تستقبلون الطلاب، هل ظل التعليم نفسه كما كان سابقا؟

الجواب: كنا نستقبل الطلاب في بيوتنا ونؤمّن لهم الإقامة والإعاشة طوال مدة التعليم حتى يتخرّج الطالب، وكل ذلك كنا نقدمه مجانا اعتمادا على الله تعالى، فكانوا يبيتون ويتفرغون لطلب العلم الشرعي واللغة العربية، وكان الإقبال على نظام الحجرات في السابق، كبيرا وبكل رغبة وإخلاص.

السؤال: ما المواد الدراسية التي تقدمونها إلى الطلاب؟

الجواب: نركز على تعليمهم الفقه الإسلامي بمختلف فروعه وأصوله، وتفسير القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، إضافة إلى اللغة العربية حتى يتمكنوا من فهم القرآن ودينهم بأسلوب أفضل.

وفي الختام نقول أن هذه المكانة التي تحتلها اللغة العربية في العالم حاضرا، والتي تتهيأ لها في المستقبل بعد الاستقلال الحقيقي، وتخلص الشعوب العربية الإسلامية بالديمقراطية الحقيقية وانتشار الدين الحنيف وعدم مصادرة إرادة هذه الشعوب بتزوير نتائج الانتخابات فيها لصالح الأنظمة الخائنة والعميلة للقوة المادية الطاغية... إلى أن يتحقق ذلك في المستقبل ستعترض هذه اللغة الكثير من الصعاب والعوائق الشكلية والموضوعية التي يتطلب القضاء عليها من طرف العرب أنفسهم، حتى يتنسى لها أن تجد الوسيلة والمجال الفسيح للانتشار والازدهار في الأقطار العربية أولا، ثم بقية الأقطار الأخرى في العالم، لأن فاقد الشيء لا يعطيه!

ونعتقد أن المشكلة الأساسية للغة العربية اليوم، هي ليست مع الأعداء المعلنين السافرين المعروفين، ولكن مشكلة الإسلام ولغته اليوم هي مع بعض المحسوبين عليهما من بعض الحكام العرب أنفسهم، المتغربين لسانا

ووجدانا «وعلمانية» استوردوها (ما أنزل الله بها من سلطان)، إلى تربة بلدانهم المتشوقة والمتعطشة دوما إلى دين الحق ولغة السماء، رغم كل هؤلاء الأعداء من أبناء جلدة الأمة وجغرافيتها، والأعداء التاريخيين من خارجها، كما هو موضح بالأرقام والحجج والوثائق الناطقة كما سنبيّن بالأرقام والحجج والوثائق الناطقة في الفصل التالي.

الفصل التاسع

مصير أطروحات ومخططات ومراهنات الأعداء على زوال لغة السماء؟!

خلاصة لما تقدم في مجمل فصول الكتاب، وتتمة لما انتهينا إليه في الفصل السابق، نقول بأن بعض الأعداء الحضاريين الغربيين و"المستغربين" يدّعون بأن اللغة العربية الآن في حالة احتضار وأن مآلها الزوال، أو زوايا بعض المساجد، مثل مصير اللغة اللاتينية المنزوية في الفاتيكان وبعض الكنائس في الوقت الحاضر، وهي آيلة إلى زوال، خاصة بعد سماح رجال الدين في أوروبا بإلقاء الخطب الوعظية باللغات الوطنية والمحلية، كما حدث في فرنسا في السنة الماضية (2006).

والحقيقة أن هذا التفاؤل "بالزوال" للغة العربية قديم لدى الأعداء في بلادهم، وجديد لدى بعض الأعداء (من الأبناء والأشقاء) في بلادنا (راجع ما قلناه في المقدمة)، وهو يدخل في إطار الصراع الحضاري والحرب النفسية التدميرية و"التعقيدية"(*) لبعض النفوس الضعيفة في العقول الخفيفة، حيث يهدف هؤلاء الأعداء على اختلاف أنواعهم ونزعاتهم إلى تقويض هذا الركن العتيد من بناء حضارة الأمة ووحدتها وطمس جوهر هويتها وبقائها، ألا وهو لسانها، حامل اسمها وعنوانها بين الأمم...

وعن مخططات هؤلاء الأعداء يقول الباحث العربي سعيد العرفي: «لقد أدرك أعداء الإسلام حكمة وجوب قراءة القرآن في الصلاة، بما يعني ما قلناه بأن اللغة العربية هي لغة المسلمين كلهم، فأرادوا أن يضاهوها بعملهم هذا

(*) نسبة إلى تكوين العقد النفسية تجاه الأعداء الغربيين المسترهبين، لخدامهم من خفراء معبد العولمة و"العلمنة" في بلداننا العربية الإسلامية!!

الذي أظهروه أخيرا، وهو إيجاد لغة عامة للبشر أجمع وسموها لغة « الإسبرنتو » يزعمون أنهم يريدون تقريب التفاهم بين الشعوب الإنسانية.

ولكن من عرف مبادئ هذه اللغة يفهم أن المطلب عبارة عن إحياء اللغة اللاتينية التي كانوا يسمونها لغة العلوم، وهي اللغة الدينية المسيحية، وإنما جعلوا عنوانها لغة البشر، كي يوجهوا المسلمين كغيرهم إلى الاهتمام بها وبذل العناية فيها، علما منهم أن للغة تأثيرا كبيرا في التغيرات الفردية وانقلابات الجماعات والأفراد، ولاسيما إذا أتقنها الشخص أكثر من لغته الأصلية، فإن إعجابه بها لا يلبث أن يكون سبب اندماجه فيها بسرعة، إذا لم يقف في سبيله مرشدون يهدونه ويبيّنون له الغثّ من السمين والخطأ من الصواب.

... نعم لقد ألّف هؤلاء الأعداء جبهتين عظيمتين: الأولى ترجمة القرآن العظيم، والثانية الاستعاضة عن اللغة العربية الفصحى باللغة العامية. وكلا الرأيين يدعو إليه أعداء الإسلام وإن تستّروا بغيرهم، كما هو ملاحَظ، ولكن على لسان من يعلنونه؟ لا ريب أن الأمر لا يحتاج إلى تدبُّر وتفكير طويل، لأنهم يعلنونه على لسان زنديق يظهر الإسلام، أو مغفل لا يدري من الدين إلا أنه مسلم، أو حفظ بعض أحكام سطحية ولم يفقه حكمة التشريع، ولم يتشرب بروح الدين أصلا. وما ذاك إلا لعلمهم بأن هذه الدسائس وأمثالها، لا تروَّج إلا بواسطة مدعيّي الإسلام، والإسلام بريئ منهم، وهذا ثابت باعتبار المبشرين أنفسهم.

إن تنصير المسلمين (كما قالوا) يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم، ومن بين صفوفهم، ويجب ألاّ يقنطوا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة في البداية، إذ من المحقق أن المسلمين قد نما في قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوروبيين... هذا جزء من مقرراتهم قبل أربع وعشرين سنة التي أعلنوها في مؤتمرهم التنصيري المنعقد بمصر في (4 أفريل 1906) »[1].

(1) اللغة العربية، منشورات وزارة الثقافة السورية 2004، القسم الأول، ص 263.

وتتبعا لهذه المخططات يقول الباحث في مكان آخر: «فقد نشرت جريدة «المؤيَّد» المصريّة، يوم 20 جمادى الثانية سنة 1330 هـ[*]، ترجمة عن مجلة (العالم الإسلامي) الفرنسية: «ومنه مؤتمر (آدنبرج)، المنعقد سنة 1910م ذلك المؤتمر الذي كان رئيس جمهورية أمريكا (المستر روزفلتْ) ووزير خارجية بريطانيا (اللورد بلفور) المعروف بصاحب الوعد المشؤوم، من أعضائه البالغين مئتين وألفَ مندوب، فاعتذر الأولُ برسالة، وكان الثاني رئيس اللجنة السابعة، وحضر (المستر براين) خطيب أمريكا المرشح لرئاسة جمهوريتها. فكان من جملة قراراته التي نُشرت في تسعِ مُجلدات قرار اللجنة الثالثة منه، الذي جاء فيه: «اتفقت آراءُ سُفراء الدول الكبرى في عاصمة السلطنة العثمانية على أنَّ معاهدَ التعليم الثانوية التي أسّسها الأوروبيون، كانَ لها تأثير على حلّ (المسألة الشرقية) يرجحُ على تأثير العملِ المشترك الذي قامت به دول (أوروبا) كلُّها»[1].

وهو ما تجاوب معه أحد أقطاب الاحتلال الفرنسي الصليبي، الأب دوفوكو، مهندس التنظير لمعركة التنصير في بلاد المغرب الإسلامي الكبير ، حيث قال بعد سنتين من المؤتمر السالف الذكر في رسالة بعث بها للدوق (فيتس جيمس) سنة 1912: «إنني أعتقد بأنه إذا لم نستطع تحويل المسلمين بالتدريج عن دينهم وحملهم على اعتناق المسيحية، فإن النتيجة الحتمية هي تكوّن روح قومية جديدة تؤدي إلى طردنا من مستعمراتنا في شمال إفريقيا.

إن الروح الوطنية، العربية والبربرية، سوف تنمو في صفوف الطبقة المثقفة التي ستستعمل الإسلام كسلاح فعّال لإثارة الجماهير الجاهلة، في إمبراطوريتنا ...!!

إن السبيل الوحيد لضمان عدم طردنا من هذه الإمبراطورية، هو أن نجعل سكان البلاد فرنسيين، والسبيل الوحيد لذلك هو جعلهم مسيحيين»[2].

(*) يقابل 1911 ميلادية.

(1) المرجع السابق، ص 272–273.

(2) الرسالة منشورة في كدراسة كوثيقة عن أعمال هذا الرجل، في جريدة «لوموند» الفرنسية بتاريخ 1956/05/17.

وهو ما يؤكده الأستاذ مالك بن نبي في حديثه عن علاقة لويس ماسينيون ودوره في مواصلة تبني وتطبيق مخططات دوفوكو الذي قضى نحبه على أيدي المجاهدين في جنوب الجزائر سنة 1916، فيقول عن مقاومة أبناء الأمة لهما (وهو منهم) في مذكراته ما يلي: «ويجب القول أن جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا التي رأت النور بباريس، شكلت في ذلك الوقت بواكير ومقدمات للعديد من الأمور وكانت تبشر بآفاق جديدة وتحمل أمورا افتراضية لم تكن إلا لتثير قلق الاستعمار وشكوكه، فبدأ بالفعل، وبالتزامن مع نشاط الجمعية، يعتمد سياسات نشر البربرية واللاتينية والتنصير والفرنسة في شمال إفريقيا.

شكلت وصية الأب دوفوكو(*) كتابا يهتدي به جميع الموظفين وكل القساوسة الذين كانت لهم يد في« شؤون المسلمين»، من قريب أو من بعيد. وكان منفذ وصية الأب دي فوكو هو لويس ماسينيون الذي لم يخف البتة هذا الشرف بل كان يعتز به...

... فالمهم حاليا هو أن أطروحتي تقع على طرفي نقيض من آراء ماسنيون البربرية واللاتينية والتنصيرية والمفرنسة. كما أنها لم تكن في بال «أبطال» الجزائريين اللاحقين الذين كان همهم الآني هو السعي الحثيث وراء منصب نائب الوالي أو ما شابه»[1].

(*) ويعلق مترجم الكتاب (الأستاذ نور الدين خندودي) على ذلك بقوله: «من أسس هذه الوصية تحقيق التحول الاجتماعي والثقافي للشعب الجزائري المسلم بفعل الفضيلة المضاعفة للاستعمار: الحضارة الفرنسية والخُلق المسيحي، وعلى خط من سبقوه كالكاردينال لافيجري، كان الراهب (دي فوكو) متحرقا إلى المساهمة، وفقا لأسلوبه، في المهمة التاريخية لبلده في المجال الاستعماري». من كتاب «شارل دي فوكو في نظر الإسلام»، لعلي مراد. ترجمة علي مقلد. ص. 81. المنشورات العربية. 1980. ومن المعروف أن دوفوكو وماسينيون كانا، من كبار المناصرين للمهمة التنصيرية للاستعمار. (المترجم).

(1) مذكرات مالك بن نبي «العفن»، دار الأمة الجزائر 2007، ص 26.

واستمرارا في تنفيذ هذا المخطط الاستئصالي لمقومات هوية الأمة وطمس وجودها (لسانا ووجدانا) في بلاد المغرب الإسلامي، وبعد ما يقرب من نصف قرن، يقول رئيس وزراء فرنسا (منديس فرانس) سنة 1956 ما يلي: «إننا نعتقد أن سياستنا هي الوحيدة التي تستطيع إدامة الوجود الفرنسي في الجزائر، وإذا ما قدّر لنا سوء الطالع أن نفقد الجزائر، فإننا سنفقد معها جميع أجزاء الإمبراطورية.

وإننا نعلم النتائج المريعة المترتبة على ذلك من جميع الوجوه الاقتصادية والسياسية والمعنوية(!؟).

إننا نعتقد بضرورة صيانة المصالح الحيوية لفرنسا في الجزائر، ويجب أن يزول أي شك يحوم حول سياستنا في هذا الصدد. وليس هناك أي شخص راديكالي يدافع عن أية سياسة أخرى غير سياسة الإدامة والإنقاذ والتمكين لفرنسا في الجزائر»[1].

ومواصلة لهذا النهج «الاستحلالي» الذي لم يعرف التوقف منذ 1830، نورد هذا الخبر المنشور في 2005/02/18، تحت عنوان: «فرنسا مرتاحة لتعديلات المنظومة التربوية في الجزائر»، جاء فيه: «أكّد سفير فرنسا بالجزائر، أن بلاده مرتاحة للتعديلات التي عرفتها المنظومة التربوية في الجزائر خاصة فيما يتعلق بإعادة الاعتبار للغة الفرنسية التي أصبحت تدرس ابتداءً من السنة الثانية ابتدائي، وهو الأمر الذي ستدعمه فرنسا وتعمل على تشجيعه ماديا ومعنويا. كما أكد بأن التعديلات الأخيرة التي عرفتها المنظومة التربوية بالجزائر مهمة جدا وتحظى باهتمام كبير من قبل فرنسا التي ستشرع في تجسيد برنامج دعم التعليم في الجزائر في مختلف الأطوار، حيث تم تخصيص صندوق تعاون لتكوين 2000 أستاذ في اللغة الفرنسية سيخضعون

(1) جريدة لوموند، 1956/05/07.

لعملية رسكلة على حساب فرنسا التي ستسعى لتدعيم مكانة اللغة الفرنسية في الجزائر وذلك بحكم العلاقات التاريخية التي تجمع البلدين، كما أن الاهتمام سينصب أيضا على التعليم العالي أين تعتبر اللغة الفرنسية الأكثر استعمالا وخاصة في مجال البحوث، ولذلك تم فتح فضاء تبادل وتعاون بين الجامعات الفرنسية والجزائرية...»[1].

والتزاما من فرنسا الاستعمارية في تطبيق سياستها اللغوية بنفس المخطط الذي بدأته مع بداية احتلالها للجزائر سنة 1830 (كما بينا في الفصل الأول)، نورد هذا الخبر الذي يمثل آخر الأساليب المبتكرة لإبعاد الجزائريين عن لغتهم وربطهم بمرضعتهم الاقتصادية والثقافية (فرنسا) وهو بعنوان «فرنسا تضع شروطا جديدة لمنح التأشيرة»، جاء فيه:

«وضعت السلطات الفرنسية إجراءات جديدة للالتحاق بمؤسسات التعليم العالي، بالنسبة للطلبة الجزائريين أو المتحصلين على شهادات عليا من الجامعات الجزائرية. وحددت السفارة الفرنسية بالجزائر في بيان لها بتاريخ 9 جوان لنهاية التسجيل بالمركز الثقافي الفرنسي المتواجد بوهران وتاريخ 30 جوان لنهاية التسجيل بالمركز الثقافي الفرنسي بالعاصمة وعنابة وقسنطينة. والجديد في هذه التسجيلات أنه ابتداء من هذه السنة سينظم امتحان إجباري لمعرفة قدرات الطالب الجزائري في اللغة الفرنسية... بينما سيعفى من هذه الامتحانات المتحصلون على شهادات البكالوريا الفرنسية أو على شهادات للتعليم العالي الفرنسي، أو ذوي شهادات الليسانس الفرنسية أو المستفيدين من برامج التعاون الفرنسي الجزائري، في حين سيجد تقريبا كل الطلبة الجزائريين أنفسهم مجبرين على خوض هذا الامتحان!

(1) جريدة الشروق اليومي الجزائرية، بتاريخ 2005/02/18.

ودعا البيان المهتمين بهذا النوع من المسابقات إلى الاتصال بالمراكز الثقافية الفرنسية المتواجدة عبر الوطن »[1] [(*)].

هذا بالنسبة لبلاد المغرب العربي، أما بالنسبة لبلاد المشرق، الذي يعتبر فيها « كل العُرب في الهم شرقُ »، فيضيف العلامة سعيد العرفي منذ ما يقرب من ثمانين عاماً ما يؤكد عدم تغيير هذا الوضع «الاستحلالي» الخطير لأمتنا (مشرقا ومغربا) حيث يقول: «والغريب أن الذين يريدون القضاء على اللغة العربية، بداعي أن الوقت لا يسمح بتعلمها، هم أنفسهم الذين يروجون لتعلم اللغات الأجنبية، ويسمونها اللغات الحية، وينشرون الدعاية لها، ويذيعون المدح والثناء لمن سعى لأجلها.

وهذا هو السبب الذي دعا العرب بل الشرق كله إلى لزوم تقرير دراستها وتعلُّمها في المدارس الابتدائية والثانوية والعالية، وهيّأوا لها الوسائل لتسهيلها! حتى إن معلم اللغة الأجنبية أصبحت له عندهم قيمة زائدة واحترام زائد على معلم اللغة العربية في البلاد العربية »[2].

ومن بين تلك الأطروحات والمراهنات، ترديد هؤلاء الأعداء أيضا للقول بأن اللغات كالكائنات الحية: تولد وتشب وتكتهل، وتشيخ وتموت لترثها

---

(1) جريدة «الشروق اليومي» الصادرة بتاريخ04 جوان 2005م.

(*) وقد علّق رئيس تحرير الجريدة (نصر الدين قاسم) على هذا الإجراء بقوله: «إن القرار الفرنسي لم يأت من العدم وليس وليد نزوة... لأن فرنسا دولة تحكمها المؤسسات الديمقراطية، إنما وليد ترتيبات تعبر عن ارتياح فرنسي للإصلاح التربوي الحاصل في الجزائر والذي ضمن للفرنسية موقعا متقدما في المناهج التعليمية يضاهي اللغة الأم، إنه مدروس في المضمون والتوقيت والأهداف، ولأن عقدة فرنسا تكمن في المدرسة الأساسية التي حولت الفرنسية إلى لغة أجنبية فإن القرار المذكور يخص أبناء هذه المدرسة أساسا لدفعهم إلى معاودة الدراسة وتصحيح أنفسهم في الجزائر بتعلم الفرنسية قبل الحلم بالانتقال إلى فرنسا، أين كان بمقدورهم سابقا أن يتعلموا الفرنسية كأترابهم الذين ينتقلون إلى دول أخرى، أو معاقبتهم بحرمانهم من مزاولة الدراسة إن هم لم يستدركوا أنفسهم!».

(2) اللغة العربية، القسم الأول، مرجع سبق ذكره، ص 272.

لغات أخرى تولد بحكم الظروف المستجدة، ودوران عجلة التاريخ التي لا ترجع إلى الوراء، والأمثلة التي يذكرونها على هذه اللغات التي عاشت وأنجبت ثم ماتت كثيرة في التاريخ القديم والحديث، ويضعون اللغة العربية في مقدمة هذه اللغات السائرة في طريق الانقراض والزوال، لتحل محلها اللهجات العامية العربية والبربرية، على غرار ما وقع للغة اللاتينية في أوروبا... وللرد على هذه الأطروحة ابتداءً نقول: إنه كما وجدت العوامل التاريخية التي أدت في الأصل إلى تفرع اللغات... توجد عوامل أخرى (ظهرت بشكل أقوى في عصرنا الحاضر) تساعد على التوحيد اللغوي، وتؤدي إلى ظهور اللغات العامة من جديد.. وهذه العوامل تختلف من مجتمع إلى آخر بحسب الظروف، وقد تكون سياسية أو اقتصادية أو قومية أو أدبية أو دينية، وسنحاول أن نوجز أهم هذه العوامل دون أن يعني ذلك أن جميعها يجب أن يتوفر في أية لغة كي تنتشر وتصبح عامة وبالتالي تبتلع اللغات الضعيفة التي تعترض طريقها..

العامل الأول: الاتصال والاختلاط بين أقوام مختلفي اللغات أو اللهجات، فيحدث تبادل تأثير بين الأطراف وتكون الغلبة للغة القوية، فتبتلع اللغة الضعيفة، أو يحدث أن تتعادل اللغتان في القوة فينتج احتكاكهما الطويل والمتواصل ظهور لغة جديدة مركبة من خليط من اللغتين.. مثل اللهجة العامية لسكان المدن الساحلية الجزائرية، حيث وقع الاحتكاك الطويل بين اللغة الإسبانية والفرنسية واللغة العربية فتولدت جراء ذلك لهجة مزيجة بالألفاظ الدخيلة مزجا غريبا!!

ولو تطاوع الدولة الجزائرية في الوقت الحاضر دعاة تفصيح العامية الجزائرية لتصبح لغة كتابة وقراءة لوجد العرب أنفسهم أمام لغة أقرب إلى المالطية والإسبانية منها إلى اللغة العربية الفصحى!

العامل الثاني: انتشار عقيدة دينية معينة، وما تحمله هذه العقيدة من لغة تنتشر بكيفية تلقائية في أوساط المؤمنين بتعاليم الدين الجديد ويختلف انتشارها قوة وضعفا وسرعة وبُطْئًا، باختلاف المقاومة التي تبديها اللغة المحلية في وجه اللغة الدينية الجديدة، وأبرز مثال لهذه الحالة: انتشار اللغة العربية مع انتشار الإسلام، واحتواؤها للغات المحلية في الأقطار العربية الحالية.. إلى أن أصبحت اللغة العربية لسان ثلاثمئة مليون عربي في الوقت الحاضر، ضمن أكثر من مليار ونصف المليار من المسلمين الذين يتعاملون بالعربية بكيفيات متفاوتة (كما أسلفنا في الفصل السابق) بعد أن كانت هذه اللغة خامدة في شبه الجزيرة العربية لعدة قرون قبل ظهور الإسلام الذي نشرها وقواها وحافظ عليها، مثلما نزلت في كتابه بألفاظها وقواعدها من اللوح المحفوظ!!

العامل الثالث: الهيمنة السياسية، وما تفرضه من لغة مشتركة بحد السيف، على كل من يقع تحت سلطانها، والأمثلة الحية في عالمنا المعاصر تتمثل في محاولة الاحتلال الفرنسي الصليبي فرنسة بعض أقطار المغرب العربي.. وما جرى في جمهوريات الاتحاد السوفياتي سابقا من فرض للغة الروسية المشتركة على جميع الألسن... وما تم في الولايات المتحدة الأمريكية من نشر للغة الأنجليزية في الولايات التي دخلت في الاتحاد بمقتضى الدستور الأمريكي الذي تبنى هذه اللغة بدل الألمانية نتيجة استفتاء حول هذا الموضوع (...).

العامل الرابع: الآداب والفنون، من سينما ومسرح، ووسائل الإعلام من إذاعة وتلفزيون وصحافة مكتوبة. فكل هذه الوسائل توحد اللغة لدى أفراد المجتمع وتعمل من أجل القضاء على الفوارق الموجودة في اللهجات المحلية لتوحدها في لهجة واحدة أو لغة واحدة، ولقد ساعد على ذلك في عصرنا

الحاضر ظهور المدن الكبيرة التي تضم الملايين من البشر الذين تؤدي معيشتهم الجماعية إلى تكوين لغة مشتركة تؤثر عموما في لهجات النواحي الأخرى من البلاد على اعتبار أن الحواضر ظلت دائما مراكز جذب للسكان، من أقاليم متباعدة في الأرياف (كما ذهب إلى ذلك ابن خلدون) فضلا عمَّن يؤمّها مؤقتا من سكان الضواحي لقضاء مصالحهم.. وينتج عن اختلاط هؤلاء المهاجرين بعضهم ببعض، وعن اختلاطهم بالسكان المستقرين.. أن تصقل لغة الجميع وأن ينتهي الأمر إلى تكوين لغة عامة، كما قد تتغير اللهجات من جراء التجمع السكاني الذي يجعل هذه اللهجات تنصهر لتعطي لغة عامة توافق كل السكان في المدينة الواحدة، ثم تتعدى بدورها إلى سكان البلاد كلها، وفي هذا المعنى يقول ستيوارت ضود: «نعرف جيدا أن الشعب الذي ينطق بلغة واحدة، إذا ما فصلته حواجز كالبحار والصحاري، وسلاسل الجبال أو غيرها، واستمر هذا الفصل قرونا تنقسم لغته إلى لهجات مختلفة، قد تكون كتابتهم واحدة، ولكن التلفظ يكون مختلفا، بيد أن هذه اللهجات قد تمتزج، وتكوِّن لغة واحدة مرة ثانية إذا ما تم الاتصال بين الأقطار التي تسود فيها، وبالفعل، فإننا نجد اليوم أن لهجات أنجلترا آخذة في الزوال كما أن الراديو يعد قوة جديدة وفعالة في توحيد اللهجات، والخلاصة أنه كلما ازداد الاتصال بين أجزاء العالم بواسطة وسائل المواصلات الحديثة، كالسفر والراديو والسينما والتلفزيون والأنترنت توقعنا أن تزول اللهجات، وتتوحد اللغات تدريجيا»[1] ونجد لكلام هذا العالم اللغوي عن عوامل التوحد اللغوي سندا قويا من تاريخ اللغات قديما وحديثا، ومن ذلك –مثلا–انتشار اللهجة المصرية (نتيجة الأفلام والمسلسلات التلفزيونية) في معظم أقطار الوطن العربي في الوقت الحاضر.

(1) العلاقات الاجتماعية في الشرق العربي، ترجمة فريد النجار، دار الكتاب، بيروت 1974، ص 295.

فاللغة الإغريقية كانت في الأساس: هي اللهجة الأتيكية التي ظلت حتى القرن الخامس الميلادي لغة محلية لاقليم منعزل، ثم تطورت بعد قيام الإمبراطورية المقدونية لتطغى على باقي اللهجات المحلية، وتصبح أداة التفكير واللغة المشتركة لجميع الإغريقيين الذين كانوا من قبل توحدهم يتكلمون لهجات مختلفة..

اللغة الفرنسية: اللغة الحالية هي في الأصل تطوير للهجة(الايل دي فرانس) ويعود هذا التطوير إلى أهمية العاصمة "الباريسية" السياسية والإقتصادية والحضارية (كما سنفصل بعد حين).

اللغة الإسبانية: خرجت من اللهجة القشتالية التي أصبحت اللغة الادبية في القرن الثالث عشر بفضل (الفونس العاشر) الذي كان يحتل بالنسبة الى إسبانيا مركز (دانتي) بالنسبة لإيطاليا، فضلا عن المركز السياسي والحضاري المؤثر الذي كانت تحتله قشتالة في ذلك الوقت.

اللغة الإنجليزية: هي الأخرى ظهرت في لندن التي كانت ملتقى لمختلف اللهجات، وقد لعبت العاصمة دور الموحد لتلك اللهجات لتصبح لغة واحدة في العصر الحاضر، باستثناء منطقة ويلز التي ما تزال لغتها متداولة محليا.

اللغة الألمانية: هي عبارة عن توحد لعدد كبير من اللهجات المحلية التي أخذت تزول شيئا فشيئا مع إنتشار اللغة الألمانية المشتركة، ويعود الفضل الكبير في ذلك للمصلح (مارتن لوثر) الذي دعا الى هذا التوحيد وساعد على تحقيقه بترجمة الأناجيل الى اللغة الألمانية[1].

اللغة الروسية: هي تطور توحيدي للهجات السلافية الجنوبية وقد تم هذا التوحد بشكله الأكمل في عهد بطرس الأكبر الذي فعل ما يشبه عمل (مارتن لوثر) بالنسبة للغة الألمانية[2].

(1) د. محمود السعران، اللغة والمجتمع، المطبعة الأهلية، بن غازي 1958، ص 105.

(2) د. كمال الحاج، فلسفة اللغة، مصدر سبق ذكره، ص 234.

فبهذه الأمثلة التاريخية الحية والشواهد الدقيقة يتبين لنا أن اللغات لا تسير نحو الانقسام في حتمية مطلقة، وإنما تتجه أيضا نحو التوحد إذا توفرت لها أسباب وظروف خاصة، ونعتقد أن هذه الظروف والإمكانيات المساعدة على التوحد هي في عصرنا الحاضر أوفر منه في العصور الماضية، مما يبعث على الارتياح، بأن توحد اللهجات العربية في اللغة المشتركة الواحدة هو أقرب إلى التحقق من استقلالها عن الفصحى لتصبح لغات عامة قائمة بذاتها، كما يذهب المعارضون والمغرضون والمخططون لهذا الهدف الاستعماري الجديد في البلاد العربية مشرقا ومغربا كما هو واقع!!

لا شك أن القول بحتمية تفرع اللغة العربية الفصحى إلى لغات مستقلة بذاتها على غرار اللغات الأروبية المتفرعة عن اللاتينية.. هو كلام بقدر ما يستند إلى حجج تاريخية اقتنع بها بعض مرددي الصدى الغربي.. وأصبحوا يبشّرون بها كمسلمات قطعية في العالم العربي، بقدر ما هو ادعاء مغرض وتخمين باطل، ولا أدل على ارتباط هذه الدعوة بالاستعمار القديم المتجدد من أن أول من أوحى بها إلى هؤلاء المردّدين و«المناولين» العرب هم المستشرقون الأنجليز والألمان والفرنسيون الذين قسموا العربية إلى (لغة حية) و(لغة ميتة) واللغة العربية الحية –في زعمهم– هي (اللهجة العامية) في كل بلد عربي، وأما اللغة العربية الميتة فهي (اللغة الفصحى المشتركة) وأخذوا ينشطون في القيام بالأبحاث «العلمية!» المختلفة في المجال اللغوي ليوهموا العرب أنهم لن يتقدموا إلا إذا تبنوا تلك اللهجات كلغات للتعليم والإدارة بعد تطويرها وتقعيدها (أي اصطناع قواعد لها) ومن أمثلة ذلك ما ذهب إليه الأنجليز في مصر في أواخر القرن التاسع عشر من إنشاء مجلة تسمى (الأزهر) كانت تحرر كل موضوعاتها «العلمية» باللهجة العامية المصرية من طرف دهاقنة المستشرقين، وقد فشلت التجربة فشلا

ذريعا حيث توقفت المجلة عن الصدور بعد أن لم تجد من يقرأها، فضلا عمن يشتريها!

ونورد هنا ثلاثة ردود على هذه الأطروحة المغالطة، ونبدأ بالكاتب النصراني العربي الأصيل الأستاذ جرجي زيدان، الذي يجيب دعاة استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية، واستبدال اللهجات العامية باللغة العربية العدنانية، فيكشف خفايا شيخ «المغول» الجدد الأنجليزي الصليبي (وليام ولكوكس)، ويفضح نواياه بالرد عليه قائلا: «قرأنا لجناب المستر وليم ولكوكس خطبة تلاها في نادي الأزبكية ونشرتها جريدة الأزهر الغراء في عددها الأخير الصادر في الشهر الماضي وموضوع تلك الخطبة «لمَ لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن» وقد أفاض حضرة الخطيب في ذكر الأسباب المانعة لتلك القوة ثم أتى على ذكر العلاج وعدد الطرق المؤدية الى أجداها. وليس من غرضنا الخوض في شيء من تلك الخطبة إلاّ فيما يتعلق باللغة العربية.

فقد قال حضرته أن من جملة العوامل في فقد قوة الاختراع عند المصريين استبقاءهم اللغة العربية الفصحى وأشار بإغفالها واستبدالها باللغة العامية اقتداء بالأمم الأخرى، وذكر منها بنوع خاص الأمة الإنكليزية وقال أنها استفادت إفادة كبيرة بإغفال اللغة اللاتينية التي كانت لغة الكتابة عندها واستبدالها باللغة الإنكليزية الحاضرة(*).

وعندنا أن المستر ولكوكس لم يصب المرمى في رأيه من هذا القبيل لأن ما صدق على اللغة الإنكليزية لا يصدق على لغتنا العربية لأسباب كثيرة نذكر منها.

(*) راجع ما قلناه في هامش صفحة 116 حول هذا الخطأ الشائع، والأصوب المقصود هنا هو استبدال الأنجليزية باللاتينية، حيث أن الباء تبقى مع المتروك كما هو معلوم....

أولا: إن الإنكليز باستبدالهم اللغة اللاتينية باللغة الإنكليزية(*) قد استبدلوا لغة أجنبية بلغة وطنية وليس كذلك الحالة في اللغة العربية. فإن الفرق بين لغة الكتابة ولغة المتكلم عندنا ليس بالشيءالكبير، وقد لا يكون أكثر من الفرق بين لغة كُتّاب الإنكليز ولغة عامتهم الذين لا يعرفون القراءة.

ثانيا: ان استبدال اللغة العربية الفصحى باللغة العامية(*) إذا أنقذنا من شر، فإنه يوقعنا في شر أعظم منه لأن الناطقين بالعربية تختلف لغتهم العامية باختلاف الأصقاع، والفرق بين لغة مصر والشام ليس بأقل من الفرق بين اللغة الفصحى واللغة العامية وكذلك بين لغة أحد هذين البرين ولغة المغرب والحجاز أو غيرها من البلاد العربية، ولا يخفى ما بين هذه الأقطار العربية من العلائق الأدبية والمدنية والسياسية فباستبدالنا اللغة الفصحى باللغة العامية(*) المصرية مثلا نحرم أبناء بر الشام وبلاد المغرب من فائدة ما نكتبه في تلك اللغة وهكذا لما استبدلناه باللغة العامية الشامية أو المغربية أو الحجازية وإذا لم نخسر لذلك إلا الجماعة العربية فكفى بها خسارة !!

ثالثا: إن اللغة في كل أين وآن تتبع حالة عقول الناطقين بها ارتقاء وانحطاطا، فلغة العامة منحطة بنسبة انحطاط أفكار الناطقين بها وليس لها أن تقوم مقام اللغة الفصحى ولاسيما العربية، لأنها أرقى لغات العالم، وفيها من أساليب التعبير ما تعجز لغة العامة عن القيام بمثله. فإذا أردنا تدوين العلوم على أنواعها باللغة العامية كما أرتأى حضرة الخطيب(...) فلا أظنها تقوم بتأدية المعاني الكتابية كما يجب، ومن أين تأتي بالألفاظ التي نعبر بها عن الاصطلاحات العلمية ولا سيما الحديثة منها وقد كادت تعجز اللغة الفصحى عن القيام بها(...) فإذا قال أننا ندخل إليها تلك الاصطلاحات نقول إن الاصطلاحات المشار إليها ليست بالشيء القليل، وإنما هي قسم عظيم من

(*) راجع ما قلناه في هامش صفحة 116 حول هذا الخطأ الشائع...

اللغة الفصحى، كما هي أسهل من تعليمهم الاصطلاحات العلمية العالية المكتوبة بالإنكليزية الآن، لا يستطيع عامة الإنكليز فهمها ولو مهما بولغ في إيضاحها وبسطها، وذلك دليل على أن بين العامة والخاصة حجابا لو حاولنا حسره عادت الطبيعة فسدلته!!

رابعا: إن الجامعة العربية قائمة بالمحافظة على اللغة الفصحى، إذ لولا القرآن الشريف والمحافظة عليه منذ صدر الإسلام وعودنا إليه في إصلاح ما تفسده الطبيعة من لغتنا، لتشتت شمل الشعب العربي وأصبح كل قطر من الأقطار العربية مستقلا عن الآخر لا يفهم لغته كتابة ولا تكلما، كما حصل بالأمم التي كانت تتكلم اللغة اللاتينية فقد أصبح لكل منها لغة مستقلة لا تفهمها الأمة الأخرى مثال ذلك فرنسا وإيطاليا وإسبانيا وغيرها والفضل الأكبر في حفظ الجامعة العربية الى الآن هو القرآن الشريف، والمحافظة عليها من أهلها.

خامسا: إن إغفال اللغة الفصحى استوجب إغفال كل ما كتب فيها من العلوم على أنواعها منذ ألف وثلاثمئة سنة وهي خسارة لا تعوض ولو مهما قيل في فائدة اللغة العامية في الكتابة.

فيتضح مما تقدم أن استبدال اللغة العربية الفصحى باللغة العامية رأيْ إغفاله أولى بنا ليس فقط لكونه عقيما، بل لأنه مضرُ باللغة والناطقين بها علميا ودينيا وأدبيا»[1].

وفي السياق ذاته من كشف الأعداء والخصوم المخططين والمتآمرين على جوهر هوية الإسلام وإحباط كيدهم، بالحجة البرهان المبين، يقول إبراهيم اليازجي ردا على «مغولي» آخر من أعداء حضارتنا وأمتنا، هو المستر ولمور:

---

(1) اللغة العربية، منشورات وزارة الثقافة السورية 2004، القسم الثاني، ص 3 – 5.

«نشر بعضهم من سنوات رسائل متتابعة يدعو فيها علماء العربية وكتابها إلى استبدال اللغة العامية من الفصحى واعتمادها في الكتب والجرائد وغيرها، ورسم لها حروفًا جديدة تكتب بها هي الحروف اللاتينية ،وقد وضع لبعضها علامات خاصة للدلالة على المقاطع التي لا صور لها في اللغات الإنفرنجية. وقد انتهى إلينا بعض ما نشره من تلك الرسائل، وفيه أمثلة من حكايات وغيرها باللغة العامية المصرية كتبها بالحروف المذكورة فكانت نوعا من الكرشوني(*). إلا أنه متفرنج كأكثر أهل الشرق في هذه الأيام، وإذا قرئت جاء لفظها أشبه بلفظ رجل إفرنجي يتعلم العربية، ولاسيما في أمر الحركات التي عبر عنها بأحرف المد، فإذا نطق بها العربي توهم سامعه أنه يقلد كلام أحد الإفرنج المقيمين في هذه الديار»[1].

ويضيف قوله: «ولا يخفى أن الحجة الكبرى في ذلك كله هو الفرق الذي حدث بين اللغة العامية واللغة الفصحى حتى صارتا في نظر الأجنبي كأنهما لغتان متباينتان، بحيث يتعذر على العامي فهم اللغة المكتوبة. ولكن ذلك وهم دسه على أولئك القوم الجهل بلغة البلاد، لأنهم لو كانوا يعرفون العربية كما يعرفها أهلها لعلموا أن معظم الفرق بين اللغتين مقصور في الغالب على إهمال علامات الإعراب من لسان العامي بحيث أصبح مسموع اللفظين متباينا على الجملة. إلا أن هذا إنما تتنكر به اللغة في سماع الأجنبي لا في سماع أهلها، ألا ترى أن العامي منا لو سمع قائلا يقول رأيت زيدا، وجاء الرجلان، والمؤمنون يذهبون، لم يلتبس عليه لفظ زيد بسبب ما اتصل به من التنوين ولم يجد فرقا بين الرجلان والرجلين ولا بين المؤمنون والمؤمنين ويذهبون ويذهبوا، وإنما هذا كله مما يشكل على الأجنبي الذي لم يتعلم إلا اللغة

(*) هذه العبارة تعني الكلام العربي المكتوب بالحرف السرياني.

(1) نفس المرجع السابق، ص 7.

العامة. ومن أعظم الشواهد على ذلك أن العامة منا يقرأون ويسمعون الجرائد وكتب الروايات والأقاصيص الحديثة والقديمة من مثل سيرة بني هلال وعنترة وأحاديث ألف ليلة وليلة، وغيرها ويفهمونها ويروونها مع أن جميعها مكتوبة باللغة الفصيحة»[1].

ونختم هذا الموضوع برد قاطع للدكتور طه حسين (وهو عميد الأدب العربي، ورئيس مجمع اللغة العربية)، يقول فيه: «أحب أن ألفت نظر أدبائنا الذين يطالبون بالالتجاء إلى اللهجات العامية، إلى شيء خطر ما أرى أنهم قد فكروا فأحسنوا التفكير فيه، وهو أن العالم العربي الآن وكثير من أهل العالم الشرقي كله يفهم العربية الفصحى، ويتخذها وسيلة للتعبير عن ذات نفسه، والتواصل الصحيح، فيمعن كل قطر في لهجته، وتمعن هذه اللهجات في التباعد والتدابر، ويأتي يوم يحتاج فيه المصري إلى أن يترجم إلى لهجته كتب السوريين واللبنانيين والعراقيين، ويحتاج أهل سوريا ولبنان والعراق إلى مثل ما يحتاج إليه المصريون من ترجمة للكتب المصرية إلى لهجاتهم كما يترجم هؤلاء عن الفرنسيين، ونسأل أنفسنا آخر الأمر أيهما خير أن تكون للعالم العربي كله لغة واحدة هي اللغة الفصحى، يفهمها أهل مراكش كما يفهمها أهل العراق، أم أن تكون لهذا العالم لغات بعدد الأقطار التي تتألف منها وأن يترجم بعض العرب لبعضهم كما يترجم بعض الأروبيين عن بعضهم.. أما أنا فأوثر وحدة اللغة، وأثق الثقة كلها بأن لها النصر آخر الأمر، ورأيي غير متردد، أن وحدة اللغة هذه خليقة بأن يجاهد في سبيلها المؤمنون، وبأن يضحوا في سبيلها بكل ما يملكون»[2].

(1) اللغة العربية، نفس المرجع السابق، ص 9.

(2) من كتابه «مستقبل الثقافة في مصر»، ج2، ص 326.

وكمثال على توحد اللهجات العامية المختلفة في لغة فصحى واحدة نأخذ تاريخ اللغة الفرنسية ذاتها، حيث تقسم اللهجات الرومانية التي كانت متداولة شعبيا في المجتمع الفرنسي في عهد السيادة الرسمية للغة اللاتينية في فرنسا (قبل أن تصبح لفرنسا الحالية لغة قومية مشتركة) تقسّم هذه اللهجات إلى قسمين رئيسيين هما:

اللهجات الشمالية، واللهجات الجنوبية، ويطلق على المجموعة الأولى اسم (لهجات الأويل) ويطلق على المجموعة الثانية اسم (لهجات الأوك) واللغة الفرنسية الحالية تمثل أرقى الدرجات التي وصلت إليها لهجات (الأويل) الشمالية، والبروفانسية الجنوبية، تمثل أرقى الدرجات التي وصلت إليها لهجات (الأوك) الجنوبية.

فاللهجة العامية التي انحدرت منها اللغة الفرنسية الحالية كانت بادئ الأمر لهجة خاصة بالمنطقة التي تمثل ضواحي العاصمة الفرنسية في الوقت الحاضر، (والتي تعرف باسم جزيرة فرنسا) (Ile de France) وقد تطورت وانتشرت فيما بعد نتيجة عوامل عديدة (تدخل في إطار ما ذكرناه قبل حين من عوامل التوحد). ومن جملة هذه الأسباب والعوامل أن المنطقة المذكورة كانت مهدا للأسرة التي أسست المملكة الفرنسية، ولذلك اكتسبت لهجاتها مكانة سياسية خاصة مكنتها من التغلب شيئا فشيئا على اللهجات الأخرى تبعا لتوسع نطاق حكم الأسرة المذكورة.

فكلما دخلت مقاطعة من المقاطعات تحت حكم المملكة الفرنسية كانت تدخل في الوقت ذاته تحت تأثير اللغة الفرنسية، وكانت بهذه الكيفية تتغلب على اللهجات المحلية أولا في المدن ثم باقي المناطق الريفية تدريجيا..

إلا أن ما يجدر ذكره هنا على الخصوص هو أن تلك اللهجات الفرنسية المختلفة لم تنقرض نهائيا من الواقع الفرنسي نتيجة الحركة الفكرية

والأدبية المذكورة.. بل ظلت مخلفاتها محصورة في بعض المناطق الريفية إلى اليوم، وذلك ما استدعى اهتمام رجال الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر لإيجاد الحلول الجذرية لها، صيانة لوحدة الأمة الفرنسية السياسية والثقافية، والاجتماعية(...)

غير أن اللهجات لايمكن أن تزال بين عشية وضحاها بقرارات تتخذها الحكومة، أو بيانات تصدرها المجالس التمثيلية، بل أن زوال اللهجات يتطلب عملا متواصلا وتخطيطا دقيقا محكما ينفذ بصرامة وقد يستمر عدة أجيال بحسب الظروف والامكانات، ولذلك دعا مجلس الثورة الفرنسية جميع المواطنين الى الاهتمام بهذا الامر، أي الاعتناء باللغة القومية المشتركة والتخلي عن اللهجات المحلية الضيقة.. ومن ذلك ماجاء في بيان لقيادة الثورة في أفريل من السنة الثانية لتاريخ الثورة، حيث يقول: «أيها المواطنون فليدع كلا منكم تسابق مقدس للقضاء على اللهجات في جميع أقطار فرنسا، لان تلك اللهجات انما هي من بقايا عهود الإقطاع والاستعباد..»[1].

وهكذا أخذت الثورة تستحث الشعب، ومختلف الدوائر الحكومية والتعليمية، والهيئات العلمية على بذل الجهود المكثفة والجادة، لنشر اللغة الفرنسية الفصيحة وتحقيق الفرنسة الكاملة لأبناء الأمة الفرنسية، وفي هذا المعنى يقول الباحث العربي الأستاذ ساطع الحصري: «عندما أقرت الثورة الفرنسية (مبدأ التعليم الإلزامي العام) رأى رجال الفكر أن تكون مكافحة اللهجات المحلية والعامية من جملة الاهداف التي يرمي اليها التعليم بوجه عام»[2].

(1) عن مجلة «المجمع العلمي العربي»، دمشق، نيسان، 1957.

(2) ساطع الحصري، «آراء وأحاديث في اللغة والأدب، دار العلم والملايين بيروت 1958، ص 72، 73.

والآن فكيف يراهن هؤلاء المخططون المعترضون والواهمون على أن تاريخ انقسام اللغة اللاتينية واندثارها سيعيد نفسه مع اللغة العربية على الرغم من اختلاف المكان والزمان، والأهم من ذلك كله هو اختلاف اللغتين في مقوماتهما الجوهرية.. فما هي هذه الاختلافات الجوهرية التي تميز اللغة العربية عن اللغة اللاتينية المشبهة بها والمقارنة معها؟

الاختلاف الأول:

من المؤكد تاريخيا أن اللغة العربية لم تتعرض –بعد استقرارها في الوطن العربي الحالي– إلى غزوات أقوام غير عرب، فالغزوات التي تعرضت لها فرنسا – مثلا– من جراء انسياح القبائل الجرمانية عليها، فاستيطانها استيطانا كاملا، حمل معه كل تناقضاته اللغوية ليؤثر في اللهجات المحلية المتفرعة عن اللاتينية، والتي أدت بها إلى تعميق هوة الاختلاف بينها وبين اللغة الفصحى الأم.

ولئن تعرضت البلاد العربية في بعض الفترات إلى الوقوع تحت حكم بعض الأسر الإسلامية غير الناطقة بالعربية، فإن هذه الأسر كانت تتعرب وتذوب في المجتمع المحلي، باستثناء الأتراك الذين قاوموا في أواخر عهدهم عملية التمثل داخل المجتمع المحلي، ولكن لم يتمكنوا من القضاء على اللغة العربية لأنها كانت لغة العقيدة التي كانوا يحكمون باسمها، كما أن بني عثمان على الرغم من عدم تعريبهم لبقاء عاصمة حكمهم خارج الوطن العربي، فقد تأثرت لغتهم باللغة الفصحى، أكثر مما أثرت لغتهم في لهجاتها المحلية (راجع الفصل الرابع).

ولعل فشل الأتراك في احتواء اللغة العربية هو الذي جعل أمير الشعراء أحمد شوقي ينصحهم مثل جمال الدين الأفغاني قبل ذلك (كما رأينا في الفصل السادس) بتعلم اللغة العربية واتخاذها لغة قومية لهم لتتم اللحمة

بينهم وبيننا كأمة واحدة، ويكتمل انسجام الوضع القائم الذي ظل مختلا بسبب الاختلاف اللغوي، فقال شوقي سنة 1901 ذلك في بيتين معبرين:

شمل اللغات في الأقوام ملتئم والضاد فينا بشمل غير ملتئم
فقربوا بيننا فيها وبينكـــم فإنها أوثق الأسباب والذمـــم

والحقيقة أن شوقي لم يكن خياليا في دعوته الأتراك إلى أن يتعلموا اللغة العربية.. فقد كانوا في عهدهم الأول يتعلمونها ويتكلمون بها، ويضعون مؤلفات فيها مثل الفيروزابادي، وأبي السعود، وملاخسرو، والجامي، وحجي خليفة، وابن كمال باشا، فضلا عن التأثر الكبير للغة التركية باللغة العربية في الحروف ذاتها وفي العديد من المجالات العلمية والدينية والحضارية لعدة قرون، حتى إلغاء الخلافة في العشرينيات من القرن الماضي، لأسباب لا تخرج في حقيقتها عن مخططات الأعداء للقضاء على وجود الأمة في ذاتها، فضلا عن وحدة خلافتها ولغتها!!.

الاختلاف الثاني:

إن الإسلام ظلّ متلازما مع العربية تلازما كليا طوال تاريخه المديد في الوطن العربي ولم يتخل عنها كما لم تتخل هي عنه إلى اللهجات العامية، مثلما فعلت المسيحية (بمختلف كنائسها) مع اللاتينية في البلاد الأروبية، كما أشرنا في بداية هذا الفصل.

فالإسلام لم يعهد بمهمة تلاوة القرآن الكريم إلى أئمة المساجد وخطباء الجوامع وحدهم (كما فعلت الديانة المسيحية في العالم الروماني) بل فرض حفظ القرآن وسماعه وتلاوته بلغته المنزلة على كل مسلم ومسلمة، (كما بينا في الفصل الخامس وسنبين أيضا بعد حين).

وحتى في الصلوات الجماعية – كما هو معلوم- يتعين على المسلمين أن ينصتوا إلى ما يتلوه الإمام جهرا، ثم يقرأون في سرهم في الركعات التي لا

تتطلب الجهر.. ولقد أدت هذه الواجبات التعبدية الجوهرية في الإسلام إلى إنشاء مدارس وكتاتيب كثيرة لتعليم اللغة العربية وتحفيظ القرآن، وقد ظلت هذه المدارس والكتاتيب قائمة ولم تزُلْ حتى في أحلك فترات السيطرة الاستعمارية الصليبية على أقطار الوطن العربي وخاصة الجزائر[1]. وكان من نتيجة ذلك كله أن أدى بكيفية مباشرة إلى عدم انقطاع المسلمين عامة والعرب منهم على وجه الخصوص عن اللغة العربية، بل ظل يذكّرهم بها ويشدهم إليها شدا مقدسا.. وذلك مالا نجده أبدا في اللغة اللاتينية بالنسبة للمجتمع المسيحي. ولا أدل على ذلك من أن الكنائس المسيحية في البلاد العربية قد تخلت عن اللاتينية إلى اللغة العربية الفصحى، حيث أصبحت الكنائس الشرقية منذ قرون عديدة تعتمد اللغة العربية في الصلوات والمواعظ، كما اعتمدت ترجمة الأناجيل إلى اللغة العربية الفصحى بعد تخلصها من ربقة اليونانية، ولهذه الأسباب كلها ظل اتصال العرب بلغتهم الفصحى اتصالا قويا لم يترك مجالا لتباعد لغة الكلام عن لغة الكتابة تباعدا شبيها بذلك الذي حصل للغة اللاتينية مع ربيباتها الأروبيات.. وظلت الفروق بين الفصحى واللهجات العامية ضعيفة، لا تتعدى الفروق القائمة بين اللهجات بعضها عن بعض لدى العرب المتعلمين، وحتى العرب غير المتعلمين الذين لا يتكلمون الفصحى، يجدون سهولة في فهم الفصحى أكثر مما يجدونها في فهم اللهجات العامية الأخرى(!؟)

وإذا علمنا أن اللغة العربية الفصحى في الوقت الحاضر في طور النهوض والانتشار والازدهار وهي تغزو اللهجات العامية أكثر مما تتأثر بها، نتأكد أن اللغة العربية تسير في طريق التوحد وليس في طريق الاندثار كما حصل للاتينية وهذا ما نلاحظه لدى كل المسلمين الذين يتحدثون اللغة العربية في

(1) راجع كتابنا «مصير وحدة الجزائر بين أمانة الشهداء وخيانة الخفراء!!» دار الأمة الجزائر 2005.

العالم (من غير العرب)، فهم لا يعرفون إلا الفصحى، ونحن العرب نضطر أن نتحدث معهم بالفصحى وحدها، وهم الأكثرية في العالم بالنسبة لأقطار الجامعة العربية الذين لا يزيد عددهم في الوقت الحاضر عن خمس المسلمين في العالم!! خاصة وأن ذلك يتم بدون تخطيط يذكر من الدول العربية لمكافحة العامية ونشر الفصحى بصورة فعالة (على غرار ما فعل قادة فرنسا بعد الثورة كما سبق التفصيل).

فاللغة الفصحى الآن هي لغة القراءة والكتابة والتعليم في المدارس والمعاهد العربية التي تعد بالآلاف، يؤمها طلبة عرب ومسلمون يعدون بالملايين، فضلا عن المدارس والمعاهد التي تؤسس كل يوم في البلدان الإسلامية شرقا وغربا.. إلى جانب الصحافة المنطوقة والمكتوبة التي توزع الملايين من النسخ يوميا باللغة الفصحى في كل الأقطار العربية، يقرأها ملايين العرب، وغير العرب في عصر الأقمار الاصطناعية المتطورة (كعرب سات) وغيرها وحوالي 450 قناة فضائية عربية أخرى (حتى الآن) وصوت العرب، وصوت الوطن العربي، وأجهزة الحاسوب العجيبة بحروفها العربية البديعة، التي حلّت مشكل الكتابة العربية الذي تحدثنا عنه في الفصل الثاني، وكذلك شبكة "الأنترنيت" العالمية، وغيرها مما سيبعث على التوحيد الحتمي للغة العربية في الألسن الناطقة بها!

كما نجد أيضا في معظم الدول العربية (المستقلة) وزارات خاصة بالثقافة والإعلام والتعليم والتربية.. تعمل في مجموعها من أجل تحقيق نهضة اللغة العربية الفصحى.. وإرجاعها إلى سابق عهدها قوة وانتشارا، وخاصة بعد انتشار هذه الفضائيات العجيبة التي قربت الشعوب العربية (أميين ومثقفين) بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ، وهي لصالح اللغة العربية بكل المقاييس!

وأخيرا يمكن القول، وبدون أية مبالغة إن اللغة العربية في طور النهوض التلقائي، وهي إذا لم تفقد نفسها في أحلك ظروف الاستعمار والانحطاط التي مرت بها خلال القرون المتتالية الماضية، فلا يمكن أن تزول بعد أن أصبحت هي اللغة الرسمية في أكثر من ثلاث وعشرين دولة عربية، ولغة معتبرة لدى العشرات من الدول الإسلامية.. وعلى رأسها باكستان وإيران اللتان جعلتاها اللغة الثانية، وأخيراً انضمت إليهما تشاد، والبقية في الطريق حتما (كما بينا في الفصل السابق).

فهل يحق للمعترضين من «المقاولين» العرب، وأسيادهم المستشرقين أن يراهنوا على زوال اللغة العربية لتدول دولة العاميات العربيات كلغات رسمية وتوضع الفصحى في المساجد، ثم المتاحف مثلما وضعت اللاتينية قبلها؟؟

إن الجواب يكون بالنفي القطعي للأسباب التي عرضناها في الفصول الأربعة السابقة.

أما اللغة المشتركة فإن الظروف الخارجية هي التي تحددها. ثم هي ترجع في وجودها إلى انتشار قوة سياسية منظمة، أو إلى تأثر طبقة اجتماعية غالبة، أو إلى تفوق أحد الآداب. واللغة المشتركة مدينة في بقائها إلى أسباب سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو دينية أو ثقافية. وهو كله متوفر للغة العربية منذ ظهور الإسلام، مما جعلها ويبقيها اللغة المشتركة التي لا تتفكك ولا تتفتت إلا إذا زالت العوامل التي أوجدتها أو تراخت العرى التي كانت تمسكها، وهذا لم يحصل ولن يحصل للغة العربية الفصحى أبداً لارتباطها بأرواح الناس!!

وفي ذلك يقول الدكتور علي الغزيوي: «حين نتحدث عن العربية الفصحى لا نقصد تبني الاتجاه القومي، ولا التركيز على الجنس العربي، بقدر ما نريد عربية اللسان، وهي اللغة التي سادت بين أبناء الأمة الإسلامية، أتقنها العرب الذين عرفوا بفصاحتهم، كما أتقنها الأعاجم الذين تعلموها وألفوا بها

وخدموها، ولذلك فلا مجال هنا لأي عصبية عرقية أو جنسية أو قومية أو إقليمية، ولا ميزة للجنس العربي على غيره أبدا في هذا المقام، لأن الأمر ينصرف إلى اللسان العربي الذي اختاره الله عز وجل لقرآنه الكريم.

والواقع أنه يصعب حصر فضائل لغة القرآن الكريم أو تحديد مزاياها، لأنها كثيرة ومتنوعة، ولذلك سنقف عند مجموعة من النماذج التي تبرز فضائلها الكبرى، ومنها أنها:

1- لغة تعبد: إن العربية الفصحى لغة تعبد، لا تجوز الصلاة بدونها، إذ لا تقبل صلاة بغير العربية، وهذا يجعل العبادة في حد ذاتها وثيقة الصلة بحياة الإنسان وواقعه اليومي المعيش، وليست طقوسا تؤدى في يوم معلوم، بطريقة محددة، في مكان خاص، بأي لغة ولو كانت لا علاقة لها بقضايا الناس وهمومهم وثقافتهم، كما هو الشأن بالنسبة للمسيحيين الذين يتعبدون باللاتينية التي تظل معرفتها محصورة في فئات محدودة من الناس، ويظل النص المتعبد به بواسطة تلك اللغة جامدا لا علاقة تربطه بالمتعبد، لا من الناحية الروحية ولا من الناحية المادية أو الفكرية.

ودعاة التغريب يدركون هذه الحقيقة، ويعرفون مكانة العربية الفصحى من الإسلام، ويفهمون أبعاد هذا الارتباط العضوي، ولكنهم يستكثرون انعكاساته الإيجابية الكثيرة على نفوس المسلمين وهم يستعملون هذه الفصحى ويتعبدون بها في الوقت ذاته، ولذلك يسعون إلى إبعاد العربية الفصحى من صدارة اهتمامات أبناء الأمة.

2- وسيلة لربط حاضر الأمة بماضيها:

إن العربية الفصحى وسيلة رئيسية لربط ماضي الأمة بحاضرها، عن طريقها تتمكن الأجيال المتعاقبة من فهم تراث أسلافها، وبها تستطيع أن تتواصل مع إنتاجهم وإنجازاتهم الحضارية، ماديا وفكريا، وبواسطتها تستوعب نظرياتهم،

وتغوص على أسرار تاريخهم، وتصل إلى خلاصات مصنفاتهم، وتستوحي القيم الفكرية الإنسانية النبيلة التي بنوا عليها صرح الحضارة الإسلامية الشامخة المتميزة...»

ثم عن سيادة اللغة العربية وصمودها لعدة قرون بما تتميز به من مقومات ذاتية حباها بها خالقها تحضيرا لاستيعاب كلامه والوفاء بمعانيه السامية، بما يثبت أن العجز في الناطقين بها وليس فيها، يقول الدكتور لغزيوي: «لقد سادت العربية الفصحى خلال عصور متوالية في مختلف البيئات الإسلامية سيادة مطلقة دون أن يرميها أحد بأي تهمة تقلل من شأنها بين اللغات، ولم يثبت أن اشتكى أحد من عيب أو قصور أو عجز فيها، بل كان التنويه كبيرا بإمكاناتها المتعددة، وخصائصها المميزة لها عن غيرها من اللغات بالنظر إلى مكوناتها وقابليتها للاشتقاق، وتعدد مجالات إغنائها، وقدرتها على استيعاب مختلف الحمولات والمعارف، فضلا عن جمالية إيقاعها وموسيقيتها المتميزة...

... والمثير للغرابة والعجب أن الحملات توجه إلى اللغة في ذاتها لا إلى أهلها، مع أن القصور الذي ترمى به ليس راجعا إليها، بقدر ما هو كامن في أبنائها، ولا سيما والإجماع حاصل عند علماء الغرب أنفسهم على أن العربية من أكمل اللغات، ويكفي الاطلاع على مجموعة من معاجمهم كمعجم لاروس، أو معجم لالاند للوقوف على هذه الشهادات.»[1].

وما قيل في اللغة يقال في الخط العربي أيضا، حيث أنه من الغبن والعبث أن يحاول أحد أن يقنع الأقوام الناطقة بالضاد بأن تستعيض عن خطها العربي بالخط اللاتيني الأوروبي. فإن حرفا تكتب به العربية والفارسية والتركية والأردية وغيرها لحقيق أن تستعمله الحروف الناطقة بالضاد، ولا يستطيع الإنسان اختراع

(1) بحث للدكتور علي لغزيوي في ندوة الرباط، حول اللغة العربية إلى أين؟ بتاريخ 1–3 نوفمبر 2002.

حرف قادر على مجاراة التغيرات اللفظية الناتجة عن تغير الزمان والمحيط، وقد أثبتنا استحالة هذا التغيير في الفصل الخامس، لعدم قدرة الحروف اللاتينية وغيرها، على التعبير عن مخارج الحروف القرآنية الحالية والأبدية، ما بقي مؤمن واحد بالدين الخاتم والظاهر على الدين كله فوق الكرة الأرضية!!

وهذا ما يخلد هذه اللغة، كما قال المستشرق الأمريكي رتشارد كوتهيل: «كان للعربية ماض مجيد، وفي مذهبي أنها سيكون لها مستقبل باهر، ولأرباب العلم في مصر وسوريا فضل في إبقاء نورها ساطعا، أما الآن وقد خولوا حرية لم تكن لهم من قبل وأزيح النير التركي الظالم عن رقابهم، ففي استطاعتهم اتباع الخطة التي رسموها لأنفسهم والطريقة الوحيدة التي يجب استعمالها هي طريقة التهذيب، وليس من وسيلة لإشعال النور الذي سطع في الأيام الغابرة وجعل الشعوب الناطقة بالضاد خلفا صالحا لأسلافهم العظام أفضل من درس تاريخ الآباء وآداب الأجداد»(1).

وقال المستشرق اليسوعي الأب لامنس: «إني أثق بمستقبل حسن للغة العربية على شرط أن يتولى الحكم في البلاد العربية رجال ذوو نظر بعيد وأفكار واسعة ووطنية رحبة»(2).

وهو ما يؤكده أيضا المستشرق الأمريكي وليم وارلي في جواب عن سؤال وُجّه له حول هذا الموضوع، فقال: «أما سؤالكم عن مستقبل اللغة العربية، فالجواب عليه أن هذه اللغة لم تتقهقر قط فيما مضى أمام أي لغة أخرى من اللغات التي احتكت بها، وينتظر أن تحافظ على كيانها في المستقبل كما حافظت عليه في الماضي. ولا ريب أن الاحتكاك بالمدنية الغربية سيكون له شأن متزايد في تطور اللغة العربية.

(1) اللغة العربية، الجزء الأول، مرجع سبق ذكره، ص 155.

(2) نفس المرجع، ص 156.

أما عن سؤالكم حول بقاء اللغة العربية واحدة أو تحولها إلى عدة لغات، فالجواب عليه أن اللغة العربية الفصحى ليست حية في أفواه الشعوب العربية(*) . ومع ذلك لو استطاع أحد أن يجعلها جميعا تتكلم بها، فإنه يأتي بذلك أمرا ليس له مثيل في تاريخ العالم »(1) .

ويعضد ذلك الأستاذ محمد كرد علي (رئيس المجمع العلمي العربي في دمشق) بقوله: « فإن التركية في الماضي القريب كادت تقضي عليها (يقصد اللغة العربية)، في دمشق وبغداد، بل في مكة والمدينة، وها هي الآن تنشط من عقالها والنفوس ترغب في تحصيلها والمتعلمون يفاخرون بإتقانها، وستدرس بها جميع العلوم العالية، فتحسن دراستها وتزيد مرونة لقبول الأوضاع الجديدة لأنها لم تتعاص على ذلك، وهي في إبان بعثتها فكيف بها تتعاصى في هذا القرن وهي ترى العلوم تزيد والألفاظ والمسميات تكثر، ولعله لا يمضي قرن أو قرنان حتى تتوحد اللهجات العامية لأن الفصحى آخذة بالتغلب عليها »(2) .

وعن مستقبل اللغة العربية، على ضوء ماضيها الذي مرّت فيه على مراحل كبرى، لم تزدها الأيام والمحن فيها إلا قوة وصلابة، كما قال الأستاذ محمد كرد علي، يقول رتشارد كوتهيل أيضا: « ومما لا ريب فيه أن الانقلابات الناجمة عن الحرب الكبرى سيكون لها شأن في تقريب البلاد العربية وأبنائها على اختلاف مللهم ونحلهم وتكوين ما نسميه نحن الأوروبيين (مدنية)، وسوف يتيسر للمدنية الأوروبية إحداث تغيير شديد في اللسان العربي على أن اللسان العربي

(*) يقصد أن اللغة المكتوبة غير اللغة المتداولة شفهيا في إطار الثنائية الواقعة بين العامية والفصحى، وقد تحدثنا مطولا حول هذا الموضوع في الفصل الثاني. وحول هذا يقول مصطفى صادق الرافعي: «بيد أن العربية لا يأتي لها بحال من الأحوال أن تغلب على كل اللهجات العامية وتستغرقها وتأخذها بدين التوحيد، فما ذلك في طبيعتها، ولا هو في طبيعة الناس».

(1) اللغة العربية، الجزء الأول، مرجع سبق ذكره، ص 158.

(2) نفس المرجع، ص 163.

والآداب العربية ستحتفظ بكيانها في المستقبل كما احتفظت به في الماضي. فهذه هي المرة الثالثة التي احتكت فيها بمدنية أخرى وعادت سالمة. ففي صدر الإسلام احتك الدين الجديد والنهضة الجديدة وآدابها بحضارة العصر اليوناني اللاتيني الذابلة، واستفادت فائدة جليلة، إلا أنها لم تغلب على أمرها، ولما اجتاز العرب بوغاز جبل طارق وحلّوا بإسبانيا وجنوب فرنسا تم التلامس للمرة الثانية وذلك مع المدنية الغوتية، ولكن العرب لم يقهروا بل تقهقروا إلى إفريقيا تاركين في إسبانيا أكثر مما أخذوا منها، فمن الواضح أن الينابيع التي استمدت الآداب العربية وحيها وإلهامها منها لم تكن ناضبة.

وفي مذهبي أن نتيجة الاحتكاك الثالث الذي نحن بصدده الآن ستكون مثل نتيجته في المرتين الأخريين مهما تكن التغييرات السياسية. فربما بسطت فرنسا حمايتها على سوريا وبريطانيا العظمى تولت المحافظة على مستقبل جنوبي ما بين النهرين، غير أنه لا يعقل أن تحل اللغة الفرنسية أو الأنجليزية محل اللغة العربية!

وإن شعبا له آداب غنية متنوعة كالآداب العربية، ولغة مرنة ليّنة ذات مادة تكاد لا تفنى، لا يخون ماضيه، ولا ينبذ إرثا اتصل إليه بعد قرون طويلة عن آبائه وأجداده.»[1].

وعن قدرة اللغة العربية على التكيف مع مستجدات المستقبل، يقول مصطفى صادق الرافعي: «إن تأثير التمدين الأوروبي والروح الغربية في هذه اللغة، لن يكون إلا على السابقة التي سلفت من تأثير علوم الفرس واليونان وغيرهم، ولا ضرر منه على اللغة العربية، فهي قوية متينة تحمل ذلك، وتستلحقه وتأتينا به مستعربا، وإن نبت في لندن وباريس وبرلين وغيرها كما جاءت بمثله من قبل. وما دام فينا حفاظ ونزعة صحيحة فلا نخشى على لغتنا

(2) اللغة العربية، الجزء الأول، مرجع سبق ذكره، ص 153.

ضرورة من الضرورات، لأن في كل تاريخ حي ممرا لمثل هذه الضرورة تبدأ فيه من جهة وتنتهي منه في جهة...»[1].

ولكون اللغة العربية لغة مشتركة ولغة أمة، كُتب لعلة وجودها وحافظ لسانها الخلود في الوجود (راجع الفصل السادس)، فإنها تحافظ على بذور بقائها في ذاتها بما يضمن مستقبلها، كما يقول الدكتور بشير فارس: «...غير أن أحوال الجماعة وذهنيتهم وأساليب نطقهم ماتنفك تتحول عن مواضعها على مر القرون،فتتحول اللغة معها جميعا، والسبب في ذلك التحول يرجع إلى عوامل كثيرة، منها لغوية فيدخل تحتها القياس، ومنها تاريخية فيندرج فيها علاقات الجماعات بعضهم ببعض بين فتح وجلاء ومتاجرة، ومنها سياسية بين تقدم لهجة على إخواتها وإتحاد الأمة أو تفرقها، ومنها حضرية بين انبساط مذاهب العمران واتساع ألوان الترف وانتشار العلوم والصناعات ونشوء المدارس والصحف، فضلا عن الأسباب المقصورة على النطق وأجلها شأنا ميلنا إلى إرسال الكلام في أقل جهد باجتناب مايثقل على اللسان»[2].

ومهما يكن من أمر فإن إيماننا لا يتزعزع بأن اللغة العربية ستبقى شامخة وعزيزة في قلوب أبناء هذه الأمة ماداموا وطنيين مسلمين، وستزداد انتشارا ورسوخا مع كتابها المقدس حتى ولو زالت بلادهم من الخريطة الجغرافية على غرار ما يفعل الروس في الشيشان اليوم، وعادت بلاد المغرب والمشرق بمخططات الأعداء (وتواطؤ الوكلاء والعملاء) مرة أخرى إلى الخريطة الفرنسية والأنجليزية والإسبانية، فإن لغة السماء ستظل باقية وخالدة رغم كل الأعداء!

ولا سيطرة للفرنسية والأنجليزية على اللغة العربية عالميا، لأن رقعة انتشارها في العالم ليست محصورة –فقط– في هذه البلاد العربية المذكورة في عداد البلاد الفرنكفونية المقهورة (إداريا وسياسيا كما هو واقع!)، وذلك

(1) نفس المرجع السابق، ص 171.

(2) اللغة العربية، القسم الثالث، مرجع سبق ذكره، ص 134.

لكون هذه اللغة موجودة قبل وجود هذه الدول وباقية بالتالي بها وبدونها، لارتباطها بكلام الله الخالد وبإرادته الحافظة وليست مرتبطة (لحسن تدبير الخالق القدير) بإرادة أي مخلوق على وجه الأرض، كما أنها لغة 300 مليون ناطق بها رسميا على الأقل في العالم العربي وما ينيف عن المليار ونصف المليار من المسلمين عبر كافة قارات المعمورة، يتعبدون بها روحيا، ويقدسونها دينيا، ويحبونها كالصلاة ويتذوقونها كالشعر والحياة، من تومبكتو وكانو ونجامينا ونواقشط وداكار... إلى طهران واسطمبول وكابول وإسلام أباد وجاكرتا ولاهور وكوالالمبور... (كما أثبتنا في الفصل السابق).

وإذا نحن عرفنا الله وعبدناه بالإسلام **﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾** (آل عمران/ 19) **﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾** (آل عمران – 85) فمن البديهي القول أن لا إسلام بدون قرآن ولا قرآن بدون اللغة العربية التي تمثل الوسيلة الأولى لفهمه وغايةً لعبادته في الوقت ذاته... فلا فهم للإسلام بدون معرفة اللغة العربية و لا حتى الدخول فيه إلا باللغة العربية كما هو محدد شرعا بالنسبة للنطق بالشهادتين، وما لا يتم الواجب إلا به يعتبر واجبا (كما يقول ابن تيمية) ويمكن أن نقيس على ذلك فنقول بأن ما لا يتم إرضاء المحبوب إلا به يصبح حبه أكثر من ضرورة، وإذا كان من الممكن أن نعرف شيئا دون أن نحبه فإنه بإمكاننا أن نحب شيئا ونؤمن بوجوده دون أن نراه أو نلمسه...

فنحن نحب الله دون أن نراه ونؤمن أنه يرانا، ونحب النبي محمدا ﷺ دون أن نكون من أصحابه أو معاصريه! ومن المعلوم أن أعلى درجات الإحسان هي أن تحب الله كأنك تراه (...)

وإذا كان حب الله من الإيمان بوجوده فإن حب العربية هي بالضرورة من حب الله، لأنها هي الوسيلة الوحيدة التي تمكن من معرفة كلامه وبالتالي إلى إرضائه

بعبادته، وهذا بنص كلامه الذي أمر به وحدده في كتابه بأفصح عباراته: **(فإذا قراناه فاتبع قرآنه)** (القيامة/ 18) **(ورتل القرآن ترتيلا)** (المزمل/ 4)، وكما ورد في الحديث الشريف أيضا عن النبي ﷺ قوله: «خير الذكر تلاوة القرآن» و «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» وهذا من جوهر العقيدة، لأن كلام الله مجسد ومحدد في عبارات بعينها، فلا دخول في الإسلام بدون النطق بشهادة أن: «لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» ولا تصح هذه الشهادة شرعا بدون نطقها بنصها العربي، دون سواه، والقول نفسه ينطبق على تلاوة القرآن نصا في الصلاة(...)

وهنا تنتقل اللغة العربية من لغة للعرب وحدهم (كشعب وقوم)... إلى لغة للأمة الإسلامية قاطبة: **(وإن هذه أمتكم أمة واحدة و أنا ربكم فاتقون)** (المؤمنون – 52) فالعربية من هذه الناحية هي مع دينها فوق جميع القوميات والأوطان والأجناس في العالم(...)

فمثلما أن الإسلام دين عالمي، فالعربية لغة عالمية لكل إنسان مسلم على وجه الأرض، دون أي تناقض أو تعارض بين التعايش اللغوي (الوطني والرسمي بين مواطني أية دولة في العالم) والتعايش اللغوي التعددي والتعبدي الديني باللغة العربية، لأي مسلم في العالم **(وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا)** (سبأ/ 28).

إن اللغة مثل العملة، ومثلما يمكن تعايش عملة محلية مع عملة عالمية أو دولية، يمكن أن تتعايش لغة محلية ووطنية مع لغة عالمية مثل الدين السماوي (العالمي) المرتبط بها والمرتبطة به ارتباطا عضويا كما هو مبين بالنص القرآني، واليقين الإيماني!

فمثلما ينص القرآن على أن لا إسلام بدون التلفظ بالشهادتين، ينص كذلك على أن لا طاعة لله بدون صلاة (وهي الركن الأساسي في الدين) ولا صلاة بدون قرآن، أي بدون تلاوة النص العربي حرفيا (بالفهم أو بدون فهم)، وهذا مصداقا لقوله تعالى: **(ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر)** (القمر/ 17)

وهو ما نلمسه كمعجزة من معجزات هذا الكتاب الذي لا تنقضي عجائبه، حيث أن أي شخص في العالم يمكن أن يحفظ القرآن ويتلوه دون أن يفهم أي معنى من معاني عباراته، في حين أن أحداً لو يترجم له هذه الآيات بلغته القومية فقد لا يحفظها مثلما يحفظ القرآن، رغم فهم معنى الكلمات عن طريق الترجمة، وهذا من أسرار هذا الكتاب الرباني والبياني المعجز إلى يوم الدين، كما سنبين بعد حين وهذا من فضل الله على عباده، والدليل على ذلك أن هناك من الأطفال من يحفظ كتاب الله عن ظهر قلب، ويحصل على جوائز دولية، دون أن يعرف تكوين جملة واحدة سليمة باللغة العربية! وهذه التجربة، كما يعرف الملايين من المسلمين تتكرر كل سنة في المسابقات الدولية للقرآن الكريم في كل أقطار العالم الإسلامي!!

ونعتقد أن الله عز وجل قد أوجب على المسلم الصلاة باللغة العربية وحدها دون أن تقبل إقامتها بأية ترجمة أخرى، لأن معاني القرآن الكريم لا يدركها بشر، وإذا كنا نعرف ما حدثنا الله به عنه وعن الإنسان وغيره كما يتبين من حواراته مع إبليس ومع آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء والمرسلين... فإنه لا يمكن لأي إنسان أن يترجم عن الله إلى أية لغة بشرية، لأن في القرآن آيات: **(هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ، فيتبعون ما تشابه منه إبتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله)** (آل عمران/ 7) فالمحكمات للعبادة، والمتشابهات للإعجاز، وإعمال العقل من المهد إلى ما بعد اللحد! ولقد برهن العلم في هذا القرن بالذات على أن القرآن بالفعل هو منجم لا تنقضي عجائبه في كل جزئية من جزئيات هذا الكون بما فيه جسم الإنسان ذاته، مصداقا لقوله تعالى: **(سنريهم** [في المستقبل] **آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)** (فصلت/ 53).

ولذلك يصرح الله حول هذا الموضوع بقوله عن المتشابه في الآية ذاتها: (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا، وما يذكر إلا أولو الألباب) (آل عمران/ 7) .

وإن الترجمة تفرض التأويل، وما دام التأويل مستحيلا بنص الآية ذاتها (وما يعلم تأويله إلا الله) فالترجمة مستحيلة أيضا. ومن ثمَّ فلا يبقى إلا تلاوة كلام الله بلغة التنزيل التي اختارها المنزل لكتابه ما دون (6700) لغة في العالم، والتي يعتبر اختلافها ذاته أية من آيات الله في الكون كما قال: **(ومن آياته خلق السموات والأرض و اختلاف ألسنتكم وألوانكم)** (الروم/ 22) .

وما دام كلام الله كله متعبدا به، فإن الترجمة إن أمكنت بالنسبة للآيات المحكمات، وهي قليلة في القرآن، فإن المتشابهات لا يمكن ترجمتها على الإطلاق، بحكم قوله في الآية 7 من سورة آل عمران الآنفة الذكر والآية 23 من سورة الزمر، حيث يقول: **(الله نزّل أحسن الحديث كتابا متشابها مثّاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد)**، حيث تبين نوعا من هذا الإعجاز الأبدي للقرآن الكريم من حيث كونها نطقا ثم لفظا ثم كلاما ثم حديثا ثم قولا. فلماذا هو أحسن الحديث؟ لأنه كتاب متشابه أولا ومثاني ثانيا. وكل ما يشكل تفسيره لكونه يحتمل عدة معاني فهو متشابه، وكل ما يحتمل معنى واحد فقط فهو المُحكم وهو المفسر. أما المتشابه فباب التأويل فيه يظل مفتوحًا إلى يوم القيامة، وما من كتاب على وجه الأرض تجد في عبارته أو جمله أو آياته من المعاني المتعددة كخزين لا ينفد عطاؤه في الزمان والمكان إلا القرآن. ولقد أراد الله تعالى أن يجعل المعاني متواصلة إلى أن تقوم الساعة، ونحن نعلم أن البشرية تترقى كل يوم في علومها ومعارفها و اكتشافاتها، ولو قارنا بين عصر الرسالة وعصر اليوم لوجدنا

الفرق شاسعا من حيث المعرفة والمعلومات. فالآية الواحدة يجب أن تعطي معاني بنسبة أقل أو أكثر على اختلاف مستويات السامع واختصاصه ومعارفه. فالمسلمون في عصر الرسالة حيث كانت الأمية متفشية فهموا من الآيات ما ناسب علمهم ورأوا إعجاز القرآن وفصاحته وعظمته وآمن المشركون لقوة بيانه وبلاغته لأنهم كانوا أهل لغة وفصاحة وبيان. ثم جاءت الأجيال بعدهم فاكتشف كل جيل معاني مختلفة تضاف إلى ما اكتشفه السابقون في العصر الأول.

وفي القرآن الكريم تشابه لفظي ومعنوي وإعجازي ومعرفي وعلمي جعل عجائبه لا تنقضي إلى يوم القيامة وجعله لا يخلق عن كثرة الردّ، بحيث سيكتشف كل عصر في آياته ما يناسب علومه وهكذا إلى قيام الساعة.

إن العبادة هي علة وجود البشر، بنص قوله تعالى: **﴿وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون﴾**، وخاصية النطق والبيان، عن مكنون الأذهان، هي سمة جوهرية فارقة ومميزة للإنسان عن الحيوان، كخاصية الاعتقاد والإيمان بالغيب، والقدرة على تجريد المعاني الكلية من المحسوسات والتعبير عنها بالكلمات، التي يعجز عن القيام بها كل ما دونه من المخلوقات... فإن أول رسالة للبشرية بدأت بالخطاب، بدليل أن أول إنسان علم البيان ولقن الأسماء ووهب اللسان، كما يتجلى ذلك في قوله تعالى: **﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾** (إبراهيم / 4).

وفي ذلك دليل على أهمية تبليغ الرسالات، ومنهج السماء الذي جاء به الأنبياء والمرسلون، ودور اللسان الذي يمثل الأداة الأولى في الخطاب، والمقصود باللسان في القرآن هو اللغة وحاسة الذوق في الوقت ذاته، كما تعبر عنه الآية: **﴿ولسانا وشفتين﴾** (البلد/ 9) .علما أن لفظ "اللغة" لم يرد ذكره في القرآن أبدا، وقد أتى ذكرها دائما متضمنا في لفظة "اللسان" كما هو واضح في الآيتين المذكورتين **﴿ولسانا وشفتين﴾** و**﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾**.

وهذه الآية الأخيرة تدل على أن الله سبحانه وتعالى يهدف من وراء إرسال الرسل بألسنة أقوامهم إلى التأكيد على أهمية الخطاب، ودور اللسان في الجدل بالحجة العقلية والبرهان والإقناع بالمنطق، والإفهام والشرح من باب « خاطب الناس بما يفهمون » عن طريق الرسول الذي يبعث من بينهم وبلسانهم... حتى لا يقولوا لم نسمع الكلام، أو لم نفهم لغة الخطاب، ولذلك جعل الله الرسل من البشر وجعل العنصر الإنساني والعنصر اللساني أو الخطابي، هما جوهر الرسالة الربانية في ضبط وتبليغ التكليف للبشرية، لأداء المهمة التي خُلقوا من أجلها، وهي العبادة والاستخلاف.

كما أن كل ما أنزل في القرآن وما أرسل من رسل كان مبنيا على التبليغ بالكلام، بدليل أنه لم يبعث رسولا فاقدا لحاسة السمع والنطق، لكون رسالة الرسول الأساسية هي البلاغ، بنص قوله تعالى: ﴿**وما على الرسول إلا البلاغ**﴾ (العنكبوب/ 18) و﴿**إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر**﴾ (الغاشية / 22) وقوله: ﴿**وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى**﴾ (النجم / 3، 4).

وهل يوجد بلاغ للشعوب والأمم بغير الوسيلة الأولى للتبليغ، وهو الخطاب الشفاهي أولا، ثم المقروء بعد تقدم البشرية واختراع الحروف، مثلما هو معمول به في القرآن الكريم. والدليل على أنه خطاب رباني يدعو إلى التعقل والتدبر والاستنباط والاقتناع والإقناع بالحجة العقلية والبرهان، نلمسه في ثلاث آيات معبرة عن دور الخطاب القرآني وأهميته في التأثير على النفوس والأذهان.

أولا: قوله تعالى في وصفه لموقف المشركين من القرآن الكريم بأنهم كانوا: ﴿**وهم ينهون عنه وينأون عنه**﴾ (الأنعام / 26) ينهون عنه الناس مخافة أن يتأثروا بخطابه الآسر، وبحجته القوية المفحمة التي لا يقدرون على دحضها... وينأون عنه وهم أرباب الفصاحة والبيان، خوفا على أنفسهم من

عدم القدرة على مقاومة التأثر به... كمن يبتعد عن النظر إلى أشعة الشمس الساطعة في وضح النهار، مخافة فقدانه حاسة الإبصار!!

ثانيا: قولهم: ﴿**وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون**﴾ (فصلت/ 26) وهم بذلك يقرون بأن الغلبة التي يطمعون فيها ليست بنفس الحجة والوسيلة التي برعوا فيها وتحداهم الله بها، وهي الفصاحة والبيان، كما يظهر ذلك في وقوله تعالى: ﴿**قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا**﴾ (الإسراء/ 88)، فقد تحداهم أولا بأن يأتوا بعشر سور مثله إن كانوا يرون أنه مفترى، بقوله: ﴿**أم يقولون افتراه، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنّما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون**﴾ (هود/ 13، 14)، فلما انقطعوا وقامت الحجة عليهم تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله وأخبر أنهم لن يفعلوا، حيث قال: ﴿**وإن كنتم في ريب ممّا نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتّقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدّت للكافرين**﴾ (البقرة/ 23، 24). ويشمل هذا التحدي قصار السور كما يشمل طوالها... ومن المعلوم أن العرب لم يحاولوا أن يفعلوا ذلك! فقد كانوا يعلمون عجزهم عنه، ورأوا أن سبيل الحرب والدماء وتجميع الأحزاب أيسر عليهم من مقابلة تحدي القرآن!!

وإننا نعتقد جازمين أن لو وجد الكفار في الخطاب القرآني شيئا مما ينفر الناس منه، ولا يجذبهم إليه... لحثوا هم أنفسهم الناس على سماعه ليتخذوا منه حجة عليه، ولكن نهيهم الغير عن سماعه والنأي عنه، ثم الأمر باللغو فيه، للحؤول دون سماعه الجيد من الغير، لدليل على إدراكهم لخطورة تأثيره على

عقول أتباعهم. وهو تأكيد لمصداقية قوله تعالى: **﴿إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾** (يونس / 67) والسمع هنا أتى بمعنى العلم والعقل... مثل كلمة (انظر) التي تأتي بمعني (أعقل وأعلم وتدبَّرْ...)

إن اصطدامهم بهذه الحقائق كلها دفعهم إلى التخلي عن مجابهة القرآن في ذاته والتصادم معه بسلاحه واللجوء إلى صب جام غضبهم وحقدهم على متلقيه ﷺ، وإن ترشيحهم لعظيم من "عظمائهم" لينزل عليه هذا القرآن(...) لدليل على أن رفضهم وغضبهم وسخطهم كان على المنزل عليه وليس على المخاطبين به في ذاته، بعد أن فشلوا في محاربته بمادة خطابه من الألفاظ والحروف والكلمات، فعمدوا إلى محاربته بالسنان والحراب والدسائس والمؤامرات والتحالفات مع اليهود، ونقض العهود...

فنحن الآن نسمع عن فعل الرسول ﷺ ولا نراه، ونسمع عن معجزات الرسول وكل الأنبياء الذين بعثوا من قبله، بالخطاب القرآني فقط، دون أن نراها، ولسنا مكلفين بالإيمان بها أصلا، ولا نؤمن إلا بمعجزة الرسول الخاتم الأعظم، فهي معقولة ومسموعة ودائمة وقائمة بالبرهان العقلي الصامد المتحدي للإنسان في كل زمان ومكان. وإن هذا الطابع المحلي والمرحلي الخاص بالأنبياء السابقين، هو الذي بينه الله في القرآن بإعطائه صفة الشمولية في الخطاب الخاص الموجه لكل البشرية بقوله: **﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا﴾** (سبأ / 28) و**﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا﴾** (الأعراف/ 158) و**﴿يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم...﴾** (يونس/ 104). بدليل أن كل الأنبياء والمرسلين السابقين نادهم الله بأسمائهم الشخصية (يا آدم)، (يا نوح)، (يا صالح)، (يا هود)، (يا إبراهيم)، (يا لوط)، (يا شعيب)، (يا موسى)، (يا هارون)، (يا يحيى)، (يا عيسى)... إلا محمد ﷺ فقد

خاطبه الله دائما ب: ﴿**يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال**﴾ (الأنفال/ 65)، و ﴿**يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته...**﴾ (المائدة / 67).

ومن الأمثلة الواضحة على أهمية الخطاب القرآني في حياة الكائن الإنساني هو جعل الله الرسالات السماوية متدرجة في معجزاتها من الملموس والمنقول إلى المجرد والمعقول، وإن جوهر الإيمان في الحقيقة لا يكون إلا غيبا، والغيب لا يكون إلا مجردا ومعقولا، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿**ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب...**﴾ (البقرة / 1، 3) ...

وإذا كانت الحواس تخاطب بالمادة المحسوسة والملموسة، فإن العقول لا تخاطب إلا بالمعقول المجرد وحده ولا وسيلة لنقل المعقول وتبليغه إلى السامع إلا بالقول والكلمة التي تخرج من العقل باللسان إلى الأذن والفؤاد عن طريق التبليغ بالقول المعقول (مسموعا أو مكتوبا أو مقروءا أو منقولا) ومن دلائل ارتباط الإسلام بالسمع والخطاب القرآني والبياني المعجز والمقنع للذين يؤمنون بالغيب عقلا فقط، (والتكليف كله مناط المعقول المقول منه والمنقول) هو اكتفاء الله تعالى في تبليغ الدين الخاتم بالخطاب وحده في قوله: ﴿**وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه**﴾ (التوبة / 6) بما يعني أن في الخطاب القرآني وحده ما يكفي لإقناع العقل السليم فطريا بالحق، فيتبعه دون أن يدعم بأية معجزة مادية أخرى... وأن السماع هنا وحده يكفي لإقناع الإنسان برسالة السماء في القرآن، بما فيها من حجة وقوة إقناع وبرهان، وتأثير في النفوس والعقول السليمة هو الخطاب الواضح الذي يتمثل في قوله تعالى: ﴿**حتى يسمع كلام الله**﴾ ولم يقل حتى يرى أو يشاهد آية الله المادية، لأن المادة محلية ومرحلية وفانية، أما الكلمة فهي الخالدة الباقية أبد الدهر.

وعن حتمية بقاء اللغة العربية وصمودها الأبدي لارتباطها بالدين الخاتم الذي ارتضاه الله لعباده، يقول الأستاذ سعيد العرفي: «إن هذه اللغة العربية القيّمة، بسبب المزايا التي ذكرناها سابقا، قد جعلها الله اللّسان العام للذين يدينون بالشّرع الإسلامي، ويتّبعون محمّدا ﷺ، لذلك أوجب تعلُّم جزء منها على جميع المسلمين.

وهذا يدُلُّكَ على أن لها مكانةً ساميةً عند الشارع، ولقد بلغ من اهتمامه بها أن افترض لأجلها قراءة القرآن في الصّلوات، الفرائض والمندوبات. ومن المعلوم أنّ القرآن لا يصحُّ أن يقرأ بغير اللغة العربيّة، كما أنّ ممّا لا يجهله أحدٌ، أنّ كلَّ مسلم عاقل بالغ، تجبُ عليه الصلاة، لا فرقَ بين ذكر وبين أنثى، وسواء أكان حرّا أم عبداً.

فإذا تعلَّم المسلم مقدارا من القرآن، فإن ذلك يسوقُه إلى تعلُّم القرآن كله. فمعرفته اللغة العربية، تعلّمُه الأحكام الإلهية وخطابَ الله تعالى له بالأوامر والنواهي، لأنّ هذا هو المقصود من قراءة القرآن. ولذلك عابَ الله على من أغفل تدبُّرَ آياته، فقال: ﴿**أفلم يدّبّروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأوّلين**﴾ (المؤمنون/ 68)، بل حثَّ الله على التدبُّر الذي جعله سببا لنزول القرآن، قال تعالى: ﴿**كتابٌ أنزلناه إليك مبارك ليدّبّروا آياته وليتذكّر أولو الألباب**﴾ [ص/ 29]، وممّا لا نزاع فيه، أن تدبر قوله أو فهمه يقتضي معرفة تلك اللغة التي صدر فيها. فلذا يستفاد من هذه الآية الكريمة صراحة وجوب تعلم اللغة العربية نطقا وفهما، وما ذاك إلا لأن لغة القرآن هي اللغة الجامعة للشعوب الإسلامية، والمقربة بينهم في التفاهم والتخاطب، كما قلنا.

إن الدين الإسلامي جاء لدعوة جميع الخلق، لا فرق بين شعب وآخر، ولا بين عنصر وغيره. وإن في الدعوة إليه والدخول فيه الاستفادة من مزاياه

السامية، يتساوى فيها الأبيض والأسود، كما يتساوى في أحكامه العادلة أبناؤه وأعداؤه. لذلك ألزم الداخلين فيه، المؤمنين به، القائمين بأحكامه، تعلم اللغة العربية والنطق بها في أعز الأماكن وأشرفها، وهو الوقوف بين يدي الله تعالى، لأداء العبودية، ولم يتقبل عبادتهم (ما داموا قادرين على النطق والتعلم) إلا بقراءة كلامه تعالى، الذي كان برهانا ساطعا على شرف اللغة العربية التي اتسعت له.

وإنما جعل الشارع للمسلمين لغة واحدة عامّة (مع عدم إجبارهم على ترك لغاتهم الأصلية طبعا) كي يتحقق الحديث الشريف الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحهما عن النعمان بن بشير قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى». والحديث المروي عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضا».

فلأجل الوصول إلى هذا المقام الشريف، الذي كان أعظم سبب لنجاح الإسلام وتفوق المسلمين على غيرهم من الأمم، وإخضاعهم كل شعب وقف عقبة في سبيل الدعوة الإسلامية، أو قام بالخصام ضدها، يجب أن يكون لذلك الجسد لغة خاصة، تكون سبب تقارب تلك الأعضاء في التفكير وتوحيد المسعى، إذا ما أبعد بينها المكان أو اللغة أو غير ذلك»[1].

ولهذا السبب وغيره في اعتقادنا، يتكالب كل الأعداء على هذه الأمة، فأوجدوا لها زعماء للتغريب (من داخلها) قصد ضرب الإسلام باللائكية، وعملاء للتذويب والترهيب (الفرنكوفوني والأنجلوفوني)، قصد ضرب العربية في أعماقها، إدراكا منهم بأن العلاقة بين الإسلام والعربية هي علاقة عضوية ربانية مثل علاقة الروح بالجسد، وعلاقة الإسمنت بالماء.

(1) اللغة العربية، القسم الأول، مرجع سبق ذكره، ص 257.

فضرب الإسلام يُضعف العربية، وضرب العربية يُضعف الإسلام، ومثلما لا يمكن فصل الروح عن الجسد دون وفاة الشخص، فلا يمكن أيضا فصل الحروف العربية عن ألفاظها دون ضياع المعاني القرآنية السامية، هذه هي الحقيقة التي فصّلنا الحديث عنها في هذا الكتاب والتي لا نمل تكرارها والتأكيد عليها مدى الحياة، لأنها هي الحياة!!

وأضيف هنا في هذا السياق ما قلته منذ ست سنوات في كتابي (اشهدي يا جزائر)[1] «بأن هناك أربع لغات سيكتب لها البقاء والخلود في الوجود وتسود العالم في المستقبل أكثر من غيرها، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهي الصينية (بحكم الديموغرافيا)، والأنجليزية (بحكم السياسة والتجارة والتكنولوجيا)، والإسبانية (بحكم الجغرافيا)، والعربية (بحكم تعاليم الدين الإسلامي الحنيف وشريعته السمحاء) .

وإذا تحقق الاستقلال الحضاري والشخصاني الذي تطمح إليه كل الشعوب الإسلامية وتجاهد طلائعها من أجله، فستصبح العربية لغة علوم وتقنية وحضارة راقية مثلما كانت لعدة قرون (من دمشق وبغداد وقرطبة وبجاية وتلمسان والمهدية والقيروان إلى القاهرة وطاشقند وسامرقند...)، زيادة عن كونها لغة عقيدة ورسالة سماوية خالدة مرتبطة بالعالم العلوي، الذي لا دخل للمخلوق في شأنه، ينيف معتنقوها في الوقت الحاضر عن عدد سكان الصين ذاتها!! ومنتشرة جغرافيا مع الإسلام في جميع قارات الكرة الأرضية بكيفية تفوق انتشار اللغة الإسبانية أيضا بأضعاف مضاعفة! (أنظر خريطة اللغات في العالم، في الملحق رقم 1)، حيث تبلغ مساحة العالم الإسلامي أكثر من 32 مليون كيلومتر مربع!!

وإن هذا الكلام الذي أثبتناه بنصه هذا لأول مرة، في كتابنا المذكور الصادر سنة 2001، قد أكدته دراسة مستقبلية حول خريطة اللغات في

(1) دار الأمة، الجزائر 2001، (المقدمة).

العالم، قامت به العالمة الأمريكية «كوليت غرينفالد» العضوة بمنظمة اليونيسكو جاء فيه: «أكدت العالمة اللغوية كوليت غرينفالد العضوة بمنظمة اليونسكو في حوار نشر بجريدة "لوموند" يوم 31 ديسمبر المنصرم (2005) على أنه في العام 2050، ستصبح عشر لغات هي الأكثر انتشارا في العالم، وهي: الصينية ثم الهندوأوردية، والعربية، والإنجليزية، والإسبانية، والبرتغالية، والبنغالية، والروسية، واليابانية، والمالية!»[1].

للغة العربية علاقة بالذات والشخصية والهوية الثقافية بالنسبة لجميع المسلمين فضلا عن العرب بدليل أن كتابة "حلال" في كل المطاعم والقصابات في العالم الإسلامي باللغة العربية هي موجهة للمسلمين أساسا وليس للعرب وحدهم الذين ليسوا كلهم من أتباع الدين الخاتم، بنص القرآن ذاته **﴿لا إكراه في الدين﴾** (البقرة / 256)، وهذا هو الحاصل مع العرب من الباقين على دين موسى وعيسى عليهما السلام **﴿ولكل جعلنا شرعةً ومنهاجا﴾** (المائدة / 48)، لكن مع ذلك تكون العربية لهؤلاء غايةً مثل الهوية والسيادة الوطنية والقومية، أما المسلمون من غير العرب، فتمثل لهم اللغة العربية وسيلة ذات طابع مقدس، بدليل أن المسلم لا يرتاح للحلال إلا إذا كان مكتوبا بلغة الحلال، في كل مكان من هذا العالم! من طوكيو وبكين وموسكو إلى باريس ولندن وروما ومدريد وواشنطن وميلبورن ...![*].

(1) نقلا عن جريدة «الشروق اليومي» الجزائرية في 2006/01/15.

(*) لعل من المؤشرات التي يجدر التذكير بها هنا والدالة على هذه العلاقة العضوية الرابطة بين الإسلام واللغة العربية، أن العالم كله قد شاهد جماهير الشعب الكوري وهي تناشد في الأيام الماضية جماعة «طالبان» الأفغانية بإطلاق سراح الرهائن الكوريين «المنصرّين» المختطفين لديها... أن الشعارات واللوائح الموجهة لطالبان كانت محررة باللغة العربية، مع أن لغة هؤلاء الأفغان هي «الپاشتونية»، التي تمثل إحدى اللغات الأربع التي تتحدث بها الأعراق المكونة للشعب الأفغاني المسلم، كما هو معلوم (انظر كتابنا الصراع العرقي والديني واللغوي في العالم، دار الأمة، الجزائر 1996.

وذلك لأن محمدا العربي ﷺ بعث للناس كافة وليس للعرب وحدهم كما قلنا، بدليل أن عمه أبا لهب ظل كافرا خارج الأمة، ودخل صهيب (الأوروبي) وسلمان (الأسيوي) وبلال (الإفريقي) في أمة الإسلام وشهّد وأذن وصلى بلغة القرآن !.

فإذا كان حب الوطن من الإيمان (كما ورد في الأثر) فإن هوية الإنسان المسلم هي وطنه الحقيقي حيث ما حل وارتحل واستقر فوق هذه الأرض بدولها وجنسياتها المختلفة، والجنسية الوطنية هي غير الهوية الثقافية بطبيعة الحال(...)! .

فدين الإنسان هو هويته الحقيقية ووطنه الثابت والمستقر في قلبه، ومن ثم فإن اللغة العربية هي إحدى مقومات الإسلام ووسيلة فعالة من وسائل التفاهم بين المسلمين وصلة المسلمين بالله عن طريق الصلاة (...) وصلتهم بهويتهم الدينية والثقافية، وليس بجنسيتهم السياسية، التي قد تختلف من بلد إلى آخر (كاختلاف الأعلام والأسماء والعملات) ذلك أن الثقافة لا علاقة لها بالعرق واللون ومكان الميلاد الجغرافي، وإنما علاقتها فقط بالأشياء المكتسبة وحدها كالدين واللغة والعادات والتقاليد التي تعطي لكل أمة هويتها التي تميزها بين سائر الأمم كما يتميز الفرد ببصماته الخاصة، أو بشفرته الوراثية بين جميع الأفراد في هذا الكون ماضيا وحاضرا ومستقبلا!![1] .

وبما أن هوية الشخص هي وطنه الحقيقي، وبما أن الهوية في جوهرها ذات محتوى ثقافي، والثقافة في أهم عناصرها ومكوناتها الأساسية هي دين ولسان وسلوك مرتبط عضويا بهذين العنصرين الأساسيين[2]، نظرا لأن لسان الإسلام هي لغة القرآن كما أثبتنا ، فإن حب لغة القرآن، الذي هو أساس هوية المسلمين، هي

(1) انظر كتابنا «الهوية الوطنية، الحقائق والمغالطات»، دار الأمة، الجزائر 1996.

(2) انظر كتابنا «هذي هي الثقافة»، دار الأمة، الجزائر 1997.

من الإيمان بالضرورة، مثل حب الوطن المادي تماما دون أن يتعارض الإثنان في قلب الفرد المسلم، أيّا كانت إقامته على هذه الأرض ...!!

فهنا وطن مادي جغرافي، وهناك وطن معنوي شخصاني ثقافي، وحيثما يكون دين الإنسان ويسر له الله رزقه وعبادة ربه، كما أمر في كتابه، فثمة وطنه...

إن المحافظة على اللغة العربية جزء متفرع من حبها، والمحافظة عليها جزء من المحافظة على دينها، والمحافظة على دينها هي من المحافظة عليها، لأنه هو الذي يحفظها، ونعتقد أن من دلالات الأمر الإلهي في أول كلمة من الوحي المنزل على النبي الأمي في غار حراء ﴿**اقرأ باسم ربك**﴾ (العلق/ 1) بعض من هذا المعنى، حيث أن من أسرار حفظ القرآن، وحث الله على تلاوته كما أسلفنا هو ضرورة الانطلاقة إلى القراءة، بعد الأمية والرواية السماعية. هذه الأمية التي تتطلب الرواية الشفهية، وخاصة بالنسبة للمسلمين من غير الناطقين بالعربية ثم تأتي بعدها القراءة التي تتطلب الكتابة والتدوين لتشييد الحضارة... ربما كانت هذه النقلة الثنائية المزدوجة بين النقلي والعقلي، وبين السمعي والبصري، وبين الشفاهي والكتابي، هي في اعتقادنا من بين الأسرار التي حفظ بها العزيز الحكيم وحافظ على كلامه الكريم من الضياع والنسيان والتحريف والتزييف، لأنه ثبت بالتجربة أن أي إنقاص أو خطأ أو تغيير متعمد من أعداء الله لكتاب الله، يكتشف في الحال، ويكمل الناقص أو يصحح الخاطئ أو المحرف بفضل الحافظين، الأميين منهم والمتعلمين على حد سواء، ويبقى هذا الحفظ المعجز في الصدور قبل السطور، هو السر القائم، والحكم الدائم، في هذه النقطة إلى يوم الدين، لأنه هو الأساس بمقتضى نص قوله تعالى: ﴿**ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر**﴾ (القمر/ 17) وقوله أيضا ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾ (الحجر / 9) بالرواية والتذكير، وبالكتابة والقراءة والتفسير الذي يحقق التكامل في حفظه على حاله بين الأصم والضرير، والأمي والنحرير!!

وإننا نعتقد أن تزويد القرآن الكريم بهذه الأجهزة والأدوات العجيبة من صمامات الأمان ضد الزوال والنسيان، هي التي حالت دون تمكين الأعداء من تحريفه في الكتابة للأجيال القادمة، بعد سحب كل النسخ الصحيحة من التداول في السوق. . .كما حاول أن يفعل ذلك مرارا بعض المغضوب عليهم من أعداء الله، كلما أحسوا بضعف المسلمين أو غفلتهم عن كتابهم في أي حين !!. . .

غير أن كل هذه المحاولات الماكرة كانت تبوء بالفشل الذريع (**ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين**) (الأنفال/ 30)، وتكتشف في حينها بسبب حفظ المسلمين للقرآن في الصدور قبل السطور، سواء من أجل التعبد به في الصلاة، أو حتى قراءته على الأموات. . . وتتمثل مصداقية الحفاظ على اللغة العربية، والمحافظة على القرآن باللغة العربية، في ما يسخره الله لهذه اللغة وكتابها من أسباب ووسائل الانتشار في كل الأقطار، بفضل الاختراعات المتطورة جدا في مجال الاتصال والإرسال الفضائي (السمعي – البصري) الذي صير العالم بأسره مسجدا واحدا (بالنسبة للمسلمين) ووفر على العلماء والدعاة والقراء والمجودين. . . مشقة الضرب في الأرض، إلى أقاصي الدنيا، من أجل إسماع كلام الله لعباد الله، وأصبح بإمكان أي مقرء أو مجوّد للقرآن في أي مكان من العالم أن يسمع كل عباد الله أنغام لغة الجنة إلا من أبى منهم!

ورداً على المغالطين والمراهنين على زوال اللغة العربية مع دينها من هؤلاء الأعداء، سواء كانوا من داخل الأمة أو خارجها، يقول الأستاذ سعيد العرفي: «إن هؤلاء المبشرين قد نفّذوا شطرا كبيرا من برامجهم في تغيير وتحويل المسلمين عن عقائدهم، واستطاعوا أن يدسّوا الدسائس على أشخاص مشهورين، قد يظن بعضنا فيهم الصلاح، ويتبرك بهم، وبالتماس دعواتهم، وتقبيل أيديهم، وهم أعداء الإسلام الألداء، ولكنهم يخدعون أبناءه المؤمنين بالانتماء إليه، والاتصاف بالعلم وإظهار الصلاح والتقوى!!

ولا يرد على الذهن أن هذا يؤثر على المؤمن فيلتبس عليه الصالح بالطالح. كلا فإن عندنا مقياسا صحيحا جيدا، وميزانا لا يخطئ. وهو أن الشارع بيّن لنا الأحكام وحدّ لنا الحدود. فمن تجاوز ذلك بنفسه، أو شوّق إلى نقضه، أو دعا إلى مخالفته، أو حثّ الغير على التعدي وخرق ذلك الحد وانتهاك حرمته، أو حسّنه في عين أحد، فإنه عدو للإسلام وإن كان في ثياب أبنائه المخصلين...

ودعوى ترجمة القرآن هي من هذا القبيل، بلا نزاع ولا اختلاف بين العلماء المؤمنين غير الجامدين. فإنه لو كان جائزا، لأمر رسول الله ﷺ سلمان أن يترجم القرآن بالفارسية، وبلالا (بالحبشية)، وصهيبا (بالرومية)، ولكنه كتب إلى (كسرى) و(قيصر) و(المقوقس) الكتب باللغة العربية، مع وجود من يحسن لغاتهم، وإن كتبه كانت إنذارا لهم، ليسلموا ويعبدوا الله وحده، فهي دينية محضة.

نعم. إن أعداء الدين الإسلامي يعلمون أن القرآن بتلاوته، معجز للبشر، تحدى به الله تعالى الناس كي يأتوا بمثله ثلاث مرات. به كله (الإسراء / 88)، ثم بعشر سور (هود / 13)، وافترى هنا بمعنى (اختلق)، ثم بسورة واحدة مرتين (البقرة / 23)، و(يونس / 38)[1].

ويؤكد هذا المعنى الكاتب العربي المسيحي ستيوارت ضود بقوله: «وجدير بنا أن نتذكر أن لغة القرآن، وهي عربية فصحى، تدرس حتى الآن في أنحاء العالم الإسلامي كافة، مما جعل اللغة العربية من الناحية الدينية والثقافية في مركز فريد لا تتمتع به بقية اللغات الحية. وهذا ما جعل إدخال أية تغيرات

(1) اللغة العربية، القسم الأول، مرجع سبق ذكره، ص 265.

هامة فيها مستحيلا. ومن جهة ثانية فإنه يشك إذا كان هنالك من يقبل أن تحل اللغة الدارجة محل اللغة الفصحى، لأن الأولى قد اتخذت لهجات مختلفة في النطق بين الشعوب العربية في مصر والعراق ولبنان والشام وشمال إفريقيا وغيرها. زد على ذلك أن العربي الذي يستطيع أن يقرأ القرآن الكريم ويفهمه، لا يكاد يستطيع أن يفهم كلمة من اللغة الدارجة المستعملة هنا وهناك في أنحاء الشرق العربي»[1].

وعن قيمة اللغة العربية ودورها في ثقافة الأمة ووحدتها، يقول الدكتور إبراهيم السامرائي «العربية إحدى اللغات الحية، وهذا يقتضينا أن نفهم فنسلم بأنها لغة متطورة تخضع لما نخضع له اللغات الحية عامة وهي إحدى اللغات السامية إندثرت معالمها وأمحت أصولها فلم تبق إلا هذه اللغة القديمة، ولابد من الاستطراد قليلا فأقول أنها الوحيدة بين المجموعة السامية التي ثبتت على مر العصور في حين لم تثبت تلك اللغات، سيقول قائل أن العبرانية لغة قائمة وأنا أقول أن هذه العبرانية الجديدة ليست إلا مادة جديدة أعيد بناؤها بصورة قسرية جبرية لتكون لغة مجاميع بشرية هي ليست لغتهم...

ولا بد لي أن أدع هذا الإستطراد الموجز فأعود إلى العربية لأقرر أنها اللغة الحية وأنها ثبتت إزاء العصور، وأنها كانت خير وسيلة للإعراب عن حضارات مزدهرة وآية ذلك أن العلم القديم بفكره وفلسفته وسائر ألوانه لم يكن له من وسيلة غير هذه العربية السمحة ولا أراني منساقا انسياقا عاطفيا حين أقرر أنها كانت سيدة لغات العالم القديم خلال قرون متلاحقة ابتداء من القرن السابع الميلادي، ومن أجل هذا فقد كتب المفكرون من غير

(1) العلاقات الاجتماعية في الشرق العربي دار الكتاب – بيروت – 1947، ص 165.

العرب ونسوا لغاتهم وقرروا أن لا سبيل إلى الإعراب عن الفكر الفلسفي مثلا إلا بهذه العربية...

ومن هنا كنا قد ورثنا هذه اللغة القديمة وكان لها من أسباب الحياة ما أعان على إستمرارها بهيئة معلومة ذلك أننا معاشر العرب قد ورثنا تراثا ضخما هو مادة هذه اللغة، ولولا هذا التراث وعلى رأسه كتاب اللّه– جل وعلا– لآل أمر هذه اللغة إلى لغات عدة كماهي الحال مثلا في اللغات الرومانية التي تحولت إلى الرومانية والإيطالية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية.

لم يكن شيء من هذا في العربية، وذلك أن العربية مازالت لغة أمة بأسرها في بقاع فسيحة من العالم هي البلاد العربية، ولو عمل أهل العربية على رعاية هذه اللغة لكان لهم أن يوسعوا من هذه الرقعة فتعمم لغتهم في بقاع إفريقيا وغير إفريقيا ممن فطروا على الإسلام دينا وآمنوا به فكرا وسلوكا، ومع كل هذا إننا نواجه مشكلات في هذ ه العربية بسبب أننا لا نملكها كما كان إسلافنا يفعلون، وأننا نتعملها تعلما ونواجه في تعلّملها الصعاب، وأنناقد نعزف عنها شاعرين أم غير شاعرين انسياقا مع مفهوم خاطىء ضال، هو أن هذه اللغة قاصرة عن مواجهة الفكر الحديث(*) ثم أننا مقصرون في تعلمها وهذا التقصير يعني أن وسائل تعلمها متخلفة عن العلم الصحيح في وسائل التربية الحديثة، ثم أن مادتها لابد أن تكون شيئا آخر ليس ما درج عليه المعنيون بتدريسها.»[1].

(*) من مفارقات القدر أن هذا الكلام بالذات، وهذه الحجة ذاتها، هي التي تُساق ضد اللغة العربية من أعدائها في الوقت الحاضر تجاه ما يسمى باللغات الحية، وفي مقدمتها اللغتان الأنجليزية والفرنسية، في حين أن هاتين اللغتين كانتا لهجتين عاميتين محليتين، عندما كانت اللغة العربية سيدة التفكير والتعبير العلمي في العالم، ومع ذلك لم يتبنها الغرب لغته القومية لإدراكه أن اللغة هي أساس الهوية والسيادة القومية، وأن العبرة بالإنسان وليس باللسان، فأصبحوا مثلما هم الآن أقواء واقفين على أنقاض حضارتنا، وأصبحنا مثلما نحن الآن عالة نقتات على فتات موائدهم اللغوية والحضارية، وقد كانوا قبل ثلاثة قرون فقط في حكم العدم، فأين الخلل إذن، أفي الإنسان أم في اللسان؟!

(1) «مقدمة في تاريخ العربية»، بغداد 1979، ص 175.

ثم يضيف قوله في مكان آخر: «فيما مضى من تاريخ العرب والمسلمين انتشرت العربية في جميع أصقاع الأرض ولم توازها في الانتشار لغة أخرى لا في الماضي ولا في الحاضر حتى ولن توازيها حتى في المستقبل. ويكفي أن نلقي نظرة على المساحات السكانية على هذا الكوكب التي انتشرت فيها هذه اللغة سواء بنطقها أو استعمال حروفها فهي ما زالت لغة المسلمين جميعا إلى جانب لغاتهم المحلية ومازالت الحروف العربية أيضا معتمدة في الكثير من هذه اللغات.

وبالرغم من الوهن السياسي الذي اعترض الأمة العربية فقد أخذت اللغة العربية مكانها بين اللغات الأساسية في هيئة الأمم المتحدة ومؤسساتها.

وإذا فتحنا معجم الأعلام لفردناند توتل الملحق بالمنجد لويس معلوف وطالعنا كلمة (جامعة) نجد أنه لا يوجد جامعة في الشرق أو الغرب أو قارة من القارات إلا وقد خصصت فيها كرسيا لتدريس اللغة العربية أو الأدب العربي أو العلوم الإسلامية»[1].

وإذا كانت هذه الأحكام السابقة حول علاقة القرآن باللغة العربية الصادرة عن المسلمين المؤمنين الذين قد يقال بأن حديثهم صادر عن عاطفة إيمانية قد تتغلب على صرامة العقل، فإننا نختم بهذا الحكم الواضح الصادر عن أحد أعلام الأمة من غير المسلمين، ويؤكد كلام الدكتور السامرائي السالف الذكر، فتقول الأديبة اللبنانية مي زيادة عن العربية وكتابها المنزَّل ما نصه: «ومن ذا الذي لا يوافق المعتدلين من المحافظين على مفاخرتهم بهذه اللغة العربية التي تُقبل علينا من أقاصي التاريخ وقد اندثرت جميع أخواتها السامية من آرامية وكنعانية وكلدانية وسريانية وآشورية وعبرانية قديمة وغيرها، في حين هي، على رغم ما مر بها من عصور الركود والجمود، ما فتئت تفيض قوة وحياة؟

(1) نفس المرجع السابق.

من ذا الذي لا يعرف للكتاب الكريم فضله في بقاء هذه اللغة حية ومن ذا الذي يجهل أن اللغة العربية باقية ما بقي الإسلام حيا؟

من ذا الذي لا يعرف ما أدته هذه اللغة من الخدم إلى العالم وبأنها كانت في حين ما الصلة الوحيدة بين حضارات الماضي وحضارات اليوم؟» [1].

ثم تضيف قولها: «وعلى كل، فاللغة الفصحى يجب أن تبقى دائما الحصن المنيع الذي نحتمي فيه جميعا، والرابطة النفسية الغالية التي تجمع بين أهل الأقطار المتباعدة، والصيغة الجميلة الحية التي نودعها مكنونات العقول والقلوب جيلا بعد جيل حتى انتهاء الدهور.

ليست اللغة أداة تعبير وكفى كما يزعمون. بل هي فكرة وعاطفة وعلم وشوق ومطمح وفن وأمل وألم. هي صورة لكل شخصية كما هي صورة لكل زمن. هي ملك الجميع وهي ملك كل فرد ورثها فورث معها الحق في استعمالها للتعبير عن حياته الخاصة. وإذ يتصرف الفرد بحقه هذا يكون في نفس الوقت قائما بواجبه نحو ماضي اللغة ومهيئا لها مستقبلا لا يكون محض صدى وتقليد وترجيع بل يكون صوت حياة وإبداع وتوقيع»[2].

أما أولئك الذين لا يعيرون اللغة العربية اهتماما فألقي عليهم الأبيات التالية لخليل مطران. وأتعمَّد اختيار شعر من شاعر مسيحي لأثبت أن المسلمين وغير المسلمين في حب اللغة العربية سواء[*]. وإليك الأبيات:

سمعتُ بأذن قلبي صوت عتبٍ ... لـه رقــراق دمــع مستهـــل
سمعتُ و«الضاد» قائلة: أأنفى ... وهــذا موطني والأهــلُ أهلـي؟
ألستُ أنا التي بدمـي وروحـي ... غدت منكم وأنمـت كلَّ طفـل
بُنيّـــات الحمـى بيـن أنّــي ... عزيــزةُ أمّتي لم يُنسَ فضـــلي
وما فتيانــه هُبُّــوا لنصــري ... أأرضى منكمُ جُهـــدَ المُقـل؟

---

(1) اللغة العربية، القسم الأول، مرجع سبق ذكره، ص 247.

(2) نفس المرجع، ص 252.

(*) راجع ما قلناه في المقدمة حول هذا الموضوع المصيري الوحدوي الخطير(...).

إذا ما القوم باللغة استخفـــوا فضاعتْ، ما مصيرُ القوم قُلْ لي ؟
وما دعـــوى حمـى حُـرٍّ منيـعٍ بــلا لغـــة وملكٍ مُسْتقـــــلٍّ؟
فيا أُمَّ اللغـــات عـــداك منّـــا عقوقُ مساءةٍ وعقـــوق جَهـــلٍ
محلُّـكِ مِن هـوى أهليكِ طِـرٌّ ومن إجلالهـــم أعلى مَحَـــلِّ![1]

وفي الختام نقول: إن كل ما ترجوه أمة الضاد من أبنائها المخلصين اليوم هو العمل على جميع الأصعدة والمجالات والمستويات من أجل تحقيق الكيف بعد الكم المضمون لضمان المستقبل النوعي المأمول لها ولهم في عالم لا يرحم الضعفاء والصغار ولا يحترم إلا الأقوياء والكبار!!.

ونؤكد هنا أن الجغرافيا في الكون مثل الجسد في الإنسان... فهي جماد يتحرك خارج إرادة المخلوق في غالب الأحيان، لكن التاريخ وعي وعقيدة وإنجاز إرادي لا إكراه فيه... وكما أن الروح هي التي تحرك الجسد في الإنسان، فكذلك التاريخ هو الذي يتحكم في جغرافية المكان. وأبرز مثال على ذلك تاريخ وجغرافية الإسلام في الأندلس مع الإسبان، في غرناطة وفي بجاية وتونس وفي وهران (...)

فإذا كان الجسد يخضع للمرض والاعتقال، والجغرافيا تخضع لقانون الزلازل والبراكين وتحرك طبقات الأرض رغم إرادة الإنسان... فإن التاريخ كله إرادة وفعل وإنجاز في المكان والزمان...

ولئن كان العالم يعرف تاريخ الزلازل.. فإنه لم يعرف ولن يعرف زلازل التاريخ، لأن هذا الأخير ذو طبيعة سامية فوق المادة الجامدة، ويتم دائما بوعي وإرادة من صانعيه، وليس مفروضا عليهم من فوق أو من تحت!! وأي فعل يُفرض على الإنسان بالقوة والإكراه، هو أشبه بالاعتقال أو الزلزال... لا يلوم التاريخ من يكره عليه، بل هو يجرم ويحاكم ويعاقب فقط من يختار فيه!!

(1) نفس المرجع السابق، ونفس الصفحة.

فبالبداهة لا عقاب بدون جريمة، ولا جريمة بدون نص ولا قيمة لنص بدون حرية الفعل والاختيار بين البدائل الممكنة للأحرار... فإذا لم يكن على المريض حرج فكذلك ليس على المغتصب حرج!! وهذا ما يجعلنا ننظر إلى الاستبداد والنظام الشمولي والتزوير المزمن لنتائج الانتخابات في البلاد العربية من هذه الزاوية... وهي تعتبر من زاوية أخرى علامة صحية تدل على أن الشعب العربي المسلم مازال وفيا لمقدساته، ويفرق جيدا بين الخبيث والطيّب، وبين الوطني و«البطني» وبين المنافق والصادق وبين حزب الرحمان وحزب الشيطان... ولو استطاع الباطل أن يقنع الشعب المسلم الطيب كي ينتخب عليه لما احتاج جنود الباطل إلى تزوير النتائج، وقلب الحقائق في الصناديق رأسا على عقب (كما تتكرر المأساة في كل مسرحية انتخابية في البلاد العربية الإسلامية!!) مما يجعلنا نسجل هنا بأن لا ديمقراطية حقيقية في هذا الوطن بدون إسلام، هذا الدين الحق الذي سيسود كل بقاع الأرض في النهاية، وهو في انتشار مستمر مع لسانه في بلاد الشرق والغرب على حد سواء(...) وفي الوقت الذي يخرج منه بعض الأغبياء والفقراء في الجنوب الفقير عن جهل وانخداع، يعتنقه الأذكياء والأغنياء في الشمال الغني والقوي عن علم واقتناع... رغم أحداث سبتمبر المأساوية في نيويورك وواشنطن، ورغم «محور الخير»، ورغم ضعف حكام المسلمين وأوضاعهم المزرية أمام هيمنة وغطرسة القوى الكافرة، المتجبرة...

وعند ذاك، ورغم ذلك، وبدونه ستسود العربية وسيفرح المؤمنون بنصر الله، لأنه هو القائل عزَّت قدرته: ﴿**يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون**﴾ (الصف/ 8، 9)، وظهور الإسلام هو ظهور بالقطع للغة الإسلام في كل أقطار العالم، مصداقا لقول نبيه الكريم: «إن اللّه زوى لي الأرض، فرأيتُ مشارقَها ومغاربَها، وإن أمتي سيبلغ ملكُها ما زوى لي منها، وأُعطيتُ

الكنزين الأحمر والأبيض» (رواه مسلم حديث 2289). ومن ينظر إلى الإحصائية الرسمية لوزارة الحج لهذا العام (2007) يجد أن عدد حجاج بيت الله الحرام، قد بلغ 3.5 مليون حاج، قدموا إلى الأراضي المقدسة من 189 دولة، علما أن عدد الأعضاء في منظمة الأمم المتحدة، في الوقت الحاضر هو 192 عضواً !

ونختم حديثنا عن هذه الحتمية في ظهور دين الله ولسان كتابه على العالمين، كما هو مقرر في الآيتين السالفتين، فنقول: إن كل رسول له معجزة مرافقة ومدعمة للرسالة التي تضمنت منهجه (في افعل ولا تفعل)، إلا النبي الخاتم ﷺ الذي ليس بعده نبي جديد أو منهج جديد... فجاءت معجزته في نص خطاب منهجه، وما دام هو آخر الأنبياء والمرسلين، فلا بد أن تظل معجزته حية دائمة، خالدة، ناطقة، ظاهرة، ولا يمكن أن تبقى كذلك إلا بالاهتمام بهذا الجانب الإعجازي في القرآن الذي سيظل مجهود كل العلماء والدعاة منصبا عليه لفهم محتواه ونقله لكل العقول المتفتحة والمتعطشة إلى معرفة الحق، وهذا جزء من الدعوة التي يقوم بها علماء الإسلام الذين قال عنهم النبي ﷺ: «إن علماء أمتي مثل أنبياء بني إسرائيل». فالعالم هنا هو خليفة النبي إلى الأمة المحمدية، وبالتالي إلى البشرية، لأن الإسلام هو دين العالمين جميعا بنص الآيتين: ﴿**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا**﴾ (سبأ/ 28) و﴿**قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا**﴾ (الأعراف/ 158)، وقوله تعالى أيضا: ﴿**ومنهم من يؤمن به، ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين، وإن يكذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون ممّا أعمل وأنا بريئ ممّا تعملون**﴾ (يونس/ 40، 41)، إشارة إلى توضيح حدود هذا الدين الخاتم، ذي المعجزة القائمة المتجددة مع الأيام، وتبدل الأحوال على الدوام، حيث أن كل معجزاته كلام وخطاب، ولا يطلب من مؤمن أن يؤمن بأية معجزة مادية سوى كلام الله، الذي تتجسد فيه الثلاث آيات مجتمعة. ففيه آيات القرآن المعجزة بالبيان، والآيات المتعلقة

بعجائب الكون ونواميسه التي تحدث عنها القرآن بصفة علمية دقيقة وقطعية، قبل حدوثها واكتشافها بقرون، ثم وقعت بعد ذلك مثلما وصفها بإعجاز ودقة لا نظير لها، وبهذا تتحقق المعجزة المادية وتخرج من المعجزة الخطابية البيانية ذاتها، بحكم تحققها في السنن الكونية (كما بينا في الفصل الخامس)، مصداقا لقوله تعالى: ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**﴾ (فصلت / 53)، وهي كما نرى آيات نزلت خطابية، ثم أصبحت مع تقدم العلم، وتطور وسائل البحث في مختلف مجالات الكون معجزات مادية ملموسة، مثل معجزات الأنبياء التي حدثت لأقوامهم من أجل تصديقهم... فهي آيات مادية إذن، أثبتتها آيات قرآنية أو بالعكس، أي أنها آيات قرآنية تجسدت في آيات مادية، مما جعل القرآن بهذا المعنى حجة مضاعفة متكاملة في مسألة الإعجاز والإقناع، وجعل القرآن حيا ناطقا بالحق، لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد وتفسيره متروك للسان الزمن ولسان العرب!!

ولهذا كان القرآن هو الخطاب الوحيد الذي خص الله نفسه بحفظه من التحريف والتزييف، ليبقى نبيا مرسلا، يتحرك وينطق ويخاطب الناس بالحق والصدق في كل حين، ويتحدى كل العلوم والآلات والعقول... بينما كل الكتب الأخرى المنزلة على الأنبياء والمرسلين، قد عهد الله بمهمة حفظها للمؤمنين من أهلها كما قال: ﴿**إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربّانيون والأحبار، بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء**﴾ (المائدة / 44)، فلم يحفظوها، وقد حرفها المنحرفون منهم كما هو معلوم، بنص القرآن ذاته في قوله تعالى: ﴿**فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرّفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا ممّا ذكّروا به**﴾ (المائدة / 13)، وقوله أيضا: ﴿**من الذين هادوا يحرّفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا**

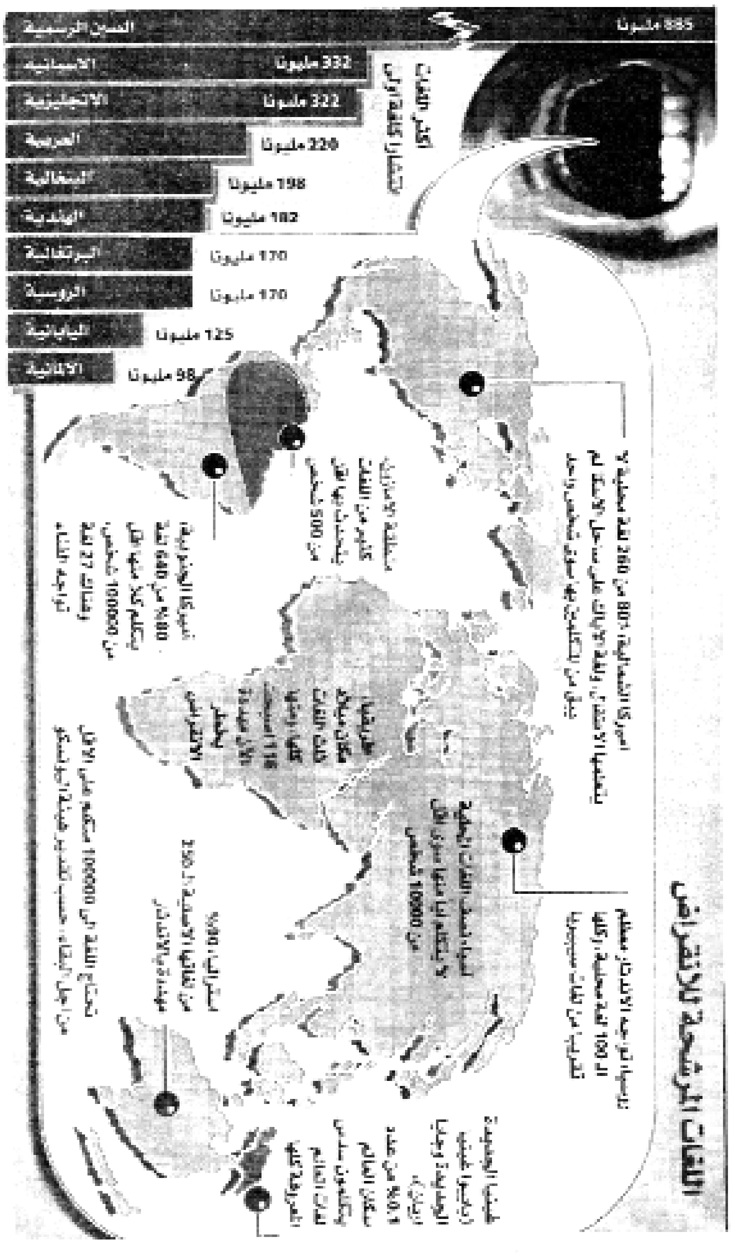
ليّا بألسنتهم وطعنا في الدين ﴾ (النساء/ 46)، وهنا تكمن إرادة السماء التي تعهدت بحفظ اللغة العربية، بحفظ النص المقدس له بها ولها به إلى يوم القيامة!!

هذه هي إرادة السماء في حفظ البقاء للغة البيان والوضوح والنقاء... لكن المهمة الملقاة على عاتق المسلمين (عربا وعجما) والعرب غير المسلمين على حد سواء، هو مطابقة لغة العبادة بلغة الحياة في كل مجالاتها، مثلما كانت لعدة قرون، قبل تخلي العباد عن مواصلة صناعة الحضارة، واستغلال عطاء الربوبية مثل الأجداد، حتى يظلوا دائما في الموعد، ولا يتخلون عن الترتيب الذي احتلوه في التاريخ، وتقدم الحضارة الإنسانية، علما وقولا وعملا، بكيفية متساوية ومتوازية... وفي هذه الحالة تظل المسؤولية ملقاة كلها على عاتق الناطقين بالعربية (مسلمين وغير مسلمين)، وليس على اللغة العربية في ذاتها بأي حال من الأحوال، لأن اللغة هي ظل لأهلها، وهي وسيلة وغاية في ذاتها، (راجع المقدمة)، ولا يستقيم الظل والعود أعوج، بقطع النظر عن سبب هذا الاعوجاج والانبعاج، فهل هو من الأعداء الغرباء في الخارج، أو من الأعداء «الوكلاء» والعملاء في الداخل!؟

إن الله لم ولن يُخلف وعده بحفظ كتابه فيما يتعلق بعطاء الألوهية، لكن المسؤولية تظل ملقاةً على عاتق أهل هذه الأمة (التي كانت خير أمة أُخرجت للناس...) لتكون على الأقل مثل جميع الأمم الحية الواعية، التي استغلت عطاء الربوبية (الشمس، المياه، والثروات الباطنية...) والتي تبقى فيها القاعدة الذهبية الربانية التي تنطبق على واقع أمتنا هي أن ﴿ **الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم** ﴾. فالله دائما عند وعده، فهل أبناء هذه الأمة المعاصرين، يكونون في مستوى أمتهم التي يحملون اسمها وأسماءها، والتي شرفهم الله بقرآن فيه ذكرها وذكرهم إلى يوم الدين، وهو الصادق الوعد الأمين والغالب على أمره في جميع الأحوال، ولذلك فإن اللوم الأول والأخير يكون على الخوالف وحدهم الجامدين والخائنين لأمتهم ودينهم ما دون كل الأمم الحية في العالمين، واللغة الوطنية والقومية هي عنوان السيادة ومرآة السياسة، ووعاء الحضارة... بجميع المقاييس النقلية والعقلية والحضارية والسياسية والسيادية، وإن القانون الحضاري لا يحمي المغفلين والمتخلفين والخائنين إلى يوم الدين!!

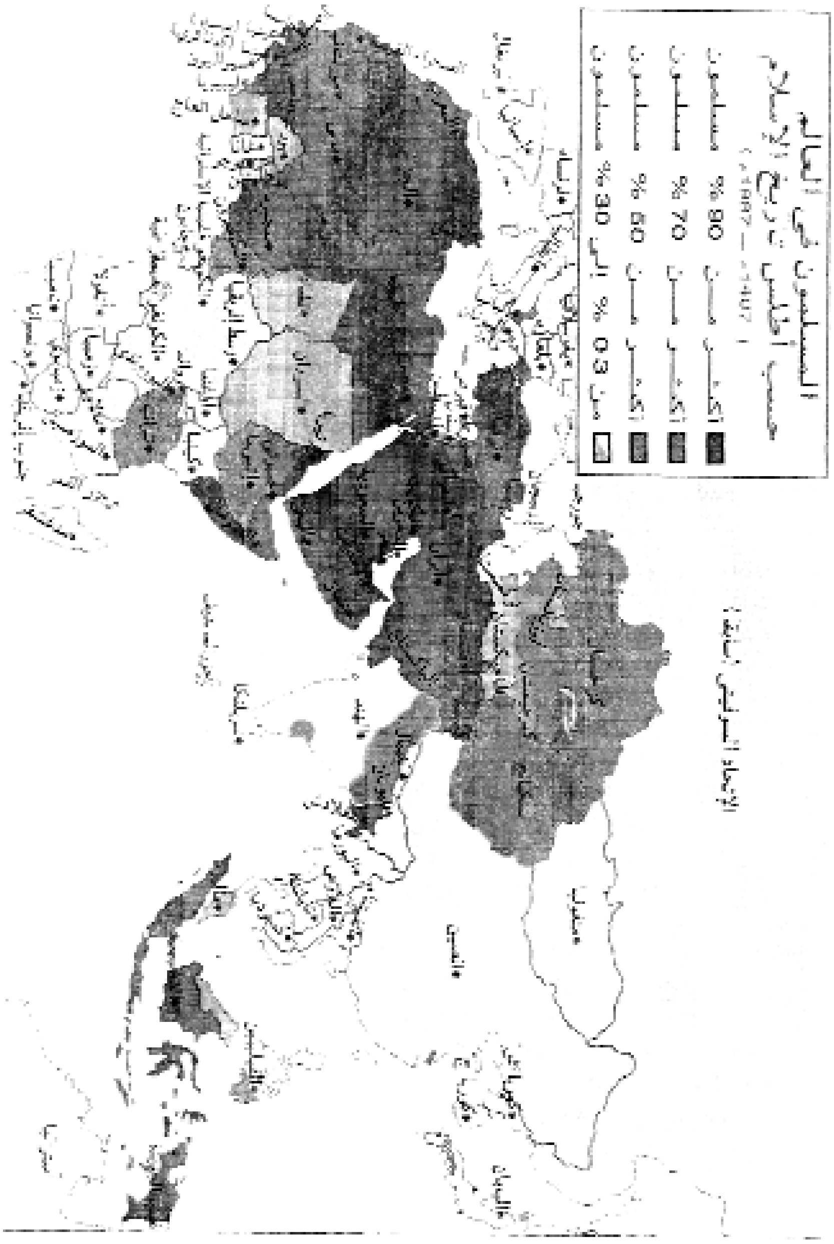
الملاحق

الملحق رقم 1



اللغات المرشحة للانقراض
روسيا: تواجه الاندثار معظم
الـ 100 لغة محلية، وكلها
تقريباً من لغات سيبيريا
اميركا الشمالية: 80% من 260 لغة محلية لا
يتعلمها الاطفال، ولغة الاياك على ساحل الاسكا لم
يبق من المتكلمين بها سوى شخص واحد
آسيا: نصف اللغات المحلية
لا يتكلم ايا منها سوى اقل
من 10000 شخص
منطقة الامازون:
كثير من اللغات
يتحدث بها اقل
من 500 شخص
افريقيا:
مكان ميلاد
ثلث اللغات
كلها، ومنها
116 اصبحت
الآن مهددة
بخطر
الانقراض
غينيا الجديدة
(بابوا غينيا
الجديدة وجايا
ايريان):
0.1% من عدد
سكان العالم
يتكلمون سدس
لغات العالم
المعروفة كلها
استراليا: 90%
من لغاتها الاصلية الـ 250
مهددة بالاندثار
اميركا الجنوبية:
80% من 640 لغة
يتكلم كلا منها اقل
من 100000 شخص،
وهناك 27 لغة
تواجه الفناء
تحتاج اللغة الى 100000 متكلم على الاقل
من اجل البقاء، حسب تقدير هيئة اليونسكو
أكثر اللغات
انتشارا كلغة اولى
885 مليونا الصين الرسمية
332 مليونا الاسبانية
322 مليونا الانجليزية
220 مليونا العربية
198 مليونا البنغالية
182 مليونا الهندية
170 مليونا البرتغالية
170 مليونا الروسية
125 مليونا اليابانية
98 مليونا الالمانية

الملحق رقم 2



المسلمون في العالم
حسب أطلس تاريخ الإسلام
أكثر من 90% مسلمون
أكثر من 70% مسلمون
أكثر من 50% مسلمون
من 30% إلى 50% مسلمون

الملحق رقم 3

ملخص السيرة الذاتية للدكتور أحمد بن نعمان

الاسم: أحمد
اللقب: بن نعمان
– من مواليد الجزائر سنة 1944.

المؤهلات العلمية:

– الليسانس في الفلسفة وعلم الاجتماع، جامعة الجزائر، 1971.
– ماجستير في علم الاجتماع من جامعة القاهرة، 1978.
– دكتوراه في الأنثروبولوجيا الثقافية، جامعة القاهرة، 1982.

الوظائف الممارسة قبل التخرج وبعده:

– مجاهد في جيش التحرير الوطني أثناء الثورة المسلحة.
– معلم في الطورين الابتدائي والثانوي.
– إطار سام بوزارة العمل والشؤون الاجتماعية بالجزائر.
– موظف دولي في منظمة العمل بجامعة الدول العربية بالقاهرة (1974 – 1979).
– مستشار في وزارة الداخلية بالجزائر حتى 1986.
– مدير عام للدراسات والبحوث بالمعهد الوطني للدراسات الاستراتيجية الشاملة بالجزائر.
– أخذ التقاعد «المبكر» بصفته مجاهدا في جيش التحرير الوطني أثناء الثورة المسلحة.
– هو الآن متفرغ للبحث والتأليف وإلقاء المحاضرات داخل الوطن وخارجه.
– وبالتوازي مع الوظائف الرسمية المذكورة ظل يمارس نشاطه في عدة هيئات وجمعيات وطنية (دينية وسياسية وثقافية) منها على الخصوص:

– عضو قيادي في اتحاد الكتاب الجزائريين منذ 1982
– أمين عام المجلس الإسلامي الأعلى بالجزائر (1981–1987)
– عضو مؤسس، ونائب رئيس الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية، وهي هيئة شعبية أُسست سنة 1989.
– عضو مؤسس وقيادي منتخب في الجمعية الجزائرية لاتحاد المغرب العربي.
– عضو المجلس الأعلى للغة العربية التابع لرئاسة الجمهورية الذي أُسس بمقتضى قانون اللغة العربية الصادر عن المجلس الوطني الشعبي (البرلمان) سنة 1989، وقد استقال سنة 1999 احتجاجا على سياسة "التغريب" وكسر "الطابوهات" المنتهجة في الجزائر بعد ذهاب الرئيس اليمين زروال الذي كان عينه في هذا المجلس عند تأسيسه (سبتمبر 1998).
– شارك في عدة ندوات علمية، ومؤتمرات دولية في الجزائر والعالم، منها: الرباط، تونس، طرابلس، القاهرة، بغداد، الخرطوم، الصومال، باريس، بروكسل، لندن، مسقط، الكويت، مكة المكرمة...

حائز على جائزة الإمام عبد الحميد بن باديس للثقافة العربية الإسلامية الممنوحة من المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة بالرباط سنة 1992.

– من أهم مؤلفاته:

1– التعريب بين المبدإ والتطبيق في الجزائر والعالم العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981.
2– كيف صارت الجزائر مسلمة عربية!؟ دار البعث، قسنطينة 1981. الطبعة الثانية، دار الأمة، الجزائر 1998.
3– جهاد الجزائر، دار البعث، قسنطينة 1982. الطبعة الثانية دار الأمة، الجزائر 1998.
4– نفسية الشعب الجزائري، مؤسسة الكتاب، الجزائر 1988.
5– فرنسا والأطروحة البربرية في الجزائر، منشورات دحلب الجزائر 1990.

6– التعصب والصراع العرقي والديني واللغوي لماذا وكيف؟ منشورات دحلب، الجزائر 1991.
7– مولود قاسم نايت بلقاسم (حياة وآثار، شهادات ومواقف)، دار الأمة، الجزائر 1993.
8– هذي هي الثقافة، دار الأمة، الجزائر 1996.
9– حزب البعث الفرنسي، دار الأمة الجزائر 1996.
10– الهوية الوطنية (الحقائق والمغالطات)، دار الأمة، الجزائر 1996.
11– هل نحن أمة؟ دار الأمة، الجزائر 1996.
12– مفتاح اللغة العربية، دار الأمة، الجزائر 1996.
13– وجها لوجه (حوارات ومقابلات مع الصحافة العربية)، دار الأمة الجزائر، 1998.
14– تأملات ومواقف، دار الأمة، الجزائر 1999.
15– اللسان: قاموس عربي (صغير)، دار الأمة، الجزائر 1999.
16– اعرف نفسك، دار الأمة، الجزائر 1999.
17– المفتاح: قاموس عربي (متوسط)، دار الأمة، الجزائر 1999.
18– اشهدي يا جزائر، دار الأمة، الجزائر 2002.
19– مصير وحدة الجزائر بين أمانة الشهداء وخيانة الخفراء !؟، دار الأمة، الجزائر 2005.
20– اطلبوا الوطنية ولو في فرنسا، دار الأمة، الجزائر 2005.
21– الردود العلمية على الأطروحات العرقية وتعدد الهوية، دار الأمة الجزائر، 2005.
22– مستقبل اللغة العربية بين محاربة الأعداء وإرادة السماء، دار الأمة الجزائر، 2007.
23– حقيقة اللغة العربية، من خلق الإنسان، إلى نزول القرآن (تحت الطبع).

فهرس الأعلام

قائمة المراجع

الكتب:

– إبراهيم السامرائي: دراسات في اللغة، مطبعة العاني، بغداد، 1961.
– أحمد بن نعمان: فرنسا والأطروحة البربرية في الجزائر، دار الأمة الجزائر، 1996.
– أحمد بن نعمان: الهوية الوطنية...، دار الأمة الجزائر، 1996.
– أحمد بن نعمان: اطلبوا الوطنية ولو في فرنسا، دار الأمة الجزائر، 2005.
– أحمد بن نعمان: مصير وحدة الجزائر بين أمانة الشهداء وخيانة الخفراء!! دار الأمة الجزائر، 2005.
– أحمد بن نعمان، التعصب والصراع الديني والعرقي واللغوي، ط2، دار الأمة الجزائر، 1996.
– أحمد بن نعمان، هذي هي الثقافة، دار الأمة الجزائر، 1996.
– أحمد طالب الإبراهيمي: من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية، ترجمة د. حنفي بن عيسى (ش. و.ن.ت) الجزائر، 1972.
– إسحق موسى الحسيني كتاب: أزمة الفكر العربي، دار بيروت، 1954.
– إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية، مطبعة الاعتماد، مصر، 1929، ط1، ص 166.
– ألبير مطلق، الحركة اللغوية في الأندلس، المكتبة العصرية، 1967.
– جبر ضومط: فلسفة اللغة العربية وتطورها، مطبعة المقتطقف بالمقطم، القاهرة، 1929.
– جان بياجيه (ترجمة أحمد عزت راجح): اللغة والفكر عند الطفل – القاهرة 1954م
– جورج فندريس: اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو–المصرية (بدون تاريخ).
– جورجي زيدان: العربية كائن حي، دار الهلال (بدون تاريخ).
– جورج الكافوري: اللغة العربية، ماضيها، حاضرها، مستقبلها، مطبعة الأنصار، بيروت، 1948.
– حسن ظاظا: كلام العرب في قضايا اللغة العربية، مكتبة الدراسات اللغوية بمصر، 1971.
– حسن سعفان، الموجز في تاريخ الحضارة، القاهرة 1951.

– ساطع الحصري: ما هي القومية؟، دار الأمم للملايين، بيروت، بدون تاريخ.
– ساطع الحصري، آراء وأحاديث في الوطنية والقومية، دار العلم للملايين، بيروت (بدون تاريخ).
– سليمان عبد العزيز السحيمي والدكتور عدنان أحمد البار: رأي طلاب الطب من تعريب التعليم الطبي ص41 – 65 رسالة الخليج العربي عدد 42 سنة 1992م.
– شفيق جحا، دارون وأزمة 1882 بالدائرة الطبية – بيروت 1991.
– صوفي أبو طالب: المجتمع العربي، دار النهضة العربية بمصر، 1970.
– طه حسين: «مستقبل الثقافة في مصر»، ج2.
– عامر رشيد السامرائي: آراء في العربية، مطبعة العاني بغداد، (بدون تاريخ).
– عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ: لغتنا والحياة، دار المعارف بمصر، 1971.
– عبد الرحمن جلال الدين السيوطي: المزهر في علوم اللغة، دار إحياء الكتب العربية (بدون تاريخ).
– عبد الرحمن خلدون: المقدمة، مطبعة دار الشعب بالقاهرة، (بدون تاريخ).
– عبد السلام العجيلي: لغة العلوم الحلقة الرابعة – مجلة المعرفة، السعودية، عدد شعبان 1421 هـ .
– عبد الصبور شاهين: في علم اللغة العام، طبعة كلية العلوم، القاهرة، 1973.
– عبد العزيز عبد الحميد، اللغة العربية، دار المعارف بمصر 1961 الطبعة الثالثة، الجزء الأول.
– د. عبد العزيز القوصي وآخرون: اللغة والفكر – القاهرة 1946م.
– عبد القادر الجرجاني: دلائل الإعجاز، القاهرة 1331 هـ.
– عثمان صبري، «نحو أبجدية عربية جديدة»، مطبعة الأسكندرية 1964.
– علي فهمي خشيم: رحلة الكلمات، دار إقرأ للطباعة والنشر، ليبيا 1986.
– غوسطاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر.
– كمال يوسف الحاج: فلسفة اللغة، دار النشر للجامعيين، بيروت، 1956.
– مازن المبارك: اللغة العربية في التعليم العالي والبحث العلمي، بيروت 1986.
– مالك بن نبي، «مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي»، مكتبة عمار، القاهرة 1970، ص: 183.
– محمد عبد الحميد أبو العزم: المسلك اللغوي ومهارته، القاهرة 1953م، ص 127 – 168.
– محمد عثمان ومحمد خيري حربي: آراء ومقترحات بشأن تدريس اللغة القومية، القاهرة 1956م، وانظر أيضا:

– محمد علي الخولي، «الحياة مع لغتين» ط1، جامعة الملك سعود ، الرياض، 1988، ص 17.
– محمد الفاسي، التعريب ووسائل تحقيقه، بحث منشور في مجلة الأصالة، عدد 1974/08/17.
– محمد المبارك: فقه اللغة وخصائص العربية، دار الفكر الحديث، لبنان، (بدون تاريخ).
– محمد كامل مراد: الإسلام والعروبة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1976.
– محمود تيمور، «مشكلات اللغة العربية»، المطبعة النموذجية، القاهرة 1956.
– مرزوق بن صنيان بن تنباك: الفصحى ونظرية الفكر العامي – الرياض 1986م
– مصطفى الشهابي: المصطلحات العلمية، معهد الدراسات العربية، القاهرة، 1959.
– مصطفى الشهابي: القومية العربية، معهد الدراسات العربية، القاهرة 1959.
– ميشيل عفلق: في سبيل البعث، الجزء 3، طبعة بغداد، 1987.
– نعيمة محمد: اللغات الأجنبية ودورها الثقافي في المجتمع الجديد، دار النهضة العربية، القاهرة، 1965.
– الهادي إبراهيم المشيرقي، قصتي مع ثورة المليون شهيد، دار الأمة الجزائر، 2000.
– يوهان فك: العربية، ترجمة عبد الرحمن النجار، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1951.

المجلات والبحوث:

– إبراهيم ديوب: من بحث له في ندوة الرباط حول اللغة العربية إلى أين؟ المملكة المغربية 1– 3 نوفمبر 2002.
– علي لغزيوي: من محاضرة له بعنوان «دور الإعلام والفنون في النهوض بالفصحى ومواجهة التغريب والعامية» في الندوة الدولية حول اللغة العربية، الرباط 1–3 نوفمبر 2002.
– يوسف الخليفة أبو بكر، بحث مقدم في ندوة الرباط، اللغة العربية إلى أين، 1–3 نوفمبر 2002م.
– الدكتور عز الدين إبراهيم، من بحث له في الندوة العالمية التي نظمتها المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم بالرباط، تحت عنوان اللغة العربية إلى أين؟ بتاريخ 1–3 نوفمبر 2002م.
– إسماعيل أحمد العمايرة، من بحث له في الندوة العالمية التي نظمتها المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم بالرباط، تحت عنوان اللغة العربية إلى أين؟ بتاريخ 1–3 نوفمبر 2002م.

– عبد الله واثق شهيد، من بحث له في الندوة العالمية التي نظمتها المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم بالرباط، تحت عنوان اللغة العربية إلى أين؟ بتاريخ 1–3 نوفمبر 2002م.
– محمد عمارة: الإسلام والفنون الجميلة، مجلة المنهل 581، المجلد 64، أوت – سبتمبر 2002.
– مجلة «المرشد العربي» الجزء 1، السنة 1، اللاذقية، 10 نيسان 1929م.
– مجلة المعرفة – دمشق– كانون الأول 1976.
– مجلة «المقتطف»، القاهرة، ج 4 مجلد 13، كانون الثاني 1889.
– مجلة «الكشاف»، بيروت، المجلد 3، الجزء 8، تشرين الأول 1929.
– مجلة الهلال، س 40 ج10، أوت 1940.
– مجلة اللغة العربية، أربعة أجزاء، منشورات وزارة الثقافة السورية،
– محمد الفاسي، التعريب ووسائل تحقيقه، بحث منشور في مجلة «الأصالة» عدد 17/08/1974.
– مجلة الرسالة –القاهرة– ع 179 س 4 ديسمبر 1936.
– مجلة العربي عدد 567، فبراير 2006.
– مجلة «الضياء» القاهرة. ج9، س3، يناير 1902.
– الطيب البكوش، بحث منشور في مجلة الأصالة الجزائرية عدد: 17، سنة 1974م.
– مصطفى الأشرف «مشكلات التربية والتعليم»، بحث منشور في مجلة الثقافة (الجزائر) عدد: نوفمبر 1977م.
– أحمد طالب الإبراهيمي، مقال بعنوان: «الثورة الثقافية والتعريب..» مشنور في مجلة «الأصالة» الجزائرية بتاريخ 17 نوفمبر 1974.
– خطب الرئيس بومدين، طبع رئاسة الجمهورية – الجزء الثالث.

الفهرست

طباعة دار الأمة

2008

ص. ب 109 برج الكيفان 120 16 الجزائر

هاتف / فاكس: 04 22 20 021